شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : محمود درويش
سكرتير التحرير : الياس خوري

٧٧ نيسان (أبريل) ١٩٧٨

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة
تصدر عن مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين ٠

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، رأس بيروت ، بيروت ـ لبنان ، ص٠ب ١٦٩١ ٠ تلفون : التحرير ٣٥١٢٦١ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحاث ، بيروت ٠

مدير التوزيع : غازي دانيال

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٦٠ ل٠ل٠ في لبنان وسوريا ، ٧٥ ل٠ل٠ في سائر الاقطار العربية ، ١٠٠ ل٠ل٠ في اوروبا ، ١٢٥ ل٠ل٠ في بقية بلدان العالم

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٦٥ ل٠ل٠ في جميع الدول غير العربية ٠

الغلاف للفنان المغربي محمد شبعة
(من المعرض التشكيلي العالمي من اجل فلسطين)

المحتويـــات

الصفحة		
٤		تحية الاخ ياسر عرفات الى المقاتلين ٠
٦	محمود درويش	: في الجنوب ٠
١٠	الياس خوري	: حرب الجنوب ٠
٢٣	ابو جهاد	: الكرامة الجديدة ٠
٣٠	نزيه قورة	: التصفية المستحيلة ٠
٣٨	غازي الخليلي	: العملية ٠
٦٦	ماجد ابو شرار	: الصراع العربي ـ الصهيوني في مرحلته الراهنة ٠
٨٠	صبري جريس	: دروس الزيارة ٠
١٠١	سمير كرم	: ايران : يابان الشـــرق الاوســـط ؟ (٢) : الخليج العربي الهدف،القومية العربية العدو٠
١٢٠	احمد صدقي الدجاني	: نظرة تحليلية فـــي تاريـــخ فلسطين (٢) : فلسطين ما بين ١٠٢٠ ق٠م الى ٦٣ ق٠م٠

الصفحة		
١٣١	تقارير	ندوة كمال جنبلاط : **تظاهرة تأييد لنضال الشعبين اللبناني والفلسطيني**، جورج ناصيف
بيت أطفال الصمود ، نجلا نصير بشور ·
١٤٣	مراجعات	**تاريخ الصهيونية** ، ١ ـ عيسى الشعيبي ،
٢ ـ سمير ايوب ·
١٥٩	شهريات	**المناطق المحتلة** ، عبد الحفيظ محارب ·
اسرائيليات، توفيق فياض · **قضايا عسكرية**،
محمود عزمي ·
	شؤون ادبية	
١٧٦	جبرا ابراهيم جبرا	: **اذا لم اكن فلسطينيا ، فأنا لست شيئا** ·
١٩٣	نجلا جريصاتي	: **حول ادب الاطفال** ·
٢١٤	كتب	: **الجبل الصغير** ، فيصل دراج · **الادب الصهيوني بين حربين** ، محمود سويد ·

تحيـة الأخ ياسـر عـرفات إلى المقـاتـلين

الى الابطال الابطال

الى المناضلين والمناضلات

الى صانعي ملحمة البطولة والفداء

الى الرفاق كل الرفاق في السلاح وفي الخندق

يا من حملتم الراية رغم كل المؤامرات والمتآمرين واقتحمتم بها الاتون والحمم لتصنعوا لثورتكم وامتكم امجادا خالدة وتكتبوا لها تاريخا مشرفا في سجل التاريخ والزمن ٠

لقد كانت المؤامرة الضخمة التي تقودها الامبريالية والصهيونية والاستعمار بقيادة الولايات المتحدة الامريكية تهدف الى القضاء عليكم والى ازالة ثورتكم والى اذلال شعبكم والى اهانة امتكم ٠

ولكنكم كنتم وما زلتم الامناء الاوفياء المؤمنين فتصديتم لهذه الهجمات العسكرية تذودون عن حياض امتكم وشعبكم في الجنوب العربي اللبناني ٠ فانقلبت بذلك معايير وتغيرت مفاهيم كانت معشعشة في مخيلة من قتلهم الوهم وهم احياء ، ومن شلتهم المؤامرة وهم يتفرجون عليها ٠

لقد قالوا ان هذا العدو المدجج بأحدث الاسلحة الامبريالية الاميركية لا يقهر ٠ لقد قالوا ان هذا الجيش الذي يقوم بحماية مصالحهم الامبريالية الصهيونية لا يمكن التغلب عليه ٠

ثم كانت المفاجأة ٠ كانت الاسطورة التي انبعثت من خلال هذه الملاحم التي صنعتموها حين تصديتم له رغم قلة العدد والعدة رغم الفارق الذي لا يقاس في الحجم والسلاح ٠

لقد تكسرت تحت وقفاتكم الابية ، وارادتكم الصلبة هذه المؤامرة التي ظنها العدو نزهة عسكرية ينهيها وينهيكم فيها خلال ساعات في الجنوب

اللبناني ، فاذا بكم تنتصبون له عمالقة مقاتلين طوال حرب ضروس ثمانية ايام ولياليها ، وتلقنونه درسا ، بل دروسا بان من يضع يده في اعشاش النسور عليه ان يتحمل تبعاتها ٠

ولكن هل انتهت المؤامرة ، هل توقف المتآمرون ؟ لا لم تتوقف ولم يتوقفوا ٠ المؤامرة مستمرة ، وان تعددت اشكالها وسبلها وجميعها تريد ضرب هذه الثورة وحلفائها من القوى اللبنانية الوطنية ، حلفاء المصير والخندق الواحد ٠ تريد تصفية هذه القضية ليمرروا حلولهم الاستسلامية الرامية الى تركيع شعبنا وامتنا ، واحتوائها ضمن المخطط الامبريالي الصهيوني الاستعماري الخطير ٠

ولكن ما حدث في الجنوب اللبناني هو بداية عهد جديد واشراقة فجر باسل ٠ انه زمن المعجزات الثورية لجيل التضحية والفداء لجيل الابطال الابطال لجيل المناضلين رفاق دلال وصحبها ٠

فالعهد العهد ، عهد الرجال للرجال عهد المناضلين والمناضلات ، ان نستمر في المسيرة وان يسير الركب بأتون الثورة المشتعل ، يصنع احداثا ، ويسطر امجادا ، ويهب لامته الحياة الحرة المجيدة من خلال عطائه السخي ، وتضحياته التي لا تتوقف ٠

هدفنا فلسطين ، هدفنا قدسنا الحبيبة ، لا نحيد عنه ولا نتراجع واننا بهذه الكبرياء العربية المتجمعة في جباهكم ، وبكل الايمان الذي تعتمر به قلوبكم ، لواصلون الى قدسنا ، الى فلسطيننا حرة عربية ٠

والمجد والخلود لشهدائنا الابرار
وانها لثورة حتى النصر

اخوكم
ابو عمار

في الجنوب

الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب

حين كانت دلال تقطع الساحل الفلسطيني في اتجاه القلب ، لم يكن مهما ان يسأل احد : من أين جاءت ؟ من البحر او الهواء ، من حطام تل الزعتر ام من الحصار القادم · فالجهات كلها تبدأ من جوهر واحد : من القضية الفلسطينية ·

ولم تكن رحلة دلال هي الاولى ، ولن تكون الاخيرة · ليكن ذلك واضحا كيوم السبت الشهير · فليس لدم دلال هدنة ، ولا قوات مراقبة او حدود ولا موقع ثابت · فلماذا يقطع العالم انفاسه في انتظار الرد ؟ لماذا يصفق اعجابا بالانتقام الاسرائيلي القادم ؟

لم تتوقف الحرب الاسرائيلية ضد دلال حين كانت جنينا ، او ضد ما تحمله دلال واخوتها واخواتها من اجنة · فهم ليسوا اكثر من بيضة ، او لا وجود لهم ·· لا وجود لاسمائهم · والحرب عليهم حرب ابادة منذ وطيء المهاجرون الاوائل ارض فلسطين ، منذ احتلوا غرفة دلال وناموا في سريرها · ومنذ ذبحوها للمرة الاولى في دير ياسين طردوا الحرام عن قانون الصراع مع الفلسطينيين ، لان الفلسطينيين خارج القانون !·

من حق دلال ومن واجبها ان تسير على ساحل وطنها ، لا لتورط احدا وانما لتحدد مكان قلبها · ومن طبيعة العدو الصهيوني ان يكرر محاولات الابادة ، فالحرب بيننا دائرة ، ودائرة الصراع مفتوحة لا يغلقها العجز الطافي على السطح ، ولا اتفاقيات الهدنة مع الاخرين ، ولا اتقان لغة التخاطب الجميلة مع الضمير الغربي المثقل بذكريات

الصليبيين · سلام دلال وحده هو الذي ينقل الصراع الى مستوى آخر ·

لذلك ، لم يزج الاسرائيليون بالتهم الحربية في ارض الجنوب لينتقموا من رحلة دلال الاخيرة ، بل ليواصلوا حرب الابادة التي اعلنها وجودهم على الشعب الفلسطيني وثورته ، وليواصلوا غزوهم التقليدي ، وابتكار تعدد لنموذجهم العنصري ، وليعيدوا تنظيم شؤون العالم العربي الداخلية على هواهم ، ووفق ما يتطلبه فهمهم الخاص للامن ·

ان الامن الصهيوني لا يتأسس على خطوط وقف اطلاق النار مع البلدان العربية · انه يتأسس ، جوهريا ، على علاقة معقدة وغير منظورة مع كيفية بناء الداخل العربي التي تتفكك فيها قدرة الجماهير على المبادرة ، وترتبط مصلحة ما يمثله الحاكم بالقوى المعادية ، للثورة · ويتأسس ، جوهريا ، على تفريغ الوعي القومي من الخطر الواحد المشترك ، لتصير النجاة الاقليمية من اعباء الصراع هي الطابع المميز لمشهد العالم العربي في هذه اللحظة · ويتأسس ، جوهريا ، على تعليق احلام المسؤولين بحل المسألة الوطنية على قدرات خارجة عن ارض الصراع ، فتصير الارادة الدولية مصدرا ، لا مرآة ، لتوازن القوى على ارض المعركة · وهكذا يرتاح الامن الصهيوني رسميا ويتمدد ، وهكذا تجد قوى ادارة الصراع العربية نفسها اسيرة التعابير المتبدلة على وجه الرئيس الاميركي العاجز عن تدجين الذئب الاسرائيلي المتمرد · فهل هذه هي المسألة حقا ؟

سيواصل الفكر السياسي العربي ارهاق نفسه في البحث عن الخلية المتورمة في جسد الامة · وعلى الارض ، ستواصل دلال ، الرمز والتجسيد، رحلتها على الساحل الفلسطيني · وسيواصل العدو الصهيوني حرب الابادة على الشعب الفلسطيني باعتباره نقيضه التاريخي ، وباعتبار ثورته الاسم الحركي لنهج الامة في تطبيق طموحها الى التغيير ·

وفي حرب الجنوب ، التي تفوق فيها مقاتلونا على العقد والاوهام التي حكمت مسيرة الحروب العربية ـ الاسرائيلية ، تأسست من جديد مقومات ارساء الامن العربي ، وتبلورت طريقة تمزيق الامن الاسرائيلي · لقد دل الفدائي ، المدجج بالسلاح الخفيف والتصميم على القتال الطويل المتحرك ، على مصادر لا تحصى من قابلية العدو للهزيمة في هذا النوع من القتال ، بشكل جعل الناس تحلم بمعركة اطول ، وعلى جبهات اوسع ، تشترك فيها طاقات الامة التي لا حدود لها لو اتيح لها الحق في ممارسة دورها في الحرب ·

لقد فتحت صدور الفدائيين في الجنوب بوابات المستقبل العربي ، واحكمت الحصار على عقلية مسادة الصهيونية من جهة ، وعلى عقدة الخوف العربية من جهة اخرى ٠

ومع ذلك ، فقد دلت حرب الجنوب على مدى العجز الذي خلفته مسيرة التسوية ، على الطريقة الامريكية ، في صفوف القوى المكلفة بالمضي في ادارة الصراع ٠ فما زال فراغ الطاقات ، الناجم عن خروج اكبر دولة عربية من المعركة ، ممرا لحرية السلوك الاسرائيلي ، الذي استطاع دفع حوالى ربع قواته النظامية في الجسد العربي ، بحثا عن القلب الفلسطيني ، دون ان يشعر بخطر المواجهة الشاملة التي ربما كان يناديها لتحويل نهج الحاكم المصري الى حتمية ٠ فهل سيتحرر العرب من جاذبية التسوية الامريكية التي عكست حرب الجنوب احدى نتائجها التدميرية من ناحية ، وطريقة التصدي لها من ناحية ثانية ؟

وهل سيواصلون التضحية بامنهم القومي من أجل امن التسوية الوهمية ؟٠

وما هو البديل ؟ تسوية اخرى ؟ هنا يأخذ السؤال صيغة مختلفة : هل يستطيع العرب في وضعهم الراهن ان يفرضوا تسوية عادلة تتحقق فيها شروط الحد الادنى المتمثلة بالانسحاب الاسرائيلي من الاراضي العربية المحتلة وضمان حقوق الشعب الفلسطيني ؟٠٠ ان اميركا «عاجزة» عن انقاذ اقصى حدود التنازل بثمن زهيد هو « التنازل » الاسرائيلي عن ارض عربية ، او هي عاجزة عن تحقيق الانسجام بين الدور الاسرائيلي والدور العربي المتزاحمين على فاعلية تأمين مصالحها ٠ صحيح ، ان لاميركا مصالح عربية لا تفرط بها ٠ ولكن الصحيح ايضا ان القوة الاسرائيلية ما زالت هي الاداة لوقاية هذه المصالح ، وهي التي دفعت بعض العرب الى الحضن الاميركي ، بما رافق هذا الاندفاع من التخلي عن مهام حركة التحرر العربية والتغيرات السلبية في بنيتها٠

ان التسوية الوحيدة المعروضة في السوق الان هي التسوية الاسرائيلية المعدلة بطريقة امريكية ٠ وقد اعلنت عن جوهرها في حرب الجنوب ، التي وضعت فيها اسرائيل طاقتها القصوى لابادة الثورة الفلسطينية ٠ وقد دلت الكفاءة التي خاض فيها الفدائيون الحرب الخامسة على ان الثورة الفلسطينية قد تجاوزت سن الخطر ، تجاوزت خطر التصفية ٠ ان لحرب الجنوب دلالات كثيرة اهمها اندلاع حرب الجوهر ٠ فقد واجهت اكبر آلة حربية في الشرق الاوسط جسدا بشريا

لا ينكسر · كان الجنود الاسرائيليون المترعون بذكريات حرب الايـــام الستة او الساعات الست يرتعدون من الفدائي · ولم يتمكن هـــؤلاء الجنود المتفرغون لابادة الفلسطينيين من تحقيق النصـــر · عرفوا ان عدوهم الاضعف هو عدوهم الاقوى ·

لقد تجاوزت الثورة الفلسطينية خطر التصفية على يد الصهيونية ،لقد تخطت حالة الدفاع عن النفس · فهل يعيدها العجز العربي الناتج عـن مسيرة التسوية الاستسلامية الى هذه النقطة ، اذا اصر العرب علـــى المضي في التسوية الامريكية التي تقتضي انتقـــال الصراع العربـــي ـ الاسرائيلي الى مواجهة عربية ـ فلسطينيـــة ، للتغلب على العقبة الفلسطينية في فرض الانسجام المطلوب ؟

ان لحرب الجنوب دلالات كثيرة منها : ان الانهيار العربي الرائـــج يمكن وقفه بتعزيز جبهة القتال التي تشكل الضمان الوحيـــد لتحقيـق السلام العربي · وان ارادة الاعداء تتعرض للطحن حين تتاح للثـــوار والجماهير حرية الحركة والقتال · وان حـــج الحاكم المصري الـى الكنيست لا يعني سقوط القارة العربية في الهزيمة · ولكن هذا الانهيـار لا يوقفه تنقيح شروط التسوية الامريكية ، ولا التضامن العربي حول طبق الرئيس الاميركي ، بل يوقفه قتال القوى الثورية ، الذي تشكل حـــرب الجنوب احد نماذجه الساطعة ·

وذلك يقتضي انقلاب الذات العربية على ذاتها ، فتعرف ان قتـــال الفدائي ليس خروجا على القاعدة ، ولكنه قتال الدفاع عن الامة بأسرها ، عن نبضها وارضها ·· ونفطها ايضا · وهكذا تكون حرب الجنـــوب مثالا لطريق الحرب والنصر ، لا منعطفا لسيطرة الظلام العربي علـــى فاتحـــة الفجر ·

محمود درويش

الياس خوري

الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب

حرب الجنوب

« المقاومة في يدي كالبيضة » · هكذا كان يقول الجنرال موشيه دايان · لكن ابو محمود . الفلاح الجنوبي الذي غادر قريته وهو يقود امامه قطيع الماعز ، ويحاول ان يتسلق به البيوت التي سوتها طائرات الفانتوم بالارض ، له رأي اخر ·

– « لم تستطع الطائرات سوى ان تقتل نصف قطيعي » ·

طبعا تركته · تركت القطيع وهربت · ما هذا ؟ الطائرة تلاحق الافراد ؟ تبعتني طائرة ، كنت اركض · وكانت هي كأنها تركض فوق رأسي · ثم دخلت في جوف شجرة زيتون · سمعت صوت الطائرة فوق الشجرة تزمجر وكأنها اضاعت شيئا او تبحث عن شيء · ثم راحت ·

خرجت ، كان القطيع مشتتا · دماء الماعز تلون الارض والاشلاء في كل مكان · لو نستطيع ان نأكل · لكنني لا اشعر بالجوع · جمعت الباقي وركضت بهم وقطعنا النهر على زورق خشبي · كيف ابقى ؟ لم ابق خوفا على الماعز · لا اريدهم ان يأكلوها · ثم اين ابقى ؟ لقد تهدم البيت · تداعى البيت كالبيضة :

من الزهراني الى صور ، رائحة زهر الليمون تغطي رائحة القذائف · لبنان الجنوبي في عرس الموت ، والاعشاب الخضراء تتلون بالدم والشظايا ·

انها الحرب ·

احتلوا البحر ، من الناقورة الى صيدا ، كان هذا البحر الذي ترتعش

الاسماك في داخله ، قد تحول الى بركان من اللهب · يقصفون ، القذائف تتطاير بين المياه والزبد يعلو · واحتلوا الاجواء ليلا ونهارا ، كانت الطائرات تقصف وتزمجر وتعربد ، كأن سماء العرب صارت جحيما · البحر والسماء ، ولم تبق سوى شجيرات الليمون التي تنحني من ثقل ثمارها · ولم يبق سوى الجسد الذي يقف والاذرع التي لا تنحني · وفي الطريق الطويل بين القرية التي هدموا بيوتها واجبروا سكانها على الرحيل قبل دخولها ، وبين الشقق الفارغة والخيام المنصوبة ، مسافة من الحقد والاوجاع · سيارات المهجرين ، تموه بالاشجار والاعشاب · وعندما تتوقف امام مجموعة من الفدائيين ، يقفز الاطفال اولا ، ثم يرفع الجميع علامة النصر · لم تعد المذابح ممكنة · لقد انتهى عصر الالات التي لا تقهر والحديد الذي لا يصدأ ·

عندما كنا نستمع الى اخبار الجنود الفيتناميين وهم يتسللون الى قاعدة اميركية ، ويوقظون الجنود ، عبر ضربهم باحذيتهم المطاطية ، كنا نقول ان الانسان اقوى من التكنولوجيا · نقولها ونرددها دون ان نعي ما نقول · نرويها، كما نروي حكايات الجن لاطفالنا ، والاطفال يخافون ويفرحون ، لكن شرط خوفهم وفرحهم هو عدم التصديق · في اعماقهم ، لا يصدق الاطفال القصص لانهم يعرفون نتيجتها · والان وبعد القصف الليلي دون اضاءة ، الذي قامت به طائرة ف ١٥ الاميركية ، اصبحنا نصدق لاننا نعرف النتائج · لا يستطيع العدو ان يحتل بالطائرات او بالقصف · من اجل ان يحتل عليه ان يقاتل · وحين نقاتله نهزمه · انه ينتصر فقط لاننا لم نقاتله في الماضي · وسيهزم غدا لاننا نقاتله الان ·

وفي اليوم السابع لم تسقط صور ، ولم تسمح للجنرالات بالراحة · بقيت صور · طوقت وقصفت وتهدم الميناء · لكن السمك في البحر لم يخش القصف ولم ينسحب · الى اين تنسحب الاسماك ؟

هكذا صور ، لا تنسحب · لانها اليوم وغدا مدينة الذين لا يسقطون · مدينة الالهة والمقاتلين والفقراء · مدينة الاسماك وقذائف الـ ب ٧ · لم تنسحب صور ولم تسقط ·

امتلأ البحر · بوارجهم تقصف والشاطىء يمتد · لا يستطيع احد ان يمتلك

البحر · هكذا كان الزورق المطاطي يتجول امام شاطىء فلسطين · يرى حيفا الممتدة في البحر · يتألق في الغروب حين يصبح الافق احمر ويمتلىء البحر بتوهج الشمس التي تغرب · ومن الغروب يشرق الرجال الذين يهبطون الى المدينة البيضاء يشرقون لحظة الغروب · النهاية هي البداية · ولا بداية الا بداية الموت · لكن الرجال الذين يشرقون من الغروب لا يفكرون بالذكريات · انهم بلا ذكريات · مليئون بالذاكرة ولكنهم يعلمون ان الوجود الوحيد الممكن هو في المستقبل · يشرقون ويرمون الذكريات لاعدائهم ، يتركون لهم الماضي ويمشون الى المستقبل ·

من الغروب ، حيث يتألق البحر ويبتلع الشمس ويحجب الرؤيا نولد ، ونخرج من البحر نحتل المستقبل ·

الطريق طويلة والحرب طويلة ، وهؤلاء الرجال الذين يخرجون من البحر ، هم بدايات هذا الشرق الذي يغلب ·

انها الحرب ·

احد المقاتلين يجلس بين الاعشاب وامامه كوب الشاي الساخن ، يدخن ، يبتسم · ــ « لا · انهم لا يريدون القتال » · جبل نار ، حرائق ومفرقعات ثم يتقدمون بعد التأكد من انهم قتلوا كل شيء · الاعشاب والاشجار والحشرات · يريدون القضاء على كل شيء · هذا هو شرطهم للتقدم · يأتون بعد ان تفرغ القرى وتتهدم البيوت ويموت كل شيء ·

انهم لا يريدون القتال ·

جيش تأصلت فيه عقدة التفوق · دولة هي مجرد جيش وملحقاته · الجيش هو اثمن شيء في الدولة ، والدولة بأسرها في خدمة الجيش · لذلك يجب ان لا يضحى بالجيش · يجب ان لا يموت الجنود · يجب ان ينتصر الجيش دون ان يقاتل · فوجئوا في تشرين بأن الحرب تقتل · لذلك ارادوا ان يتجنبوا الموت هذه المرة ·

لكن الحرائق التي انتشرت من البحر الى العرقوب كانت زمنا للذين يقبضون على الموت · فالرجال الذين يطلعون من هذا الغروب ، كانوا يقفون بعد ان جرحتهم الهجرات ، بين الموت والموت · فصنعوا من الموت علامة · وفرضوا على الجيش الذي هو اثمن من الدولة ان يقاتل مرة اخرى · ان يعترف بانه فوجيء بالالغام والاجساد · ان يتراجع ويناور · وكانوا هم ، اجمل فتية العرب ، يرفعون بنادقهم وينغرسون في الارض ، ويتدفقون شلالات دم وماء ·

انها الحرب

العميد الركن سعد صايل مدير العمليات المركزية في الثورة الفلسطينية ، **يلخص الحرب** ، من مقره في غرفة العمليات على الشكل التالي :

لقد بدأت تحشدات العدو على طول الحدود قبل ١٣ اذار · وكانت المعلومات التي تصلنا عن حجم الحشود ، تشير الى ضخامتها الى درجة اننا كنا ميالين الى عدم الاخذ بها · ثم ظهر ان هذه الحشود تشير الى تبذير كبير في القوات الصهيونية والنيران ، وهدف العدو هو انهاء عمليته بسرعة ·

تقديراتنا للقوات التي جرى حشدها تشير الى المعطيات التالية :

١ـ فرقة ميكانيكية · ٢ ـ لواء مدرع · ٣ ـ اسناد العملية بسربين من الطائرات وقوة بحرية لا يقل تعدادها عن ١٥ قطعة بحرية ·

وبالاضافة الى هذه القوات ، كان هناك حشد اخر داخل الارض المحتلة بهدف تبديل القوات · التبذير والمبالغة في تحشدات العدو ، هي عامل لم يستطع العدو التخلي عنه طيلة الصراع العربي ـ الاسرائيلي · وهو يشير اساسا الى استهتاره بالقوات التي تقاتله ·

في الدقيقة الاولى بعد منتصف ليل ١٣ـ١٤ اذار ، بدأ العدو قصفا تمهيديا ، مدفعيا وصاروخيا وبالطيران على القرى الحدودية وعلى كافة القواعد الامامية لقواتنا ·

عندما بدأت تصلنا المعلومات ، عبر مشاهدات مراقباتنا ، قمنا ، بتغيير قسم كبير من اماكن القواعد · وقد استمر القصف التمهيدي المعادي حوالي ساعة · حجم المدفعية الملحقة بالقوات المعادية هو مدفعية فرقة زائد · اما عدد كتائب المدفعية فلا يقل عن سبع كتائب ، وهي كتائب مدفعية مختلطة ، مدافع ميدان ومدافع بعيدة المدى · خطة نيران العدو كانت منسقة ، تجمع بين المدفعية البرية والطيران والبحرية · وبعد انتهاء القصف بدأ العدو هجومه في القاطعين الشرقي والغربي ·

بعد تقدمه على المحاور ، بدا هدفه واضحا ، في القاطع الغربي : الاطباق على مدينة صور كهدف حيوي · اما في القاطع الشرقي : فقد تقدم العدو شمالا وتم ايقافه عند نقطة خط سوق الخان ·

منذ اللحظات الاولى ، بدا واضحا لنا ان هدف العدو لم محدودا في رقعة الارض · لكن الهدف الرئيسي ، كان تدمير قوات الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية · وقد اتضح هذا الهدف منذ اليوم الاول للقتال ·

قبل ان يبدأ العدو عملياته العسكرية هذه في الجنوب بمدة طويلة ، كان المجلس

العسكري الاعلى للثورة الفلسطينية ، يضع في الاحتمال امكانية قيام العدو بغزو جنوبي لبنان وكانت التوجيهات التي وضعها المجلس هي :

١ ـ اعتماد اسلوب القتال غير المباشر · والذي املى علينا هذا الاسلوب ، هو حجم القوى ، وطبيعة قوات الثورة وطبيعة قوات العدو ، من حيث التسليح والامكانيات المتوفرة لدى كل طرف ، وكذلك طبيعة الارض ·

٢ ـ القتال بمجموعات صغيرة لا تتعدى خمسة عناصر · نتمسك ببعض النقاط الحيوية في قتال تراجعي ، الغاية منه فرض اكبر وقت لاعاقة العدو وانزال الخسائر في صفوف قواته ·

لقد اعطي هذا التوجيه لجميع قادة القوات · وكان التوجيه يقضي ايضا بان يزج بثلث قواتنا في الخطوط الخلفية للعدو ، اما الثلثان فتمسك ببعض النقاط الحيوية في المنطقة سواء في القاطع الغربي او الشرقي · وقد تم تطبيق هذا التوجيه في القاطعين ·

والملاحظ ، ان موقف العدو كان صعبا في القتال نتيجة هذا الاسلوب ، رغم كثافة نيران قواته · اي ان قوات العدو لم تكن تجد امامها هدفا مجمعا لقواتنا **تستطيع ان تضربه ضربة واحدة ·**

اما موقف قواتنا ، والتي تشكل قوات العاصفة عمودها الفقري ، فهي تمتلك اسلحة خفيفة مضادة للطائرات ، وتساندها مدفعية مختلطة · النسبة بين عدد القوات في الطرفين كبيرة جدا ، ١ الى ٢٠ في الجانب المعادي · اما بالنسبة للتسلح وكثافة النيران فهي خارج كل امكانية تقدير ·

لقد كانت معارك الايام السبعة في الجنوب حربا حقيقية ، ولم تكن مجرد عملية · وقام العدو في هذه الحرب باستخدام كافة الاسلحة الحديثة · واجرى تجارب عملية على الاسلحة التي وصلته حديثا ، صواريخ ارض ارض وطائرات ف ـ ١٥ ، التي لاحظنا قدرتها على القصف الليلي دون انارة ، بينما تحتاج طائرات الميراج والسكايهوك الى الانارة كي تستطيع القصف ليلا ·

كثافة النيران

اسلوب العدو في القتال ، هو اسلوبه نفسه منذ بداية الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، **الجندي ثمين جدا** · لذلك تستخدم كثافة نيران هائلة قبل تقدم المشاة الى الموقع ·

القتال الليلي

الواقع ان الجيش الصهيوني يتقن القتال الليلي · وقد جرى التركيز على هذا القتال منذ انشائه · والاسلحة الحديثة التي حصل عليها مؤخرا كانت عاملا

مساعدا في هذا القتال · لكن رغم ذلك ، فقد وقع العدو في خطأ كبير عندما شن هجماته في الليل · فطبيعة اسلوبنا في القتال ، تعتمد اساسا على القتال الليلي · وبالنسبة لنا ، كان القتال الليلي افضل خاصة في المناطق التي توجد فيها سواتر طبيعية · ونحن نعتقد ان العدو اضطر الى استخدام القتال الليلي بشكل مكثف لاسباب سياسية ، وهو الوصول الى هدفه بسرعة ·

عدم تناسق المحاور

لم تكن سرعة تقدم العدو على المحاور المختلفة متساوية · رغم انه حاول تدارك ذلك عبر انزال مشاة بواسطة طائرات عمودية لدفع المحور البطيء · طبعا، كان العدو يخطط لمحاور متناسقة · لكنه لم يبذل جهدا متساويا على جميع المحاور، وقد دفعنا هذا الى الاستنتاج بأن الزخم الذي يضعه العدو على المحاور الرئيسية هو بهدف تدمير قواتنا · وهو الذي يطلق عليه عادة اسم **تفتيش وتدمير** وهو الاسلوب الذي تستخدمه الجيوش النظامية الغربية من اجل تدمير حرب العصابات ·

القوات البرية ·

الدور الاول في العملية كان للقوات البرية : المشاة بانواعها ، الدروع ، وحدات الاسناد المدفعية والهندسة · الدور الثاني كان للطيران · الدور الثالث، وهو ثانوي وغير كبير الفعالية كان للبحرية · لقد حاولت القوات البحرية القيام بانزال بين العزية والحنية ، بهدف اقامة رأس جسر على البر ، لكنها لم تتمكن·

الطيران

لقد استخدم الطيران بكثافة غير عادية · لم تنقطع النيران عن الاهداف التي ضربها العدو ·لعب الطيران دورا رئيسيا،لانه لم يستهدف المقاتلين فقط،بل استهدف ايضا مراكز العمق المدنية والهدف من ذلك هو اخلاء المنطقة من المدنيين · الطيران هو السلاح الوحيد الذي كان يعمل **بحرية شبه كاملة** · الغاية من استخدام الطيران هي ضرب اهداف عميقة في كل الاراضي اللبنانية ، وتقديم الدعم للمشاة · فقد لوحظ انه عندما تتصدى احدى مجموعاتنا للمشاة ، ينسحبون ، ويأتي الطيران · وقد وصل الامر احيانا بقوات العدو الى التمرد على أوامر التقدم ، وطلب اسناد الطيران · لقد حدث هذا في مواقع عدة : راشيا الفخار ، بنت جبيل ، حاريص ، كفرا ، جويا ، مثلث دير دغيا ·

الاسطورة

عمت اسطورة الجيش الاسرائيلي الذي لا يقهر ، نتيجة عدم وجود تصميم سياسي على القتال · الحقيقة ، ومن دون اية مبالغات ، فهذه هي احدى المرات

القليلة التي يقاتل فيها العدو قوات مصممة على القتال · واسرائيل الان سوف تكون مجبرة على اعادة النظر في حساباتها · في حرب حزيران ٦٧ ، لم تـــر الاكثرية الساحقة من القوات العربية جنديا اسرائيليا · تمت الهزيمة دون تماس مع العدو الا في بعض النقاط القليلة ·

ارادة القتـــال

ارادة القتال والتصميم هي سلاحنا الرئيسي ·· اسلحتنا المادية ليست سرا على العدو · انها اسلحة متواضعة وعادية · السلاح الاكبر هو موقف الجماهير اللبنانية والفلسطينية في المخيمات والقرى · فرغم جميع الهجمات ، فقد بقـــي موقفها صلبا ورائعـــا ·

والجنرال غور رئيس اركان الجيش الصهيوني **يعترف** ·

ففي مؤتمره الصحفي الذي عقده يوم ١٧ـ٣ـ٧٨ ، اختفت لهجة التبجـح ، واصبح الجنرال يتكلم في السياسة ، كي يضع اللوم على السياسة نتيجـــة عدم تمكنه من تحقيق اهدافه خلال ٤٨ ساعة كما صرح قبلا · لكنه يعترف ·

الفدائيون يحسنون زرع الالغام ·

« ان اكثر من نصف عدد القتلى الذي وقع في صفوفنا ، كان نتيجة اصطدام وحداتنا ببعض الالغام المزروعة ، لان الفدائيين زرعوا الالغام بصورة ماهـــرة جدا في بعض المناطق · وتم تمويهها في وسط الشارع وعلى جانبيه بشكل جيد» ·

·· ويقاتلون بشراسة

« قاتل الفدائيون بشراسة في بعض الاماكن ·· قرب بنت جبيل كانت هنـــاك قاعدتان ، وحدث قتال ضار · وربما هرب عدد من الفدائيين نتيجة القصف · غير ان المعارك التي جرت هناك كانت ضارية بالفعل ، وذكر لي الجنود الذين اشتركوا في تلك المعركة انهم شعروا بانهم يقاتلون اهدافا محصنة وقد استخدم الفدائيون مختلف الاسلحة » ·

··· ومن بيت الى بيت ·

« مثلا في مارون الراس ، بعد القصف واقتراب قواتنا من بيوت القرية بعد ان تم تدميرها ، وبعد أن اوشكت قواتنا ان تدخل تلك البيوت ، عندها فتحـــت

نيران الفدائيين بكثافة ، وكان لا بد من اقتحام البيوت بالمشاة من اجل تطهيرها · وقد حدثت اصابات في صفوفنا ·· وكان قتال الفدائيين شرسا ·

وفي بنت جبيل ، وعلى الرغم من القصف المدفعي وقصف الدبابات والطائرات كان هناك بيوت كثيرة لا بد من تطهيرها لتواجد الفدائيين فيها · وفي بعض الاحيان ، لم يكن امام قواتنا اي بديل عن اقتحام بعض البيوت لتطهيرها وقد تعرضنا لاصابات » ·

··· ويصمدون

« وقد اتضح من خلال محادثاتي مع الجنود ، ان المعارك في عدد من القرى جرت من بيت لبيت ، وداخل البيوت نفسها ، وكان القتال بالغ الصعوبة · »

□

« المنتصر هو الذي يملك اللغة » ·

ولكن في عصور الحروب المتصلة ، وفي ازمنة انهيار التوازنات ، تسقط اللغة المنتصرة ، وتهجم التفاصيل الى اللغة · تصبح اللغة هي لغة التفاصيل · لغة الانهيارات والولادات · لان المنتصر لم يعد منتصرا ، والتوازنات التي فرضته سقطت ، والحرب مستمرة ·

هكذا تهجم التفاصيل الى اللغة · وتصبح الكلمات جديدة · ويمتليء الافق بالاحتمالات · فالموت هو مجرد موت ، والحرب هي مجرد حرب ، والليمونة تروي الظمأ والعيون الجميلة تشعل الرغبات ·

ومنذ ثلاث سنوات ، وبعد كل عدو جديد يدخل · كانوا يبشرون بنهاية الحرب التي لم تبدأ بعد · وكان الرجال المحشوون قشا ، يهزون رؤوسهم وهم ينظرون الى ظلالهم الشاحبة ويبتسمون ، مثل الاساتذة الذين يشمتون بطلابهم بعد ان يضربهم الشرطي ·

لكن ومع كل انعطافة ، كانت الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية ، تجد شلالات من التفاصيل التي تصنع الحروب · وكانت تقاتل باسم العرب باسرهم ومن اجل الجماهير العربية باسرها · كانت جماهير المخيمات والقرى والاحياء الفقيرة ، تعلم ان العرب لم تستسلم · وان لحظة التراجع هي بداية الزلازل التي ستحيل المشرق الى بركان من اللهب ، لذلك كانت تحشد التفاصيل، وتقاتل · وكل مقاتل يحمل معه حقله الذي تحرقه الطائرات ، واحلامه التي يصنعها ببطء وهدوء ·

حرب الجنوب ، ليست الحرب الاخيرة · لكنها احدى الحروب الاولى · وهي مليئة بتفاصيل البطولة التي لا تتسع لها اللغة· والتفاصيل صنعها ويصنعها رجال حقيقيون · لهم اسماء واباء وزوجات واطفال وصديقات · لكنهم قـــرروا ان يقتحموا السماء · واكتشفوا ان الاشياء الكبيرة هي اصغر الاشياء واكثرهـــا بساطة · تماما مثل الاسئلة الحقيقية التي تنطلق اولا من البديهيات ·

تفاصيل حرب الايام السبعة هي تفاصيل مثيرة ببساطتها · مثيرة من شـــدة التصاقها بما نعرفه لكننا لا نعرفه ·انها المسافة بين الحياة ورمزها ·لكن المسافة تضيق لتصبح الحياة هي رمزها · هكذا يعلمنا ابو وجيه في استشهاده · فابو وجيه تعرفه جميع الطرقات السرية المؤدية الى تل الزعتر · ويعرفه جميع المقاتلين الذين اخترقوا الجبال والوديان من اجل الوصول الى تل الزعتر · والان صـــار يعرفه الجنوب ، لانه عرف فيه تلك البساطة وهذا التوهج الذي يتعامل مـــــع الموت كما يتعامل مع اكثر اشياء الواقع مباشرة · هكذا يسقط الرجال ، يسمرون اعينهم في الضوء ويتساقطون شلالات ضوء ·

هكذا لا يموت الفدائيون حين يموتون · صنين اجمل الجبال · برتقالي وابيض وسري مثل الفدائيين · وفي الافق الممتد من صنين الى الجنوب ، سقط الرجال، وصنعوا ملحمة من الابداع الجماهيري الذي لا ينقطع · لم يستشهد ابو وجيه وحده · الى جانبه كانت البنادق وكانت الاجساد التي تواجه الطائرات · ولن ينتصر ابو وجيه وحده · فالى جانبه وامامه سوف ينتصر الفقراء حين تشرق شمس الفقراء ، التي يصنع توهجها هذا الموت الفلسطينـــــي اللبناني الذي لا يحدده شيء ولا يستطيع شيء ان يحيط به ·

التفاصيل التي يرويها المقاتلون عن حرب الجنوب ، تحتاج الى تاريخ خاص بها · الى كتابة اخرى لا تخوننا كما تخوننا الكتابة · ونحن هنا لا نؤرخ · نكتب فقط على هامش الموت العربي الكثير احتمالات الولادة · ونترك التفاصيـــل ان تتحـــدث ·

مارون الـراس

في الثانية عشرة ليلا بدأ الطيران عملية قصف مركز لمارون الراس ، كـــان القصف تدميريا · لم يبق بيت في القرية · في الثالثة صباحا قام العدو بعملية انزال للمشاة بين مارون الراس وبنت جبيل · مجموعاتنا انتشرت خارج البلدة· وعندما بدأت المعركة على مداخل البلدة ، استطاعت احدى مجموعاتنا التي كانت قد اخلت مواقعها القديمة باتجاه الحدود ان توقع بسرية من جنود العدو فـــي المصيدة · لقد توقعوا الهرب · لكننا تقدمنا من اجل ابطال فعالية الطيـــــران وفاجأناهم من حيث لا يتوقعون ·

بنت جبيل

كانت معركة تلة مسعود وتلة شلعبون احدى اشرس المعارك التي فرضت على قوات العدو · تم تبادل تلة مسعود اربع مرات متتالية بين القوات الصهيونية والقوات المشتركة · كما امكن مشاهدة اربع جثث اسرائيلية داخل دشمة الدوشكا · اما تلة شلعبون فقد تمكنت القوات الصهيونية من تطويق الموقع اكثر من مرة ثم اجبرت على التراجع · وبعد كل تراجع للمشاة كان الطيران يتدخل ·

القنطرة

تعرضت القنطرة لـ ١٧ غارة جوية · وبعدها بدأ التقدم الالي · هوجمت القنطرة بحوالي سريتي اليات · ولم يستطع العدو دخولها الا بعد اعطاب سبع اليات ·

جويا

يروي احد المقاتلين في صفوف القوات المشتركة تجربته الشخصية في معارك جويا · انقسمت مجموعتنا المؤلفة من ستة عناصر الى مجموعتين صغيرتين · المجموعة مزودة بقاذف بـ ٧ وبناق كلاشينكوف · يوم ٣/١٩ ، الساعة السابعة الا ربعا صباحا تقدمت اربع اليات · رمينا على الدبابة الاولى قذيفة بـ ٧ فأصيبت في مؤخرتها واشتعلت · الدبابات الخلفية تراجعت وبدأت بالرماية بنيران الرشاشات · تراجعنا الى البلدة ، جاءت الطائرة وقصفتها ، انسحبنا ، وفي الليل عدنا الى جويا وسحبنا بعض تجهيزاتنا · الملاحظة الرئيسية هي ان الجنود الصهاينة لا يغادرون الياتهم ·

العباسية

تعرضت العباسية لحوالي ٦٠ طلعة طيران عدوة ، وتم تدمير القرية · وقد تمكنا على مداخل القرية من ايقاف تقدم العدو حوالي ست ساعات ، وحدثت اشتباكات عنيفة ·

راشيا الفخار

العرقوب · حيث الصمود ، ومحاولات العدو المتكررة لدخول القرية ، وحيث عمل الطيران بكثافة وصمد المقاتلون ببطولة دفاعا عن العرقوب ·

صـــور

صور وحدها تحتاج الى شهادات لا تنتهي · في كل موقع قصة · وعلى كـل الشاطىء ملحمة · وفي الاسواق الداخلية التي قصفت لحظات كبيرة · اطبقوا على صور من جميع الجهات ، ولكن صور كانت تقاوم · وكانـت تهيء لهـــم استقبالا حافلا ، لكنهم لم يدخلوها · قصفت صور وشوارعها ومخيماتها كما لم تقصف مدينة ، لكنها لم تركع · احد المقاتلين كان يطلق على الطائرة المغيـرة ببندقيته الكلاشينكوف · لكنها غير مؤثرة · اعرف ذلك يجيب المقاتل ، لكننـــي اطلق النار كي اقول لهم اننا لا نزال هنا ؛ واننا لم نهزم · البحر في صور تحول الى لهب · والمقاتلون ينتشرون على الشاطىء وبين البساتين ويطلقون علـــى البوارج المعادية بمختلف الاسلحة · ولم تسقط صور ·

اسماء القرى هي اسماء المعارك ، في كل قرية معركة · والعدو يشعل الارض بالنيران ، المشاة والقوات المدرعة تتراجع الى الخلف عند سماعها الطلقـــات المؤثرة وتستدعي الطيران · هكذا سقطت الطيبة ، وهكذا سقطت مجموعة كبيرة من القرى · يقوم العدو باحراقها بالنيران ثم يتقدم ، وحين يواجه بمقاومة تعاود الطائرات الهجوم ثم يتقدم · والقوات المشتركة تقوم بقتال اعتراضي وحـــرب عصابات فعالة ، اذا تجمع العدو ننتشر · حرب عصابات حقيقية · هكذا يروي مقاتلو المنظمات ، فتح ، الشعبية ، الديمقراطية ، ومقاتلو الحركة الوطنيـة · وخلف خطوط العدو حدثت مواجهات لا تحصى · مجموعات كبيرة من المقاتلـين حوصرت ، ثم كسرت الطوق ، قامت بمسيرة طويلة في الجنوب ، قاتلت واشتبكت وفاجأت العدو حين كان يعتقد ان المعركة انتهت في احد المواقع ، ثم انسحبت ·

احد المقاتلين كان يروي كيف استطاع اعطاب آلية للعدو · انبطحت ، وكـان الشوك · وضعت قاذف الـ ب ٧ بين الشوك ، صوبت واطلقت · كانت هذه هي المرة الاولى التي استخدم فيها هذا السلاح · فاحترقت الدبابة · اشتعلـــت كالعشب اليابس ، فكرت ان المسألة بالغة السهولة · غطى الرفاق انسحابي ، انسحبت ، ثم فوجئنا ان الدبابات الاسرائيلية تنسحب هي الاخرى · عدنا الـــى الموقع وجاء الطيران ·

ـ هل تعلم كم ثمن الدبابة ؟

ـ لا ·

ـ مليون دولار ، اي ثلاثة ملايين ليرة ·

ـ انا مليونير اذن · ابتسم المقاتل · استطيع ان اشتري جميع اراضي القرية بهـذا المبلـــغ ·

من الناقورة الى العرقوب ، تنتشر البطولات · وينتشر الـــدم اللبنانـــي ـ الفلسطيني · وتمتد الهجرات وتتسع ·لكن قوى التحدي العربي على ارض لبنان، اثبت مرة اخرى ، انه لا يمكن سحقها · وان المسألة بالغة التعقيد ، وان المنطقة العربية ، تشهد بداية تحول عميق ·

□

توقفت حدة المعارك ، وابتدأ تطبيق قرار مجلس الامن القاضي بانسحـــاب الصهاينة ، وحلول قوات دولية على الحدود اللبنانية ـ الفلسطينية ·

هكذا تقودنا الحرب الوطنية من جديد الى الازمة اللبنانية · وهكذا بعد دخول قوات الردع العربية ، يدخل طرف جديد مدعوم دوليا ساحة الصراع في لبنان، وتبدو المسألة اكثر تعقيدا ·

الملاحظات الاولية التي نخرج بها ، من التطورات التي رافقت واعقبت حـرب الجنوب تتلخص في ثلاث نقاط :

النقطة الاولى : هي ان تطبيق قرار مجلس الامن يعني اولا **انسحابا اسرائيليا** · فرغم المطامع الصهيونية في الجنوب وفي مياه الليطاني تحديدا ، فان القـــوات الاسرائيلية تجد نفسها مجبرة على الانسحاب · وهذا لا يعود الى الصداقـــات والحمايات الدولية ، بل يعود اولا الى عنف المقاومة وشراسة القتال ، التـــي ستجعل من بقاء العدو الصهيوني في الجنوب مكلفا للغاية ، ويعرض الوجـود الصهيوني لاخطار لا يستطيع تفاديها الا في الاندفاع نحو حرب شاملة ، ســوف تضع المشروع الاميركي للهيمنة على المنطقة العربية في مهب الريح · وهي تعني ثانيا ، **دخول قوات دولية** ومحاولة القوى المعادية شن هجوم سياسي واسع على الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية ، بهدف دفعهما الى الزاوية · وهذه مسألـــة بالغة الاهمية ، وهي سوف تشكل ارضية صراعات بالغة العنف على المستـــوى السياسي وربما على مستويات اخرى ·

النقطة الثانية : هي ان اعداء الثورة ، لا يستطيعون شن هجماتهم عليهـــا مجتمعين · فالقبضة الامبريالية لم تعد تستطيع احكام سيطرتها على الصراع · والحلفاء الذين انيطت بهم مسألة تصفية المقاومة يترددون ، ويحاول كل منهم دفع الاطراف الاخرى الى الصدام · واذا حقق احد الاطراف انتصارات محدودة ، فانه يضر بمصالح الاطراف الاخرى ·وهذا يعني مأزقا لمشروع الهيمنة الاميركية على الوطن العربي · وهذا يقود الى حقيقة رئيسية ، فان الطريق الوحيد مـــن اجل اسقاط هجمة الاعداء ، هي **متابعة القتال ضد العـدو الصهيوني** وفي مطلق الظـــروف ·

النقطة الثالثة : هي ان حل ما يسمى بأزمة الشرق الاوسط ، هو امر بالغ الصعوبة · فلقد سقط التوازن الاستعماري القديم الذي كان قائما على معادلة سايكس ـ بيكو التجزيئية · ودخلت المنطقة عبر الصراع العربي ـ الاسرائيلي في اشكاليات صراعات مفتوحة ، لم تتبلور معالمها بعد · فمن اين يأتي توازن جديد · ومن سيكون سايكس ؟ ومن سيكون بيكو · وهل تستطيع الايدي الامبريالية ان تتلاعب من جديد وبسهولة بمصير الشرق العربي ، وعلى ماذا يتم اتفاق سايكس ـ بيكو جديد ، قرب آبار النفط المشتعلة ، وامام حركة الجماهير التي تصبح تدريجيا طرفا في المعادلة ، **والجماهير حين تدخل المعادلة لا تدخلها بل تقلبها ·**

هذه الملاحظات الاولية تقود ، وانطلاقا من تجربة الحرب التي لم تتوقف منذ نيسان ٧٥ بمراحلها المختلفة الى صياغة اسئلة حقيقية ، وطرح اشكالية جديدة للنظر الى الصراع على الارض العربية ·

□

منذ البداية ، وهم ينتظرون الصهاينة ، ويعتقدون انه لم يعد امام حركة الجماهير الفلسطينية ـ اللبنانية الا الاستسلام ، او التقهقر من الناقورة الى مقبرة الشهداء ·

وعندما دخل الصهاينة طرفا ، اكتشف الجميع انهم مجرد طرف جديد ـ قديم، وان هذا الطرف يستدعي اطرافا دولية اخرى · وان معادلة الصراع ليست بالبساطة والسهولة التي توقعها الجميع ·

والحرب طويلة · بدايات للذي لم يبدأ بعد · وافق للافق الذي يلوح على فوهات الدم · ورهان موتنا ليس على الموت · انه رهان على القارة العربية التي تحبل احشاؤها بالجديد الوطني الجذري ، وعندما تتحرك احشاء هذه القارة وتنفض عن جسدها الهزائم والقهر والاستبداد ، فان النيران التي اشعلت في لبنان وفلسطين ، تكون بداية للحرائق المقبلة ·

ابو جهاد يتحدث الى "شؤون فلسطينية"

الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب

الكرامة الجديدة

□ على طريق نضالنا في الثورة الفلسطينية فان الهدف يبدو واضحا · العدو يحتل ارضنا · واجبنا اذن ، هو تصعيد الصراع معه · ووسيلتنا الاساسية في هذا هي الكفاح المسلح · ومنذ بدأنا مسيرة الكفاح المسلح ، ونحن في فتح وفي الثورة الفلسطينية ، نخوض المعارك ونواجه المؤامرات دفاعا عن حق الثورة في النضال ·

منذ انطلاقتنا عام ١٩٦٥ وحتى هزيمة حزيران ٦٧ ، كان منهجنا في التعامل مع العدو يقوم اساسا على الدوريات الصغيرة ، الكمائن وزرع الالغام في مختلف مناطق الوطن المحتل · كنا نؤمن ان الطلقة الاولى ليست هدفا بحد ذاته ، بل هي اولا وسيلة من اجل تعبئة شعبنا ، وتجسيد ارادته في مواجهة العدو · وخلال مسيرتنا النضالية كانت تتضح امام شعبنا الفلسطيني وامتنا العربية حقائق كبيرة · طبعا ، لم يكن العمل في بدايته مؤثرا على المستوى العسكري · ولم نكن نملك الامكانيات · اذكر ، اننا في بداية الانطلاقة ، كنا نبحث عن كمية صغيرة من المتفجرات ولا نجدها · الشهيد النقيب محمد حشمة كان ينطلق الى الحدود التركية من اجل ان يشتري ١٠ كلغ من المتفجرات التي كنا نفرح بها · تساءل الكثيرون عن الجدوى من عملياتنا العسكرية التي وصفت بالسطحية · نضع عبوة ناسفة الى جانب بيت ، تنفجر العبوة ولا يدمر البيت ·· فقط شظاياها تفتح ثغرة في جداره · العملية العسكرية لم تكن مطلوبة بالنسبة لنا لفعاليتها · كنا نوزع الكمية القليلة من المتفجرات على مجموعات كثيرة ، من اجل العمل في جميع ارجاء الوطن ونجسد بالتالي نضالنا امام شعبنا · ونجسد كذلك امام عدونا معنى الوجود الفلسطيني · **لقد بدأ شبح**

الضحية يستفيق · لقد كان لعملياتنا وقعها في بث الرعب في عمق الوجـــود الصهيوني · يتجسد هذا في مجموعة من العمليات ، تمت احداها في مستعمرة العفولة التي يقدر عدد سكانها بـ ٤٠ الف مستوطن · لم يكتـــف القاتـــل الفلسطيني بوضع العبوة الصغيرة في بيت على اطرافها · لكنه دخل الى قلبها، الى محطة الكهرباء ووضع العبوة على المحرك · لقد جعلت هذه العبوة ، كمـا اشارت الهيرالد تريبيون يومها ، من الاربعين الف صهيوني يخرجون مذعورين بثياب النوم ، وكل منهم يعتقد ان انفجارا سوف يحدث في منزله ·

بدأت هذه الامكانيات الضئيلة تنمو عبر النضال ، كما بدأت اساليبنا القتالية تتطور ، ومعها كان عملنا يمتد سواء عبر الحدود الاردنية او على امتـــداد الحدود اللبنانية او حدود قطاع غزة · ومع تطور العمل كنا نواجه العقبـات الكبيرة على الحدود العربية · في الاردن : امتلأتالسجون بما يزيد على الـف مقاتل ، لم يطلق سراحهم الا في اليوم السادس من حرب حزيران · الشهيـد احمد موسى سقط برصاص الجيش الاردني · والشهيد تركي كنعان ، جـر جريحا بالمصفحات الاردنية في الاغوار حتى الاستشهاد · في لبنـان : اذاق زبانية المكتب الثاني مناضلينا الويل · فسقط الشهيد جلال كعوش والشهيـد عطا الدحابرة · وفي غزة : كسرت ايدي المقاتلين في السجون ·

مرحلة اولى مليئة بالمرارات والمعاناة والالام ، تخطيناها بالتصميم عـلى الاستمرار بالنضال مهما كانت الصعوبات · واستطاعت هذه المرحلة ان تجسد الوجود الثوري كحقيقة والكفاح المسلح كمنهج · واصبحت هذه الحقيقة واضحة امام شعبنا الفلسطيني وامتنا العربية وامام عدونا الصهيوني · بمعنى ، انها جسدت الشخصية الفلسطينية المناضلة ، بعد فترة طالت ، كان فيها النضـال حبيس الانفعال العاطفي او النضالات داخل الاحزاب من منطق اصلاحي ، يدعو الى اصلاح الواقع العربي اولا ·

في نهاية هذه المرحلة ، برزت عمليات عسكرية ذات تأثير ضد جيش العدو ، دفعته الى القيام بعمليات الانتقام والحشد في مواقع عدة على الحدود العربية ، كان اخرها الحشد على الحدود السورية ، الذي تطور فيما بعد ، الى ان وقعت حرب حزيران ٦٧ ·

عندما وجدنا انفسنا امام نتائج حرب حزيران ، وفي اليوم الثامـن لاندلاع الحرب ، عقدت قيادة فتح اجتماعا تدارست فيه الواقع الجديد · لم يكن هناك اي تردد ، بل كان القرار حاسما وفوريا : ان الطريق هي استمرار الكفـاح المسلح وتصعيده · خاصة وان واقعا جديدا قد نشأ · لقد اصبحت ارضنـا بأسرها تحت الاحتلال · وقاعدة النضال الشعبي موجودة ، وهي تواجـه الان العدو الصهيوني ·

كان جوابنا ، هو ارسال الرسل الى الضفة الغربية وقطاع غزة ، للاتصال بأوسع اعداد ممكنة من ابناء شعبنا ودعوتها للالتحاق بالنضال · وبدأت افواج بالمئات العديدة تصل الى معسكرات التدريب التي كانت في سوريا انذاك · واصبح معسكر الهامة مركزا للتجمع · يدخلون دورة عسكرية مكثفة لايام عدة ، ثم توزع عليهم الواجبات ، ويزودون بالعتاد وينطلقون عائدين الى الوطن المحتل · موجات اطلقنا عليها اسم موجات الثقة والامل · وبدأت هذه المجموعات تنتشر داخل الارض المحتلة ، بما لديها من سلاح · وقد تمكنا من الحصول على السلاح عبر عمل مواز ، قمنا فيه بارسال دوريات ، الى مناطق القتال بين الجيوش العربية والعدو الصهيوني ، حيث كنا نجمع الاسلحة من بقايا المعركة ، ونأتي به الى قاعدتنا في الهامة انذاك · نأخذ منها ما يتناسب واسلوبنا القتالي ، اما السلاح الثقيل الذي لا نستخدمه فكنا نسلمه للاخوة العرب ·

كان الشهيد الملازم خالد ابو العلا ، يدخل بسيارته الى بقايا المعسكرات في المناطق المحتلة ، يجمع منها بقايا الاسلحة ويعود · وكذلك في سيناء والضفة الغربية · وفي أول ايلول (سبتمبر) ١٩٦٧ ، اي بعد حوالي ثلاثة اشهر من الهزيمة ، بدأنا الانطلاقة الجديدة بعمليات مسلحة داخل الوطن المحتل ، شملت معظم المناطق : القدس ، تل ابيب ، غزة ، رفح ، بئر السبع ، حيفا وبقية المناطق · تطورت هذه العمليات الى ان وصلت فيما بعد الى صدامات واسعة مع الجيش الصهيوني ، كمعارك بيت فوريك وطوباس وغيرها · قام العدو على اثرها بحملات تمشيطية للقواعد الارتكازية التي اقمناها في عمق الوطن · مما دفعنا الى الغاء القواعد الارتكازية واستبدالها بقواعد سرية · تلاها دوريات كانت تحمل الاسلحة والامدادات الى القواعد السرية هذه · وعبر مسيرتنا الى الوطن المحتل ، بدأنا نقيم بعض القواعد الارتكازية بالقرب من نهر الاردن · وقد حاول النظام الاردني التعرض لها اكثر من مرة · وقام رجاله بأكثر من حملة للقضاء على تجمعاتنا في الاغوار · ولكنه فشل بفضل يقظة الثوار ، ومساندة ضباط وجنود احرار داخل الجيش الاردني ، وبفضل انتفاضة جماهيرية في المخيمات · بعد هذا الفشل ، بدأ العدو الاسرائيلي يحشد قواته للقيام بدور المطرقة من اجل سحق وجودنا في تلك المنطقة ·

وكانت معركة الكرامة

كانت ارادة العدو ، تريد سحق وجود القاعدة الثورية وانزال اكبر الخسائر في صفوفنا ، من اجل انهاء قدراتنا وامكانياتنا · وفي المقابل كانت ارادة الثورة واضحة : لم تواجه هجمات عدونا بالصمود · لقد هزم الجيوش العربية سيكولوجيا قبل ان يهزمها على ارض المعركة · كان القرار ، هو ان نميط

اللثام عن حقيقة غابت ، هي ان الانسان العربي بارادته وتصميمه قادر على مواجهة هذا العدو والتصدي له · لقد كانت معركة الكرامة قرار مواجهة وتضحية ، ولكن بايمان من يصنع حقيقة جديدة يمكن ان تكون نقطة تحول في تاريخ ثورتنا الفلسطينية ونضالنا العربي · وكانت معركة الكرامة نقطة تحول حقيقية ، رغم امكاناتنا المتواضعة واعدادنا القليلة ، حيث خسرنا حوالي ٩٧ شهيدا وبعض الاسرى والجرحى (كان هذا العدد يشكل انذاك اكثر من نصف قواتنا) الى جانب تدمير مخيم الكرامة ، وتشريد سكانه · الا ان هذه المعركة اعطت في تاريخ النضال الفلسطيني والعربي دفعة جديدة الى الامام · وهيأت للثورة الفلسطينية القدرة على النمو · اذكر على سبيل المثال ، ان كمية التبرعات من التموين والتجهيزات التي وصلتنا من ابناء شعبنا في الاردن او في انحاء الوطن العربي ، كانت تكفي حاجتنا لثلاثة اشهر قادمة · اضافة الى التدفق الجماهيري الهائل · كنا بعد يوم واحد من معركة الكرامة نجلس تحت اشجار مدينة السلط ، حيث تقف في مواجهتنا طوابير ممتدة من القادمين للتطوع والالتحاق بالثورة · نبدأ التسجيل في السابعة صباحا ولا ننتهي في الثامنة مساء · لقد تفجرت روحية العطاء لدى جماهير شعبنا وامتنا ، اثر تلك المعركة، فاعطت زخما جديدا لمسيرة ثورتنا · **فالتضحية والعطاء والمعارك تخلق دائما ارضية الانتصارات المقبلة ، وافاق تطور النضال وتصعيده ·**

وبعد الكرامة تصاعد نضالنا المسلح ضد العدو الصهيوني ، ولم يكن يضعف، الا حين كنا نواجه معارك الدفاع عن انفسنا من هجمات الانظمة العربية على ثورتنا · كما حصل في الاردن قبل ايلول وبعده ، او في لبنان ابتداء من عام ١٩٦٩ ·

لكن ، وفي اللحظات التي كنا نواجه فيها حملات التآمر على ثورتنا وشعبنا ، كان شعبنا في الارض المحتلة ، يؤدي دوره النضالي في مقارعة الاحتلال على جميع المستويات السياسية والعسكرية ·

لقد كانت مواجهاتنا المستمرة لحملات التآمر على شعبنا وثورتنا ، لا تجعلنا مطلقي الايدي في نضالنا المسلح ضد العدو الصهيوني · وكانت معارك العامين على الساحة اللبنانية ، شاغلا عن استمرارنا في قتال العدو ·

عملية الشهيد كمال عدوان

في الفترة الاخيرة ، وخاصة بعد ازدياد المؤامرات السياسية على قضيتنا ، كان لا بد لنا من تطوير اساليبنا في الكفاح المسلح ضد عدونا · من اجل ان نقفز فوق جميع محاولات التشويه المستمرة لمسيرة الثورة الفلسطينية · فكان الاعداد لعمليات ذات طابع خاص في عمق الارض المحتلة ، يشكل امتدادا لهذا

التصعيد النضالي الذي برز واضحا خلال الفترة الاخيرة ، من خلال العمليات المسلحة المتوالية في مختلف مناطق فلسطين ، ومن خلال انتفاضات شعبنا ٠

وكانت عملية الشهيد كمال عدوان ٠ حيث عبر ابطالنا عن روح العطاء الذي لا حدود له في ثورتنا ٠ فقد استطاعوا خلال عمليتهم فرض الاستنفار على الجيش الصهيوني ، وعاشت مناطق حيفا ـ تل ابيب اجواء حرب لم تعشها منذ ثلاثين عاما ٠ خاصة وان هذه المنطقة ، هي منطقة الحشد الرئيسي للمستوطنين الصهاينة ٠

لقد ولدت هذه العملية عبر جملة حقائق لا بد من ايضاحها :

١ ـ أن هذه العملية هي **تعزيز لخط الاستمرار في الكفاح المسلح وتصعيده ضد العدو الصهيوني ٠ وهو منهج الثورة الذي لا تحيد عنه ٠**

٢ ـ انها تخلق ارضية صلبة في صفوف الثورة الفلسطينية ٠ وتشجع كافة اطرافها على القيام بعمليات في العمق ، تشبه هذه العملية ٠

٣ ـ اثبتت هذه العملية ، ان اسطورة دفاعات العدو التي يتبجح بها ليست صحيحة ٠ فلقد قمنا بهذه العملية على منطقة تل ابيب ، وفي المكان نفسه الذي تمت فيه عملية سابقة هي « سافوي » ، على الرغم من جميع الاحتياطات ٠ علما بأن العدو كان يتوقع عملية !

٤ ـ انها تجسد قدرة الثورة على الوصول الى المكان الذي تريده ، في قلب كيان العدو ، رغم اجراءاته الاحترازية ووسائله الدفاعية المتطورة ٠

٥ ـ انها تجسد طبيعة الاصرار الذي يميز روحية المقاتل الفلسطيني ٠فعدد قليل من المقاتلين خاض حرب شوارع في قلب الكيان الصهيوني ، ولم يخش جيش العدو الكبير العدد ٠

٦ ـ لقد اطلق على العملية اسم الشهيد كمال عدوان ، وعلى القوة ، قوة دير ياسين ، وهذا ليس مصادفة ٠ فكمال عدوان اغتيل بيد العدو الصهيوني في عملية خاصة ، استهدفت بها الثورة في عدد من قادتها ، ودير ياسين هي رمز للجريمة التي اشرف على ارتكابها مناحيم بيغن ٠

حرب الجنوب

على ضوء فهمنا لطبيعة العدو الصهيوني المتطلعة الى التوسع الدائم في اجزاء من وطننا العربي ، كانت توقعاتنا ان يقوم العدو بتحرك عدواني يستهدف اجزاء من الجنوب اللبناني ٠ وقد سعى سابقا للسيطرة عليه ، عبر محاولات مباشرة : في هجماته السابقة ، والتي كانت اخرها معركة الاثني عشر

يوما في ايلول الماضي · او غير مباشرة ، عبر دفعه لعملائه في الجنـــوب ، كما جرى في معارك الطيبة ورب ثلاثين ومارون الراس ، والتي فشلت جميعها في تحقيق اهدافها · مما دفع العدو الصهيوني لتجهيز حملة جديدة ، تكـون معدة للتنفيذ بقواته مباشرة ، خاصة وبعد ان قضت معركة مارون الراس على خرافة قدرة عملائه في تنفيذ ما يطلب منهم ·

كنا نتوقع هذه المعركة ، وكان استعدادنا بما لدينا من امكانيات متواضعة · لقد خطط العدو لاستكمال سيطرته على المنطقة وتصفية الوجود الفلسطيني واللبناني الوطني المسلح ، خلال ساعات · وكان يريد اعلان نتيجة حملته تلك في المؤتمر الصحفي الذي عقده وايزمن في الساعة الحادية عشرة من اليـوم الاول للحرب ·

لكن الارادة الوطنية الفلسطينية اللبنانية ، واجهتهم واستطاعت ان تتصدى وتصمد وتحقق الكثير في الايام السبعة الاولى من المعركة ·

لقد اعتمدت خطة العدو العسكرية على التكتيك التالي :

١ ــ حشد العدو الصهيوني قوى عسكرية كبيرة جدا ·

٢ ــ الاسلحة التي استخدمها كانت متنوعة ، طيران ، بحريـة ، دبابـات ومشاة ·

٣ ــ الاسلوب المستخدم ، كان التركيز على كثافة النيران وتعـدد محـاور الهجوم ·

٤ ــ القتال في جميع الاوقات ليلا ونهارا ·

٥ ــ استهداف المدنيين ، حيث دمرت قرى بأكملها واصيب الكثيرون بهـدف اجبارهم على الهجرة ·

٦ ــ استخدام الاسلحة الحديثة التي تسلمها العدو مؤخرا مـن الولايات المتحدة الاميركية : طائرات ف ١٥ ، القنابل العنقودية والقنابل الذكية ·

وواجه ثوارنا العدو بأسلوب قتالي يتكافأ وضراوة هذه المعركة :

١ ــ مرونة الحركة والالتفاف للمناورة خلف خطوط العدو بشكل متواصـل ، من اجل ارباك مواصلاته وتقدمه بعد قتال اعتراضي على محاور التقدم ·

٢ ــ التحرك بمجموعات قتالية قليلة العدد لا تسمح للعدو بالاستفراد بها ·

٣ ــ المحافظة على الذات ، وذلك لمنع العدو من تحقيق هدفه والذي يتلخص في قتل اكبر عدد ممكن من الثوار وانزال الخسائر بنا ·

٤ ـ استخدام الاسلحة المتوفرة بكفاءة وقدرة شهد بها العدو ٠

٥ ـ توجيه الضربات الى نقاط تجمعه داخل فلسطين المحتلة ، مثل مستعمرات كريات شمونة ، كفار جلعادي نهاريا وغيرها ٠

٦ ـ الاهم من هذا كله ، روحية المقاتل وارادته الثورية وخبرته ، التي جعلت هذا المقاتل الفلسطيني والوطني اللبناني يعمل على مواجهة العدو بثبات ، رغم كثافة النيران التي استخدمها العدو ٠

٧ ـ قدرة المقاتل على المبادرة في كافة المواقف ٠ وخاصة تصرف المقاتلين الذين حاول العدو تطويقهم ، ولكنهم قاموا بواجباتهم وعادوا الى رفاقهم سالمين وقد اوقعوا في صفوف العدو بعض الخسائر ٠

٨ ـ التلاحم النضالي بين المقاتل الفلسطيني واللبناني والجماهير في الجنوب ٠ هذه الجماهير التي عانت وتألمت لكنها حافظت على روحيتها النضالية ودعمها للمقاتلين ٠

لقد حققت هذه المعركة على الصعيد الفلسطيني مزيدا من التلاحم بين مقاتلي الثورة الفلسطينية ، وسيكون هذا ارضية للنضال في سبيل **وحدة القوات العسكرية للثورة الفلسطينية** ٠ هذا الهدف الذي يزداد الحاحا كلما تقدم نضالنا وتوالت معاركنا ٠

كما انها عمقت التحام الثورة بجماهير الشعب الفلسطيني سواء في مخيماته او مناطق غربته او داخل الارض المحتلة ، عبر هذه الوقفة البطولية لجماهيرنا خلال ايام الحرب ، بشكل مليء بالتحدي للعدو ، عبرت عنها الجماهير بالتظاهرات والنضالات المختلفة ، الى جانب افواج المتطوعين الذين بدأوا بالتدفق للالتحاق بالثورة والمشاركة في القتال ٠

اما على الصعيد العربي فقد تعاظم التفاف جماهيرنا العربية حول الثورة وخط الكفاح المسلح ، عبر تدفق المتطوعين العرب ، والمساندة المادية والمعنوية ٠

اما دوليا ، فقد برزت قدرة الثورة الفلسطينية كحقيقة لا يمكن تجاهلها ٠

اما في صفوف العدو الصهيوني ، فان هذه الحرب ، سوف تساهم في تعميق أزمته ، عبر فرضها القتال الدائم والمستمر عليه ٠

ليست هذه الحرب الا احدى حلقات النضال ٠ فما دام العدو يقوم باحتلال ارضنا ، فان تصميمنا على المضي في الكفاح المسلح مستمر ومتطور ٠ ومعركتنا مع العدو ليست محصورة في جبهة واحدة ٠ بل هي تمتد الى كل شبر من الارض العربية يحتلها العدو ٠

نـزيـه قـوره

حرب الحرب الحرب
حرب الحرب الحرب
حرب الحرب الحرب
حرب الحرب الحرب
حرب الحرب الحرب
حرب الحرب الحرب
حرب الحرب الحرب

التصفيـة المستحيـلة

في الاسبوع الواقع بين الخامس عشر والثاني والعشرين من شهر آذار جرى في منطقتنا حدث له كل السمات التي تميز المراحل الجديدة والمختلفة نوعيا عن المراحل التي سبقتها · ففي الساعة الثانية عشرة من ليلة ١٤/١٥ آذار تحركت القوات الاسرائيلية لتنفيذ اوسع عملية عسكرية تقوم بها هذه القوات منذ حرب تشرين عام ١٩٧٣ ·

الهدف المعلن لهذه العملية هو « اجتثاث الوجود الفلسطيني » · هذا الهدف لم يكن هدفا جديدا · فقد تحدث تيودور هرتسل ، مؤسس الحركة الصهيونية عن تكليف السكان « المحليين » بتنظيف البلاد من العقارب والافاعي قبل طردهم خارج بلادهم لافساح المجال للمستوطنين الصهيونيين لاقامة « الدولة اليهودية » · وكان وايزمن ، احد رؤساء المنظمة الصهيونية ، واول رئيس دولة في اسرائيل ، يصف « اسرائيل » ، قبل قيامها ، بانها ستكون يهودية كما هي انجلترا انجليزية · اما مناحم بيغن ، رئيس الوزراء الحالي ، ورئيس المنظمة العسكرية القومية (الارغون) في الاربعينات ، فقد تفاخر في كتابه « الثورة » بأن مذبحة دير ياسين التي نفذها رجاله في نيسان من عام ١٩٤٨ ، كان لها دور أساسي في دفع القرويين العرب الى هجر قراهم وبالتالي الى افراغ المنطقة التي أقيمت عليها اسرائيل ، من معظم سكانها العرب ·

وبعد عام ١٩٤٨ لم تتوقف محاولات محو الاسم الفلسطيني · وتبين احداث السنوات السابقة ان هذه المحاولات لم يكن من الممكن ان يكتب لها النجاح · وهذا الفشل ليس عائدا لميزات خاصة يتميز بها الفلسطينيون عن اجزاء الامة الاخرى ، وانما يعود الى ان فلسطين تحولت الى رمز لمجموع طموحات جماهير

المنطقة العربية ، وذلك مقابل تحول الصهيونية الى رمز يجسد مجموع الاوبئة التي تعاني منها منطقتنا · فأسم الصهيونية يرتبط في ذهن الانسان العربي بالتجزئة وباستمرارها ، وبالسيطرة الاجنبية وباستمرارها ، وبانعدام التطور وباستمرار انعدام التطور ، وبالارهاب وبتجدده الدائم ، اي بالعقم الذي يعيد خلق ذاته · اما فلسطين فيرتبط اسمها بتوحيد اجزاء وطننا ، وبانهاء التسلط الاجنبي وتوفير شروط نمو القوى المنتجة والمبدعة ماديا وروحيا ، اي بالعافية المتجددة ·

فرض العقم مقابل الطموح الى العافية ، هذا هو جوهر التناقض بين الصهيونية وفلسطين · ولان القانون الذي فرضه التسلط الاجنبي على منطقتنا هو قانون العقم المتجسد في التجزئة ، فقد كان من غير المعقول « دمج » الفلسطينيين او تصفية القضية الفلسطينية · فلكي يتم دمج الفلسطينيين في الكيانات التي توزعوا عليها كان لا بد ان يتوفر في هذه الكيانات الحد الادنى من الشروط التي تجعل هذه الكيانات قادرة على الدمج · والحد الادنى من الشروط يعني توفر بنية اجتماعية اقتصادية نامية تطلب الطاقة البشرية ولا تطردها ، تتيح لهذه الطاقة البشرية ان تطور بأستمرار قدراتها الانتاجية والابداعية ، ولا تشكل عوامل كبح وقهر للتطور والنمو · هذا الوضع وما يتطلبه من بنى يتعارض مع الاهداف التي اقيمت من أجلها اسرائيل ·

لقد أرادت القوى الاستعمارية أن تصفي القضية الفلسطينية وأن تدمج الفلسطينيين في البلدان التي لجأوا اليها وان تحافظ على اسرائيل وعلى الكيانات الطفيلية العقيمة في آن معا · وبما أن هذه الاهداف لا يمكن تحقيقها معا فقد اعطت الأولوية للمحافظة على الكيان الصهيوني والكيانات العربية المجزأة ، واضطرت الى تأجيل حل مشكلة الفلسطينيين · لقد كان هناك حل واحد لمشكلة الفلسطينيين ، وهذا الحل يكمن في ايجاد منطقة عربية موحدة وقابلة للنمو ، اي في تعريب الفلسطينيين · ولكن القوى الاستعمارية لم تكن راغبة في تعريب الكيانات العربية نفسها ، فكيف يمكن تعريب الفلسطينيين في منطقة تسعى فيها تلك القوى المعادية الى سحب العروبة من عروقها ؟

هكذا اصبحت فلسطين اسما حركيا للعروبة في مواجهة الصهيونية التي لم تكن في يوم من الايام سوى اسم حركي للتسلط الانجلو سكسوني على منطقتنا · وبمقدار ما كانت تزداد القوة العسكرية الصهيونية ويبرز العجز عن مواجهتها كانت تتراجع العروبة وتتراجع فلسطين · ويصبح النهب والتسلط اللذين تمارسهما القوى الاستعمارية امرا طبيعيا لا يستدعي الجدل ·

الصهيونيون يعرفون ذلك · وقد عرفه زعماؤهم دائما · وقد عبر عن ذلك الصحفي الاسرائيلي شوكن بقوله : « لقد اعطي اسرائيل دور لا يختلف عن دور

كلب الحراسة ٠ ولا حاجة للخشية من ان تمارس اسرائيل سياسة عدوانية تجاه الدول العربية ، اذا كانت هذه السياسة تتعارض مع مصالح الولايات المتحدة وبريطانيا ٠ ولكن اذا فضل الغرب ، لسبب او لاخر ، ان يغمض عينيه ، فان بالامكان الاعتماد على اسرائيل لكي تنزل العقاب الصارم بتلك الدول المجاورة التي تتجاوز في قلة ادبها تجاه الغرب الحدود المناسبة » (١) ٠

الدولة التي كان يفترض انها مشغولة بالحفاظ على الذات وبانقاذ اليهود من الاضطهاد ، والتي لم يكن عدد سكانها قد تجاوز ١ر٣ مليون نسمة ، يتحدث صحافيوها في عام ١٩٥١ عن انزال العقاب الصارم بمن يظهر قلة الادب تجاه الغرب ٠ وقلة الادب تعني التعبير عن اي طموح لتوفير شروط التطور الطبيعي٠ وفي عام ١٩٧٥ يتفاخر الصحفي الاسرائيلي تسفي لحسه بما انجزته اسرائيل : « منذ ٢٨ سنة واسرائيل هي التي تجعل الشرق الاوسط مستقرا ٠ فنحن الذين منعنا العرب الراديكاليين من الاستيلاء على الدول المحافظة ٠٠٠ ونحن ايضا منعنا طرد الولايات المتحدة ، ومن الناحية الاستراتيجية ، هذا هو اساس المصلحة في تأييدنا ٠ » (٢)

ان المهمات التي ينسب الصهيونيون لانفسهم القيام بها تدور كلها حول ترتيب وضع عام يسود المنطقة المحيطة بفلسطين ٠ فمن ضمان الاستقرار في الشرق الاوسط الى منع طرد الولايات المتحدة الى منع الراديكاليين من الاستيلاء على الدول المحافظة (اي الوقوف في وجه اي وحدة تقوم بين قطرين عربيين) الى تأديب القوي التي « تقل أدبها » في وجه بريطانيا والولايات المتحدة كل هذه المهمات هي مهمات اداة قمع وليست مهمات ملجأ للمضطهدين او مهمات مركز تشع منه الحضارة ٠

مهمات كلب الحراسة التي تحدث عنها شوكن ، رئيس تحرير صحيفة هآرتس في عام ١٩٥١ ، عاد معلق دافار ليؤكدها في عام ١٩٧٤ ٠ ودافار هي الصحيفة الناطقة باسم الهستدروت اي اتحاد العمال في اسرائيل ٠ يقول هذا المعلق : « وبسبب ازمة الطاقة بالذات ، وارتباط الدول الغربية ، بشكل لم يسبق له مثيل ، بدول النفط العربية ، يحتاج الغرب لاسرائيل مثل حاجته لكلب حراسة ذي اسنان حادة ، مربوط بالسلاسل الامريكية الطويلة جدا ، بحيث تأذن له بغرس اسنانه اذا تحدوه اكثر من اللازم ٠ » (٣)

الاسنان الحادة ، السلاسل الامريكية الطويلة ، اساءة الادب من قبل القوى الوطنية المحلية ، تلك هي الموضوعات التي تتحدث عنها الصحيفة الناطقة باسم العمال ٠ وهذه الموضوعات هي التي تتحول في اجهزة الاعلام ومكاتب العلاقات العامة الى حماية المدنيين الاسرائيليين والرغبة الجامحة في السلم والتفرغ لتعمير الصحراء وتجفيف المستنقعات ونقل الحضارة الى الشرق !!!!

اذا كانت الولايات المتحدة تحتاج لاسرائيل كحاجتها لكلب حراسة ، فان ما يعني الولايات المتحدة بالضرورة هو حدة الاسنان وصلابتها والاستعداد الدائم لغرس الاسنان . وهذا ما يوضحه وزير الدفاع الاميركي السابق ، جيمس شليزنغر : « ما دمتم واثقين بانفسكم ، وما دمتم مؤمنين بقوتكم العسكرية ، وتبرهنون على ذلك ، فان الاميركيين الى جانبكم ، وكذلك البنتاغون والجيش بصورة خاصة . ولكن منذ ان بدأتم تولولون وتتذمرون تبدلت العلاقة . ان الاميركي احب اسرائيل القوية المنتصرة ، لكن اسرائيل المترنحة تعتبر مشكلة . ومن من الناس يحب المشاكل ؟ » (٤).

ان بقاء اسرائيل يرتبط بقوتها . وقوتها ليست تلك القوة المعدة للدفاع عن الذات وصد الهجمات الخارجية ، بل هي تلك القوة المؤهلة للعمل على مدى المنطقة العربية ، ولالحاق الهزائم بكل ما تستطيع هذه المنطقة حشده من قوى . وبالاساس منع قيام شروط تتيح للمنطقة ان تحشد قواها . ان القوة الاسرائيلية يجب ان تكون متفوقة تفوقا مطلقا لا نسبيا . وهذا يعني بالضرورة ان تكون المنطقة ضعيفة مطلقا . فالتفوق المطلق ليس سوى شق معادلة ، شقها الاخر هو الضعف المطلق . وتتجسد معادلة القوة المطلقة في الجانب الاسرائيلي والضعف المطلق في الجانب العربي في الاوضاع التالية :

١ ـ يجري التركيز على اسطورية القوة الاسرائيلية . مقابل التركيز على الفساد والتعفن والضعف في الجانب العربي . ويصبح شعار « العرب اجرب » عقيدة تفقد الانسان العربي القدرة العقلية على التفكير بامكان مواجهة اسرائيل . وعندما تحدث مواجهة حقيقية فان العقل الذي جرى تركيبه على اساس معادلة « العرب جرب » يرفض التصديق . وتكون العناوين التي تستعمل في وصف المواجهة هي نفس العناوين التي تستعمل في وصف الانهزام : « عدوان اسرائيلي » ، اسرائيل تقصف ، اسرائيل تعتدي ، فلان يستنهض الرأي العام ، فلان يستعجل انعقاد مجلس الامن .

٢ ـ بما ان القوة الاسرائيلية اسطورية ، وتستمد عناصرها من « اليهودية العالمية » المسيطرة على الشرق والغرب ، فان الجيش العربي وقياداته يكون مهيأ سلفا لاوامر الانسحاب الى الخط الثاني ، عندما يطلق الجيش الاسرائيلي اولى قذائفه . وبهذا يتعمق الاحساس باسطورية الجيش الاسرائيلي . ويصبح هذا الانتصار الوهمي سلاحا من اسلحة الحرب القادمة .

٣ ـ عندما تتحقق الهزيمة ، ولقطع الطريق على الاسئلة عن أسباب الهزيمة ، يكون المندوب في الامم المتحدة قد صاغ الشكوى وقدمها الى مجلس الامن الدولي . وبما انه يجب اعطاء فرصة للعمل السياسي ، وللنشاط الدبلوماسي ، ولكسب الرأي العام ، فان اي نوع من الرد على الهزيمة يصبح عملا مغامرا

وضارا بمصلحة الوطن والنظام التقدمي في هذه العاصمة او تلك · وبهـــذه الطريقة يجري قطع الطريق على أية مبادرة جماهيرية ·

الفلسطينيون عرفوا منذ زمن بعيد ان العمل الهام الوحيد الذي قامت بـــه عصبة الامم التي تأسست بعد الحرب العالمية الاولى كان منح الانتداب لبريطانيا على فلسطين وتكليف الدولة المنتدبة تسهيل ظروف انشاء دولـــة يهودية فـي فلسطين · والفلسطينيون عرفوا ان العمل الهام الوحيد الذي قامت به هيئـــة الامم المتحدة التي تأسست بعد الحرب العالمية الثانية هو اصدار قرار التقسيم عام ١٩٤٧ · واذا حذفنا القضية الفلسطينية من جدول اعمال الامم المتحدة ، فمن المؤكد ان مقر هذه الهيئة سيصبح مكانا كئيبا ·

ومنذ البداية كان واضحا في ذهن الفلاحين الاميين في فلسطين ان الـــرد الوحيد على الصهيونية هو السلاح · وكان واضحا في ذهن هؤلاء الفلاحيـــن وفقراء المدن أن الرصاص يصيب الصهيونيين ويجرحهم ويقتلهم · وان بيـــت الصهيوني قابل للتفجير ، وان مقر الوكالة اليهودية في القدس قابل للنسف ·لم تكن الصهيونية اسطورة في الذهن الفلسطيني · ولم يكن الصهيوني مخلوقـــا خارقا للطبيعة · ويعترف المؤرخون الصهيونيون ان الفلسطينيين كانوا قادرين في عام ١٩٤٨ على احراز انتصارات عسكرية قبل دخول الجيوش العربية الـــى فلسطين · ولم يعد هذا ممكنا بعد دخول الجيوش العربية · ولان الفلسطينيـــين امتلكوا هذا القدر من المعرفة كان يجب منعهم من الوصول الى السلاح · واذا وصلوا اليه فيجب انتزاعه منهم بكل ثمن · لانهم ان وصلوا اليه واتيح لهـــم استخدامه انكشفت الخدعة وزال السحر وانتهت اللعنة النازلة على هذه المنطقة منذ اقامة الكيان الصهيوني ·

في الخامس عشر من اذار عام ١٩٧٨ قررت القيادة الاسرائيلية ان تجتـث الوجود الفلسطيني · وقالت الانباء انهم كانوا ثلاثين الفا · وقالت جريدة فـي بيروت ان الدبابة الاسرائيلية يحيطها جدار حراري يفجر قذيفة الار بي جي قبل وصولها الى الدبابة · وقال العسكريون انه لم يكن بوسع اسرائيل ان تستخدم في مثل هذه الجبهة عددا اكبر من القوات التي استخدمتها فعلا · ودخلت الحرب اسلحة لم تستخدم من قبل ، منها طائرة ف ـ ١٥ الامريكية · وتجاوب اسرائيل في حروبها مع العرب قالت لها ان المقاتلين سيفرون مـــن امـــام القـــوات الاسرائيلية المهاجمة في الساعات الاولى · واعد وزير الدفاع ورئيس الاركـان ورئيس الوزراء في اسرائيل انفسهم للاعلان عن انتهاء المقاومة الفلسطينيـــة وحلفائها قبل مضي ٢٤ ساعة على بدء الهجوم · ولكن المعادلات فـــي ذهـــن المقاتلين الفلسطينيين والوطنيين اللبنانيين لم تكن تتوافق مـــع الحسابـــات الاسرائيلية · واحدى هذه المعادلات كانت تقول ان قذيفة الدبابة او الطائـرة او المدفعية لن تؤذيك الا اذا وقعت على رأسك مباشرة · وهذا بعيد الاحتمـــال ·

ومعادلة اخرى كانت تقول ان عدد الضحايا في حالة الهرب يزيد عن عـــدد الضحايا في حالة الثبات والمواجهة · ومعادلة اخرى كانت تقول انه لكي تبطـل فعالية القصف الاسرائيلي يجب ان تندفع الى الامام باتجاه المواقع المعاديـــة · وثبت في معارك الساعات العشر الاولى ان هذه المعادلات البسيطة تؤدي الـى تحقيق الاهداف المطلوبة : انزال اقصى ما يمكن من الخسائر بالعدو والمحافظة على الذات · وكانت الخسائر متدنية بشكل مدهش وغيـــر قابلة للتصديـــق وخسائر العدو مرتفعة بصورة اوقعت ارتباكا شديدا لدى قيادة العدو · وهكذا حدث ان بعض القرى والمواقع لم يجرؤ الاسرائيليون على دخولها الا بعد يومين من اخلائها · واضطر هذا العدو في بعض المواقع ان يستعين بالقصف المدفعي وقصف الطائرات لمدة سبع ساعات قبل ان ينجح في التقدم كيلومترا واحـــدا باتجاه موقع لا يضم اكثر من ثلاثة مقاتلين · وخلال هذه الحرب دخلت عبارات جديدة على اللغة العسكرية الاسرائيلية : سنوقف القتال عندمـــا يتوقـــف الفلسطينيون عن اطلاق النار · لكن الفلسطينيين لم يتوقفوا عن اطلاق النار ·

وفي الماضي كانت هناك عقيدة اسرائيلية تقول في احد مبادئها ان الجيش الاسرائيلي يجب ان يمتلك المبادرة دائما : هو الذي يقرر بدء الحرب وهو الـذي يقرر انهاءها · وفي حرب اذار كانت قيادة الجيش الاسرائيلي تنتظر ان يقوم الفلسطينيون بانهاء الحرب ، لكي توقف هي اطلاق النار · ولا شك ان من لهم دراية بموضوع العقائد العسكرية يوافقون على ان الغاء مثل هـــذا المبـــدأ الاساسي من هذه العقيدة يلغي العقيدة بأكملها · فليس هناك أية قيمة لامتـلاك جيش ما القدرة على بدء الحرب اذا لم يمتلك القدرة على انهائها · ولان الوضع الذي وجدت القيادة الاسرائيلية نفسها فيه لم يكن مألوفا لديها فقد كان لا بد من تدخل جهة خارجية لانهاء الحرب ولاخفاء حقيقة الهزيمة المريعة التي لحقـــت بالجيش الاسطوري · وهكذا تم استدعاء مجلس الامن وانتزاع قرار منـــه والبحث بصورة عصبية عن اية قوات جاهزة يمكن ارسالها للاشراف على وقف النار ·

في حرب اذار تحطمت كذبة كبرى ، عاش عليها الكيان الصهيوني عشـرات السنين · كان كل ما تقوم به اسرائيل يشكل معجزة · كل حروبهـــا كانـــت معجزات · كل مصنع تنقله احدى الشركات الاميركية الى اسرائيـل يعتبـــر معجزة اسرائيلية · كل أداة من أدوات الري يكون قد مضى على استعمالهـــا في كاليفورنيا عشر سنوات ، تصبح معجزة في اسرائيل ، ويصبح المصنع الذي ينتجها معجزة · ويصبح كل موظف في المصنع معجزة متحركة · كانت اسرائيل هي ذلك « البلد الصغير السالم المشغول بصنع الحضارة » · وكانت تحيـــط بها قبائل البرابرة المتعطشة للدم وللخراب ولحرق المزروعات والقرى · وكانت اسرائيل تترك اعمال صنع الحضارة لتتفرغ لبضعة ايام لهزيمة قبائل البرابرة

العرب . وكان الجندي الاسرائيلي متفوقا تفصل بينه وبين العربي هوة نوعية غير قابلة للردم . فالجندي الاسرائيلي عقائدي مؤمن بعدالة القضية التي يحارب من أجلها ، ومتعلم وذو خبرة في استعمال الاسلحة ، وذو مقدرة على استيعاب اخر ما تنتجه مصانع السلاح في الولايات المتحدة . وبالمقابل كان العربي همجيا ، ليست له قضية معينة ، هدفه النهب والقتل والتخريب ، مرتزقا يحمل السلاح لان هناك من يدفع له مخصصا شهريا .

في حرب اذار كانت نسبة الجنود الاسرائيليين الى المقاتلين الفلسطينيين والوطنيين اللبنانيين تقارب ١ : ٢٠ لصالح الاسرائيليين . وفي مجال الطائرات والسفن الحربية والمدرعات لا يوجد مجال للحديث عن النسب . وفي هذه الحرب صدرت الاوامر من القيادة الاسرائيلية الى وحداتها باطلاق النار على من يفر من المعركة او يمتنع عن التقدم . وفي هذه الحرب كانت قيادة الوحدات الاسرائيلية ترفض التقدم الى موقع لا يزيد عدد المقاتلين فيه عن عشرة الا بعد قصف مدفعي وقصف بالطيران لعدة ساعات . وعند أول اشارة لوجود مقاومة كان يقوم بالتراجع ليطلب القصف بالطيران والمدفعية . وفي هذه الحرب اضطرت الصحف الامريكية ان تعلن شكها بالبلاغات الاسرائيلية حول الخسائر . ففي جريدة انترناشيونال هيرالد تريبيون الصادرة بتاريخ ٢١ اذار ١٩٧٨ ، نجد على الصفحة الاولى تصريحا للجنرال غور يقول فيه ان عدد القتلى الاسرائيليين منذ بدء القتال بلغ ١٨ قتيلا . ونقلب الصفحة في نفس الجريدة فنجد على الصفحة الثانية خبرا يقول ان عدد القتلى يتجاوز ٥٥ قتيلا « حسب تقارير غربية موثوقة » . ويعرف المقاتلون ان عدد قتلى العدو يتجاوز اضعاف هذا الرقم .

لقد تميزت حرب اذار بان العدو الصهيوني لم ينجح الا في انزال اقصى ما يستطيعه من الخسائر بالمدنيين وبقراهم وبحقولهم في حين كانت خسائر المقاتلين لا تزيد عن الحد الادنى الممكن .

ان تعبير « الهوة النوعية » بين المقاتل الاسرائيلي والمقاتل العربي تعبير سيختفي سريعا من التداول . وستدرس جهات كثيرة النتائج الخطيرة المترتبة على اختفاء هذا التعبير من التداول . ومن هذه الجهات التي ستدرس هذا الموضوع تأتي الولايات المتحدة في المقدمة . ان اميركا تحب اسرائيل القوية المنتصرة . اسرائيل التي تنهزم امامها الجيوش قبل البدء باطلاق النار ، اسرائيل ذات الذراع الطويلة . هذه هي اسرائيل التي تمتلك مبرر وجود في نظر اميركا والبنتاغون والجيش الاميركي . لكن اسرائيل التي لا يفر من امامها المقاتلون الوطنيون هي مسألة اخرى .

لقد كان الفلسطينيون دائما هم الشبح الذي يقبر ويخرج من القبر . ولهذا

كان لابد من تجنيد جيوش كثيرة لاعادة ادخاله الى القبر . كانوا منذ الف عام ١٩١٧ وقاتلوا ثلاثين عاما واصبحوا ١٫٤ مليونا عام ١٩٤٨ . وقاتلوا ثلاثين عاما اخرى وصاروا أربعة ملايين . ومع وجود المشروع الصهيوني لم يكن لهم في اي وقت مكان . ولهذا كانت لهم كل الامكنة . كانوا يعرفون السر ، ويعرفون اكثر مما كان مناسبا ان يعرفوا . ولهذا كان يجب اسكاتهم دائما .

في اذار من عام ١٩٧٨ انكشف السر المستور . لم تعد الصهيونية اسطورة . اصبحت لحما يمكن للرصاص ان يخرقه . وعندما تصبح الصهيونية لحما يمكن خرقه بالرصاص ودما يمكن اسالته وحديدا يمكن تدميره وطائرات يمكن اسقاطها ، لا يعود هناك من مبرر للبقاء . الاسطورة ماتت في الجنوب اللبناني ، وبدأ عهد جديد .

الحواشي

١ ـ هآرتس ٣٠ـ٩ـ١٩٥١ ، شبوكن : نحن وعاهرة الموانيء : تأملات عشية رأس السنة العبرية (الجديدة) .

٢ ـ يديعوت احرونوت ٢٢ـ١٢ـ١٩٧٥ .

٣ ـ دافار ١٠ـ٦ـ١٩٧٤ .

٤ ـ هآرتس ٨ـ٣ـ١٩٧٦ .

غـازي الخليـلي

العـمليـة

دير ياسين ـ المذاكـرة

دير ياسين ٩ـ٤ـ١٩٤٨

قامت صباح هذا اليوم قوة مشتركة من عصابة الارغون وعصابة شتيرن والبالـماخ بمهاجمة قرية دير ياسين ، غربي مدينة القدس · تقدر القوة المهاجمة بـ ١٣٢ رجـلا مزودين بسيارات مصفحة واسلحة رشاشة وقنابل يدوية ومدافع مورتر · وخلال ساعات تم « تنظيف » القرية من جميع سكانها البالغ عددهم (٤٠٠) نسمة بين رجل وامرأة وطفل· قتل منهم ٢٥٤ شخصا ، والاخرون جرحوا او لا يعرف مصيرهم ·

دير ياسين ١١ـ٣ـ١٩٧٨

قامت مجموعة دير ياسين الفدائية بتنفيذ عملية الشهيد كمال عدوان ، بعد ظهر هـذا اليوم ، على الطريق بين حيفا وتل ابيب · افادت السلطات الاسرائيلية بمقتل ٣٧ اسرائيليا وجرح ٨٢ آخريـن ·

ثلاثون عاما ودير ياسين في الذاكرة ، ثلاثون عاما وهي مطاردة مطـاردة،علـى انقاضها بنى صهيون جفعات شاؤول ، ومن جماجم شهدائها الـ ٢٥٤ بنت جفعات شاؤول بيوتا · وعلى صرخات اطفالها وصيحات عذاراها بنى صهيون مجدا · حجارتها التي لونتها شمس الغروب ازالها صهيون ، ليجتث الماضي وليجعل منها اسما بلا تاريخ ولا هوية ·

ثلاثون عاما وصهيون يحاول ان يمحوها من الذاكرة · ثلاثون عاما يطاردها تاريخـا وذكرى · ابناؤها الذين أفلتوا من الجريمة ، والمشردون في كل مكان ، يحاول صهيون ان يجتثهم ، حتى لا يبقى من يشهد على انها دير ياسين وليست جفعات شاؤول · حتى لا يبقى من يشهد على انها الحقيقة ، وأنها التاريخ والقضية ·

ثلاثون عاما والحراب تطاردها من مكان الى مكان · ثلاثون عاما وهي مطاردة ، تسكن الذاكرة وتمسك بخيوط الشمس · المجرم يطاردها ، وهي تطارد الجريمة والمجرم ·

من يذكر دير ياسين ؟!

دير ياسين كانت ٠٠٠ قرية عربية مسالمة ٠ سكانها اناس طيبون ، فلاحون بسطـــاء آمنوا ــ على عكس ما هو سائد ــ ان القادمين الجدد والذين استوطنوا ارضا قريبة مـن قريتهم ، طيبون مثلهم ٠ فلم يعادوهم ٠ فاكتوت دير ياسين بنار الصهيونية والمستوطنين الجـــدد ٠

مختار القرية كان دائما يزور جفعات شاؤول ، وسكان القرية كانت علاقاتهم حسنة مع مستوطني جفعات شاؤول ٠ ويذكر التاريخ ان اهالي القرية لم يشكوا امرهم الى السلطات العربية ، لما اشتد الصراع بين الفلسطينيين العرب والمستوطنين الجدد ٠ ولما كان موقـع دير ياسين مهما على الطريق بين القدس وتل ابيب ، فان المقاتلين العرب غضوا طرفا عـن هذه الاهمية ، تجاوبا مع شعور اهالي القرية ، الذين رفضوا ان يتمركز مقاتلون عـرب فيها لحمايتها ٠ كانت طيبة اهالي دير ياسين فوق التصور ٠ كانوا يقدرون ان طيبتهم هذه لا بد وان تقدر عند « الاخرين » ٠ فيتركونهم لحالهم ، طالما انهم لم يتعرضوا لهم بأذى ٠

ربما كان هذا خطأهم ٠

فليلة التاسع من نيسان « ابريل » ١٩٤٨ نام اهالي القرية كعادتهم ، غير مأخوذين بما يدور من حولهم ٠ لم يهتموا بالحراسة ٠ تركوا حراسة القرية لبعض كبار السن مـــن اهالي القرية كاحتياط ٠ وسلاحهم لم يكن الا بضعة بنادق تركية قديمة ، لا تجدي نفعا الا ربما في صيد الارانب او اطلاق النار بهجة في الاعراس ٠

كانت القرية تغفو ، وكان الاطفال يحلمون ٠ وكان بيغن زعيم عصابة الارغون ، يخـطط بالاتفاق مع عصابة شتيرن والهاجناه ، ليس لاحتلال القرية ، بل لابادة وذبح كل سكانها ٠ لتكون الجريمة مدخلا لبث الذعر عند كل السكان العرب،ذعرا يدفعهم الى الهجرة والهروب٠

كانت دير ياسين هدفا سهلا ، وكان اهلها طيبين جدا ٠

في الساعة ٤ر٣٠ من صباح هذا اليوم كانت القوة المهاجمة تطوق القرية من جميع المحاور ٠ ومن بعيد ، من مكبر للصوت لا يسمعه الا من هو بقربه ــ كما يقول شاهد ــ انذر اهالي القرية النائمون ، ومدة الانذار كانت نصف ساعة ٠ ولما لم يسمع احد الانذار بـدأ الهجوم ٠ وكان بيت المختار اول البيوت التي استهدفت ٠ وخلال ساعات انتهت العمليـة ونظفت القرية من جميع سكانها ٠ لقد قاتلت البنادق التركية القديمة وقتلت اربعة مـــن المهاجمين ، كما قال بيغن ٠ ولكن ٠٠٠ ؟ كانت المحصلة ٢٥٤ قتيلا بين رجل وامرأة وطفل، ذبحوا وقتلوا بدم بارد ٠ مثل باجسامهم ، قطعت اوصال البعض منهم ، بقرت بطـــون الحوامل ، واغتصبت فتيات المدارس ٠ عندما يستعيد الانسان تفاصيل هذه الجريمة الان ، يكاد لا يصدق ٠ مندوب الصليب الاحمر الذي زار القرية في اليوم التالي ، لم يكن يصدق ما تراه عيناه ٠ كثير من التفاصيل التي رواها شهود عيان ، تكاد لا تصدق لهولها ٠

الشاهد فهمي زيدان ، عمره ١٢ سنة ٠ ★

كان الوحيد الذي نجا من بين ٣٥ شخصا ، جمعوا وقتلوا وظهورهم الى الحائط ، يقول فهمي : « امر اليهود جميع افراد عائلتنا ان يقفوا ويديروا وجوههم الى الحائط ٠ وما ان

★Hirst, David, The Gun And The Olive Branch Page 124

قمنا بذلك ، حتى بدأوا باطلاق النار علينا ، اصبت بجنبي ·· ابي ، امي ، جدي جدتي ، خالاتي ، عماتي ، واطفالهم ، قتلوا » ·

الشاهد حليم عيد ، يقول :

« رأيت شخصا يطلق النار على اختي الحامل في شهرها التاسع ، ثم يبقر معدتها بسكين لحام » ·

الشاهد مئير باعيل يقول : ★

« كان الوقت بعد الظهر عندما انتهت المعركة وتوقف اطلاق النار · كان الوضع يبدو هادئا ، ولكن القرية لم تستسلم · افراد الارجون وشتيرن تركوا اماكنهم حيث كانوا مختبئين · ثم قاموا بعمليات « تنظيف » في البيوت : اطلقوا نيرانا من جميع الاسلحة التي كانت بحوزتهم ، والقوا بالمتفجرات على البيوت · واطلقوا النار ايضا على كل شخص كانوا يرونه في البيوت ، بمن فيهم الاطفال والنساء · وحقيقة ، لم يقم القادة بأي محاولة لمنع اعمال الذبح ··· في هذا الوقت تم جمع اكثر من ٢٥ شخصا ، احضروا من بيوتهم، ثم اركبوا سيارة شحن ، وطيف بهم في استعراض على طريقة الرومان ، في شوارع القرية ثم اخذوا الى محافيّة يهودا، ومن هناك الى منطقة حجرية بين دير ياسين وجفعات شاؤول، حيث قتلوا بدم بارد » ·

والشهادات كثيرة ، والتفاصيل فظيعة · ولانها كذلك ، ولانها اثارت استنكارا عالميا، انكرت قيادة الهاجناه اشتراكها بها ، وادانت الوكالة اليهودية مرتكبيها · ولكن الحقائق واضحة · وكما يذكر بيغن واخرون يهود ، فالهاجناه كانت على علم كامل بالعملية ، وزودت المهاجمين بالسلاح والذخيرة ، كما امرت مجموعة من البالماخ بالاشتراك في العملية ·

ومنذ ثلاثين عاما ودير ياسين تفاصيل ··· وجريمة ، ودير ياسين تطارد الجريمة ·· والمجرم ·

وفي ١١-٣-١٩٧٨ كان مناحيم بيغن ، رئيسا لوزراء اسرائيل ، وكانت دير ياسين تنطلق من الذاكرة ، وتتمشى على الشاطىء ، على الطريق بين حيفا وتل ابيب · كانت دير ياسين هناك تطارد المجرم ·

II

دير ياسين ـ البطولة

كل شيء كان هادئا على الشريط الساحلي الممتد من حيفا الى تل ابيب ، بعد ظهر يوم

★ مئير باعيل ، احد عناصر البالماخ الذين شاركوا في الهجوم على القرية · لقد رفع تقريره هذا الى يسرائيل جاليلي قائد البالماخ انذاك ، ولم يسمح بنشر هذا التقرير الا بعد ٢٤ سنة ·

السبت في ١١-٣-١٩٧٨ . لا احد كان يفكر أن هذا اليوم سيكون يوما غير عادي . وحدهم الذين سكنت دير ياسين ذاكرتهم كانوا يفكرون .

كل شيء كان هادئا ، المصطافون والمتنزهون يقضون أوقاتا ممتعة . فحكومة اسرائيل قوية ، تطارد « المخربين » وتقصف مخيمات الفلسطينيين ، بعيدا عنهم . لا مكان للفلسطينيين . فالسادات يزور القدس طالبا « السلام » واثار حزب تشرين تبخرت في الهواء ، فلا شيء يخيف .

كل شيء كان هادئا وعاديا جدا ، والامور تسير على خير ما يرام . بيغن سيسافر غدا الى واشنطن بطحبة وزير خارجيته . وفانس يتابع زيارته للولايات المتحدة ، ويعقد صفقات جديدة من الاسلحة الاميركية لاسرائيل . والسادات قابع في استراحته يبحث عن جرعة حياة « لمبادرته » التي تكاد تموت من الجفاف .

كل شيء عادي ، وكل شيء هادىء . حسابات السياسة ومعادلات الكبار ، تمضي دون عوائق ... لا شيء ينذر بالخطر ، ولماذا الخوف ، وممن الخوف ؟ وفجأة تنطلق الرصاصات ... وفجأة تنطلق تفاصيل جديدة عن دير ياسين . ويتذكر بيغن المصطلحات التي تربى عليها : « ارهاب ، سفلة ، قتلة » الخ .

دير ياسين لم تمت ، واستحضار دير ياسين الجريمة ، يجعل الانسان يفقد اعصابه ، ويجعل التفكير في الانتقام أمرا لا بد منه . وحدهم المقاتلون الفلسطينيون كانوا اكبر من الجريمة ، واكبر من فظاعتها ، وحدهم قالوا ، اننا نتذكر ، لنعيد ترتيب الامور من جديد ، ليس بالارهاب ، ولكن بالقتال . والحرب هي الحرب ، كما يقول السياسة الكبار في لندن وواشنطن ، وكما يقول بيغن . والحرب دائما لها ضحاياها . بيغن عنده الطائرات يقصف بها المخيمات والتجمعات السكنية . فهل هذه هي الحرب ؟

الشعب الفلسطيني لا يملك الطائرات ليدمر وليقتل على طريقة السياسة الكبار . الشعب الفلسطيني مقاتلوه ، ومناضلوه ... في الضفة الغربية يرشقون الدبابات بالحجارة ، ويقاومون الرصاص النهمر بأطارات الكاوتشوك المحترقة . هل هذه هي الحرب ؟ من يملك الدبابة والطائرة ، فمعه القانون ، يقتل ويدمر كما يشاء ... اما الذين يقاتلون من اجل وطنهم ، فالقانون ضدهم ، ونضالهم ارهاب !! اي عدالة واي قانون ؟

صحيفة اميركية لم تسمع ان هناك اطفالا عربا تحصدهم يوميا الطائرات الاسرائيلية ، وانه منذ يومين اجتاح سائق شاحنة عسكرية اسرائيلية جمعا من النساء والاطفال في مخيم عسكر بنابلس عربا من حجارة الاطفال فقتل طفلين وجرح اربعة آخرين . واعتبر الاطفال مذنبين والسائق بريئا . هذه الصحيفة ذرفت كل الدموع وجندت كل كلمات الرثاء، لقتل امراة كانت تتنزه على الشاطىء على حد قولها . كانت على الشاطىء لانها كانت تستمتع الى زقزقة العصافير فاصابتها رصاصات القتلة . تأسف لقتل هذه المراة ، ولكن من يأسف لمقتل اطفال فلسطين ، واطفال لبنان ، واطفال مدرسة بحر البقر في مصر ؟

كان كل شيء هادئا ، وعاديا جدا ، بشكل يبعث على الملل . وفجأة ... تتغير الصورة ، وتبدأ فصول جديدة ... لم يدخلها الساسة الكبار في حساباتهم ومعادلاتهم .

هل من تفاصيل ؟

تبدو التفاصيل هنا مشوشة ، وغير دقيقة . ويبدو ان الاهداف السياسية تسقط بعض

التفاصيل ، وتخلق تفاصيل جديدة · ولكن تبقى بعض التفاصيل مهمة ، وكما تـــروي المصادر الاسرائيلية :

مجموعة من الفدائيين الفلسطينيين قدر عددهم في البداية بعشرة رجال وامرأة قدمـوا من منطقة ما من ساحل لبنان بزورقين مطاطيين فرنسيين من نوع « زودياك » ونزلوا فـي مكان على الشاطىء الفلسطيني قرب مستوطنة معجان ميخائيل التي تقع على بعد ٢٥ كيلو مترا جنوب حيفا · ثم اتجهوا صوب البر ، ولما وصلوا الطريق الدولية اوقفوا سيـارة مرسيدس وركبوها في اتجاه تل ابيب التي تبعد ٥٦ كم عن المكان الذي نزلوا فيه ·

وفي الطريق اوقفوا باصا وانتقلوا اليه متابعين رحلتهم مع ركابة بعدما كسروا زجاجه الخلفي وراحوا يطلقون منه النار على السيارات الاتية من الاتجاه المعاكس · ثم اوقفـوا باصا اخر واحتجزوا ركابه البالغ عددهم ٦٣ شخصا، وضموهم الى هؤلاء · وانطلق الباص بالجميع في اتجاه تل ابيب ، في رحلة انشد خلالها الفدائيون اغاني ثورية وهتفـــوا بشعارات سياسية تندد بالتسوية السلمية وبالسادات ·

واستطاع الفدائيون اجتياز حاجزين اقامتهما الشرطة على الطريق الدولية بين حيفـا وتل ابيب ، الا انهم اضطروا الى التوقف عند الحاجز الثالث الذي اقيم في منطقه هرتسليا قرب ناد ريفي يحمل اسم « كانتري كلوب » اطلق رماة اسرائيليون النار على دواليب الباص وعلى الاثر خرج افراد الوحدة الفدائية من الباص ، وانتشروا في الجوار ·· ونشبـت معركة استمرت عشر دقائق ·

تفاصيـل جديـــدة

ذكرت « الجارديان » ان الفدائيين لدى نزولهم الى الشاطىء ، صادفـــوا امـــرأة فاستجوبوها ثم قتلوها · وفي رواية اسرائيلية انهم قيدوهـــا · واضافت الصحيفة ، ان الفدائيين كانوا على الطريق الدولي حوالي الساعة ٢٠ر٤ · كما ذكرت انه حوالي الخامسة مساء اطلق الفدائيون النار من الباص على سيارة جيب للشرطة حاولت اعتراض طريقهـم قرب جيفات اولغـــا ·

اذاعة اسرائيل تكشف تفاصيل جديدة ، فتذكر في نشرتها الساعة التاسعة صباحـــا يوم ٣/١٣ ، ان المجموعة الفدائية التي نفذت العملية انطلقت من احد الموانىء اللبنانيـــة قبل يومين ، بواسطة احدى السفن [ذكر لاحقا انها يونانية] التي نقلتهم قبالة الشاطىء الفلسطيني · وتضيف الاذاعة ، ان خطة الفدائيين الاساسية كانت السيطرة على فنـــدق ضخم في منطقة تل ابيب ولكن خطأ وقع في قيادة السفينة ادى الى هبوطهم في منطقـــة معجان ميخائيل · وعندئذ عدل قائد المجموعة اهداف العملية · وذكرت الاذاعة لاحقا انه عثر مع الفدائيين على نداء مكتوب باللغة العبرية يطالب باطلاق عـــدد من المعتقليـــن الفلسطينيين ·

وفي رواية اخرى اوردتها اذاعة اسرائيل ، بلسان المفتش العام للشرطة ، المفوض حاييم طـابـوري ·

« توجه ١٣ مخربا قاصدين تل ابيب · واستقلوا سفينة كبيرة قرب شواطىء لبنـــان ونزلوا منها في ٧ـ٣ـ١٩٧٨ ، وظلوا يومين في البحر ، وعندما اقتربوا من الشاطىء انقلب احد القوارب قبالة الشاطىء ، فغرق اثنان من المخربين · وبعد وصولهم الى الشاطىء القى

المخربون القبض على فتاة ، وبعد ان عرفوا مكان وجودهم ، **قيدوها** ، واستمروا في طريقهم نحو الطريق العام · وسيطر اثنان من المخربين على سيارة اجرة ، كما سيطروا على سيارة باص · وكذلك استولوا على سيارة باص اخرى · وفي سيارة الاجرة التي تركها المخربون بعد ذلك ، عثرت الشرطة على كميات كبيرة من الاسلحة ، ومن ضمنها صواريخ من نوع «لاد» · وقد علمت الشرطة بنبأ هجوم المخربين قرابة **الساعة الخامسة** · وارسلت دوريات الشرطة الى المكان بسرعة ، وعلى طول الطريق اقيمت حواجز ولكن سيارة الباص نجحت في تجاوز الحواجز · وعندما اقترب الباص من تل ابيب ، صدرت الاوامر بايقاف الباص بكل ثمن ·

وحسب هذه التعليمات وضعت سيارات على عرض الشارع قرب مفترق « اكاديا » حيث اخذت الوحدة الخاصة لمكافحة الارهاب في الشرطة اماكنها على جانبي الشارع · ونجح الباص في اختراق حاجز السيارات ، لكن رجال الشرطة نجحوا في اصابة عجلات الباص وتوقيفه قرب مدينة السيارات · وهناك خرج من الباص بعض الرهائن وسبعة مخربين ، اختبأوا بين الشجيرات وكثبان الرمل الى جانب الطريق ·

وقام رجال الشرطة الذين كانوا هناك باقتحام مكان المخربين الذين نزلوا من الباص ، وقتلوا خمسة منهم واسروا اثنين · وعندها بدأ المخربون داخل الباص باطلاق النار في كل اتجاه ·· وكما يبدو فانه نتيجة لنيران المخربين ، انفجر الباص وعند الانفجار قتل ١٩ من الرهائن · واضاف طابوري «انه كان بالامكان الاعلان عن الحادث عبر الاذاعة وبالتالي الحيلولة دون اصابة مزيد من السيارات » ·

كيف انفجر الباص ؟

الروايات الاسرائيلية تبدو مشوشة هنا ، فمن ناحية تؤكد ان تبادل اطلاق نار شديد قد جرى لدى اعتراض الباص ، بين الفدائيين الذين **داخله** ورجال الشرطة الاسرائيلية في الخارج · ومن ناحية اخرى تؤكد ان الباص انفجر بفعل نيران الفدائيين · ولماذا ليس بنيران الشرطة الاسرائيلية ؟ سؤال يبدو ان السلطات الاسرائيلية تخشى الاقتراب منه ·

لم يكن رجال الشرطة الاسرائيلية يفكرون « بالرهائن » · كان شيء واحد يحركهم هو اطلاق النار كيفما كان لايقاف الباص حتى ولو ادى لقتل كل من فيه ·

تقول اذاعة اسرائيل :

« كان الامر الذي صدر الى وحدات الدورية التابعة لشرطة منطقة دان [المنطقة الوسطى] واضحا لا يقبل التأويل ، وهو انه يجب سد طريق سيارة الباص **بأي ثمن** ، وعدم السماح للباص بالدخول الى قلب المنطقة الاكثر ازدحاما بالسكان في الدولة · وبموجب بعض التقارير اللاسلكية الصادرة عن سيارات الدورية المطاردة لسيارة الباص ، كان واضحا لقيادة شرطة تل ابيب ، ان المسألة تتعلق بمخربين مسلحين جيدا ولا يتورعون عن اللجوء الى اية وسيلة · اقامت الحاجز الاول سيارة جيب تابعة لشرطة مدينة هرتسليا ، كان فيها اثنان من افراد الشرطة وشرطية · وقبل ان يكملوا استعدادهم كان الباص قد اقترب منهم، ثم صلي الحاجز بصليات من البنادق الرشاشة ، ونجح الباص في تجاوز الحاجز بسرعة هائلة ، لكنه اصطدم بحاجز اخر اقامته شرطة منطقة « دان » قرب « الكانتري كلوب » ، وكانت قد وصلت الى هناك قوة صغيرة من حرس الحدود ، ولم تكن قد توزعت في المكان

كما ينبغي · وعلى الرغم من ذلك فقد تم ايقاف الباص ، ودارت معركة عنيفة في المكان، الى حين قدوم تعزيزات من تل ابيب ، أضافة الى قوات الشرطة التي كانت تلاحق الباص المختطف · وقتل واحد من افراد الشرطة كما اصيب تسعة آخرون ، بعضهم كانت اصابته خطيـــرة » ·

وبالنسبة للوحدة الخاصة لمكافحة « الارهاب » اوضح طابوري ان الوحدة لم تستطع الوصول الى مكان الحادث في الوقت المناسب ، اذ في البداية اعطيت التعليمات لهـــا بالتوجه الى « معجان ميخائيل » ولكن بينما كانت الوحدة في الجو صدرت اليها تعليمات بالتوجه الى « الكانتري كلوب » حيث وصلت الى هناك بعد انتهاء المعركة ·

الاصابـــات

٣٧ اسرائيليا قتلوا و ٨٢ اخرين جرحوا ، وتكتمت المصادر الاسرائيلية عن القتلـــى والجرحى من الجنود الاسرائيليين ·

استشهد ١١ فدائيا بينهم الشهيدة دلال المغربي · تسعة استشهدوا لدى تبادل اطـــلاق النار ، واثنان غرقا ، اكتشف جثة احدهما خفر السواحل الاسرائيلية يوم ٣/١٨ ، واسر اثنـــان من الفدائيين بعد ان جرحـــا ·

تفاصيل جديدة في الرواية الاسرائيلية

في ١٩ـ٣ـ١٩٧٨ ، اوردت وكالات الانباء من تل ابيب ، ان السلطات الاسرائيلية رتبت مقابلة صحفية في بيت « الصحافي الاسرائيلي » مع احد المعتقلين اللذين اسرا في العملية، وهو الفدائي حسين محمود فياض ، ١٨ عاما من مواليد خان يونس ·

قال فياض انه ينتمي الى حركة فتح شانه شأن رفاقه ال ١٣ الذين اشتركوا في العملية · واوضح ان خطأ وقع في العملية المقررة التي كانت تقضي بالسيطرة على احد الفنادق في تل ابيب واحتجاز رهائن والمطالبة بالافراج عن خمسة فدائيين معتقلين · وكشف فيـــاض انه ورفاقه الذين انزلوا في قوارب مطاط في عرض البحر ضلوا طريقهم بسبب ســـوء الاحوال الجوية · وقد تقاذفتهم الامواج طوال يومين ، ثم اهتدوا بانوار بدت عن بعـــد وهي اوصلتهم الى شاطىء مستوطنة معجان ميخائيل ·

تفاصيل العملية كما روتها الثورة الفلسطينية

مساء ١١ـ٣ـ١٩٧٨ اصدرت القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية سلسلة بيانـــات حول العملية كما يأتي :

بيان رقم ١ :

انطلاقا من ايمان حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) في الاستمرار بتصعيـــد كفاحها المسلح ضد العدو الصهيوني داخل الوطن المحتل والمضي في النضـــال على درب الثورة الفلسطينية المسلحة بكل عزيمة وتصميم ، وايمانا من حركتنا بان الطريق الاساسي

لمواجهة كل موجات التآمر على شعبنا ، وتحطيم كافة المحاولات التصفوية لقضيتنا، انيسا يرتكز على تطوير العنف الثوري المسلح ضد الاحتلال الصهيوني ، وتدعيما لنضال شعبنا الصامد في الارض المحتلة، ووفاء لتضحيات ودماء شهدائنا الابرار، فقد صدرت التعليمات الى قوة « دير ياسين » لتنفيذ عملية الشهيد كمال عدوان داخل الارض المحتلة.

هذا وقد بدأت القوة بتنفيذ العملية الساعة ١٨ر٣٤ من يوم السبت في المنطقة الساحلية بين حيفا وتل ابيب . وتجري الان معركة واسعة على كافة الاهداف المحددة بين فواتنا وقوات جيش وشرطة العدو الصهيوني .

بيان رقم ٢ :

في الساعة الثامنة وخلال قيام قوة « دير ياسين » بتنفيذ عملية الشهيد كمال عدوان في المنطقة الواقعة ما بين مدينة حيفا وتل ابيب المحتلة قامت قوات العدو الصهيوني بزج قوة كبيرة من الجيش الاسرائيلي والشرطة وتمكنت قواتنا من تدمير شاحنتين تقلان جنود العدو الصهيوني تدميرا كاملا . ولا زالت قواتنا مستمرة في تنفيذ مهمتها .

بيان رقم ٣ :

في الثامنة والنصف حاولت قوات العدو الصهيوني تطويق قواتنا . وقد باءت المحاولة بالفشل ، وتمكنت قوة « دير ياسين » من شق طريقها بالقوة وقامت بعملية تنقل واسعة في المنطقة مستخدمة اليات العدو التي تمكنت قواتنا من الاستيلاء عليها.

هذا وقامت قواتنا باغلاق معظم الطرق ما بين حيفا وتل ابيب .

بيان رقم ٤ :

ما زالت قوة « دير ياسين » من (قوات الداخل) تعمل بحرية في المنطقة الواقعة بين حيفا وتل ابيب وذلك بسبب الارتباك الذي اعترى قيادات وقوات العدو الصهيوني وتمكنت قواتنا لغاية الان الساعة ٢١ر٠٠ من ضرب الاهداف المخصصة لها في المنطقة واوقعت خسائر كبيرة في قوات العدو والياته .

بيان رقم ٥ :

حتى الساعة ٢١ر٣٠ ما زالت قوة دير ياسين (من قوات الداخل) تعمل في المنطقة الواقعة ما بين حيفا وتل ابيب بحرية وقد قامت القوة بمهاجمة الاهداف جميعها . وجرت معركة تحت الجسر الواقع في غرب بلدة الطيرة قرب حيفا مما ادى الى مقتل ما لا يقل عن ١٥ من جنود العدو الصهيوني . وتمكنت قواتنا من السيطرة على الجسر واحدى اليات العدو الصهيوني .

كما جرى اشتباك بين احدى مجموعات قوة دير ياسين وقوات العدو الصهيوني في منطقة كفار حولييم اسفرت عن مقتل عدد لم يحدد بعد من قوات العدو . وعلى الاثر قامت قوات العدو الصهيوني باستخدام قوات الية كبيرة وقوات محمولة جوا بالطائرات العمودية واغلقت المنطقة كاملة .

ورغم ذلك لا زالت كافة المجموعات من قوات دير ياسين تعمل ضمن الخطة كما قامت احدى المجموعات من قوة دير ياسين بمهاجمة هدفها قرب نادي سنبورت شمال تل ابيب . وعلى مفرق طريق الفريديس تمكنت هذه المجموعة من تدمير شاحنة للعدو تقل ما لا يقل عن ١٨ جنديا من جنود العدو الصهيوني وكذلك قامت مجموعة اخرى من قوات دير ياسين بالاشتباك مع قوة للعدو الصهيوني على طريق كفار سابا شمال تل ابيب واوقعت خسائر في قوات العدو لم يقدر عددها بعد .

بيان رقم ٦ :

حتى الساعة ٢٢ر٠٠ ما زالت قوة دير ياسين تقوم بتنفيذ مهامها في المنطقة ما بين حيفا وتل ابيب وقد اوقعت خسائر كبيرة في صفوف قوات العدو الصهيوني ومن جراء ذلك قامت قوات العدو بعمليات اعادة تنظيم لقواتها اكثر من مرة من جراء الخسائر والارتباك الذي اعترى صفوفها .

هذا وقد شملت العمليات الهجومية التي قامت بها قوة دير ياسين اماكن متعددة في المنطقة فهاجمت احدى المجموعات من القوة كريات عطا واوقعت خسائر بقوة العدو هناك كما قامت احدى المجموعات بمهاجمة حواجز الطرق التي اقامتها قوات العدو .

بيان رقم ٧ :

لا زالت قوة دير ياسين تواصل عملياتها العسكرية المكلفة بها ضمن الخطة المرسومة لها في كافة المواقع . حيث لا زالت تدور هناك ، معارك مواجهة عنيفة بين ثوارنا وقوات العدو التي دفع بها ، الى ارض المعركة الممتدة بين حيفا وتل ابيب .

وقد استطاع الثوار تحقيق اصابات مباشرة في صفوف العدو الالية والبشرية ولا زال ثوارنا يؤدون مهمتهم في المنطقة بنجاح .

وفي اليوم التالي اصدرت القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية سلسلة بيانات اخرى حول العملية كالاتي :

بيان رقم ٨ :

استمرت مجموعة قوات دير ياسين في العمل في منطقة الهدف المقرر رغم عمليات التمشيط التي استمرت طيلة الليل في كافة مناطق السهل الفلسطيني بين حيفا وتل ابيب .

جرت عدة اشتباكات قرب هرتسيليا ورمات هشكرون بين احدى مجموعات التعزيز التي تقودها الاخت دلال ، وبين قوات جيش العدو التي ساندتها طائرات هليوكبتر . وقد تمكنت المجموعة من التصدي ببسالة لقوات العدو في معركة مواجهة استمرت اكثر من اربع ساعات . وقد استشهدت قائدة مجموعة التعزيز وكان اخر عمل قامت به الشهيدة وهي تهتف لفلسطين وثورة شعبنا هو القاء اخر قنبلتين لديها على قوات العدو في اخر لحظة ، هذا بينما استطاعت مجموعة اخرى من اختراق منطقة الحصار والوصول الى قاعدتهما الامنة داخل الارض المحتلة في نفس الوقت الذي استمرت فيه مجموعات اخرى في نشاطها الثورية حسب المقرر .

هذا وقد قامت سلطات العدو بالاجراءات التالية :

١ ـ فرض منع التجول كاملا لاول مرة منذ قيام الكيان الصهيوني منذ الساعة الثالثة صباحا وحتى اشعار اخر ، على حوالي ٣٠٠ الف من سكان المنطقة من تل ابيب وحتى ناتانيا شمالا ، ويشمل منع التجول المناطق التالية : رامات ايفيف ، هدار يوسف ، رمات عاي ، تشهلا ، رعنانا غربا ، رامات ، هشكرون ، ناتانيا ، هرتسيليا ، كفار مشمار ، ياهو كفار ، سابا ، شارع هشرون ، شارع حيفا ـ تل ابيب ٠

٢ ـ اغلاق كافة المدارس والمصانع في تلك المنطقة ٠

٣ ـ منع سكان الارض المحتلة من دخول فلسطين المحتلة لعام ٤٨ ٠

٤ ـ تأخير تحرك القطارات بين حيفا وتل ابيب ٠

٥ ـ ايقاف تحرك خطوط الباصات داخل تل ابيب وضواحيها ، وايقاف خطوط ايجد الواقعة داخل منطقة الحظر بين ناتانيا وهرتسيليا ورمات هشرون والمستوطنات القريبة ٠

٦ ـ اصدار نداءات لجنود جيش العدو بالتجمع في منطقتي ناتانيا وهرتسيليا لنقلهم الى المعسكرات ٠

٧ ـ تقوم القوات المشتركة من جيش العدو والشرطة بتمشيط المنطقة بالسير تفتيشا دقيقا حسب تعبير مراسل الاذاعة العبرية العسكري روني دانييل وان الاوامر صدرت للجنود بتمشيط كل متر مربع من المنطقة التي سميت مشبوهة ٠

٨ ـ يجري فرض منع التجول على سكان الضفة الغربية ٠

٩ ـ تجري عمليات تفتيش واسعة في فنادق مدينة القدس العربية ٠

١٠ ـ تجري عمليات تفتيش واسعة في الجليل ومنطقة ابو ديس ٠

١١ ـ تم اشراك عدة الاف من متطوعي الحرس المدني للمشاركة في عمليات التفتيش واقاموا حواجز للتفتيش على مختلف المعابر والطرق ٠

١٢ ـ اقامت قوات الامن حواجز منعت دخول ٤٠ الف عامل عربي من الضفة الغربية وقطاع غزة الى المنطقة كذلك منع الاف العمال العرب من الجليل والمثلث ٠

١٣ ـ استمرار اغلاق جسور نهر الاردن امام الحركة ٠

١٤ ـ تعطلت بورصة تل ابيب وهبطت فيها قيمة الاسهم والاسعار ٠

١٥ ـ تجري حملات من المتطوعين ورجال الشرطة لجمع جثث القتلى حيث اعلن العدو عن ٣٧ قتيلا و ٨٣ جريحا ٠

بينما تجاوزت خسائر العدو العسكرية ضعف هذا العدد ٠

١٦ ـ تقوم دوريات الشرطة بالتجول بالاماكن التي يسكنها العرب واليهود تحسبا لوقوع احداث ٠

بيان رقم ٩ :

تنفيذا للاوامر الصادرة من القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية الى عدد من مجموعات الداخل القيام بعمليات اسناد لقوة دير ياسين التي نفذت عملية التجابهة البطولية ضد قوات العدو منذ يوم امس وحتى ساعة اصدار هذا التصريح الساعة ١٤ر٣٠ وذلك في المنطقة الواقعة بين حيفا وتل ابيب فقد تحركت ، تنفيذا للاوامر ، قوة فدائية للعمل في منطقة بيسان حيث اشتبكت في معركة مع قوة عسكرية للعدو وتمكنت من نسف سيارة باص كبيرة بعد ان انزلوا ركابها المدنيين ، هذا وقد عادت القوة الى قاعدتها سالمة.

بيان رقم ١٠ :

واصلت قوة دير ياسين عملياتها المحددة لها طبقا للخطة الموضوعة لليوم الثاني على التوالي ضمن منطقة العمليات الواقعة بين حيفا وتل ابيب ، فقد اصطدمت مجموعة من مجموعات قوة دير ياسين بقوة للجيش والشرطة والحرس المدني الصهيوني في المنطقة الواقعة بين معجان ميخائيل ونادي كنتري كلوب بين تل ابيب وناتانيا ، وقد وقعت اصابات في قوات العدو نتيجة للاشتباك وتمكنت قواتنا من الافلات من الحصار ، الذي حاولت قوات العدو فرضه عليها .

هذا ، وقد اعترف العدو ظهر هذا اليوم بخسائره في هذا الاشتباك حيث اعلن عن اصابة سبعة عشر فردا من جنوده وشرطته .

بيان رقم ١١ :

« تواصل قوات دير ياسين تنفيذ عملية الشهيد كمال عدوان وتقوم بعملياتها العسكرية داخل الارض المحتلة حسب الخطة الموضوعة . فقد اصطدمت مجموعة من القوة مساء هذا اليوم ١٢-٣-١٩٧٨ مع قوة للعدو في شارع الياهو شمالي تل ابيب ولا زالت الاشتباكات مستمرة حتى صدور هذا البلاغ في الساعة السابعة مساء . .

وتسمع اصوات رصاص وانفجارات في المنطقة في الوقت الذي تتجمع فيه قوات الجيش والحرس المدني وحرس الحدود وتقوم باغلاق الطرق المؤدية لمكان الاشتباك » .

كذلك فقد أصدرت حركة « فتح » **بيانا سياسيا** حول العملية يوضح اهدافها ، جاء فيه :

عملية كمال عدوان التي ينفذها ثوار « فتح » من مجموعات دير ياسين العاملة في الاراضي المحتلة تؤكد اصرار الثورة الفلسطينية على احياء ذكرى الشهيد البطل كمال عدوان قائد عمليات الثورة في الارض المحتلة والذي سقط غدرا برصاص العدو في ١٠ نيسان ١٩٧٣ مع الشهيد ابو يوسف النجار وكمال ناصر في بيروت .

ان هذه العملية البطولية الجريئة تجيء في هذا الوقت لتؤكد اصرار الشعب الفلسطيني على مواصلة الكفاح المسلح ضد الغطرسة والاحتلال الصهيوني ، كما انها تعتبر رمزا لمواصلة النضال ولرفض الحلول الاستسلامية التي تحاول القوى المستسلمة فرضها على امتنا العربية وعلى شعبنا الفلسطيني البطل .

وعشية سفر الارهابي بيغن الى اميركا لتثبيت غطرسته واحتلاله للاراضي العربية، وفي

الوقت الذي تتنازل فيه بعض القوى عن الحقوق العربية وتحاول طمس الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني وفي الوقت الذي يستمر الارهابي بيغن ببناء المستوطنات ، وبتغيير معالم الارض الفلسطينية والعربية غير عابىء بالمشاعر الدولية وساخرا من الرأي العام العالمي يثبت ثوارنا الابطال انهم قادرون على اختراق كافة الحواجز الصهيونية والوصول الى هدفهم ٠

ان هذه العملية البطولية هزت الارهابي بيغن واثبتت جرأة وبطولة ثوارنا كما انها ستهز كثيرا من القوى المرتبطة العميلة والمتآمرة على شعبنا الفلسطيني وامتنا العربية ٠

وما من شك في ان هذه العملية البطولية سوف تدعم المواقف العادلة لشعبنا الفلسطيني بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية على كافة الاصعدة فلسطينيا وعربيا ودوليا حيث تأتي في الفترة التي يقوم بها الاخ ابو عمار القائد العام لقوات الثورة الفلسطينية بزيارة للاتحاد السوفياتي الصديق ولالمانيا الديموقراطية ٠

انها ارادة الشعوب المناضلة والاصرار على مواصلة النضال العادل ضد الاحتلال الصهيوني المتغطرس والمتعاملين معه من اعداء امتنا العربية وشعبنا الفلسطيني ٠

يومان من الرعب في اسرائيل

عاشت اسرائيل يومين من الرعب ، ليس في منطقة العملية فقط ، بل وفي كل فلسطين المحتلة تقريبا ٠ ولاول مرة منذ ثلاثين عاما تفرض السلطات الاسرائيلية منع تجول عاما وشاملا في منطقة واسعة شملت مدينة تل أبيب ، وتضم ٣٠٠ الف من السكان ٠ قوات كبيرة من الشرطة والجيش والحرس الاهلي ، قامت باكبر عملية تفتيش ، بحثا عن ثلاثة فدائيين قالت السلطات الاسرائيلية انهم طلقاء ، وانهم نجوا من القتل وانتشروا في المنطقة ، اثر مهاجمة الباص الذي كان يقل الفدائيين والركاب قرب « كانتري كلوب » ٠

استمر منع التجول يومين متتاليين ، واستمرت عمليات التفتيش الواسعة لاكثر من يومين ، اشرف عليها قائد المنطقة الوسطى العميد موشيه ليفي ٠ ولم تتوقف عمليات التفتيش ولم يرفع منع التجول الا بعد العثور على جثث الفدائيين الثلاثة بين حطام الباص الذي احترق ٠ وصفت الاذاعة الاسرائيلية عمليات التفتيش فقالت « ان شرطة اسرائيل استخدمت ١٢٠٠ شرطي اضافة الى ٤٥٠٠ من الحرس في اعمال التفتيش والحماية وتوجيه السير ٠ هذا اضافة الى النشاط الجاري والمعتاد لشرطة تل أبيب ، والتي جرى تعزيزها بقوات اضافية من افراد الشرطة من الاقضية المجاورة ٠ لقد قامت قوات شرطة تل أبيب بحماية ١٢٠٠ مؤسسة تعليمية و ٩٩ فندقا وخمس مستشفيات ، اضافة الى عشرات الحواجز التي اقيمت على الطرق ٠٠٠٠ في اليوم الاول اتسعت عمليات التفتيش لتشمل المنطقة المحاذية للكانتري كلوب ٠ حيث اتخذت القيادة من مباني النادي مقرا لها ٠ ومن هذا المقر كان يدير العمليات قائد المنطقة الوسطى العميد موشيه ليفي ٠ وجرى تقسيم الجنود الى وحدات صغيرة انتشرت في المنطقة ٠ وفي المناطق حيث توجد شجيرات كثيفة ومنازل مهجورة تمت عملية التفتيش باقتحام الاماكن بالنيران ٠ وقام افراد الحرس الاهلي بدوريات في الشوارع لحماية مداخل المنازل وفي بعض الاماكن الحساسة الحق بأفراد الحرس الاهلي جنود من الجيش ٠ وقد وصل موردخاي غور عدة مرات الى مقر القيادة ٠

وأضافت الاذاعة : في جو عاصف وممطر دخلت عملية التفتيش ليلتها الثانية · وشارك اليوم مئات الجنود في عملية التفتيش الواسعة · جرت عملية تفتيش دقيقة للمناطق الزراعية والمباني الصناعية والمهجورة · وجرت عملية التفتيش بمساعدة كلاب الاثر والطائرات العمودية ·

يومين من الرعب ، انهالت خلالهما مئات المخابرات على مراكز الشرطة عن اجسام مشبوهة ، او اشباح تتحرك في هذا المكان او ذاك · لقد كانت اسرائيل في حالة حصار داخلي ، كما قالت وكالة الصحافة الفرنسية وكما قال عضو الكنيست زفي روم « يوم أمس اعاد الى اذهاننا واقع حياتنا الذي كنا نعيشه قبل موجة الغبطة الوهمية التي اثارتها زيارة السادات ··

اضافة الى ذلك فقد اتخذت السلطات الاسرائيلية اجراءات امنية مشددة · قامت وحدات من خفر السواحل باجراء تفتيش دقيق على طول الساحل الفلسطيني الشمالي والاوسط · كذلك منعت السلطات الاسرائيلية العبور من الضفة الغربية الى المناطق المحتلة في العام ١٩٤٨ ، كما اغلقت جسور العبور على نهر الاردن · وقامت باعتقال العشرات من السكان العرب في المناطق الساحلية لاستجوابهم ·

وستظل اسرائيل الباحثة عن امنها خلف جدران موصدة ، تعيش في حالة رعب ، وستظل الجدران مهما ارتفعت ، اقصر من قامة الفدائي حتى يأتي يوم يصبح فيه أمن شعب فلسطين ، هو الامن الذي يحدد اطار وحدود السلام ·

III

اعلان الحرب الشاملة على الشعب الفلسطيني

الحرب بين اسرائيل العنصرية وشعب فلسطين مستمرة ، لم تتوقف منذ ان بدأ الغزو الصهيوني لارض فلسطين · وحرب الشعب الفلسطيني ضد اسرائيل العنصرية والفاشية لن تتوقف حتى ينتصر الحق الفلسطيني · وعملية الشهيد كمال عدوان لم تأت بجديد على صراعنا مع اسرائيل والصهيونية ، الا بما مثلته من قدرة متنامية في المواجهة الفلسطينية للعدو الصهيوني ، كذلك فان هياج بيغن وحكومته بعد العملية يدل على مدى الوجع الذي الحقته باسرائيل ، وكم هزت من « اطمئنان » اسرائيل ، بعد زيارة السادات للقدس المحتلة ·

كان بيغن يعتقد ان معركته مع الشعب الفلسطيني اوشكت على النهاية بعد ان استسلمت له اكبر دولة عربية ، وها هو بيغن ينتزع التنازل تلو التنازل من السادات ، وها هو يضع اسرائيل لتكون صاحبة الكلمة الاولى في الشرق الاوسط · فلم الخوف ؟ مواجهة الفدائيين الفلسطينيين وانهاء وجودهم ، ليست الا مسألة وقت ·

هكذا كان بيغن يعتقد ، وهكذا كانت تعتقد حكومته ، وهكذا كان يظن قادة حزب العمل · الامور باتت مهيأة لالتهام الطبق كله ، وسيتركون بعض الفتات للاخرين ·

كانت العملية اكبر من مفاجأة لبيغن · ومن هنا كان صراخه وهياجه ، ومن هنا كانت هذه الحملة الهستيرية التي شنتها الصحافة الاسرائيلية ضد الشعب الفلسطيني ، طالبة الانتقام وشن حرب شاملة ضد الشعب الفلسطيني ·

لم يرتفع صوت يحذر من هذه الهستيريا ، ومن الانجرار وراءها ، الا صوت راكح ·

ولم يسأل احد من الذين ارتفعت اصواتهم طالبة الانتقام واعلان الحرب الشاملة ، لماذا يقاتل الشعب الفلسطيني ؟ لماذا الشعب الفلسطيني ماض في نضاله ، على الرغم من كل اصوات الهزيمة التي ترتفع من حوله ؟

كان أول رد فعل رسمي اسرائيلي على العملية ، المؤتمر الصحفي الذي عقده بيغن في اليوم التالي للعملية ، في هذا المؤتمر كانت كلمات بيغن هائجة وموجهة للدول العربية لتحريضها على الثورة الفلسطينية ٠

قال بيغن « خلال سنوات ونحن نشرح للشعوب انه منذ أيام النازيين لم تقم منظمة سافلة الى هذا الحد وتحمل السلاح مثل منظمة فتح او مثل م٠ت٠ف٠ وهذه المنظمة لها هدف واحد هو قتل اليهود ٠٠٠ منذ ايام المنظمات النازية المعادية لم تقم حتى الان منظمة سافلة ومنحطة الى هذا الحد ٠ وهدفهم كما هو وارد في الميثاق الفلسطيني ، تصفية دولة اسرائيل ٠ وهذه هي المنظمة التي أقرت الدول العربية في السودان والرباط تمثيلها للشعب الفلسطيني بشكل وحيد ومطلق ٠ وتأمل الحكومة في ان تتعلم الشعوب القريبة والبعيدة الدرس المستخلص من هذه العملية المروعة والدامية » ٠

وفي الكنيست الذي عقد جلسة خاصة يوم ٣/١٣ ، كان هياج وصراخ ، ودعت الكنيست في بيانها الحكومة الى الاستمرار في شن الهجمات ضد من اسمتهم « منظمات القتلة » ودعت دول العالم الى الغاء اعترافها بمنظمة التحرير الفلسطينية ٠ وقد تم اقرار البيان بموافقة جميع الكتل باستثناء كتلة « حداش » التي حذر رئيسها مئير فيلنر ــ بعد ان ندد بالعملية ــ من الدعوات الانتقامية التي تدعو الى عمل عسكري ضد الفلسطينيين في لبنان ٠ وقال « ان مثل هذه الاعمال ستؤدي فقط الى تأزيم الوضع وزيادة خطورته »٠

لقد كان بيغن في بيان حكومته امام الكنيست دمويا ، وجه اتهاما شديد اللهجة الى الاتحاد السوفياتي الذي قال انه يساعد « المخربين » بالسلاح والتدريب ٠ واكد انه سينتقم فقال « لقد ولت الى الابد ، الايام التي كان فيها من الممكن سفك الدم اليهودي والتمتع بالحصانة ٠ ليكن معروفا ان سافكي دم الابرياء لن تغسل ايديهم من الاثم ٠٠٠ وسنبتر ذراع الشر والجريمة » ٠ وكرر بيغن مرات عدة ان الفدائيين جاءوا من لبنان مشيرا الى ان « الذين يساعدون الفدائيين يجب ان يؤدوا حساباتهم ايضا » كما وجه لوما مبطنا الى مصر لعدم تنديدها بالعملية ٠ واشار الى انه بعث ببرقية تعزية الى السادات بعد مقتل يوسف السباعي ٠

لقد ألقت كتل الكنيست الاخرى بيانات نهجت فيها نهج بيغن ، وحذر بعضها من الاندفاع في الرد بما يهدد جهود التسوية ٠

ييجال الون « حزب العمل » دعا الى استخدام وسائل الدفاع الفعالة « لكي نحطم قوة الشر قدر المستطاع ٠ وكل هذا شرط ان لا نقع في مصيدة مكائده ، وشرط ان لا نلعب لعبته ، ونؤدي لا سمح الله الى جمود في الاندفاع السياسي » ٠

وكان الون قد دعا في مقابلة صحفية مع يديعوت احرونوت « ٣/١٣ » الى انه « يجب على اسرائيل ان ترد على عملية المخربين المجرمة بيد حديدية ٠ يجب ان يكون الرد ساحقا ومؤلما ورادعا بقدر الامكان » ٠

وفي تصريح اخر له مع الاذاعة الاسرائيلية ربط الون بين العملية وحمل الدول العربية على شن حرب جديدة ضد اسرائيل ، والحاق الضرر بمفاوضات السلام ٠

الحاخام دوركمان « المفدال » دعا الى الرد على ما اسماه « منظمات القتلة » واوضح ان هذا الرد يتمثل بزيادة الهجرة وتدعيم الاستيطان ·

ابراموفيتش « اجودات يسرائيل » دعا الى عمل حازم ضد « منظمات التخريب » ودعا الحكومة الى ضربهم بشدة ·

شولوميت الوني « قائمة حقوق المواطن » دعت الى ضرب « المخربين » لكنها حذرت من خط التطرف في سياسة اسرائيل ، الامر الذي سيلحق الضرر باحتمالات السلام ·

أرييه الياف « شيلي » قال ان « المخربين » يشبهون الجراثيم التي تمتص الدماء والتي يجب ابادتها ، ولكن يجب حل مشكلة البيضة التي جاءوا منها ، والبيضة هي الشعب العربي الفلسطيني الذي يجب الاعتراف بحقوقه كي لا تتكرر اعمال الارهاب ·

بلاتو شارون ، قال : لا تكفي مكافحة وضرب العدو في الخارج ، بل يجب ضرب العدو في الداخل · ودعا الى اعتبار « راكح » خارج القانون لانه كما وصفه امتداد لتنظيم « الارهاب » م·ت·ف·

لقد كان جو الحكومة والكنيست تكثيفا للجو العام الذي ساد اسرائيل وساهمت الصحافة الاسرائيلية في تأجيجه ، سواء بعناوينها التحريضية او بتعليقاتها · وكان الاستخلاص شبه الوحيد الذي خرجت به معظم الصحف الاسرائيلية هو التأكيد على مخاطر الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني ، ومنحه حق تقرير المصير ·

قالت معاريف « ٣/١٢ » في افتتاحية لها بعنوان دم في الشارع « ان كل طريق وكل مفترق في طول دولة اسرائيل وعرضها ، قد تتحول لشرك دموي لمواطنين آمنين اذا ما اعطي بالفعل سكان الضفة الغربية وقطاع غزة فرصة لتحقيق مطامعهم السياسية » واضافت « ان كل من يحاول دفع اسرائيل الى حلول مستعجلة يرفقها تنازلات احادية الطرق والتخلي عن أمن المواطنين لاكتشاف « اعتدال من هذا النوع ، عليه ان يفهم ان الثمن الذي نكون مستعدين لدفعه ثمنا للسلام ، لا يحتوي على استعدادنا للانتحار » ·

اما هآرتس « ٣/١٣ » فقد ركزت في تعليقاتها على جو الرعب الذي ساد تل أبيب ، وانتقدت حالة الاسترخاء الامني التي كانت تسود تل ابيب « الهادئة والامنة » والتي تناست ليلة سافوي ·

أما فيما يتعلق بالعملية والرد عليها فقد أوضحت في افتتاحيتها بعنوان« الارهاب ليس مشكلتنا الاساسية » انه من الخطأ وضع م·ت·ف على الجهات المعادية لنا وقالت « التهديد الحقيقي لامننا ووجودنا يأتي من جانب الجيوش النظامية في الدول العربية · ولذلك من المستحسن الا نتوانى عن الجهد للوصول مع الدول العربية الى تفاهم واتفاقات لنستطيع الغاء هذا التهديد او تخفيضه » ·

وقال المعلق العسكري في « يديعوت احرونوت ـ ٣/١٢ » ان توقيت العملية مرتبط كما يبدو ، بموعد زيارة رئيس الحكومة وزملائه لواشنطن بقصد وضعها في الظل وعرقلة اي تسوية نحو السلام · ودعا حكومة اسرائيل « ان تضرب الذين يقومون بارسالهم ومنشأتهم » ·

وربط يهوشوع تدمور (دافار ٣/١٣) بين العملية وسعي المنظمات الفدائية لعرقلة مسار السلام · واعتبر انه تم اختيار توقيت الهجوم بدقة « ذلك ان قيادة فتح ارادت

احداث اكبر قدر من الصدى القوي للعملية ، فهي تؤمن ان الصحوة ستأتي في اعقاب الهزة الاولى ، وتساعد م٠ت٠ف٠ في العودة الى وسط الاهتمامات الدولية » واوضح تدمور « تسعى منظمات التخريب لنسف مسار السلام ويجب علينا بذل قصارى جهدنا لصدهم ٠ وبوسع اتفاق سلام ، يحل ولو جزئيا القضية الفلسطينية ، تحييد ـ بمقدار كبير ـ اعمال القتل من النوع الذي كان نصيبنا يوم السبت الماضي »

في هذا الجو اتخذت الحكومة الاسرائيلية **عدة اجراءات** ، فقد أعلن بيغن تأجيل زيارته للولايات المتحدة ، كما استدعى وزير دفاعه عيزر فايتسمان من الولايات المتحدة ، واعلن فور وصوله الى فلسطين المحتلة **مسؤولية لبنان عن العملية** ، لان الفدائيين اتوا من أراضيه ، وصرح بما يستدل منه نوع الرد الذي تعده اسرائيل فقال « ان الهجوم اثبت مرة اخرى خطر وجود مناطق عربية غير مسيطر عليها على مقربة من مناطق مكتظة بالسكان في اسرائيل » ٠

وعلى **الصعيد الدبلوماسي** ، شنت وزارة الخارجية الاسرائيلية حملة دبلوماسية ضد م٠ت٠ف٠ وبعث دايان الى السفارات الاسرائيلية في الخارج للطلب الى الدول المعتمدة لديها ، لاغلاق مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية وطرد ممثليها ٠ وقد اصطدم هذا الطلب الاسرائيلي بمعارضة معظم الدول التي قدم اليها الطلب ٠ وكان **كرايسكي** مستشار النمسا واضحا في رده على الطلب الإسرائيلي عندما قال « ان حكومته لن تغلق مكتب المنظمة في فيينا لان اسرائيل حرمت الفلسطينيين من حقوقهم المشروعة وحق تقرير مصيرهم ٠ وقال انه ليس من حق إسرائيل ان تطالب حكومته باغلاق المكتب » ٠ وقد احتجت اسرائيل على هذا الرد ، واستدعت سفيرها في النمسا للتعبير عن احتجاجها ٠

وفي **ستوكهولم** اوضح مسؤول حكومي ، ان حكومة السويد اجابت بالنفي على طلب الحكومة الاسرائيلية باغلاق مكتب م٠ت٠ف ، واشار الى ان للجميع الحق بفتح مكتب معلومات في عاصمة السويد بدون اذن حكومي ، وانه بالتالي ليس هناك اذن مسبق من حكومة السويد لفتح مكتب ويمكن سحبه ٠

وفي **باريس** اشير الى لقاء السفير الاسرائيلي مع وزير الخارجية الفرنسية ، وان السفير طلب من الوزير اغلاق المكتب ، دون الاشارة الى رفض او قبول الحكومة الفرنسية للطلب الاسرائيلي ٠

وفي **بون** اعلن ناطق باسم حكومة المانيا الاتحادية ان سفارة اسرائيل تقدمت اليها بطلب اغلاق مكتب م٠ت٠ف الذي يحتل جانبا من مكتب الجامعة العربية ٠ ولم يذكر الناطق باسم الحكومة اية تفاصيل اخرى ٠

وفي **طوكيو** اعلن مسؤول في وزارة الخارجية اليابانية ان بلاده رفضت طلبا اسرائيليا لاغلاق مكتب م٠ت٠ف٠ وذكر ان الوزارة شرحت للسفير الاسرائيلي الذي تقدم بالطلب ان حكومته ليست في وضع يسمح لها بالتدخل ٠

وفي **واشنطن** ذكر ان سيمحا دينتس ، السفير الاسرائيلي ، طالب الحكومة الاميركية باغلاق مكتب الاعلام التابع ل م٠ت٠ف في نيويورك ٠ وقد ردت واشنطن انها ستعيد النظر في مكاتب م٠ت٠ف في الولايات المتحدة ، ولكنها قالت ان هناك احتمالا ضئيلا في اغلاقها ٠

وفي **الامم المتحدة** وجهت اسرائيل كتابا الى السكرتير العام للامم المتحدة ، غمزت

فيه من استقبال ياسر عرفات في الجمعية العامة للامم المتحدة في العام ١٩٧٤ ، وجاء في الكتاب « ان زعيم المخربين الذين هاجموا اسرائيل يوم السبت، سبق واستقبل بحرارة في الجمعية العامة للامم المتحدة » · وذكرت اسرائيل في كتابها « ان قتلة م·ت·ف الاحد عشر ، عملوا بأمر من خليل الوزير « ابو جهاد » · وانهم حملوا معهم اسلحة من انتاج الاتحاد السوفياتي ، وكانوا يعتزمون احتجاز رهائن لكي تفرج اسرائيل عن رفاقهم في السجون » ·

انها الحرب الشاملة على الشعب الفلسطيني ، تكرر اسرائيل اعلانها وبشكل هستيري · كان الكل يتوقع الرد · وكان الكل يتساءل اين سيكون الرد · عملية الشهيد كمال عدوان ليست الاولى من نوعها ، وان كانت اكثر ايلاما من غيرها · وكان الكل ينتظر ··· ومرت ثلاثة ايام قبل ان تباشر إسرائيل الرد · كان الطقس سيئا ··· فتأخر الرد الاسرائيلي ، الذي كان اجتياحا لجنوب لبنان صبيحة الخامس عشر من شهر اذار الحالي·

حجم العدوان وهدفه ، وحجم القوات التي قدرت بثلاثين الفا تساندها الطائرات والمدفعية والسفن الحربية ، كلها تؤكد ان العدوان الاسرائيلي ليس ردا ، بل هي الحرب الشاملة ، وبأكثر اشكالها عنفا ·

IV

« المحدال » من جديد

كعادة اسرائيل امام كل ضربة توجه لها ، وامام كل فشل تواجهه ، لا تبحث عن السبب الحقيقي ، بل تبحث عن أسباب اخرى لا تمس اوهامها ، بانها الدولة الاقوى ، وانها جدار الامن الذي لا يخدش ·

انه « المحدال » مرة اخرى · واصابع الاتهام تتجه هذه المرة الى المفوض العام للشرطة ، وخفر السواحل ·

في وسط الذعر والهلع كانت الاسئلة تثار ، من الساسة ، ومن الصحافة ، كيف حدث ما حدث ؟ كيف استطاعت مجموعة فدائية من اختراق شبكات الرادار الاسرائيلية التي ترصد كل جسم على طول الساحل الفلسطيني ؟ كيف تجول الفدائيون على الطريق الدولية ـ المكتظة دائما ـ لاكثر من ساعة ولمسافة تزيد عن ثلاثين كيلومترا ، دون ان يوقفهم احد ؟ اين الشرطة ، اين الحرس الاهلي ، اين الوحدات الخاصة ؟

صحيفة « معاريف ـ ٧٨/٣/١٢ » تساءلت في افتتاحية لها بعنوان « علامات استفهام » فقالت · لا احد يتوقع من الجيش والشرطة ، واجهزة الامن والحرس المدني ان يفعلوا المستحيل · ولكن ثمة مكان للسؤال قطعا ··· ما اذا كان قد عمل ما هو ممكن وحتمي في المعطيات القائمة ·· وطرحت الصحيفة العديد من الاسئلة حول فعالية قوات الامن

فقالت « هل حقا درست واستنتجت جميع العبر من التسلل الاول للمخربين الى شواطىء تل ابيب قبل ثلاث سنوات · هل حقا لم تكن في اطار المعطيات الموضوعية ، ثمة امكانية لتمييز اقتراب القاربين « الزودياك » الى شواطىء البلاد ؟ هل اعطي انذار في الوقت المناسب ؟ ما هو الوقت الذي مضى بين الانذار الاول وحتى الصدام الاول ؟

وطالبت « دافار ـ ٣/١٢ » باجراء تحقيق دقيق لمعرفة تفاصيل العملية واوضحت الصحيفة « انه لا توجد هنالك اية امكانية لمنع وقوع اصابات المخربين ··· وانه من المستحيل غلق شواطىء البلاد بشكل محكم » · ولكنها تساءلت عن كيفية نجاح « المخربين » في التسلل الى داخل اسرائيل في وضح النهار على الرغم من الاستطلاعات الجوية والبحرية المتبعة منذ ان تسلل للمرة الاولى فدائيون عبر البحر في ١٩٧٥/٣/٦ ·

كذلك فقد اثيرت تساؤلات كهذه في جلسة الكنيست التي عقدت بعد يومين من العملية الفدائية · وذكرت وكالة الصحافة الفرنسية من تل أبيب ان اوساط المراقبين العسكريين في اسرائيل أجمعوا على ان العملية تشكل فشلا لسلاح البحرية الاسرائيلي · وقالت وكالة رويتر ، ان الظاهرة المزعجة لكثير من الاسرائيليين هي وصول الفدائيين في قوارب مطاطية الى منطقة تعتبر من اكثر المناطق امنا في اسرائيل · واوضحت الوكالة ان الاسطول الاسرائيلي يوجه شبكة رادار متداخلة ويفترض ان تكون قادرة على اكتشاف اجسام لا يزيد حجمها على برميل وعلى مسافة لا تبعد اكثر من تسعة كيلومترات من الشاطىء · كما ان مراقبي الشواطىء يستخدمون اسطولا من قوارب الدورية السريعة والطائرات العمودية ورجال الضفادع ·

وافادت وكالات الانباء ان المراسلين العسكريين يرون ان هناك العديد من الاسئلة التي يمكن طرحها على صعيد المخابرات · فالدوائر العسكرية الاسرائيلية تقر بأن الساحل لا يمكن اغلاقه باحكام · ومن هذا المنطلق يتعين على اجهزة المخابرات الغسكرية ان تكشف عن كافة محاولات الرسو على الساحل · ويرى المراقبون انه كان يتعين على اجهزة المخابرات ان تكون على علم بعملية واسعة النطاق مثل هذه العملية حتى قبل تنفيذها ·

لقد اثار نجاح العملية الفدائية جدلا بين الجيش والشرطة حول تحديد المسؤولية والتحقيق بهما · فالشرطة تؤكد ان المعلومات عن وصول المجموعة الفدائية الى الشاطىء ارسلت الى جميع القيادات في الشرطة والجيش في الساعة الرابعة والنصف منبعد الظهر ، لكن قوة الجيش المساندة وصلت ـ حسب اقوال مسؤولي شرطة اسرائيل ـ الى مكان الحادث قرب كانتري كلوب بعد الساعة السادسة والنصف ، اي بعد ان انتهت العملية ·

وبموجب تعليمات سابقة وزعت المسؤولية لمواجهة العمليات الفدائية على الشكل التالي : على الحدود البحرية ، اي على الشاطىء ، المسؤولية تقع على عاتق الشرطة · اما على الحدود البرية وعلى مدى ١٠ كيلومترات فالمسؤولية عسكرية · وبعد العشرة كيلومترات تصبح المسؤولية على قوات الشرطة ·

وقد اثيرت تساؤلات فيما اذا كان هذا التوزيع للمسؤولية جيدا ، ويؤمن تنسيقا فعالا بين الجيش والشرطة ·

وكما أوردت اذاعة اسرائيل فان أوساطا معتمدة في اسرائيل اوضحت ان هذا التوزيع للمسؤوليات جيد · ولكن يجب تجهيز الشرطة ووحداتها الخاصة بوسائل اكثر فعالية للسيطرة على احداث من هذا النوع ·

وحيث ان المفتش العام للشرطة ، حاييم طابوري ، بدا في موقع الاتهام ، فقد دافع عن نفسه ، واوضح في مقابلة مع الاذاعة الاسرائيلية ضرورة تزويد شرطة اسرائيل باجهزة اخرى اضافة الى ما تملكه · واوضح انه بحاجة الى اجهزة اتصال اكثر تطوراً ، والى اجهزة مفاجأة اكثر تطورا ، والى طائرات عمودية للوحدة الخاصة ، والى وحدات اخرى اضافة الى ما هو موجود ·

وفي مواجهة كل هذه الاسئلة ، اعلن عن تشكيل لجنتين للتحقيق ، احداهما عسكرية مؤلفة من اشخاص يمثلون مختلف الاسلحة في الجيش الاسرائيلي برئاسة العميد يونا افرات ، قائد المنطقة الوسطى سابقا · ومهمة هذه اللجنة التحقيق في نشاط الجيش الاسرائيلي اثناء العملية ، وكذلك التحقيق في التعاون الذي تم ما بين الجيش وبين اذرع الامن المختلفة ·

كما قام المفتش العام للشرطة بتشكيل لجنة تحقيق من الشرطة ، للتحقيق وجمع كافة المعطيات والشهادات حول العملية ·

وستظل اسرائيل تغوص في وحل الاجراءات الامنية ، وستظل تكتشف ان الفدائي قادر على خلق اشكالات امنية جديدة امامها ، حتى تسقط كل الاوهام وتنتصر الحقائق ·

V

انهم لا يبصرون

أثارت العملية الفدائية ردود فعل واسعة على الصعيد الدولي ، واستنكرت معظم الدول الغربية العملية ، وابدت تخوفا على مسيرة التسوية ، من النتائج التي اسفرت عنها العملية، ومن الرد الاسرائيلي المحتمل عليها ·

كانت **الولايات المتحدة** اول من بادر الى استنكار العملية وادانتها · وجاء في بيان اصدره البيت الابيض في ٣/١١ « ان العمل الارهابي الذي وقع في اسرائيل ، ضد ركاب سيارتي الباص ، وعدد من السيارات الخصوصية هو عمل غير شرعي وعديم المنطق ، وينطوي على وحشية ، وان اعمالا اجرامية كهذه لا تخدم اي هدف او عقيدة سياسية ، بل تثير الاشمئزاز والاستنكار » ، كما قام كارتر بارسال برقية تعزية الى بيغن·

واعرب موظفون في البيت الابيض عن اعتقادهم بان هذا العمل جاء في نطاق محاولات

عناصر متطرفة لاحباط التسوية السلمية ، كما استنكرت الخارجية الاميركية العمليـــة وقال الناطق باسمها انه يجب الا يسمح للعملية الفدائية الاخيرة في اسرائيل باخـــراج مفاوضات الشرق الاوسط عن الخط المرسوم لها · ورفض الناطق بلسان وزارة الخارجية الاميركية القاء مسؤولية العملية على احد · واكتفى بادانتها واستنكارها · مما اثـــار حفيظة اسرائيل ، فاتصل سفيرها بواشنطن بالفرد اثرتون ، وبعد ساعتين من هـــذا الاتصال ، عدل الناطق بلسان وزارة الخارجية الاميركية بيانه الذي قال فيه « على الرغـم من انه ليست لدى الولايات المتحدة معلومات يقينة عن هوية المخربين التنظيمية ، فقـــد جرى اطلاع وزارة الخارجية الاميركية على بيان منظمة فتح التي ألقت على نفسهـــا مسؤولية العملية الاجرامية »

واضاف الناطق « انه ليس للولايات المتحدة اي سبب للشك بهذا البيان ، ولهذا ترغب في توجيه بياناتها واستنكارها الى منظمة فتح » ·

اضافة الى ذلك ، فقد رفع ما يزيد على ٢٠٠ من اعضاء مجلس النواب الاميركـــي بيانا الى كارتر يشجب بشدة العملية · وطالبوه باظهار تحفظه الشديد على بيانـــات التعاطف العربية مع العملية ، اشارة الى تعليق ورد في اذاعة الرياض ·

وفي لندن وصف رئيس الوزراء البريطاني العملية بانها « عمل غير انساني ··· يهدف الى تحقيق انتكاسة في امال السلام او القضاء عليها » وقال ناطق بلسان وزارة الخارجية البريطانية انه « من الحيوي الا يسمح بالنجاح لاولئك الذين يهدفـــون الـــى تخريـــب احتمالات السلام في الشرق الاوسط ، باللجوء الى الارهاب والعنف » ·

وفي باريس اصدرت وزارة الخارجية الفرنسية بيانا قالت فيه « ان مثل هذه الاعمـــال لا تؤدي الا الى تأخير محاولات الحلول لتسوية سلمية او الاضرار بها » ·

وفي باريس ايضا بعث فرانسوا ميتران ، الامين العام للحزب الاشتراكي الفرنســي ، وروبير بونتيون ، السكرتير الاول للحزب ، برقية الى كل من مناحيم بيغن وشمعون بيـــرز قالا فيها : نؤكد لكم تفهمنا وتأييدنا لاتخاذ عمل دولي فعال ضد الارهاب ، ونرجوكم ان تعربوا لاسرائيل شعبا وحكومة عن تضامننا » ·

وفي بون ادان وزير الخارجية العملية واعرب عن أمله في « ان لا تعيق فرص التسوية في الشرق الاوسط » ·

وفي لاهاي قال وزير خارجية هولندا ان هذه العملية توضح مرة اخرى ضرورة اجراء تسوية سلمية في الشرق الاوسط · واعرب عن « امله في ان تتمكن الدول المعنية مـــن مواصلة حوارها على الرغم من هذا الحادث » ·

لقد خرجت النمسا عن هذا الخط ، فأعلن وزير خارجيتها الذي كان يقـــوم بزيـــارة للكويت « ان الغارة الفدائية الفلسطينية على اسرائيل ، كانت نتيجة لسياســـة الدولـــة

اليهودية ازاء الفلسطينيين » واضاف « الا ان الارهاب لا يحل مشكلة الشرق الاوسط » ٠

وفي **موسكو** ، اشارت البرافدا الى العملية ونشرت الرواية الفلسطينية عنها ، ثم نقلت « تاس » في وقت لاحق تفاصيل عن العملية عن وكالات انباء اجنبية ٠ وعبرت تاس عن موقف الاتحاد السوفياتي ٠ فقالت « ان اسرائيل تحاول ان تستخدم الغارة الفلسطينية كذريعة للقيام باستفزازات عسكرية ضد بلدان عربية مجاورة » واوضحت « ان دعاية اسرائيل تحاول أن تستخدم هذا الحادث للاساءة الى م٠ت٠ف » ٠

وفي **الفاتيكان** قال البابا بولس السادس انه يأمل بأن لا يؤدي هجوم الفدائيين الفلسطينيين الى سلسلة جديدة من أعمال العنف ٠

اما في **الامم المتحدة** فقد خرج السكرتير العام للامم المتحدة عن حياده المفترض ، وعبر في رسالة التعزية التي بعث بها الى بيغن عن « عميق صدمته بسبب الخسائر المأساوية في أرواح المدنيين الابرياء » ووصف العملية بانها « حادث ارهابي » ٠

الصحف الغربية اليمينية تستنكر وتردد المقولات الاسرائيلية

الصحف البريطانية :

افردت الصحف الغربية مساحات واسعة من صفحاتها للعملية ، وابرزتها كعمل ارهابي ضد مدنيين ابرياء ٠ واستنكرت معظم هذه الصحف في تعليقاتها، العملية ، وابدت خشية على محادثات السلام المصرية ـ الاسرائيلية ٠ كما اعتبر بعض هذه الصحف ، أن العملية كانت خدمة لبيغن ، لانها تجعل الرأي العام العالمي يتعاطف معه في موقفه من الفلسطينيين ٠

صحيفة « لندن تايمز ٣/١٣ » علقت على العملية فقالت « لقد كان هجوم الفدائيين الفلسطينيين واحدا من تلك الاعمال المدمرة التي يجعل المراقبين يشعرون باليأس من امكانية تحقيق التسوية السلمية في الشرق الاوسط الى الابد ٠ ولم يكن ذلك عملا مزريا من الناحية الاخلاقية ، بل ومضللا من الناحية السياسية ٠ فهو لا يمثل طريقة عقلانية لخدمة المصالح الحقيقية للشعب الفلسطيني ٠ كل ما في الامر انه يزيد من تصلب المقاومة الاسرائيلية ويجعل الرأي العالمي يتعاطف مع بيغن » ٠

ودعت الصحيفة اسرائيل الى عدم الرد على العملية ، وقالت « ان الانتقام ليس رادعا فعالا ، بل انه يفيد الفلسطينيين ويزيد من التوتر ٠ والرد الافضل بكثير يتمثل في تحليل الاهداف الكامنة وراء الهجوم ومحاولة تجاوزها » ٠

صحيفة « الفايننشال تايمز ٣/١٣ » قالت ان الهجوم الفدائي القى ظلالا من الشك حول مساعي السلام في الشرق الاوسط ٠ واشارت « الى انه يحمل مخاطر نشوب نزاع موسع اذا قررت اسرائيل الرد بعنف ضد الفلسطينيين الذين يقيمون في لبنان ٠ واوضحت

الصحيفة ان توقيت الهجوم وحجمه كانا يستهدفان توجيه لطمة لمناحيم بيغن ومبـــــادرة السادات » · وتساءلت الصحيفة فيما اذا كان السوريون سيهبون لنجدة الفلسطينيين في الجنوب « اذا تعرضوا لغزو اسرائيلي » ·

صحيفة « الفارديان ٣/١٢ » · قالت ان بيغن لا يبالغ عندما يقول ان هدف م·ت·ف هو قتل اليهود ، وتساءلت « فيما اذا كانت الدول المتمدنة في العالم ستبقى تعيـــــر اهتماما للادعاءات الفلسطينية » كما تساءلت الصحيفة « فيما اذا كان الرد الاسرائيلـــي سيفيد اسرائيل ، واوضحت ان هذا الرد سيخدم اغراض المخربين » ·

الصحف الفرنسية

« لوموند » افردت مساحات واسعة من صفحاتها لوصف العملية والتعليق عليهـــا · ووصفت العملية (٣/١٤) بانها « عمل لا يمكن تبريره » وانه لا يفيد القضية الفلسطينية· وقالت « على العكس تماما فانه يضربها ضربة قاسية باثارتها غيظ وغضب هؤلاء انفسهم الذين يطالبون بوطن للفلسطينيين » ·

وفي مقال اخر حول العملية (٣/١٥) تساءلت الصحيفة عن ردة الفعل الاسرائيليـــة فقالت « عملية انتقامية أكيدة ، ولكن يبدو ان تصعيد ملاحقة الارهابيين خارج الحـــدود· سيعتمد بعد ان كانت اسرائيل قد أهملتها عمليا » ·

وفي زاوية المنبر الدولي علق دوف بودير ، ممثل حزب مابام في أوروبا ، عـــلى العملية « ليموند ٣/١٦ » فقال انها تجمد كل « امكانيات الحوار ، وانها اضعفت القـوى المعتدلة في اسرائيل ، والتي تطالب بالاعتراف بالهوية الفلسطينية » ·

صحيفة **لو ماتان** « الحزب الاشتراكي الفرنسي » افردت مساحات واسعة لوصـــف العملية بتفاصيلها كما روتها المصادر الاسرائيلية ، وبشكل تحريضي · وعلق احـــد محرري الصحيفة على العملية (٣/١٤) فوصف الفلسطينيين بانهم « محطموا السلام » · وقال ان الفلسطينيين باستعمالهم « سلاح الارهاب هناك احتمال ان لا يجدوا احدا حـول طاولة المفاوضات حيث يريدون أن يدعوا » ·

مصر والسعودية تشجبان العملية

لاول مرة تشجب مصر رسميا عملية فدائية فلسطينية ، فالعملية بما ترتب عليهـا مـن نتائج اثارت تخوفا مصريا من ان تؤدي الى ضرب مسار السادات ، واسقاط النتائـــج التي ترتبت على زيارته للارض المحتله · في البداية حاولت مصر ان تتخذ موقفـــا متوازنا ، وذلك كما ورد في تصريح بطرس غالي ثاني يوم العملية ، عندما ربط بيـــن العملية وتصلب بيغن اعتبارهما عقبات امام السلام · غير ان السادات كان اوضح فـي موقفه عندما ادان العملية ووصفها بانها عمل غير مسؤول ووجه نداء غير مباشر الـــى اسرائيل بعدم الرد · وربط بين العملية ومقتل يوسف السباعي في قبرص وقال « انني اعارض العمليات ضد المدنيين ، لقد عشنا نفس التجربة قبل اسابيع قليلة في قبرص ،

ونددنا بما جرى هناك · وانا سوف أدين باستمرار اي عملية ضد المدنيين ، واني اعتبر العملية خطوة غير مسؤولة ، وانني اتساءل حقيقة عن نتائج مثل هذه الاعمال » ·

لقد كانت مصر تخشى ان تؤدي العملية والرد الاسرائيلي المحتمل عليها الى نسف المفاوضات المصرية ـ الاسرائيلية ، وهذا ما عبرت عنه اوساط سياسية مصرية · ولم تحاول مصر تحذير اسرائيل من الرد على العملية الفدائية ، وكان الموقف المصري هو التمني على اسرائيل بألا يؤدي رد فعلها الى « انغماس المنطقة في حلقة عنف مفرغة » وذلك كما أوضح وزير الخارجية المصري لدى لقائه بالسفير الاميركي في مصر ·

وفي **السعودية** · جرى التنديد بالعملية على لسان المندوب السعودي في الامم المتحدة ، ثم ببيان رسمي سعودي · وفي هذا البيان تنصلت السعودية من تثمين العملية الذي ورد في تعليق باذاعة الرياض · وقد اثارت اوساط اميركية ضجة كبيرة حول تعليق اذاعة الرياض الذي يثمن العملية ، وربطت بين هذا التعليق وبين توجيهات الادارة الاميركية لبيع طائرات ف ـ ١٥ الى السعودية · وعلى ما يبدو فان السعودية حرصا منها على ابتمام صفقة شراء الطائرات . استنكرت العملية ، وتبرأت من تعليق الاذاعة ·

الصحف العربية تشيد بالعملية :

اما **الصحف العربية** فقد اشاد معظمها بالعملية ووصفها بانها عمل جريء وجسور ، وربطت صحف دول جبهة الصمود والتصدي بين العملية وبين العمل لاسقاط نهج السادات ·

وفي **لبنان** · كانت الاوساط السياسية الرسمية قلقة من ردة الفعل الاسرائيلية ، وكانت تتابع الموقف بحذر وقلق · وقد رد رئيس الحكومة الدكتور سليم الحص على المزاعم الاسرائيلية التي قالت ان افراد المجموعة الفدائية اتوا من لبنان ، فقال « من المستغرب جدا ان يقحم اسم لبنان في بعض التصريحات التي وردت على لسان المسؤولين الاسرائيليين بصدد الحادث ··· ان لبنان غير مسؤول عما حدث ولا علاقة له به ، واي محاولة لزج لبنان بالموضوع هي محض افتراء ·

صحف القوى الانعزالية ، شجبت العملية ، وحرض شمعون في تصريح له اسرائيل على الفلسطينيين حين قال ان الاسرائيليين مسؤولون بقدر مسؤولية الفلسطينيين ، لانهم (الاسرائيليين) تركوهم يتلقون السلاح من مرفأ صور ، بما فيه الزوارق المطاطية التي استعملت في العملية · (جريدة « العمل » ٣/١٣) ·

VI

هل يسمعون ؟

استنكرت قيادة الثورة الفلسطينية تصريحات الشجب للعملية الفدائية والتي ادلى

بها بعض رؤساء الدول الغربية ، كما حذرت حكومات العالم من الاستفزازات الصهيونية لكاتبها في الخارج · ففي ٣/١٣ ، استنكر ناطق باسم قيادة الثورة الفلسطينية تصريحات كارتر حول العملية ، وبرقية التعزية التي بعث بها الى بيغن ، وجاء في البيان :

« سارع الرئيس كارتر ، وفور العملية الجريئة والبطولية التي قام بها ثوارنا ضد القوات الاسرائيلية في عمق الارض المحتلة ، الى شجب هذه العملية والتنديد بها ، والتلفظ بتصريحات معادية لشعبنا ·

ان قيادة الثورة الفلسطينية ، ترى في هذه التصريحات من جانب الرئيس كارتر ضد نضال شعبنا وثواره الابطال عملا عدائيا موجها لشعبنا الفلسطيني وقضيته العادلة · كما ترى قيادة الثورة في هذه التصريحات انحيازا كاملا وصريحا وصارخا مع وجهة النظر « الاسرائيلية » الارهابية ، وهو ما يعني الاستهانة بحقوق شعبنا وقرارات المجتمع الدولي التي ترجمت هذه الحقوق بوضوح لا يقبل الشك ·

اننا لنتساءل عن سبب هذه السرعة في مهاجمة عمليات ثوارنا الابطال من جانب الرئيس الاميركي كارتر · في الوقت الذي لم يهتز كارتر للعمليات الارهابية الوحشية المتواصلة والمنظمة التي يقوم بها بيغن الارهابي وتقوم بها العصبة العسكرية «الاسرائيلية» ضد ابناء شعبنا في الوطن المحتل وضد قرى الجنوب اللبناني وضد المخيمات الفلسطينية العزلاء التي قصفتها الطائرات « الاسرائيلية » مئات المرات ومسحت بعضها من الوجود ··· هذه العمليات التي تشكل امتدادا للارهاب الصهيوني المخطط والمنظم منذ مجزرة دير ياسين التي قام بها الارهابي المشهور مناحم بيغن ·

ان قيادة الثورة الفلسطينية وهي تستنكر بشدة هذا الموقف الاميركي المتحيز ضد نضال شعبنا وثواره لتؤكد على ان الشعب الفلسطيني سوف يواصل نضاله بكافة اشكال النضال وفي مقدمتها الكفاح المسلح ، وهو حق اقرته لجان تصفية الاستعمار في الامم المتحدة ، وذلك حتى يتم تحقيق الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني بما فيها حقه في العودة وتقرير المصير ، وانشاء دولته الفلسطينية المستقلة فوق ترابه الوطني ·

ولن تؤثر في مسيرة شعبنا وثورتنا المواقف والتصريحات الاميركية السافرة في عدائها لطموحات وامال ونضالات شعبنا وامتنا العربية المجيدة في صراعها الحضاري ضد الامبريالية والصهيونية والاستعمار ·

ان الثورة الفلسطينية والشعب الفلسطيني قد عهدا مثل هذا الموقف المتحيز المتبنى « لاسرائيل » من جانب الرؤساء الاميركيين وكارتر ليس افضلهم في تحديه لمشاعر وحقوق وامال وطموحات امتنا العربية ، وشعبنا العربي الفلسطيني المناضل » ·

كذلك فقد استنكر الناطق الفلسطيني ايضا ، التصريحات التي ادلى بها رئيس الوزراء البريطاني ، وقال « يهمنا ان نذكر كالاهان الذي يدعي الدفاع عن الانسانية ان تاريخ الاحتلال البريطاني الاسود لبلادنا ما يزال قائما في اذهان شعبنا ، وهو تاريخ اذا كان

كالاهان لا يعرفه فاننا نرجو ان يقرأه وسوف يجد فيه المأساة الكاملة لشعبنا التي تسبب فيها بالتعاون مع الارهابيين الصهاينة امثال بيغن ووايزمان وشامير ٠

كما حذرت منظمة التحرير الفلسطينية من الاستفزازات الصهيونية ضد مكاتبها في الخارج ٠ وقال ناطق رسمي باسم المنظمة ، ان عددا من مكاتب منظمة التحرير في بعض البلدان تعرض لاستفزازات من قبل تجمعات عسكرية صهيونية ، وذلك اثر التهديدات التي وردت على لسان مناحم بيغن في الكنيست ٠

وقال الناطق انه ساعد على ذلك انجراف بعض الشخصيات السياسية في تلك البلدان وراء حملة الابتزاز الرخيصة التي قادها بيغن وطغمته العنصرية والصهيونية ٠

وحذر الناطق حكومات تلك البلدان من ان عليها ان تتحمل الان وفي المستقبل المسؤولية الكاملة لما يحدث في مكاتب المنظمة وللعاملين فيها ٠

وقد اوردت « وفا » في نبأ لها من باريس ان مكتب منظمة التحرير في العاصمة الفرنسية تعرض لهجوم من مجموعة من الارهابيين الصهاينة ، وقد تصدت لهم الشرطة الفرنسية ، وقالت ان الارهابيين وزعوا منشورات تهاجم الوجود الفلسطيني في باريس ٠

وكان عز الدين قلق ممثل المنظمة في باريس قد اتهم في بيان اصدره اليوم الحكومة الاسرائيلية بالاعداد لمجموعة من الاعتداءات ضد مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية في اوروبا الغربية ٠

ووصف البيان طلب اغلاق مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية في اوروبا ، والذي تقدم به مناحم بيغن بانه « مناورة ابتزاز » واضاف ان هذه المناورة تستهدف الاضرار بالعلاقات الفرنسية الفلسطينية وبالعلاقات الطيبة بين فرنسا والعالم العربي ٠

وجاء في البيان « ان الاعتراف الدولي بشرعية منظمة التحرير الفلسطينية والحقوق القومية للشعب الفلسطيني لا يمكن بأي حال ان يكون موضع تساؤل اليوم ٠ واضاف ان أحدا وبصورة اخص ارهابي شهير مثل بيغن لا يمكن ان يعيد التاريخ الى الوراء » ٠

VII

في التاسع من نيسان ١٩٤٨ كانت دير ياسين ــ الجريمة ، وفي الحادي عشر من آذار ١٩٧٨ كانت دير ياسين ــ البطولة ٠ فهل تمحو البطولة ٠٠٠ الجريمة ٠

ثلاثون عاما والفلسطيني يصرخ ٠ ثلاثون عاما والفلسطيني يقاتل ٠

ثلاثون عاما والفلسطيني يرسم الحدود الفاصلة بين الجريمة والبطولة ، بالعذاب والالم ، بالدم والتضحيات ٠ ثلاثون عاما والفلسطيني يركض من حرب الى حرب ، ليؤكد حقائق طمستها الجريمة ، وكادت ان تنسى ٠

ثلاثون عاما والشعب الفلسطيني في حرب مستمرة · وحرب الجنوب لن تكون اخـــر الحروب الفلسطينية ، ولكنها ستكون الحرب التي تؤكد للجميع ، ان الذين يعيشون علـى اوهام تصفية الثورة الفلسطينية ، آن لهم ان يتعلموا ، وان يدركوا ، ان التاريخ لا تصنعه الاوهام ، وان قدرة الشعوب على الحياة ، اكبر من اي جريمة ، واقوى من كل جبـروت آلات الدمـــــار ·

حكايـة دلال الفلسطينيّـة

الاذاعة الاسرائيلية معكم حتى اشعار اخر

مناحيم بيغن يؤجل زيارته لامريكا ، ويدعو رجال مطبخه الى اجتماع عاجل ·

عزرا وايزمن يقطع محادثاته مع الجنرالات الامريكيين ، ويعود فورا الى اسرائيل ·

ايجال يادين يرتدي لباس الميدان ، ويتوجه الى مسرح العمليات ·

الرئيس كارتر قطع برنامجه اليومي ويعد رسالة الى بيغن ·

الرئيس كارتر يتابع باهتمام شريط الاخبار المتلاحق، ويبدو في حالة قلقة مرتبكة ·

رفع حالة الاستنفار الى اقصى درجاتها في الجيش والشرطة وحرس الحدود ·

ملايين الاذان والاعين تتسمر على اجهزة الراديو والتلفزيون ·

نظام حظر التجول يشمل ثلاثمئة الف اسرائيلي ، واعلان ثلث دولة اسرائيل ضمن دائرة محكمة الحصار ·· وذلك يحدث لاول مرة في التاريخ ·

بيغن سيتحدث غدا ثم تحدث قائلا : ان الهة السماوات ·· تعزيكم يا اهل اسرائيل ··

كارتر يخرج عن لياقته · ويطرد بسمته السحرية الدائمة حتى اشعار اخر ··

الرئيس السادات يقول في حديث لمجلة اكتوبر ·· ان مبادرتي ما زالت حية ·· وتسكن في وجدان التاريخ ··

ما الذي حدث ··؟

هل اشتعلت الحرب الخامسة فجأة ؟ ام ان هنالك امرا اهم ؟

فيعام ١٩٤٨ اباد الاسرائيليون قرية فلسطينية اسمها دير ياسين · قليلون من اهل القرية تمكنوا من النجاة ·· وانجبوا اطفالا ·· ولكن ليس في دير ياسين ·

في عام١٩٧٠ احالت مدفعية الملك حسين مخيم الوحدات في عمان الى ركام وحطام · وتمكنت قوات المليشيا المدافعة عن المخيم من منع الدبابات من الوصول الى المواطنين ، كما قامت بنقل مجموعة من الاطفال الجرحى الى مستشفى الاشرفية · وفي يوم اخر وصل بعض جنود البادية الى المستشفى ، وقاموا بتقطيع اصابع الاطفـــال كي لا يستطيعوا استعمال البندقية عندما يكبرون ·

في عام ١٩٧٦ تحالف تلامذة بن غوريون مع القوى اليمينية في لبنان ، وتمكنوا من احكام الحصار على مخيم تل الزعتر · قاتل اهل المخيم قتالا فوق طاقة بني الانسان · سقط منهم ثلاثة الاف ونجا الباقون · ثم اصبح المخيم كملعب كبير لكرة القدم ، فارغا من كل شيء الا من بصمات الفاشية واثار اقدامها السوداء ··

قطعت دلال هذه الرحلة الطويلة · لم تشاهد بعينيها فصول مذبحة دير ياسين ، ولم تبصر تقطيع اصابع الاطفال في الاشرفية ، غير انها شهدت الجزء الاخر من الرحلة ، حين كان الناس يموتون جوعا وعطشا وقتلافي مخيم تل الزعتر· والرحلة بالنسبة لدلال لاتنتهي عند نقطة في منتصف الطريق ، بل لا بد وان تكتمل · ولكن ·· اين ستغلق الدائرة ··؟

بعضنا يرى ان الطريق الى فلسطين يلف دورة كاملة حول الوطن العربي · وربما العالم · وبعضنا يرى ان هذاالطريق يمتد عبر خط مستقيم ، يطول ويقصر حسب قدرتنا على قطعه ، والقفز من فوق حقول الالغام المنتشرة على امتداده ··

ولكن دلال التي تنتمي الينا جميعا كانت تقول : ان بوسع الانسان ان يقطع هذا الطريق بخطوة واحدة ويصل ، والمسألة لا تتعلق بقارب حديث او بطائرة نفاثة فائقة القدرة والسرعة ، فما اكثر القوارب التي ان وجدت فلا تبحر ، وان ابحرت تغـــرق في اول الطريق او تسير في وجهة مختلفة · وما اكثر الطائرات النفاثة التي انتزعت منهـــا « البوصلة » وسبحت فيالفضاء كطائر ضال ، حلق كثيرا وكثيرا في طبقات الفضاء ، وارتطم بالارض جثة هامدة ممزقة ··

عدد الجرحى والقتلى ·· لا يهم

عدد الباصات والحافلات الصغيرة والكبيرة التي احترقت او ارتطمت من الرعب باعمدة الكهرباء على طول خط الاوتوستراد ، بين حيفا وتل ابيب لا يهم ايضا ··

والدموع السخية التي انهمرت على وجنات كارتر ، حزنا او نفاقا او خوفا ، ليست هي النتيجة ·

الذي يهم حقا هو ان دلال الفلسطينية وصلت بالفعل ، واغلقت الدائرة · وعندما تغلق دلال الفلسطينية الدائرة حول دولة اسرائيل ، بيديها الفلسطينيتين ، يصبح بوسع كـل انسان منا ان يقول انها كانت اصدق من الصدق حين قالت ان بامكان الانسان ان يقطع الطريق الى فلسطين بخطوة واحدة ، دون ان يكون بحاجة الى قوارب حديثة او طائرات نفاثة نزعت منها « البوصلة » ··

هل انتهت رحلة دلال التي قالت لنا شيئا اقوى من الحظ ، هو الذي ابقاني على قيد

الحياة ؟ والتي قالت لنا انها تعرف متى واين وكيف تموت ..

ان رحلة دلال لم تنتهه ..

صحيح ان بيغن اعلن وفاتها في مؤتمر صحفي ..

وصحيح ان صورتها ارتفعت على الجدار ، الى جانب صورة احمد موسى ، وابو علي اياد .. وصور ثلاثة الاف شهيد سقطوا في تل الزعتر ..

صحيح ذلك كله . ولكن منذ متى كانت رحلة دلال رحلة عادية تنتهي بالموت ، قتلا او اغتيالا . او تتوقف من التعب على محطة استراحة هنا او هناك ؟ ان رحلة دلال هي من ذلك النوع الذي لا ينتهي عند الموت بل يبدأ . ولا يتوقف على محطات الاستراحة ، بل يستمر .. تماما كرحلة احمد موسى التي بدأت بخيوط من دمه . وتجددت بشلال دم تدفق على ارض الكرامة . ونهضت بدم ابو علي اياد .. وثلاثة الاف شهيد فـــل تـل الزعتر .

وها هي تستمر ...

نبيل عمرو

مـاجد ابو شـرار

الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب

الصّـراع العربي الصّهيوني في مرحلته الراهنة

تمر منطقتنا العربية في وضعها الراهن بظروف بالغة الصعوبة والتعقيد ، بحيث تبدو فيها المنطقة وكأنها في قبضة القوى الامبريالية الصهيونية الرجعية او تكاد ، ظروف تجعل من العسير اخضاع ما يجري في المنطقة لقوانين التحليل مما يساعد على الوقوع في مزيد من الارباك والتردد ، وحيث تتم يوميا اكثر من محاولة للتحايل على قوانين التناقض والصراع ، ويتم كل هذا من خلال الازمة العنيفة التي تمر بها الانظمة البرجوازية الوطنية العربية التي لا زالت تخضع منذ هزيمة حزيران ١٩٦٧ ، لعملية ابتزاز منظمة ومستمرة يمارسها اعداء الامة من الامبرياليين والصهاينة والرجعيين ، حيث نجحت اسرائيل من خلال ضربتها العسكرية الصاعقة لهذه الانظمة عام ١٩٦٧ من بث الذعر والهلع في صفوفها ، دفعها الى قبول ما تطرحه اسرائيل من صيغ وبأشكال متفاوتة ، متوهمة بذلك انها تمنع عنها الضربات وفارضة بالتالي على بنى هذه الانظمة تغييرات تخدم بالنتيجة هدف اعداء الامة باخضاع هذه الانظمة على حساب تقدمها وتطورها .

ومن هنا فمن الخطأ الاعتقاد بان ما نشهده من تحركات الان يستهدف الوصول الى تسوية للصراع العربي الاسرائيلي ، بل هو في جوهره وحقيقته يهدف الى تحديد ملامح المنطقة العربية وبالتالي تحديد هوية القوى التي ستسود في المنطقة . هل تسود القوى الفاشية اليمينية السوداء التي تشكل اداة طيعة في يد امريكا واسرائيل لتوجيه ضربة قوية للقوى الديمقراطية العربية على غرار الضربة التي وجهها النظام اليميني الفاشي الاسود في اندونيسيا لقواها الديمقراطية ، وعلى غرار ما وقع ايضا في التشيلي ، ام

تتمكن هذه القوى الديمقراطية من الخروج من ازمتها الراهنة وتتمكن من خوض معركة الدفاع عن نفسها وتثبيت وجودها والقفز الى مرحلة النهوض والسيطرة ٠

وهنا لا بد ان نؤكد ان العدو الاكثر قوة في معركة المواجهة هذه ، هو القوى الامبريالية العالمية بزعامة الولايات المتحدة الامريكية صاحبة المصلحة الاقوى في السيطرة على المنطقة واخضاعها لنفوذها ، وبالتالي المحافظة على منابع النفط فيها ، وهو المصدر الرئيسي للطاقة الذي لا زالت الامبريالية بحاجة له حتى نهاية هذا القرن حيث تخطط لتوفير مصدر جديد للطاقة ٠

وهنا تأخذ اسرائيل دورها الاساسي في مجال حماية المصالح الامبريالية الى جانب الانظمة الرجعية العربية الاقل مقدرة وامكانات وفرص للقيام بهذا الدور ، وبالتالي فقد جاء اختيار فلسطين هدفا للنشاط الاستعماري للصهيونية متطابقا مع هدف القوى الاستعمارية في استعمار الشرق الاوسط ، اولا كممر استراتيجي وكطريق تجاري ، وثانيا التمسك بالمشروع الصهيوني وتعزيزه بعد ظهور البترول في العراق والخليج والمملكة العربية السعودية ٠

من هنا اتى وعد بلفور في العام ١٩١٧ ليترجم المصالح الاستعمارية لبريطانيا في الشرق الاوسط والخليج والهند والشرق الاقصى ، وقد كان تقرير « بانرمان » عام ١٩٠٧ بمثابة الارضية ٠٠٠ لوعد بلفور ، حيث قال بضرورة زرع جسم غريب في المنطقة يمنع وحدتها ويحقق ربط اطرافها بالاستعمار، وعلى الطريق لتحقيق هذا الهدف تمت عملية تجزئة وتقسيم البلاد العربية من خلال اتفاقية « سايكس ـ بيكو » عام ١٩١٦ ٠

فالحركة الصهيونية التي ظهرت في اوروبا وتخصيصا في النمسا، بعد ان كان الفكر الذي قامت الصهيونية كأستمرار له ، الا وهو الفكر القائل بخصوصية اليهودية ، بعد ان كان قد شمل فرنسا والمانيا والنمسا وعددا من البلدان المجاورة ، وقد تقمصت تلك الافكار العنصرية المحدودة الافق والداروينية الطبيعة السياسية الشكل ٠

فهذه الحركة لم تختلف على اي حال عن مثيلاتها من الحركات العنصرية الفاشية التي ظهرت في اوروبا ، وخصوصيتها انها قصرت نفسها على اليهود، وقد حاولت منذ البداية ان تسير بخط متواز مع الحركات الفاشية الاخرى ولكنها فشلت بسبب الرفض المرحلي الذي قوبلت به من تلك المثيلات ٠ فالصهيونية اذن وليدة مناخ فكري يقوم على الفكر الداروينى السياسي ، لذلك فالصراع معها ايا كان شكله ، هو صراع بين القرن العشرين والقرن التاسع عشر بكل تكلساته الفكرية ، ومناحيم بيغن هو اكثر الزعماء الصهيونيين المكشوفين في التعبير عن عقم وتكلس هذا الفكر ٠

بالطبع لو لم يتحقق هذا التزاوج بين الحركة الصهيونية وبين الاطماع الاستعمارية ، لما رأى المشروع الصهيوني النور في فلسطين ، ولهذا يرتبط المشروع الصهيوني مستقبلا بالوجود الامبريالي · فالتراجع والتقهقر في النفوذ الامبريالي يجر معه تقهقرا وتراجعا في المشروع الصهيوني ، وهذا يفسر لماذا « ترفض » اسرائيل عمليا ان تعتبر نفسها دولة من دول الشرق الاوسط ، انها تنتمي فعلا الى اوروبا الاستعمارية ، ولا تستطيع بحال ان تفك هذا الرابط ، لان معنى ذلك بداية زوالها كدولة ، ولهذا تمكنت الحركة الصهيونية من بناء مشروعها بالربط الذي تم بين هذا المشروع وبين الرأسمالية في لحظة انتقالها الى مرحلة الاستعمار والامبريالية ·

ولا بد من الاشارة الى ان القالب الاسطوري الديني لهذا المشروع لا ينفي عنه حقيقته الاستعمارية الصارخة ، لهذا نمت الصهيونية في فلسطين مع نمو المصالح الاستعمارية ·

ـ اولا : الممر الاستراتيجي والطريق التجاري ·

ـ ثانيا : اكتشاف البترول في العراق والخليج والسعودية ·

وقد جاء تدخل الولايات المتحدة الامريكية ليعبر بشكل اساسي عن هدفها بالسيطرة على منابع النفط العربية عبر قوة محلية مرتبطة بها اقتصاديا وعسكريا وسياسيا ، وقيام « اسرائيل » يعبر بالتالي عن وحدة مصالح الاستعمار والامبريالية والتقائها على تأييد الاهداف الصهيونية في فلسطين ·

وان من اسباب نجاح المشروع الصهيوني في فلسطين هو ان الاستيطان تم في بلد زراعي قليل العدد سكانيا بواسطة القوة والتفوق التي كانت بحوزة الصهيونيين المدعمين من الاستعمار البريطاني ، وقد رفض شعب فلسطين العربي الاستيطان وقاومه منذ البداية ولكن في ظروف صعبة للغاية وخاض نضالا ضاريا ضد الاستعمار البريطاني وضد الاستيطان الصهيوني ، رغم ان فلسطين كانت في ذلك الوقت محاطة بالانتداب البريطاني والفرنسي وبانظمة عربية اقطاعية عميلة للاستعمار ما كادت تمتلك غطاء حرب عام ١٩٤٨ حتى قامت هي الاخرى بتصدير (يهودها) العرب بالترهيب والترغيب من خلال عملية تواطؤ واسعة دفعت معظم اليهود العرب للهجرة الى فلسطين حيث ما زالوا يشكلون حتى الان نسبة ٦٠٪ من اليهود الذين هاجروا الى فلسطين حتى الان ·

عبر الشعب الفلسطيني منذ وعد بلفور حتى قيام الكيان الصهيوني عام ١٩٤٨ عن مقاومته للاستعمار وللهجرة الصهيونية من خلال انتفاضاته الجماهيرية واضراباته وبالعنف المسلح احيانا ، حيث كانت ثورة عرب

فلسطين عام ١٩٣٦ من اهم وابرز ثورات الشعب الفلسطيني حتى نكبته عام ١٩٤٨ ٠

جاءت ثورة عام ١٩٣٦ كتعبير عن رفض الامة العربية للاستعمار والتجزئة التي كرستها اتفاقية سايكس ـ بيكو من جهة ورفضها للهجرة الصهيونية الى فلسطين من جهة اخرى ٠ وقد اشارت لجنة (بيل) البريطانية التي بحثت وضع عرب فلسطين بعد اجهاض ثورة عام ١٩٣٦ الى سببين رئيسيين للثورة هما :ـ

١ ـ رغبة العرب في نيل استقلالهم القومي ٠

٢ ـ كراهيتهم لانشاء الوطن القومي اليهودي وتخوفهم منه ٠

وقد ساعد موقع فلسطين وطبيعة ارضها وطبقات مجتمعها على تجميع قوى اساسية من قوى التحرر العربي من سوريا والعراق وامارة شرق الاردن وتفاعلها مع حركة التحرر الفلسطينية والبدء في الاعداد لثورة عام ١٩٣٦ ٠ ولعل تجربة القسام التنظيمية رغم انتكاستها لحظة بدئها ممارسة الكفاح المسلح تشكل نموذجا فريدا ومتقدما في قدرة امتنا على التمرد والقتال ٠

ورغم قيام سلطة الانتداب البريطانية بحشد كل امكاناتها العسكرية وخبراتها في القمع (٢٠ ألف جندي) الا ان ثورة عام ١٩٣٦ انطلقت وضربت جذورها في كافة مدن وقرى فلسطين حيث منح شعب فلسطين هذه الثورة كل دعمه وتأييده ودفع الى صفوفها بخيرة ابنائه ٠ كما تدفق المناضلون من الاقطار العربية المجاورة الى فلسطين للمشاركة في ثورته التي اكتسبت كل سمات ومقومات الثورة الشعبية ، مما دفع سلطة الانتداب الى تغيير اساليبها في مقاومة الثورة فلجأت الى استخدام الانظمة العربية الاقطاعية المرتبطة بالاستعمار والتي قامت بتنفيذ خطة استيعاب الثورة والسيطرة على قياداتها واجهاضها ٠

فالى جانب البدء في التضييق على المناضلين وتقييد تحركاتهم واقفال الحدود في وجوههم ، دفعت عملاءها من اقطاعيي الريف وبورجوازيي المدن من عرب فلسطين الى مواقع متقدمة في قيادة الثورة تمكن هؤلاء من خلال مواقعهم شق وحدة اداة الثورة ، وبالتالي الوحدة الوطنية لشعب فلسطين ، مما سهل على الانظمة العربية في مرحلة لاحقة دفع الثوار الى القاء السلاح مقابل وعد زائف قدمته هذه الانظمة بحل مشكلة فلسطين بالتفاوض مع حكومة بريطانيا ٠ وارسل الملك عبد العزيز ال سعود بتاريخ ٢٥ ربيع اول ١٣٥٥ هـ رسالة الى الامير عبد الله امير شرق الاردن جاء فيها :

« نظرا لاننا ندري عواقب الامور ونخشى من أمر يكون على العرب عامة وأهل فلسطين خاصة ضرره فهل توافقون سموكم على التقدم لتوجيه نداء عام نشترك فيه مع سموكم وجلالة الاخوين الملك غازي والامام يحيى ندعو فيه أهل فلسطين لتوقيف

الاضطراب ليفسحوا للحكومة البريطانية المجال لانصافهم في جو هادىء فان مثل هـذا النداء اذا قبل ووقفت الحركة بعده يكون لنا جميعا وجه عند الحكومة البريطانية فـي رجائهـا لقبول مطالب اهل فلسطين وانصافهم » ٠

وقد رد الامير عبد الله على رسالته برسالة اقترح فيها : ـ

« انه لمن مصلحة العرب ان تكون لهم غضون ذلك جولة في ميدان السياسة يسعـون فيها لصيانة كيانهم في فلسطين ليدركوا الاوطار في مفاوضة البعثة الملكية البريطانيـة وانني اعتبر اهل فلسطين وديعة الله وعبد العزيز الذي يحل محل الراحل الكريم الـذي كان يوم الحرب العامة في مقاصدهم المشروعة التي جعلت امانة بين يديه الى ان توفاه الله على ذلك النهج وان الحكمة واجبة الاتباع في الظروف الحاضرة :

والليالي من الزمـان حبالـى مثقلات يلـدن كـل عجيب »

ووجه الملوك العرب النداء المشترك فـي ١٠ـ١٠ـ١٩٣٦ حسب الخطـة المرسومة واعلنت اللجنـة الفلسطينية وقف اعمـال العنف ابتـداء مـن ١٢ـ١٠ـ١٩٣٦ ٠

هذا وللتدليل على حجم تسلل عملاء الانظمة العربية الى القيادة الفلسطينية خلال ثورة ١٩٣٦ ، نورد نص بيان اصدرتـه اللجنـة العربيـة العليـا فـي ٣٠ـ٨ـ٣٦ جـاء فيـه :

« جرت محادثات بين اللجنة العربية العليا وبين نوري باشا السعيد وزير خارجيـة العراق واستغرقت عدة ايام ، فبحث الطرفان خلالها جميع النواحي المتعلقة بقضية عرب فلسطين في جو من الثقة والصراحة ، واسفرت عن التوصل الى تفاهم تـام وتمـت الموافقة بالاجماع على تدخل الحكومة العراقية وملوك العرب وامرائهم في جو سـاده الارتياح والاطمئنان فالوزير المذكور سوف يقوم في اجراء المخابرات اللازمة بهذا الشأن واللجنة العليا من طرفها سوف تقوم في الوقت نفسه بعرض هذا الاقتراح على الشعب لكي يبادر مؤتمر اللجان القومية الى اقراره ٠

وفي اثناء ذلك سوف يستمر الاضراب العام على حاله المعهودة في الصمود الراسخ اياه الى ان يتم ارساء هذه المفاوضات على اساس ثابت من شأنه ان يضمن لهذه الامة وجودها ويحقق لها مطالبها المشروعة وآمالهـا باذن الله » ٠

وسبق هذا النداء بثلاثة ايام تصريح ادلى به نـوري السعيد لمراسـل صحيفة نيويورك تايمز في القدس نشرته يوم ٢٨ـ٨ـ١٩٣٦ قال فيه ان لديـه اسبابا تحمله على الاعتقاد بان الحكومة البريطانية سوف تأمر بايقاف الهجـرة اليهودية حالما تتوقف اعمال العنف ٠

ولعل تجربة ثورة عام ١٩٣٦ من اهم التجارب التي مرت بها حركة التحرر ودروس عام ١٩٣٦ من مقاومة كل محاولات الاحتواء الرسمي العربي للثـورة

وافشال كافة محاولات الانظمة ضرب الوحدة الوطنية الفلسطينية او تجريد المقاتلين من اسلحتهم او دفعهم لاقامة تحالفات تضر بثورتهم ٠

ومع نمو ظاهرة النازية في اوروبا، وتعرض يهود اوروبا الى القتل والتشريد وهجرة جزء هام من رأس المال اليهودي الى فلسطين وتوظيفه في مشاريع منتقاة ، ازداد حجم الهجرة الى فلسطين وبدأت الحركة الصهيونية تستكمل بناء اجهزتها ومؤسساتها ، التي كان من أهمها واخطرها المؤسسة العسكرية التي شارك الجيش البريطاني في فلسطين في تدريب جنودها وتسليحهم وتقديم التسهيلات لتهريب الاسلحة والمعدات العسكرية ٠ وتحولت المستعمرات الزراعية اليهودية الى قلاع عسكرية تسيطر عليها المؤسسات الصهيونية في الوقت الذي كان يحكم فيه بالاعدام على اي عربي يقتني السلاح ، مما ادى الى اختلال قوي بميزان القوى لمصلحة القوة العسكرية الصهيونية ، وبالنتيجة فان انهيار المقاومة الفلسطينية عام ٣٦ ـ ١٩٣٧ وكثافة الهجرة الصهيونية في السنوات اللاحقة وبقاء الانظمة العربية في قبضة الاستعمار ، ادى الى صدور قرار تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ والى انتصار الحركة الصهيونية بشكل كاسح عسكريا وسياسيا عام ١٩٤٨ ، بالرغم من دفع ست دول عربية جيوشها لمساعدة عرب فلسطين ٠ لم تحسن هذه الجيوش بسبب انظمتها المرتبطة بالاستعمار الدفاع عن المناطق الفلسطينية التي نجح المقاتلون الفلسطينيون في التشبث بها فحسب ، بل قامت بتجريد عرب فلسطين من سلاحهم وتسليم مساحات واسعة من ارضهم « لاسرائيل » ٠ وتم ضم ما تبقى من اراضي الضفة الغربية للاردن ووضع قطاع غزة تحت الادارة المصرية بقرارات من جامعة الدول العربية التي سبق تأسيسها في عام ١٩٤٣ والتي لم تتمكن طوال وجودها من القيام بدور فعال في ادارة عملية الصراع العربي « الاسرائيلي » اذا استثنينا قرارها بالمقاطعة « لاسرائيل » وهي المقاطعة التي ما زالت عاملا هاما ومجديا في محاصرة « اسرائيل » ومنع تحويلها الى قاعدة اقتصادية تغطي جزءا هاما من حاجات السوق العربية ٠

ونتج عن قيام « اسرائيل » كذلك تشريد نحو ٧٠٠ الف عربي فلسطيني ٠

ادى سقوط فلسطين ككيان للشعب الفلسطيني وقيام « اسرائيل » في ١٥ ايار ١٩٤٨ الى اول انفجار في العالم العربي ، نتج عنه هزات عنيفة على امتداد هذا الوطن ٠ وبدأت الجماهير تتحرك تحت قيادة البرجوازية الوطنية للاطاحة بتحالف الاقطاع والكمبرادور ، وتمكنت من احداث اول تغيير في الانظمة في كل من سوريا ومصر ثم العراق ٠

وقد بدأ عبد الناصر في مصر ببناء أول دولة عربية مستقلة متحررة من نير الاستعمار وغير تابعة للغرب ، فانهى القواعد البريطانية وامم قناة السويس وبدأ بعقد تحالفات صحيحة تمثلت في صفقة الاسلحة مع الدول الاشتراكية

وباشر في عمل اصلاحات داخلية هامة على حساب الاقطاع · ولكن « اسرائيل» سارعت للقيام بدورها ككابح للتحرر والتقدم في المنطقة العربية حين احتلت قطاع غزة وسيناء عام ١٩٥٦ ناقلة بذلك الصراع العربي « الاسرائيلي » الى مرحلة جديدة اكثر خطرا وضراوة ·

وفي ذات اللحظة وضعت « اسرائيل » عبد الناصر على رأس جدول اهتماماتها ·

وفي هذا الصدد يقول بن غوريون في اعقاب العدوان الثلاثي على مصر :

« كنت اخشى دوما قيام شخصية مثل تلك الشخصية التي ظهرت بين الحكام العرب في القرن السابع او مثل كمال اتاتورك الذي ظهر في تركيا بعد هزيمتها في الحرب العالمية الاولى ، فقد رفع معنوياتهم وبدل اخلاقهم وحولهم الى امة مقاتلة ، كان هناك خطر ولا يزال في ان ناصر هو هذا الرجل » ·

وشهدت هذه الفترة ايضا بداية نهوض لفصائل حركة التحرر العربي التي بدأت باعادة تنظيم صفوفها وصياغة برامج جديدة لمعالجة متطلبات الصراع على ضوء قيام « اسرائيل » ، ومباشرتها في القيام بدورها ككيان توسعي عدواني وذلك بالرغم من القمع والتنكيل الذي تواجهه من قبل معظم الانظمة العربية · لكن اهم انجاز كان قد تحقق بالفعل على الرغم من فشل الانظمة البرجوازية الوطنية في وضع الخطط الجادة لمواجهة الخطر الصهيوني ، ورغم تعثر فصائل حركة التحرر العربي وفشل الكثير من برامجها ، هو تسييس الجماهير مما ادى الى طرح الكثير من القضايا مثل الامبريالية كعدو لدود لامتنا والفساد والاستغلال كمعوقين اساسيين لبناء المجتمع والنظر الى تحالفات جديدة وصحيحة ، ولكن ظلت فلسطين المحور والاساس ، الجرح النازف ابدا ، السيف المسلط على رقاب الانظمة والطموح العزيز امام كل مناضل ، وظل اللاجيء الفلسطيني ليس فقط رمزا لضياع فلسطين بل رمزا للذل والضعف والشعور بالذنب لدى كل مواطن عربي ، في نفس الوقت تعطي فلسطين دفعا يوميا وزخما دائما وتحديا لا ينتهي لطلائع هذه الامة · وعلى وجه التحديد بدأت تتجذر في صفوف الشعب المشرد شعب فلسطين نزعة نضالية متقدمة تتجاوز الواقع العربي ادت الى انطلاق الثورة الفلسطينية المسلحة في بداية عام ١٩٦٥ حيث انطلقت حركة فتح التي باشرت عملها السياسي والتنظيمي السري قبل سنوات من بدء ممارستها الكفاح المسلح · وبهذا نجحت فتح ولاول مرة بنقل قضيةالصراع من الاطار الرسمي للانظمة الى اطار جديد تقوم من خلاله القوى الشعبية المنظمة والمعبأة والمسلحة بدور هام وخطير في ادارة عملية الصراع العربي « الاسرائيلي » · وطرحت فتح حرب التحرير الشعبية والكفاح المسلح كأسلوب للتحرير مقرنة ذلك بتطوير جاد وواعي لبرامج الثورة السياسية ملتزمة بطبيعة الصراع العربي « الاسرائيلي »

وقوانينه · وتسعى من خلالها الى كسب معسكر واسع للحلفـــاء الى جانـب كسب الرأي العام العالمي الذي ظل لسنوات طويلة اسير الدعاية الصهيونيـــة المضللة ·

اثار نشوء ظاهرة الكفاح المسلح بانطـــلاق قوات العاصفة ردود فعـــل متضاربة في المنطقـة : ـ

١ ـ على المستوى الشعبي احس الشعب الفلسطيني انه امسك ببداية الطريق الصحيح ، واحتضن على الفور الخلايا السريـــة لحركـة التحريـر الوطني الفلسطيني « فتح » وتتبع بلهفة العمليات العسكرية لقوات العاصفة في الارض المحتلة · وعلى الصعيد الشعبي العربي بدأ الكفاح المسلح يظفر بمزيد مـــن الاهتمـام مع تصاعـد العمليات العسكرية ·

٢ ـ على المستوى الرسمي ووجهت ظاهرة الكفاح المسلح برفض ومقاومة من قبل الكثير من الانظمة العربية ، وبالحذر من انظمة اخرى · واصبح الهدف لجميع الانظمة السعي لمعرفة هوية فتح بهدف استيعابها وضبطها · ونشيـــر هنا الى ان اول شهيد لقوات العاصفة وقع برصاص جيش الملك حسين والذي كانت سجونه تغص بمئات من اعضاء الحركة وانصارها · ورافق ذلك ايضـا حملة مركزة وظالمة من قبل عدد من الصحفيين والمثقفين الذين شككلوا بجديـة العمل واهدافـــه ·

واتت هزيمة الانظمة في حزيران ١٩٦٧ لتطلق العنان للعمل الشعبي العربي وللكفاح المسلح الفلسطيني ليأخذ كل بعده وفعله ، وجاءت معركة الكرامة عـام ١٩٦٨ لتعطي الكفاح المسلح شرعيته الرسمية والشعبية ·

بالمقابل كان هدف « اسرائيل » قد اصبح اكثر وضوحا فهي التي توجـــه ضربتها بمعدل ضربة كل عشر سنوات لدفع البرجوازية الوطنية الى التراجع عن التحالف الوطني في الداخل ، والارتداد عن التحالف مع الدول الصديقـة وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي في الخارج ، لهذا فان عدوان ١٩٦٧ يشكـل منعطفا خطيرا وحادا في مسار حركة التحرر الوطني العربية ، ودفع بعـض فصائل هذه الحركة التي تبنت شعار الكفاح المسلح نظريا على مدار سنـوات طويلة للمباشرة في ممارسته · ورافق ذلك اندفاع بعض الانظمة الى خلـق امتدادات لها داخل الساحة الفلسطينية لمداراة عجزها من جهة وللمشاركة في القرار الفلسطيني واستيعابه من جهة اخرى ، بالمقابل سارعت حركة فتـــح الى استيعاب منظمة التحرير الفلسطينية التي نشأت بقرار قمة عربية بهـدف تثويرها ورفع الوصاية الرسمية عنها واصبح حملة البنادق من ابناء الشعـب الفلسطيني يشكلون الثقل في قيادة هذه المنظمة ·

ومع تصاعد الكفاح المسلح بدأت حركة المقاومة الفلسطينية تواجه معضلة صعبة ، هي معضلة تحديد اسس ووسائل التعامل بين المقاومة من جهة وباقي فصائل حركة التحرر الوطني العربي والانظمة العربية من جهة اخرى ، وبرز في هذا المجال تياران رئيسيان :

الاول : يعمل على توجيه علاقات وتحالفات المقاومة باتجاه الانظمة العربية.

الثاني : يعتبر العلاقة الاستراتيجية مع الجماهير العربية الممثلة بطلائعها فصائل حركة التحرر الوطني العربية وان اي علاقة مع اي نظام هي بهدف خدمة العلاقة الاستراتيجية وتمتينها .

فبالنسبة للتيار الاول واجه مشكلته وعقدته مع الانظمة التي تختلف برامجها لمعالجة مسألة الصراع العربي « الاسرائيلي » مع برامج المقاومة مما ادخلها في تناقضات مع برامج الانظمة كانت تحسم في معظم الحالات لمصلحة برامج الانظمة .

كما واجه التيار الثاني نفس المشكلة ، لكنه تمكن من خلق الارضية الثابتة للقاء ، ولاطارات العمل المشترك المناسبة ، كالجبهة العربية المشاركة في الثورة الفلسطينية ، وبهذا اثبتت تجربة تحالف المقاومة كفصيل اساسي في حركة التحرر الوطني مع باقي فصائلها امكانية الوصول دائما الى البرنامج السياسي والتنظيمي الذي يحكم العلاقة ويحدد آفاق العمل ، بل بلغت وتيرة العلاقة حدا متقدما ونموذجيا من خلال العلاقة الثابتة التي قامت بين المقاومة الفلسطينية والاحزاب والقوى الوطنية والتقدمية اللبنانية ، والتي كان للشهيد كمال جنبلاط دور اساسي في بناء هذه العلاقة وتثبيتها واعطائها آفاقها الوطنية والقومية .

وكما قلنا في السابق نجحت الامبريالية عبر اداتها اسرائيل على صعيد الانظمة البرجوازية الوطنية في دفعها للتراجع عن تحالفاتها في الداخل والارتداد عن تحالفاتها الصحيحة في الخارج ، وهذا ما يمكن ان نجد له تفسيرا في مجزرة ايلول ١٩٧٠ في الاردن ضد الثورة الفلسطينية بعد ان شكلت الثورة خروجا كاملا على التعايش القائم بين اسرائيل والانظمة ، والذي استعمل الاردن في هذه المجازر كأداة لاسقاط برنامج الثورة لمصلحة برامج الانظمة ، وما رافق هذه المجازر وتلاها من احداث ومؤامرات على الثورة يؤكد بان من الصعوبة البالغة الوصول الى علاقة واضحة وثابتة مع الانظمة ، نظرا لتضارب البرامج من جهة ، وطبيعة تكوين هذه الانظمة وتناقضاتها من جهة اخرى .

ان التزام اي نظام من الانظمة بمسألة الصراع العربي الاسرائيلي يجب ان تحكمه ثلاثة اسس هي : ـ

١ ـ الموقف من قضية شعب فلسطين وطليعته الثورة الفلسطينية ٠

٢ ـ طبيعة القوى السائدة داخل بنية النظام ، وكذلك طبيعة نظامه الاقتصادي ٠

٣ ـ طبيعة علاقات هذا النظام على الصعيدين العربي والعالمي ٠

وفق هذه الاسس نستطيع ان نحاكم المواقف ونحدد حجم فعل كل نظام من هذه الانظمة في ادارة عملية الصراع ، ووفق هذه الاسس ايضا نستطيع ان نقول ان جمال عبد الناصر كان من الاوائل الذين حددوا ابعاد الصراع وقوانينه وبذل جهدا مضنيا ومخلصا لاستنهاض الشعور الوطني والقومي الى جانب قضية شعب فلسطين ، وبادر الى اتخاذ خطوات هامة لبناء المجتمع المصري وتنظيم علاقته الانتاجية بما يخدم قوانين هذا الصراع ، وقام بعدة محاولات لتنظيم القوى الديمقراطية داخل مصر ، وبادر الى الوحدة مع سوريا ، ودفع جيش مصر الى اليمن ، ووقف سندا قويا الى جانب فصائل حركة التحرر الوطني العربية وطرح شعارين هامين هما : ـ

ـ ما اخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة ٠

ـ المقاومة الفلسطينية وجدت لتبقى ٠

وحتى يتمكن عبد الناصر من حماية مبادراته هذه وتثبيتها ، حدد بوضوح معسكر اصدقاء الامة واعدائها ، وعبر عن ذلك بتحالفاته وعلاقاته القوية والراسخة مع قوى التحرر في العالم وعلى رأسها تحالفه المعتيد مع الاتحاد السوفيتي الصديق الوفي للامة العربية ٠

وقد نجح عبد الناصر في اقامة نمط متميز من العلاقة مع الثورة الفلسطينية، فكما اعطى نفسه حرية التحرك باتجاه معالجة قضية الصراع وقبوله بالقرار رقم ٢٤٢ ومبادرة روجرز فانه اعطى الثورة نفس الحق برفضها القرار ٢٤٢ ومبادرة روجرز ، ولهذا كان عبد الناصر طوال سنوات نضاله الشاق والمرير ، كزعيم وقائد وطني عربي ، هدفا لاشرس المؤامرات الامبريالية الصهيونية الرجعية ، ولم تمهله صحته ليخوض حربه ضد اسرائيل ، وهي الحرب التي بدأ يعد لها مستفيدا من كل اخطاء الحروب السابقة والتي كان من ثمرة اعداده وجهوده عملية العبور العظيمة لجيش مصر البطل لقناة السويس ، والتي فشلت القيادة السياسية المصرية في دفعها لتأخذ كل مداها ، والتي اساءت بشكل بالغ استثمار نتائجها ، بسبب انحياز السادات الكامل لمعسكر العدو الامبريالي وتخليه عن تحالفات عبد الناصر التاريخية والصحيحة خصوصا مع الاتحاد السوفياتي ، مما اوصل السادات الى الوقوع في قبضة الرجعية العربية التي قادته للركوع الكامل تحت اقدام الحكام الامبرياليين والصهاينة

من خلال مبادرته الاستسلامية السيئة الذكر بزيارته لاسرائيل ، وهي المبادرة التي وجدت كنتيجة لها ـ قوى التصدي العربية نفسها امام منعطف بالغ الخطورة ، فبادرت لانشاء جبهة الصمود والتصدي مسقطة بذلك مسألة « التضامن العربي » الزائفة التي ارتكبت افظع الجرائم بحق هذه الامة تحت مظلتها ، ومعيدة بذلك عملية الفرز الى المنطقة ، والتي خلقها اصلا عبد الناصر ليتمكن من صياغة اداة المواجهة العربية بعد تصفية تناقضاتها وضرب نفوذ الامبرياليين في صفوفها ٠

سادت روح ما يسمى بالتضامن العربي خلال وبعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، واصبحت روح التضامن هذه تسود علاقة الانظمة على حساب قوانين الصراع العربي الاسرائيلي ، فتحت مظلة هذا الوفاق تمت عملية اعادة ضخ النفط العربي لامريكا وحلفائها ، وتم فك الارتباط ، وتمت اتفاقية سيناء الثانية التي قادت الى مبادرة السادات الاستسلامية كما تمت في ظل التضامن حرب العامين في لبنان ، والتي كان هدفها الحقيقي سحق اهم وابرز فصيلين في حركة التحرر العربي : الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية والتقدمية اللبنانية ٠

تلا حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ ، طرح مسألة تسوية النزاع في الشرق الاوسط. سقف هذه ٠٠٠ التسوية على الصعيد الرسمي العربي القرار ٢٤٢ الصادر عام ١٩٦٧ ، والقراران ٣٣٨ ، ٣٣٩ الصادران عام ١٩٧٣ ، وهما القراران اللذان يدعوان الى وقف اطلاق النار والبدء بمفاوضات مباشرة لاطراف النزاع في المنطقة من خلال مؤتمر للسلام يعقد في جنيف ، وعلى صعيد المقاومة الفلسطينية والكثير من فصائل حركة التحرر العربي ، فقد كان الامر يختلف ، فاعلنت المقاومة الفلسطينية ان قرار وقف اطلاق النار لا يعنيها ، كما اكدت رفضها مجددا للقرار ٢٤٢ الذي لم يأت لمعالجة قضية شعب فلسطين من جذورها ، بل اتى كنتيجة للصراع الناجم عن هذه القضية ، وبالتالي هو محاولة لمعالجة النتائج لا الاسباب ، وواصلت المقاومة كفاحها المسلح داخل الارض المحتلة ، في الوقت الذي ساد فيه الهدوء الجبهات العربية ٠

في ذات اللحظة واجهت المقاومة الفلسطينية مختلف اشكال الضغوط لتجيب على مسألة التسوية ، وشهدت الساحة الفلسطينية حوارا ديمقراطيا غنيا ادى الى طرح برنامجها السياسي المعروف ببرنامج النقاط العشر (السلطة الوطنية) الذي اقر في الدورة الثانية عشرة للمجلس الوطني ، والذي دفعت القوى الديمقراطية في الساحة الفلسطينية لاقراره كبرنامج يتصدى للحلول الامريكية الاستسلامية التي بدأت امريكا تسعى لتنفيذها من خلال ادواتها في المنطقة ، وهي الحلول القائمة على رفض امريكا و « اسرائيل » الاعتراف بحقوق شعب فلسطين وبقيادته الشرعية منظمة التحرير الفلسطينية وحقه في العودة وتقرير المصير واقامة دولته المستقلة ٠

وعلى عكس ما أرادت المؤامرة ، تمكنت منظمة التحرير الفلسطينية من تحويل برنامجها الى برنامج للتصدي جمعت حوله تحالفات عربية ودولية قوية وحققت على ارضيته قرار مؤتمر القمة في الرباط عام ٧٤ وكذلك قرارات الامم المتحدة وعلى الخصوص القرار رقم ٣٢٣٦ مما اثار حفيظة الولايات المتحدة الامريكية التي دفعت باتجاه اتفاقية فك الارتباط الثانية في سيناء من خلال السادات الذي فقد كل امكانات الصمود امام الابتزاز الامريكي «الاسرائيلي» ، وهي الاتفاقية التي وقفت في وجهها بشدة المقاومة الفلسطينية وباقي فصائل حركة التحرر العربية وبشكل متميز الاحزاب والقوى الوطنية والتقدمية في في لبنان ، حيث التواجد الاقوى للمقاومة وحيث امكن صياغة نموذج متقدم من نماذج الالتحام بين الفصيلين الاكثر قوة واثرا من فصائل حركة التحرر العربي ٠

وبحكم موقع لبنان شمال فلسطين ، وبحكم مقدرة فصائل الحركة الوطنية اللبنانية على التفاعل اكثر من غيرها مع قضية شعب فلسطين وثورته ، وبحكم وجود الشهيد كمال جنبلاط على رأس التيار الشعبي الوطني الجارف في لبنان الذي منح كل دعمه وتأييده لعبد الناصر والذي خاض ثورة ١٩٥٨ دفاعا عن عروبة لبنان والتحامه بقضايا الامة ، وبحكم مقدرة الاحزاب الوطنية والتقدمية اللبنانية على تطوير برامجها السياسية بما يتناسب مع تصاعد وتيرة الصراع العربي « الاسرائيلي » ، وتبلور المطامح الشعبية ، اصبحت الساحة اللبنانية اكثر الساحات العربية مقدرة على معالجة قضية الصراع هذه على الصعيد الشعبي ، ومن هنا فعندما جنحت الساحة الرسمية الى المهادنة والتراجع امام الضغوط الامبريالية الصهيونية الرجعية جنحت الساحة الشعبية الى التشدد في مقاومة المهادنة والتراجع ، ولهذا كان القرار بضرب هذه الساحة سريعا من خلال حرب السنتين التي قاومت فيها الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية بقيادة جنبلاط اعتى محاولات السحق او التحجيم ٠

ليس المجال هنا تقديم دراسة عن حرب السنتين لكننا نقول ان المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية نجحتا في خلق أرقى الاطر للسيطرة على عملية ادارة الصراع على الساحة اللبنانية دون الوقوع في اي خطأ تجاه ادارة عملية الصراع ضد الصهيونية وحلفائها ، وليس صدفة ان كمال جنبلاط سقط شهيدا قبل عام وهو يسعى الى تشكيل فصائل لبنانية مقاتلة تتوجه الى الجنوب للقتال ضد « اسرائيل » بعد وقف القتال في لبنان مؤكدا مقولته الصحيحة بان محور قضايا الامة العربية هي القضية الفلسطينية ، صامدا في وجه كل الاغراءات التي قدمت له ليغلب القضية الوطنية على القضية

القومية الاولى · وأثبت هنا بعض ما قاله شهيدنا الكبير حول مسألة الصراع العربي « الاسرائيلي » :

« هذه الظاهرة لتسلم الفلسطينيين شؤون مصيرهم مباشرة وبدون وكالة عنهم وقيام القيادات الشعبية من ميادين الكفاح ذاته ، تعطي للشعب الفلسطيني الاطارات الضرورية للتنظيم والقيادة ، وتمحضه بالعمود الفقري الجامع والمستقطب لجميع طاقاته المادية والمعنوية ·

وهذا يعني في لغة اخرى : ان الشعب الفلسطيني العربي والذي اضحى وسيضحى ، اكثر فأكثر ، سيد مصيره ومقرر نهجه وكافل طريق كفاحه الى النصر الاخير ، اذا عرف كيف يواصل كفاحه وينميه ·

ويعني ذلك ايضا وسيعني اكثر فأكثر انه لم يعد بالامكان تسوية قضية الاغتصاب « الاسرائيلي » لقسم من الاراضي الفلسطينية عام ١٩٤٨ ، وانه لا بد « للاسرائيليين » ان يدركوا ان ما من تسوية تقوم لعدوان حزيران ١٩٦٧ ، الا وتكون خطوة مرحلية لا اكثر مهما بالغت الدول بكفالتها وحمايتها او رضخت لها سياسيا حكومات الدول العربية ··· لان الشعب الفلسطيني المطالب بالعودة الى ارضه وارض اجداده يصعب علينا ان نتصور توقفه عن الانسياق والتجند في هذا الكفاح بعد اليقظة التي تحسس بها والتنظيمات التي اخذ افراده يتجمعون وينصهرون فيها ·

ولذا نرى الحكم « الاسرائيلي » يقلق لا من العمل الفدائي القائم فحسب والذي لا يزال محدودا وفي طوره الابتدائي ، بل مما يبطنه هذا العمل الفدائي ، بالنسبة للمستقبل ، من اتجاهات تقض مضاجع المستسلمين الى حكم الواقع ومنطق التسويات· وقد تسرب هذا القلق الى تفكير بعض الحكومات العربية ذاتها » ·

من هنا تأتي حتمية فشل السادات في مبادرته الاستسلامية العرجاء التي حاولت القفز فوق حقائق وقوانين الصراع العربي « الاسرائيلي » · ان البديل لكل ما هو مطروح استمرار الصراع ، والواهمون والمتخاذلون والقاصرون فقط هم الذين يعتقدون بغير هذا ، فتحقيق اي انتصار مرحلي او استراتيجي على جبهة العدو الصهيوني لا يأتي بغير العنف والقوة · وعلى طريق تحقيق الاهداف المرحلية والاستراتيجية لا بد من النضال الجاد والدؤوب لتطوير الاوضاع العربية والسعي لاجراء تغييرات جذرية في البنى العربية القائمة تؤدي الى سيطرة القوى الشعبية الديمقراطية بحيث تتمكن هذه القوى من الوصول الى برنامجها الواحد للاجابة مع مسألة الصراع العربي « الاسرائيلي » ، بتحالف جاد وثابت مع قوى التحرر في العالم وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي الصديق ومن خلال ضرب وتقليص حجم المصالح الامبريالية في المنطقة ، ومن هنا نستطيع ان نفهم سبب استشراس القوى المعادية للتحرير والتحرر في ضرب وتحجيم ظاهرة تلاحم الشعبين اللبناني

والفلسطيني عبر طليعتهما المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية ،هذا التلاحم الذي أدى الى تفجير طاقة الجماهير المعبأة المنظمة المسلحة المقاتلة التي سيؤدي انتصارها بالضرورة الى عملية التغيير المطلوبة التي ستقود حتما الى حسم الصراع العربي « الاسرائيلي » لمصلحة قوى التحرر والتقدم ٠

وعلى طريق ادارة عملية الصراع بالاسلوب الصحيح والاداة الفاعلة ، اتت عملية « كمال عدوان » التي ضرب ابطالها على امتداد ٤٥ كيلومترا بين حيفا وتل أبيب ٠ ان الشهيدة « دلال المغربي » وهي تزرع قدمها الثابتة فوق رمال الشاطىء الفلسطيني انما كانت توقع بهذه القدم المقاتلة قرارين : الاول ـ اسقاط مبادرة السادات الاستسلامية بنقل مناخ المنطقة العربية من التردد والاستسلام الى التصدي ، والثاني ـ تجريد بيغن من كل الاوراق التي قدمها له السادات مجانا ، الى جانب تقزيمه وهو الذي ما زال يسعى الى تقمص الشخصية العبرية الاسطورية المتفوقة ٠ هذا الى جانب تجديد مخاطبة الضمير الشعبي العربي المثقل بالهموم باللغة المناسبة ، ومخاطبة الرأي العام العالمي الذي كاد يتوه في صحراء مبادرة السادات ٠ لقد أعادت العملية وضع الامور في اطارها الصحيح المحكوم بقوانين الصراع العربي ـ الاسرائيلي ٠ ان البديل لكل ما هو مطروح هو استمرار الصراع ٠

صبري جريس

دروس الزيارة

زيارة السادات « التاريخية » لاسرائيل باءت بالفشل ، ولم تحقق أيا من الاهداف التي وضعها صاحبها نصب عينيه · وقد جاء هذا الفشل اسرع مما كان متوقعا ، اذ لم يمر الا ٦٠ يوما على تلك الزيارة حتى اتضح ان « حج » السادات الى القدس عشية عيد الاضحى ، في ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي ، للاجتماع بالمسؤولين الاسرائيليين والقاء خطاب امام الكنيست و « مناقشة » اعضائه ، لم يؤد الى زحزحة الاسرائيليين ، بكافة فئاتهم ، ولو قيد أنملة عن مواقفهم السابقة · كما كان الفشل من نصيب السادات في الاجتماعات والاتصالات والمفاوضات التي تلت تلك الزيارة ، ابتداء من اجتماعه يوم عيد الميلاد مع بيغن في الاسماعيلية ، مرورا بمباحثات اللجنة السياسية المصرية ـ الاسرائيلية في القدس ، خلال كانون الثاني (يناير) الماضي ، التي سرعان ما اضطر السادات الى سحب وفده منها بعد ان ثبت له عدم جدواها ، وانتهاء بزيارته ، في مطلع الشهر التالي ، الى الولايات المتحدة التي تملك « ٩٩٪ من اوراق اللعبة » ـ بموجب التقدير الساداتي المشهور ـ والتي رفضت توظيف اي منها في خدمة السادات رغم استغاثته المتكررة · واذا كانت الاتصالات المصرية ـ الاسرائيلية لا تزال مستمرة حتى الآن رسميا ، في أطار اللجنة العسكرية ، فليس هناك ما يشير الى أن تلك الاتصالات قد تسفر عن أية نتيجة ملموسة · ويبدو ان التقييم نفسه ينطبق ايضا على الرحلات المكوكية التي يقوم بها المبعوث الاميركي في الشرق الاوسط ، الفرد اثرتون ، بين مصر واسرائيل ، في محاولة لحمل الطرفين على الاتفاق على

« اعلان مبادىء » ، يؤمل ان يكون بمثابة ورقة التين التي ستسمح للسادات بالسير على طريق الحل المنفرد ، او تسهل لبعض الانظمة العربية الانضمام الى مفاوضاته مع اسرائيل ٠

ان الزيارة الساداتية لاسرائيل ، التي لم يسبق لها مثيل ، ليست حدثا عابرا في تاريخ الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، بل ان مجرد وقوعها يشكل نهاية لاحدى مراحل ذلك الصراع ٠ كما ان فشلها يؤذن ببداية مرحلة جديدة ، ابرز ما يميزها سقوط فرضيات عدة وزوال شكوك عديدة وانقشاع الضباب الذي كان مخيما فوق اكثر من ناحية ٠ ولا شك ان السادات بفعلته تلك قد ساهم ، ومن حيث لم يشأ ، في وضع النقاط على حروف كثيرة وكشف مواقف عديدة ، اسرائيليا وعربيا ودوليا ، مما يساعد على وضوح الرؤية عموما ، وبمدى ربما لم نعهده في السابق ٠

« الحاجز النفسي » وهم ، والحل المنفرد صعب

قدمت زيارة السادات لاسرائيل ، والتفاعلات التي نجمت عنها ومضاعفاتها ، مجموعة من العبر الثمينة ٠ ولو شئنا تلخيص تلك العبر ، باختصار شديد ، لقلنا ان تلك الزيارة ، بالنسبة الى الجانب المصري ، ليست الا « أية » في سوء التخطيط السياسي وضيق الافق وانعدام التقدير الصحيح والجهل في شؤون العدو وحقيقة نواياه وخططه ، كما أنها برهان ساطع على مدى الحماقات التي يمكن ان ترتكبها الانظمة السلطوية ، التي تسيطر في اكثر من بلد عربي ٠ أما على الصعيد الاسرائيلي فأن المواقف من الزيارة وردود فعل الفئات المختلفة عليها ليست الا دليلا واضحا ، لا حاجة الى ما يدعمه ، على ان العقيدة الصهيونية بمركباتها العنصرية التوسعية لا تزال كما كانت عليه منذ نشوئها ، وان الغرور قد دفع الاسرائيليين ، مسؤولين وسكانا ، الى وضع فقدوا معه القدرة على تقييم عواقب مواقفهم ٠

ان العبر التي تقدمها زيارة السادات ، على كل حال ، غير قابله للتلخيص، بل ان « روعتها » واهميتها تكمنان في تفاصيلها بالذات ٠ وهذه التفاصيل واضحة للغاية ، نتيجة لـ « دبلوماسية التلفزيون » التي اتبعها السادات وجاراه الاسرائيليون فيها ، وتظهر ان الرجل لم يخطىء في هذه النقطة او تلك فقط من تخطيطه ، بل ان خطأه كان شاملا وكاملا ٠ ولا شك ان السادات لو تروى وفكر قليلا فيما ينوي عمله واستشار من حوله ، لاتضح له ان مصير توجهه الجديد الفشل ، ولما أقدم على فعلته تلك ٠

نجم خطأ السادات الاساسي في زيارته لاسرائيل ، كما يبدو ، عن سوء تقديره لوقع زيارته وتأثيرها على الاسرائيليين ٠ فقبيل قيامه بتلك الزيارة ،

اطلق السادات ، كالعادة ، استنتاجا احصائيا جديدا حول الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، مفاده ان ٧٠٪ من مركبات ذلك الصراع تعود الى عوامل نفسية ، يمكن ان تزول بزيارة الاسرائيليين و « أكل عيش وملح » معهم · وبعد عودته من اسرائيل ، راح السادات يفاخر انه ازال عداء ٣٠ سنة في ٣٠ ساعة ، ثم عدد في خطاب القاه امام مجلس الشعب المصري (١) ، ستة انجازات لزيارته، اختصرها بقوله : « ان التغيير حدث أساسا في المناخ النفسي الذي يحيط بالمشكلة بحيث اصبح هناك امل حقيقي في وضع نهاية للحروب والمعاناة في المنطقة » ، خصوصا بعد ان « تحطمت حواجز الشكوك وفقدان الثقة والخوف·· وبدأنا نحن وهم نسلك سلوكا حضاريا » · غير انه لم يمر الا وقت قصير حتى أتضح ان هذه الاستنتاجات كانت مجرد هراء وان التعنت الاسرائيلي ليس ناجما عن مشاكل نفسية فقط ، بل انه نابع ايضا من مصالح سياسية واقتصادية وغيرها ، محصنة بعقيدة عنصرية توسعية تشكل خطرا على العرب بأسرهم ، وخصوصا الفلسطينيين منهم · اما السلوك « الحضاري » فقد أنتهى بوصف السادات « صديقه » بيغن ـ و « اصدقاء » السادات كثيرون ، منهم نيكسون وفورد و « العزيز هنري » وكارتر وفانس ، الخ ـ بأنه « شايلوك » و « خداع »، بينما رد عليه بيغن مستنكرا تلك « الوقاحة » ·

كذلك اخطأ السادات في فهم حقيقة الاطماع التوسعية الاسرائيلية ، حتى بعد ان اجتمع بالمسؤولين الاسرائيليين ، فبعد عودته من اسرائيل راح الرئيس المصري ، في معرض هجومه على منتقديه ، يدلل على مدى « التزامه » بالقضية العربية بقوله انه يسعى الى حل شامل لمشكلة الشرق الاوسط ، ولو اراد حلا منفردا مع اسرائيل لكان ذلك سهلا للغاية لانه ليست هناك مشكلة بالنسبة لسيناء · غير انه سرعان ما اتضح ان هناك مشكلة عويصة للغاية ، وبالنسبة لسيناء بالذات ، اوضحها السادات بقوله ـ في احدى المقابلات الصحفية العديدة التي اجراها منذ زيارته لاسرائيل (٢) ـ انهم (اي الاسرائيليون) « يرون ان اعطيهم قطعة ارض عند رفح واخرى عند ايلات في مقابل مساحة مماثلة لها في صحراء النقب » (وقبل ان يقع السادات في خطأ آخر ، لا بد من التأكيد ان اسرائيل تريد ضم قطعتين من ارض سيناء ، عند رفح وايلات ـ العقبة ـ اليها ، ولكنها ليست على استعداد لمبادلتها « بمساحة مماثلة لها في صحراء النقب » · فاقتراح المبادلة هذا جاء من المدعو يغئال يادين ، زعيم الحركة الديموقراطية للتغيير ونائب رئيس الحكومة الاسرائيلية ، وهو رجل لا طعم له ولا لون ولا رائحة ، ولا حول ولا قوة ايضا حتى داخل حركته · ان صحراء النقب هي جزء مما يسمى « ارض ـ اسرائيل » ، وبالتالي فأنها بموجب عقيدة ليكود والحزب الديني القومي ـ المفدال ـ غير قابلة للتسليم لـ « سيادة اجنبية » · كما ان الحكومة الاسرائيلية وجهت اللوم الى يادين لتقدمه باقتراح

« المبادلة ») · اما وزير الحربية المصري الجمسي فقد لخص هـذه المشكلة بقوله (٣) : « ان اسرائيل تقترح ··· بقاء المستعمرات الاسرائيلية الموجودة على الحدود او خليج العقبة ··· اضافة الى ثلاثة مطارات داخل اراضينا ، منها اثنان على الحدود المصرية [الفلسطينية] وهما مطار « الجورة » في رفح ومطار « رأس النقب » القريب من أيلات الى جانب مطار « رأس نصراني » في جوار شرم الشيخ » ·

والمطارات الثلاثة التي أشار اليها الجمسي هي ، عمليا ، قواعد جوية ضخمة ، لها ميزات استراتيجية مهمة · فمن مطار رأس نصراني يستطيع الطيران الاسرائيلي مهاجمة مضيق باب المندب والاهداف الواقعة على ساحلي البحر الاحمر ، وكذلك السد العالي في أسوان ومنشآته · وكان السلاح الجوي المصري قد قصف هذا المطار عندما بدأت حرب تشرين ١٩٧٣ وعطله · ويبدو انه قد يكون هناك مجال للاتفاق بين اسرائيل ومصر بشأن انسحاب الاسرائيليين من ذلك المطار بعد بضع سنوات ، حين يحصلون على طائرات ف ـ ١٥ ذات المدى الطويل ، التي تغنيهم عن استعماله ، وبعد ان توافق مصر على وضع قوات دولية في شرم الشيخ والاعلان عن خليج العقبة ممرا مائيا دوليا ، وهو ما ابدى السادات استعداده للقيام به · اما قصة المطارين الآخرين فأنها مختلفة · فمطار رأس النقب هو قاعدة خلفية لمهاجمة الاردن والسعودية ودول الخليج العربي ، واسرائيل تعتقد انها قد تحتاج اليه في المستقبل · وأما مطار الجورة في منطقة رفح فيبدو انه احد المطارات الاسرائيلية الرئيسية ، ان لم يكن الرئيسي · وقد انشىء هذا المطار في اعقاب حرب ١٩٦٧ ونقلت اليه منشآت عديدة لكي يحل ، الى درجة ما ، محل المطارات الرئيسية السابقة التي كانت مركزة حتى ذلك الوقت في اواسط اسرائيل ، بالقرب من المناطق المأهولة بالسكان ، مما شكل مصدر ازعاج دائم لحركة الطيران العسكري (٤) · ومما يزيد من حدة المشكلة المتعلقة بهذين المطارين وقوعهما داخل قطعتي الارض التي اعلن السادات ان اسرائيل تطالب بضمهما الى الاراضي المحتلة سابقا ·

اما موقف اسرائيل المطالب بضم قطعتي الارض المشار اليهما فأنه ليس جديدا ، وبالتالي ليس فيه ما يدفع السادات الى ابداء استهجانه ، اذ لو كلف نفسه عناء دراسة هذه الناحية ، ولو بصورة سطحية للغاية ، لاتضحت له حقيقة ذلك الموقف بسرعة · فأسرائيل تطالب بضم المنطقة الاولى من هاتين المنطقتين ، التي تسميها مشارف رفح ، والواقعة في أقصى شمال ـ غرب سيناء بمحاذاة قطاع غزة ، منذ فترة طويلة ، بل انها كانت قد فصلتها ، اداريا ، عن باقي مناطق سيناء بعد مرور وقت قصير على احتلالها · وهذه المنطقة ليست مجرد « قطعة ارض » ـ على حد تعبير السادات ـ اذ انها تضم بضعة

ملايين من الدونمات · وهدف اسرائيل من ضمها هو ضرب عدة عصافير بحجر واحد · فمعظم الاراضي الواقعة هناك هي ، اساسا ، اراض زراعية خصبة ، كانت تقطنها اعداد قليلة من البدو ، قامت اسرائيل بطرد الكثيرين منهم ، كمقدمة للاستيلاء على تلك الاراضي وتحويلها الى احتياطي مخصص لنمو الاستيطان الصهيوني في المستقبل ، خصوصا وان المناطق الاخرى ، المحتلة سابقا او لاحقا تخلو من اراضي زراعية خصبة شاسعة وشبه فارغة · كما ان اسرائيل تسعى الى تحقيق هدف استراتيجي مهم للغاية بمطالبتها بضم تلك الاراضي او الاحتفاظ بالسيطرة عليها · فقد اكتشف بعض « الاستراتيجيين » الاسرائيليين ان مصر، عندما هاجمت فلسطين عبر التاريخ ، كانت تستعمل دائما الطريق الساحلية ، الواقعة على شاطي سيناء الغربي المحاذي للبحر المتوسط ، التي تمر في العريش ومشارف رفح · كذلك يخشى بعض الاسرائيليين من ان تقوم مصر ، في حال انسحابهم من تلك المنطقة ، بـ « اعطائها » للفلسطينيين والموافقة على ضمها الى قطاع غزة لتوطين اللاجئين من القطاع ، او خارجه فيها ، في حال الوصول الى تسوية ، بينما يخشى آخرون من ان تقوم مصر بتوطين مئات الالاف من الفلاحين المصريين هناك (٥) ، لتخفيف حدة اكتظاظهم في بعض المقاطعات المصرية · وفي الحالتين تكون قد خلقت منطقة واسعة ، يقطنها بكثافة اكثر من مليون عربي ، فلسطيني او مصري ، ولا تبعد حدودها في شمال قطاع غزة عن تل ابيب الكبرى ، وهي قلب اسرائيل ، الا بضع عشرات الكيلومترات ، مما يشكل تهديدا دائما للكيان الصهيوني · وللقضاء على احتمالات الخطر هذه تسعى اسرائيل لابقاء تلك المنطقة تحت سيطرتها ، وتخطط لاقامة حاجز بشري من عشرات المستوطنات ، يمتد من العريش على البحر المتوسط حتى بئر السبع في قلب النقب ، ويصبح بمثابة خط دفاع قوي ودائم عن اكثرية سكان اسرائيل التي تقطن في اواسط فلسطين · كما يتم ، بواسطة هذا المخطط ، الفصل اقليميا بين فلسطين ومصر نهائيا ·

وهذا المخطط يتعلق بهدف استراتيجي آخر ، اكثر خبثا ، مرتبط بالمطالبة بضم قطعة ارض أخرى قرب العقبة (أيلات) الى اسرائيل · والاسرائيليون ليسوا « بحاجة » ، عمليا ، الى قطعة الارض هذه ، ولكن مطالبتهم بها تنم عن خوف مكبوت ·فمساحة الاراضي الفلسطينية في النقب تضيق تدريجيا ، كلما اتجهنا نحو الجنوب ، الى ان تصل الى رقعة ضيقة للغاية على خليج العقبة ، حيث اقام الاسرائيليون مدينة أيلات · ولكن هذه المساحة الضيقة كافية لشطر العالم العربي الى شطرين ، وقطع الاتصال الاقليمي البري بين مصر ومن ورائها المغرب العربي من ناحية ، والمشرق العربي من ناحية اخرى · وقبل حرب ١٩٦٧ ، كان بعض العرب يطالب ، للموافقة على الصلح ، ان تقوم اسرائيل أيضا بالتنازل عن قطعة من صحراء النقب ، تستعمل لاعادة الاتصال البري بين

شطري العالم العربي والاستجابة لهذا الطلب قد تؤدي الى قطع طريق اسرائيل البحرية الى افريقيا والشرق الاقصى عبر خليج العقبة والبحر الاحمر ٠ ولذلك، استباقا لهذه الامكانية وجريا على عادة الدفاع بواسطة الهجوم ، لا تسعى اسرائيل الى منع امكانية التنازل عن اراض في النقب فقط ، بل انها تطالب مصر بالتنازل عن قطعة من اراضيها في سيناء ، تضم الى النقب لتوسيع رقعته مما يكرس أيضا شطر العالم العربي الى قسمين منفصلين ، لا وجود لاتصال بري بينهما ٠

وبالاضافة الى هذه المطامع الاقليمية ، هناك ايضا طلبات اخرى تتقدم بها اسرائيل الى مصر ، لعل اصغرها هو تخفيض قوة الجيش المصري بصورة دائمة ، وابرزها الدخول في اتفاقيات اقتصادية مع اسرائيل ، واخطرها التزام مصر بقطع علاقاتها مع المشرق العربي بأسره ومنح اسرائيل « يدا حرة » تجاهه (٦) ٠ وفي ضوء هذه المواقف والطلبات ، لا يبدو ان هنالك حلا مصريا ـ اسرائيليا منفردا سهلا بالمدى الذي يريد السادات ان يوهم الآخرين به ، الا اذا اراد الرجل الاستسلام والرضوخ لشروط اسرائيل باكملها ، وبالتالي « بيع » نفسه والعرب الآخرين لقاء منافع لا يمكن أن تدوم طويلا ٠

وبيغن ليس قويا

وكما اخطأ السادات في فهم حقيقة المطامع الاسرائيلية ، بالنسبة لمصر قبل غيرها ، كذلك لم يستطع تقدير موقف بيغن او قدرته على اقناع الاسرائيليين بالموافقة على تسوية في المنطقة ، حتى ولو كان هو نفسه مقتنعا بجدواها ٠ ولكن خطأ السادات في هذا الصدد لا يخلو من « طرافة » ، بل انه يعتبر نموذجا للطريقة التي يتخذ بها بعض الزعماء قراراتهم ، فالسادات يعلمنا في احدى مقابلاته الصحفية (٧) انه قبل ان يقرر زيارة اسرائيل توجه الى ٠٠٠ الرئيس الروماني تشاوشيسكو « بسؤالين اثنين عن مناحيم بيغن : ٠٠٠ الاول هل ترى ان مناحيم بيغن يريد السلام حقا ؟ اما السؤال الثاني فهو هل مناحيم بيغن رجل قوي يستطيع ان يتخذ قراره وان يقنع به شعبه ؟ » ٠ وكان رد تشاوشيسكو ، الزعيم الشيوعي الذي أصبح خبيرا في شؤون اليمين الصهيوني واوضاع اسرائيل الداخلية نتيجة لمقابلة واحدة ووحيدة مع مناحيم بيغن ، كافيا لان يحمل السادات على اتخاذ قراره بزيارة بيغن ٠ واستنادا الى هذا التخطيط «الدقيق» والمعلومات « القيمة » التي حصل عليها السادات ، لم يكن من المستغرب ان يفاجأ بحقائق اخرى بعدما اجتمع مع بيغن ٠ ومرة اخرى ، لو تروى السادات قليلا ودرس هذه المسألة ، ولو بصورة سطحية للغاية أيضا ، لكان في غنى عن ان « يبهدل » نفسه ٠ فشخصية بيغن ومواقفه وقدرته ومركزه ، بل ان معظم

ما يتعلق به وبكثير من اسس الكيان الصهيوني في فلسطين ، هي امور واضحة للغاية ، لا مجال للبس او غموض بشأنها ٠

من المعروف جيدا ، للقاصي والداني ، ان مناحم بيغن ليس الا ارهابيا سيء الصيت وضيق الافق ٠ وهو ، اساسا ، رجل معارضة محترف ، قضى الـ ٣٣ سنة الاخيرة من حياته ، اي منذ تسلمه قيادة منظمة اتسل (الارغون) سنة ١٩٤٤ وحتى نجاح تكتل ليكود في انتخابات الكنيست الاخيرة ، في ايار (مايو) من العام الماضي ، وهو يقول « لا » ، لكل شيء تقريبا ٠ ومن خلال تشديده على تلك الـ « لا » ،جمع حوله معظم العناصر الصهيونية المتشددة ، من توسعيين وشبه فاشيين ومتدينين متزمتين ، يسيطرون الان عمليا على حزبه ويرسمون سياسته ٠ كما ان نجاح الحزب ، مع حلفائه ، في الانتخابات العامة الاخيرة التي جرت في اسرائيل ، بعد ان كان قد فشل في ذلك ثماني مرات متتالية ، لم ينجم عن « شطارة » بيغن ، بقدر ما جاء نتيجة لتصدع حزب العمل ، الذي حكم اسرائيل منذ قيامها ، وفشله في مواجهة المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي استفحلت داخل الكيان الصهيوني ، خلال السنوات الاخيرة٠

وبحكم خلفيته ووضعه هذين ، فأن بيغن فيالحكم اضعف بكثير منه في المعارضة ٠ فهو محكوم ، اولا ، بعقيدة ليكود واليمين الصهيوني عامة ، القائلة ان مايسمى ارض ــ اسرائيل (وفلسطين كلها تشكل جزءا منها فقط) هي «ملك» لليهود ، لذلك لا يجوز تسليم اية قطعة منها لـ « حكم اجنبي » ٠ كما انه لا يستطيع ، ثانيا ، ان يبدو اكثر « ليونة » من خصومه في حزب العمل ، وهم عمليا من كبار التوسعيين ، الا انهم يعرضون مواقفهم بطريقة لبقة وخبيثة ٠ كذلك هناك ، ثالثا ، « رأي عام » اسرائيلي ومطامع توسعية مختلفة ، ناجمة عن الرغبة في ضمان نمو الكيان الصهيوني في المستقبل ، لا يستطيع اي مسؤول صهيوني ان يتجاهلها ، خصوصا وانها جاءت نتيجة لصلف اسرائيلي استشرى لاسباب لا مجال لذكرها هنا ، خلال فترة طويلة ، وبالتالي لا يمكن ان تختفي فجأة ٠ يضاف الى ذلك كله ان بيغن حساس جدا للانتقادات ، التي لم يعتد عليها ، اذ كان دائما خلال تاريخه السياسي الطويل هو الذي يوجه الانتقادات، لا الذي يتلقاها ٠ وعندما يوجه اليه انتقاد ما يرد عليه بشراسة ، ولكنه سرعان ما ينتقل الى تبرير موقفه ، ثم يأخذ في التراجع (٨) ٠

وفي مثل هذا الوضع لا يبدو ان بيغن قادر ، مهما كان قويا ، على تقديم اية تنازلات جوهرية للسادات او لغيره ، لا سعيا لتأمين مصالح اسرائيل فقط ، وانما حفاظا على مستقبله السياسي أيضا ، وفي داخل حزبه اولا ٠ صحيح ان مناحم بيغن يتمتع بأجترام وطاعة حزبيين عميقين بين اتباعه ، عرف كيف يحافظ عليهما خلال فترة زعامته الطويلة ، بالحرص على السباحة مع التيار من ناحية

والعمل على طرد مناوئيه الاشداء او تضييق الخناق عليهم من ناحية أخرى . غير ان هناك حدا « للتنازلات » التي يمكنه ان يقدمها ، والا فقد نفوذه ومجموعة لا بأس بها من اتباعه ، مما قد يشكل خطرا على مستقبله السياسي . وقد بدأ فعلا ، التململ يظهر واضحا داخل حزب بيغن ، حيروت ، وهو الشريك الاكبر في تكتل ليكود اليميني ، نتيجة للمواقف التي اتخذتها الحكومة الاسرائيلية ، بـ « وحي » من بيغن ، تجاه التحركات السياسية الاخيرة . فبعد ان قدم بيغن مشروع سلامه الاخير ، القاضي بانسحاب اسرائيلي جزئي من سيناء ومنح الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة حكما ذاتيا ، لا يهدف عمليا الا الى اقامة بانتوستان فلسطيني ، انفض من حوله غلاة التوسعيين ، من اعضاء حركتي ارض ـ اسرائيل الكاملة وغوش ايمونيم واتباعهم ومؤيديهم . كما راح بعض زعمائهم ، من امثال تسفي شيلواح وموشي شامير والدكتور اهرون بن ـ عامي والدكتور يسرائيل الداد (شايب) ، الذين استقال بعضهم من ادارة ليكود احتجاجا ، يهاجمون بيغن بقسوة ، متهمينه حتى بـ « الاستسلام » و «الانهزامية » (!) (٩) ، بينما تنكر له بعض اعز اصدقائه القدامى ، كالنائبين شموئيل كاتس وغيئولاه كوهين ، وراحا ينتقدانه بمرارة . وكانت هذه الفئات اليمينية المتشنجة قد اصيبت بالذعر اثر زيارة السادات لاسرائيل ، وعملت كل ما في وسعها للتخفيف من تأثيرها ، بل ان بعضهم اعلن عن امتعاضه منها (فالوزير شارون والنائبة كوهين رفضا ، مثلا ، ان يصفقا للسادات عند دخوله الى الكنيست ، اسوة بالآخرين) ، خوفا من ان تدفع المبادرة الساداتية حكومة اسرائيل الى تقديم « تنازلات » ، لا ضرورة لتقديمها بحسب رأيهم ، وقد تؤثر على مستقبل الكيان الصهيوني . ولا ترى هذه الفئات حلا لمشاكل اسرائيل الا بالعودة الى سياسة « الصهيونية الكبيرة » ، التي ينبغي ان تتمثل حاليا بالاحتفاظ بالمناطق المحتلة بأسرها وتشجيع الهجرة اليهودية الواسعة من كافة انحاء العالم اليها ، واقامة المدن والمستوطنات، على اختلاف انواعها فيها(١٠)، حتى تصبح ذات طابع يهودي واضح ، يضم اكثرية سكانية يهودية ، مثل المناطق المحتلة سنة ١٩٤٨ . وعندما يتم ذلك لا حاجة للسادات أو لغيره للاعتراف باسرائيل او لعقد سلام معها ، أذ أن السلام سيحل تلقائيا ، عندما ستصبح الدولة اليهودية «امبراطورية» كبرى ، لا يجرؤ احد على التعرض لها .

ولا يجوز ، على كل حال ، ان تفهم معارضة مثل هذه الجماعات ، قليلة العدد وصغيرة التأثير ، كأنها كافية لتقرير السياسة الاسرائيلية الرسمية ، او تعبر عنها بكاملها ، ولكن موقفها هو مؤشر لما يدور في افئدة الآخرين . ويلاحظ انه على الرغم من تلك الهجمات الشرسة على بيغن لم ينبر ، من ناحية ثانية ، اي حيروتي او ليكودي ذي شأن للدفاع عنه او عن مشروع سلامه . بل يلاحظ ، على العكس من ذلك ، انه عندما اتجه حيروت مؤخرا لاختيار

مرشح وزاري من قبله ، صوت ٤٠٪ من اعضاء مركز الحزب الى جانب المرشح الذي اعلن بيغن صراحة عن عدم رضاه عنه ومعارضته له · وقد فسر المراقبون السياسيون هذه الواقعة على انها تحذير من قبل الحزب لبيغن وتهديد بنزع الثقة به ، اذا امعن في تقديم المقترحات « السلمية » ولا شك انه سيكون لتلك المعارضة تأثيرها في دفع بيغن للعودة الى مواقفه السابقة المتصلبة الكلاسيكية (١١) · كما انضم الى كل اولئك التجمع العمالي المعارض ، معلنا انه يرى « مخاطر » جمة في اتجاهات بيغن ومواقفه السياسية في المفاوضات مع مصر · وكأن هذا كله لا يكفي ، فأنضم ايضا الى اولئك المعارضين جميع زعماء الحركات الاستيطانية في اسرائيل ، على اختلاف اتجاهاتهم الحزبية ، الذين يتمتعون بنفوذ كبير ، وان كان « هادئا » ، داخل الكيان الصهيوني ، معلنين شجبهم لمشروع سلام بيغن ، لانه سيمس في حال تنفيذه بالنمو الاستيطاني الصهيوني بشكل بالغ (١٢) ·

وهذه النظرة العابرة على اوضاع اسرائيل السياسية الداخلية لا تترك مجالا لشكوك كبيرة حول نصيحة تشاوشيسكو للسادات بشأن « قوة » بيغن ، فالرجل ليس قويا ابدا ــ وهو ، في نهاية الامر ، لا يستطيع ان « يتخذ قراره » ، وان اتخذه لا يستطيع ان « يقنع شعبه به » · بل لا يبدو ان بيغن يختلف كثيرا عن باقي رؤساء حكومات اسرائيل السابقين ، من حيث انعدام قدرتهم جميعا على اتخاذ اية قرارات تسووية يمكن ان ترضي اكبر المستسلمين العرب · كما لا يبدو ان هناك في اسرائيل ، في اوضاعها الراهنة ، اي شخص من هذا القبيل · وشخص واحد ووحيد كان باستطاعته ــ ولعله من المستحسن ان نضيف : ربما ــ اتخاذ مثل تلك القرارات ، وهو بن ــ غوريون · وقد توفي منذ خمس سنوات ، وكان قد اعتزل الحكم منذ ١٥ عاما ·

اليهود الاميركيون طائفة مذعورة

لم تتوقف اخطاء السادات ، التي دفعته الى رحلته « التاريخية » لاسرائيل عند النواحي التي أشرنا اليها ، بل تجاوزتها ووصلت حتى الى حد المراهنة على يهود الولايات المتحدة ومحاولة استرضائهم ، لحملهم على « الضغط » على اسرائيل للقبول بالطلبات العربية او ، على الاقل ، التزام الحياد ، والامتناع عن الضغط على السلطات الاميركية ، والكف عن التشكيك في صدق نوايا السادات تجاه اسرائيل ، بعد ان يقوم بزيارتها · ولاول وهلة يبدو كأن هذا التخطيط لا يخلو من منطق · ففي الولايات المتحدة يعيش اليوم نحو ٦ ملايين يهودي (اي نحو ضعفي عدد السكان اليهود في اسرائيل) ، يتبوأ العديد منهم مراكز حساسة في مجالات مهمة ومختلفة ، مثل حياة البلد السياسية واجهزة

الاعلام والتعليم العالي وغيرها ، وبنسب تفوق مثيلاتها لدى اية مجموعة عرقية اخرى في أميركا · وبحكم وضعهم هذا فانهم يتمتعون بنفوذ واسع في ذلك البلد · كما ان نشاط اللوبي (مجموعات الضغط) الصهيوني ـ اليهودي ، المتخصص في خدمة اسرائيل ، يصل الى مدى لا يسمح لاي مسؤول اميركي بتجاهله · وكانت الحركة الصهيونية قد أولت الجالية اليهودية الاميركية ، منذ مؤتمر بلتيمور سنة ١٩٤٢ ، عناية خاصة وبذلت جهودا كبيرة للسيطرة عليها وتسخيرها في خدمة اهدافها ، باعتبارها اكبر تجمع سكاني يهودي في العالم، خصوصا بعد ان أبادت النازية خلال الحرب العالمية الثانية اكثرية اليهود في اوروبا الشرقية ، التي كانت حتى ذلك الوقت المستودع الرئيسي لتزويد الصهيونيين بالقوى البشرية التي يحتاجون اليها · وقد أحرزت الحركة الصهيونية ، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى اليوم ، تقدما كبيرا في السيطرة على حياة اليهود الاميركيين ، وخصوصا النواحي السياسية منها ، فعزلت المنظمات والافراد اليهود المناوئين لها بينهم ، وجعلتمن اكثريتهم مجرد تابعين لاسرائيل ، لا هم لهم الا نصرتها وتأييد « حكوماتها الشرعية » ، مهما كانت السياسة التي تنتهجها ، جريا وراء القول المأثور : « أنصر اخاك ظالما او مظلوما » · ويلاحظ ان اليهود الاميركيين يهبون لتأييد اسرائيل ، حالما يدخل في روعهم ان المسؤولين الاميركيين لا يؤيدونها بما فيه الكفاية · وقد استطاعوا وباقي مؤيديهم ، من مختلف الاتجاهات ، حمل المواطن الاميركي العادي ، كما يبدو ، على الاقتناع ان الدفاع عن اسرائيل ونصرتها وتلبية حاجاتها ليست الا قيما حضارية اميركية ينبغي المحافظة عليها ! وساهم في بلورة هذا الشعور بالطبع ، « مكافأة » مختلف المسؤولين الاميركيين لاسرائيل ، واغداقهم المال والسلاح وكذلك كافة الاوصاف الحميدة عليها ، بعد ان قامت ، بكفاءة ، بلعب دور الكلب الحارس للمصالح الامبريالية في المنطقة ، وخصوصا الاميركية منها ، خلال فترة طويلة ·

ولا شك ان السادات راهن على انه ، بزيارته لاسرائيل ، سيقتحم اللوبي الصهيوني ـ اليهودي في الولايات المتحدة « وديا » ويحمله على تأييده او، على الاقل ، يجبره على التزام الحياد · فعندما قيم نتائج زيارته في مجلس الشعب المصري ، بعد عودته ، اعلن بوضوح « ان كثيرا من جماعات الضغط لحساب اسرائيل في دول اخرى قد تم تحييدها كلية ، بل ان معظمها قد تحول الى قوة ضاغطة على اسرائيل نفسها وسوف يلمس الجميع ابعاد هذا التغيير في الاسابيع القليلة المقبلة » (١٣) · وما لم يقله السادات صراحة اوضحه حزب مصر العربي الاشتراكي ، وهو الحزب الحاكم في مصر ، في بيانه الذي صدر اثر عودة السادات ، باعلانه ان الزيارة « اتاحت للادارة الاميركية منطلقا اوسع مسلحا برأي عام اميركي لتحمل مسؤولياتها ازاء ضغوط القوى التي تتحرك

من موقع التحيز والتأثير في الرأي العام الاميركي » (١٤) · غير ان رهان السادات هذا كان في غير محله ، والاهم من ذلك ان هذا الاستنتاج كان واضحا للغاية قبل ان يقوم السادات بزيارته · فحتى الى ما قبل وقت غير طويل ، ساد لدى المعنيين بالشؤون اليهودية ـ الاميركية رأيان بشأن الموقف الذي يمكن ان يتخذه اولئك اليهود ، في حال نشوب خلاف ما بين اميركا واسرائيل · واول هذين الرأيين هو ان اليهود الاميركيين لن يجرؤوا ، في نهاية الامر ، على معارضة سياسة رسمية لحكومتهم ، خوفا من حدوث شرخ بينهم وبين باقي الفئات المؤيدة للسلطة ، او الاميركيين عموما ، قد يؤدي الى المس باندماجهم في المجتمع الاميركي او ربما الى ظهور بوادر اللاسامية ، اذا ظهر ان « ولاءهم المزدوج » يخفي في حقيقة الامر تأييدا لاسرائيل ، لا الاهتمام بمصالح بلدهم · أما الرأي الثاني فقد اصر على القول ان اولئك اليهود سيقفون في نهاية الامر الى جانب اسرائيل ، مهما كلفهم ذلك · ويبدو ان أصحاب الرأي الاخير هم الذين كانوا على صواب · فاليهود الاميركيون ، منذ ان بدأت بوادر التغيير تظهر ـ ولو لفظا ـ على السياسة الاميركية في الشرق الاوسط ، راحوا « يهمهمون » احتجاجا ويجمعون قواهم ويهددون من حين الى آخر ، الى أن صدر البيان الاميركي السوفياتي المشترك بشأن الحل لازمة المنطقة ، فقاموا بعقد حلف مع معظم مناوئي كارتر (ومن بينهم معارضي اتفاقية بنما ، والوفاق الدولي ، والتقرب من السوفييت ، وانصار الحرب الباردة ،ومؤيدو الامبريالية الكلاسيكية) ، وشنوا حملة شعواء ضده تحت شعار معلن ينادي بـ « اسقاط كارتر » · ولم تمر الا بضعة ايام حتى تراجع الرجل ، ووافق على نشر ورقة عمل اميركية ـ اسرائيلية « لحست » معظم ايجابيات البيان الاميركي ـ السوفياتي المشترك · وكان ذلك البيان قد نشر في الاول من تشرين الاول (اكتوبر) الماضي ، بينما نشرت ورقة العمل في السادس منه ، اي ان حقيقة موقف اللوبي اليهودي ، وبالتالي سخف المراهنة على كسب وده او تحييده ، كانا واضحين للغاية قبل شهر ونصف الشهر من قيام السادات بزيارته ·

غير ان السادات لم يتوقف عند هذا الحد ، بل امعن في في محاولاته الهادفة الى استرضاء زعماء اليهود الاميركيين وخطب ودهم ، فدعا الحاخام الدكتور الكسندر شيندلر ، رئيس مجمع رؤساء المنظمات اليهودية في الولايات المتحدة ، وهو القوة الضاربة للوبي الصهيوني ، الى زيارة مصر واستقبله بحفاوة بالغة ، علّه يستطيع « تحييده » · وقبل قيامه بزيارته الى الولايات المتحدة في اوائل شباط (فبراير) الماضي ، اعلن السادات عن رغبته في الاجتماع ببعض زعماء اليهود الاميركيين ، فما كان من شيندلر الا ان اعلن عن رفضه مقابلته وحث الزعماء اليهود الاخرين على الاقتداء به ، بينما انتقد اولئك الذين وافقوا على

الاجتماع بالرئيس المصري ، لا لسبب الا لكي لا يقال ان اليهود الاميركيين يجرون « مفاوضات » مع مصر من وراء ظهر اسرائيل · وبعد مغادرة السادات الولايات المتحدة ، دعا كارتر شيندلر وعددا آخر من الزعماء اليهود الى العشاء ، لتطمينهم بأنه لم تطرأ تعديلات اساسية على السياسة الاميركية ، رغم زيارة السادات ·

وفي طريق عودته الى مصر ، قابل السادات ايضا ، في النمسا ، زعيم حزب العمل الاسرائيلي المعارض شمعون بيريس ، في محاولة ـ كما يبدو ـ لسدق اسفين بين المعارضة والحكومة الاسرائيلية (وكان السادات قد وصف الاراء التي طرحها زعماء حزب العمل ، اثناء لقائهم به في الكنيست ، بأنها « بناءة ») · الا ان شمعون بيريس سارع الى الاعلان ، بعد انتهاء الاجتماع ، ان هناك حكومة واحدة في اسرائيل منوط بها امر السياسة الخارجية الاسرائيلية · وحال عودته الى تل ابيب ، اجتمع بيريس ببيغن وقدم له تقريرا عن لقائه مع السادات (١٥) · وكان ذلك اللقاء قد تم ، اساسا ، بمعرفة بيغن المسبقة ·

« عدم الفهم والغباوة السياسية »

من الواضح ان سوء تقدير السادات لتأثير العوامل التي أشرنا اليها على حقيقة موقف الاسرائيليين او ردود فعلهم ، كان واحدا من الاسباب الرئيسية التي ادت الى فشل مبادرته ، بل دفع اسرائيل الى التمسك بمواقف ، او التقدم بطلبات ، لم يأخذها الرئيس المصري في الحسبان · ومن الواضح ايضا ان السادات نفسه قد اكتشف « اللعبة » ، وان كان قد دفع مقابل ذلك ثمنا باهظا ودون ان يحصل على نتيجة تذكر · وكعادته ، لم يحتفظ السادات باستنتاجاته سرا ، بل اعلنها على الملأ ، مقدما دروسا ثمينة لمن يريد ان يتعظ من التجربة · واستنتاجات السادات ، وان لم يكن فيها جديد صارخ من حيث حقيقة مواقف الاسرائيليين واسلوب تعاملهم ، ذات طابع مهم ، ولا شك أنه ستكون لها انعكاساتها على الصراع العربي ـ الاسرائيلي على المدى الطويل ، خصوصا وانها جاءت من صاحب التجربة نفسه ·

لقد عاد السادات من زيارته لبيغن مفاخرا بنجاحه في ازالة « الحاجز النفسي » بين اسرائيل والعرب ، مدللا على اسلوب التعامل « الحضاري » الجديد الذي أرسى اسسه · الا انه سرعان ما اكتشف نواحي اخرى ايضا ، منها ـ مثلا ـ « ان كل الشخصيات الاسرائيلية او اليهودية التي قابلتها بعد ذلك كانت تردد معنى واحدا هو ان هؤلاء اليهود « غلاظ الرقاب » ، كما تقول عنهم التوراة ، بمعنى انهم متصلبون او تنقصهم المرونة · ويكون الغرض من

هذا الكلام ان اجد لهم عذرا أو اصبر عليهم بعض الوقت ريثما يديرون اعناقهم الغليظة · ولكن يبدو الان من تصريحات قادتهم ، ان الكلام عن الرقاب الغليظة ليس عيبا وانما هو ميزة » (١٦) ·

ولم يمر وقت طويل على هذا الاكتشاف حتى اضطر السادات الى قطع المفاوضات مع اسرائيل ، بعد «ان ثبت لنا بالدليل القاطع تلو الدليل ان المفاوض الاسرائيلي··· [يقف] على قاعدة واحدة واضحة هي التشبث بمنطق التوسع القديم ، والاصرار الكامل على الاحتفاظ بالارض المحتلة » (١٧) · ولذلك « خطط لموقفه في اكثر من اتجاه : ··· الاول محاولة استغلال عنصر الوقت ·· بهدف ان يكون مرور الوقت سببا لهبوط قوة الدفع العالمية التي ارادت لمبادرة السلام المصرية ان تنجح ··· والثاني ··· استغلال اعترافنا بأهمية الامن الاسرائيلي» بحيث عادت اسرائيل « الى منطلق الاطماع والتوسع ونظرية فرض الامن بالقوى العسكرية » (١٨) ــ أما فيما يتعلق بدوافع الاعتراف الساداتي بـ « أهمية الامن الاسرائيلي » ، فهذه مسألة اخرى ·

وللسادات ما يقوله ايضا بشأن اسلوب المفاوضات الاسرائيلي : « ان الاسرائيليين خصوصا ، او اليهود عموما ، اذا حدثهم احد عن الوضع في الشرق الاوسط اخرجوا من جيوبهم هذا اللغز : الحدود الامنة · كأن هذا التعبير طلسم من الطلاسم تكاد لا تقع عليه العين حتى يحار في فهمه العقل · فاذا وصل العقل الى مرحلة الحيرة توقف النقاش وارتد على العرب وليس على اليهود · فاذا قلنا اننا فهمناهم وعرفنا مشاكلهم وسوف نقبلهم بيننا وسوف نعطيهم السلام والشرعية ، هزوا رؤوسهم وقالوا : نحن نصدقك تماما ولكن ما هي طبيعة هذا السلام ؟ ومعنى ذلك أن لعبة الحدود الامنة قد انتهت ليعلنوا لعبة جديدة اسمها طبيعة السلام ··· فاذا بدأنا نناقش طبيعة السلام ، عاد كل شيء الى ما كان عليه ··· ودخلنا في لعبة جديدة هي الارض والسلام وانه لا ضمان للسلام الا بالارض · ولا ضمان للارض الا بالسلام ··· وتكون المناقشة هكذا : اعطني قطعة من الارض خارج ارضي لاحمي ارضي · او اعطني قطعة من سيادتك لادافع عن سيادتي ··· ان قيادة اسرائيل قد عادت الى سياسة ان تفرض على العرب شيئا من أجل ان يرفضوه ، اي انها توقعت الرفض ، اي انها قررت ودبرت ثم اختارت الرفض سلفا ، اي انها لم تعط احدا فرصة ان يفكر ويرفض » (١٩) ·

كذلك يبدو ان السادات استطاع اخيرا فهم سر التشبث الاسرائيلي بالمستوطنات القائمة على الارضي المصرية المحتلة او غيرها ، باعتبارها جزءا من « ذلك التكوين النفسي لهذا الشعب الذي هاجر الى ارض فلسطين ، وفرض

وجوده عاما بعد عام باقامة هذه المستوطنات حتى اصبحت اساسا لفرض بقائه واستمراره » (٢٠) ٠

غير ان مفاجأة السادات الكبرى في تعامله مع الاسرائيليين نجمت ، دون شك ، عن موقف بيغن ناكر الجميل ، الذي لم يتأثر بالاعتراف الساداتي المجاني باسرائيل ٠ فالسادات ، انطلاقا من منطقه ، و «تخطيطه» ، توقع شيئا ما ــ او ربما اشياء ــ من اسرائيل في اطار سياسته الجديدة ، التي دشنها بزيارته لها ٠ فهو لم يقم فقط بزيارة الى كيان يعتبر نفسه في « حالة حرب » معه ، بل انه وقف امام الكنيست ليقول لاعضائه وللاسرائيليين جميعا ، على مرأى ومسمع من العالم كله ، « ان دولتهم اصبحت حقيقة واقعة » ٠ ولم يكتف السادات بذلك ، بل « وبخ » الاسرائيليين لعدم انتباههم الى انه كان قد اعلن « منذ اعوام ، وفي التحديد في ٤ فبراير (شباط) ١٩٧١ [انه] مستعد لتوقيع اتفاق سلام مع اسرائيل » ، مفاخرا ان هذا كان « اول اعلان يصدر عن مسؤول عربي منذ ان بدأ الصراع العربي ــ الاسرائيلي » ٠ ولما لم يقدر الاسرائيليون هذا الكلام الساداتي حق قدره ، وبالتالي لم يستجيبوا له ، اشتكى الرئيس المصري من « ان بيغن لم يعط شيئا ٠ وانما انا الذي اعطيته كل شيء ٠ اعطيته الامان والشرعية ٠ ولم اتلق مقابلا لذلك » (٢١) ٠ الا ان رد بيغن كان قاسيا للغاية ، ولا يخلو من صفاقة اسرائيلية نموذجية ، اذ اعلن انه لم يطلب اعترافا من أحد ولا يحتاج لهذا الاعتراف ، لانه « يكفينا اعتراف اله ابراهيم واسحق ويعقوب [اي اله اليهود] بنا » ٠ ولكن بيغن يدرك ، دون شك ، ان « اله ابراهيم واسحق ويعقوب » اله ظريف وعاقل ، ينفد صبره أحيانا ، وكان قد عاقب اليهود بشدة ، بسبب « غلاظة رقابهم » مرتين في السابق على الاقل ، فسمح بتدمير مملكتي اسرائيل الاولى والثانية ، وقد يتخذ قرارا مماثلا بالنسبة للثالثة ، ولذلك سارع الى الاعلان في بيان لاحق في الكنيست : « اننا لا نطلب اعترافا بوجودنا ، بل اعترافا بحقنا في بلادنا وسيادتنا ، وحقنا في السلم وفي اتفاقية سلم » (٢٢) ٠ وهذا الكلام بحاجة الى توضيح : ان ما يطلبه بيغن هو ان يقوم « الرئيس المؤمن » محمد انور السادات ، ومعه باقي العرب ، بالاعتراف بصحة الادعاءات الصهيونية بشأن العلاقة « التاريخية » بين اليهود وما يسمى ارض ــ اسرائيل و « حقوقهم » فيها » ، ، وبالتالي الاعتراف بالعقيدة الصهيونية بأسرها، وبكل ما يترتب عليها ٠ وعندما يتم ذلك ، قد يطالب الاسرائيليون ــ مثلا ــ بتعيين مندوب سام في القاهرة للتأكد من ان مصر لن تقوم في المستقبل بما من شأنه ان يمس بنشاط « شعب الله المختار » في العودة الى « بلده » وبناء مستقبله ٠

وقبل ان يصل السادات الى هذه النتيجة ، لم يقدم لاسرائيل اعترافا مجانيا بها فقط ، وانما اضاف اليه ايضا تنازلات اخرى ، مكملة له ولا تقل أهمية عنه٠ فقد واقف السادات ايضا ، نتيجة لاعترافه بـ « اهمية الامن الاسرائيلي » ،على

ان تكون على الحدود مع اسرائيل مناطق منزوعة السلاح واخـــرى محدودة التسليح ، وتخفيض للقوات العسكرية واقامة محطات انذار مبكر ، ووضع قوات طوارىء على الحدود ، واعلان خليج العقبة مياها دولية مفتوحة للملاحة · واذا لم تكن كل هذه الضمانات كافية ، يمكن ، بالاضافة الى ذلك ، « اعلان الاتفـاق على التعايش في سلام وفتح الحدود وتطبيع العلاقات اي جعلها طبيعية » (٢٣)·

غير ان كل تلك التنازلات لم تجد السادات نفعا ، اذ كان اخر ما سمعه من قادة اسرائيل هو « ان الطرفين في حاجة الى ان تنمو العلاقات الطبيعية بينهما من الان وقبل اقرار السلام ، وان ذلك يساعد على نجاح المفاوضات ، اي انهم يطالبون بالوصول الى نتائج السلام مع استمرار احتلال الارض وقبل ان نصل الى اتفاق سلام » (٢٤) · ولم تفد السادات شكواه من ان ذهابه الى اسرائيل لم يكن مجرد زيارة للتسلية ، « ولا مجيء الاسرائيليين الى مصر وجلوسهم بيننا سياحة · فلا أنا حريص على تسلية أحد ولا على ان تكون له ذكريات سعيدة في ظلال الاهرام » (٢٥) ــ اذ ان هذا بالضبط كان ، في نهاية الامر ، حصيلة مبادرته : سواح اسرائيليون في القاهرة ، ومعهم مراسلون صحفيون يزودون الصحف الاسرائيلية بمقالات وتقارير واخبار ، تساهم في « توعية » الاسرائيليين وتنبيه مسؤوليهم الى كيفية التعامل « المثمر » مع السادات والمصريين · ولكن على الرغم من ذلك يبدو ان السادات لم يتعلم شيئا من اخطائه ، اذ يقال ان اخر ما يفكر فيه هو دعوة بعض الزعماء الحزبيين الاسرائيليين او وفود من اعضاء الكنيست لزيارة مصر ، استمرارا في مساعيه الهادفة الى ازالة الحواجز « النفسية » ·

والسؤال الذي يطرح نفسه الان هو ليس لماذا قام السادات بما قام به فقط ، بل لماذا لا يزال مصرا على اتباع النهج نفسه ، بعد ان سمع ما سمعه واكتشف ما اكتشفه ؟ لقد أجاب السادات نفسه على هذا السؤال بقوله ان ردود الفعـل الاسرائيلية على مبادرته « تفترض فينا عدم الفهم والغباوة السياسية » (٢٦) ·

الهدف : الغاء فلسطين والفلسطينيين

لم تكن العبر التي مر ذكرها هي الوحيدة التي قدمتهـــا حتى الان زيارة الســـادات ، اذ ان هناك عبرا اخرى لا تقل اهمية عنهـــا ، خصوصا فيمـــا يتعلق بالقضية الفلسطينية · فتنازلات السادات لم تتطرق الى الشؤون المصرية فقط ، بل تعدتها ايضا الى الفلسطينية ، وشملت نواح لا يملك الرجل حق القرار فيها · ففي خطابه امام الكنيست ، وافق السادات على تحويل القدس الى مدينة مفتوحة « لكل المؤمنين » ، ولا يزال منذ ذلك الوقت « ملتزما » باقتراحه هذا · ومنذ ان حطت طائرته في مطار اللد ، وصافح بيغن ودايان ، توقف عن الاشارة الى منظمة التحرير الفلسطينية كممثلة للفلسطينيين ، بل راح يغمز من قناتها

حينا ، ويهاجمها احيانا · ولا بد من الاشارة الى ان السادات ، حتى عندما يهاجم م·ت·ف يقع ايضا في خطأ ، فهو لم يفهم الاسرائيليين فقط ، بل يبدو انه لا يفهم الفلسطينيين كذلك · فبعد عودته الى مصر ، لم يتذكر « الريس » من كلام خطيب المسجد الاقصى ، الذي كان قد ذكره في خطبة العيد بصلاح الدين ، الا طلبه منه التدخل لدى السلطات الاسرائيلية لاطلاق سراح المسجونين والمعتقلين الفلسطينيين · وقد استغل السادات هذه الواقعة للطعن ، بصورة ديماغوغية ، في م·ت·ف· مفاخرا ، بأن المتحدثين باسم الفلسطينيين في الاراضي المحتلة لم يتقدموا منه الا بذلك الطلب · وغاب عن باله ان طلب التوسط لدى السلطات الاسرائيلية للافراج عن معتقلين ، او تحسين ظروف اعتقالهم ، يقدم عادة من قبل السكان العرب في المناطق المحتلة الى المتعاونين مع سلطات الاحتلال ، وهو بالتالي ليس مدعاة للفخر · الا ان « وساطة » السادات ، على كل حال ، لم تفلح في الافراج عن اي من المعتقلين العرب ، بل على العكس من ذلك زادت عددهم بضع مئات ، من بين اولئك الذين عارضوا زيارته ، واعتقلوا حال عودته الى مصر ·

وفي مسلسل التنازلات التي قدمها بالنسبة للفلسطينيين ، تراجع السادات ايضا عن تأييد مصر لاقامة دولة فلسطينية مستقلة ، واستبدله بالمطالبة بمنح الفلسطينيين حقهم في تقرير مصيرهم · ولكنه سرعان ما « اختصر » هذا الحق ايضا واستبدله بحق الفلسطينيين « في المشاركة » بتقرير مصيرهم ، مع أسرائيل وغيرها · ويقال انه وافق مؤخرا حتى على « تأجيل » ممارسة حق المشاركة هذا ·

ولم تجد هذه التنازلات ايضا السادات نفعا في محاولاته لتليين الموقف الاسرائيلي · ولكنها، من ناحية ثانية ، دفعت الاسرائيليين ـ حكومة ومعارضة ـ الى كشف حقيقة مواقفهم من الفلسطينيين والقضية الفلسطينية بأسرها · وهذه المواقف الاسرائيلية ، على كل حال ، لم تكن سرا ، اذ لم يكن من الصعب استقراؤها من خلال ما صدر عن دوائر عدة في اسرائيل ، خلال السنين الماضية ، من خطط او بيانات ذات علاقة مباشرة او غير مباشرة بالفلسطينيين· الا ان ذلك كله بقي بمثابة نوع من الاجتهادات الحزبية او الشخصية شبه الخاصة ، الى أن جاءت زيارة السادات فدفعت الاسرائيليين ، في محاولة للرد عليها او التفاعل معها ، الى اعلان مواقفهم بصورة رسمية واضحة ، وذلك ـ على حد علمنا ـ في احدى المرات النادرة ، وان لم تكن الاولى ، التي تقدم فيها اسرائيل على مثل هذا العمل ·

فبعد فشل قمة الاسماعيلية ، عاد بيغن الى اسرائيل واعلن في الكنيست ، يوم ٢٧ كانون الاول (ديسمبر) الماضي ، تفاصيل مشروع السلام الذي قدمه للسادات · ويعرض بيغن في مشروع سلامه حلا تصفويا نهائيا للقضية

الفلسطينية ، دون ان يذكر حتى كلمة « فلسطين » او اي من مشتقاتها ، اذ بالنسبة له لا يوجد شيء اسمه فلسطين ، بل « ارض ــ اسرائيل » · ويتلخص المشروع في موافقة اسرائيل على اقامة « حكم اداري ذاتي » في « يهودا والسامرة [اي الضفة الغربية] واقليم غزة ·· للسكان العرب في تلك المناطق ، من قبلهم ولاجلهم » (٢٧) ، وذلك للتأكيد على انه لا علاقة « للسكان العرب » الاخرين ، اي الفلسطينيين خارج المناطق المحتلة ، بذلك الحكم · ويظهر هذا الهدف واضحا في مادة اخرى من المشروع تنص على ان الهجرة الى تلك المناطق (وهذا هو التعبير الاسرائيلي لحق الفلسطينيين في العودة الى ديارهم) ستكون خاضعة لقرار لجنة ثلاثية ، مؤلفة من مندوب عن كل من اسرائيل والاردن وسكان تلك المناطق ، وعلى ان تتخذ قراراتها بالاجماع ، مما يمنح اسرائيل حق الفيتو على عودة اي فلسطيني من خارج المناطق المحتلة اليها · وفي ضوء ممارسات اسرائيل التي تنكرت في الماضي للالتزامات التي كانت قد اخذتها على عاتقها في المحافل الدولية ، خصوصا بعد حربي ١٩٤٨ و١٩٦٧ ، بشأن تسهيل عودة النازحين الفلسطينيين الى ديارهم ، يمكن ان نقدر ان عدد الفلسطينيين الذين قد يسمح لهم بالعودة الى الضفة الغربية وقطاع غزة ، وعلى اساس شخصي بالطبع ، سيكون ضئيلا جدا · وينص المشروع ايضا على اقامة لجنة ثلاثية اخرى ، خاضعة للقيود المفروضة على اللجنة السابقة من حيث صلاحياتها في اتخاذ القرارات ، لاعادة النظر في القوانين السارية المفعول في الضفة الغربية وقطاع غزة ، او اصدار قوانين جديدة ·

كذلك تتضح اهداف المشروع التصفوية في سعيه الى الغاء الهوية الفلسطينية نهائيا ، بعرضه على الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة الخيار في الحصول على اي من الجنسيتين ، الاردنية او الاسرائيلية ، والسماح لاولئك الذين يختارون الجنسية الاسرائيلية بالسكن في اسرائيل وشراء الاراضي فيها، مقابل السماح لليهود بالمثل في المناطق المحتلة · غير ان هذا الاقتراح الذي يبدو « عادلا » لا يهدف عمليا الا الى ذر الرماد في العيون وتهويد المناطق المحتلة تدريجيا ، بواسطة شراء الاراضي من قبل اليهود فيها واقامة المستوطنات اليهودية هناك ، بينما لا يستطيع العرب القيام بمثل ذلك داخل اسرائيل ، رغم منحهم ذلك « الحق » نظريا ، اذ ان اكثر من ٩٠٪ من الاراضي داخل اسرائيل هي « ملك الدولة » وباقي مؤسسات الاستيطان الصهيوني ولا يمكن ، قانونيا ، بيعها · أما الاراضي الباقية فهي مكتظة بالسكان ومستغلة بكاملها ·

وينص مشروع سلام بيغن ايضا على ابقاء شؤون الامن والنظام العام في الضفة الغربية وقطاع غزة في أيدي السلطات الاسرائيلية (٢٨) ·

جوبه مشروع بيغن ، على الرغم من اقراره بالاجماع من قبل الحكومة الاسرائيلية ، بمعارضة دوائر عدة في ليكود ، كما اشرنا · كذلك دفع المشروع

المعارضة ، الممثلة في حزب العمل الاسرائيلي ، الى اعلان موقفها من الحلول المطروحـــة للقضية الفلسطينية ويلاحظ ان معظم زعماء المعارضة البارزين ، مثل زعيم حزب العمل شمعون بيريس ورئيس حكومة اسرائيل السابق يتسحاق رابين والوزيرين السابقين يسرائيل غليلي (مهندس سياسة الاستيطان العمالية سابقا) وحاييم تسادوك (٢٩) وغيرهم ، قد وجهوا نقدا شديدا لذلك المشروع ، لانه سيؤدي ، بحسب رأيهم ، الى ... اقامة دولة فلسطينية . ويعتقد زعماء المعارضة ، ومعهم عدد لا بأس به من المعلقين وصانعي الرأي في اسرائيل ان اقامة الحكم الذاتي ستؤدي الى توحيد الضفة الغربية وقطاع غزة ، لاول مرة ، تحت اشراف ادارة موحدة ، تجعل من المنطقتين كيانا سياسيا واحدا قائما بحد ذاته . وقد يقبل الفلسطينيون في تلك المناطق ، وربما بناء على نصائح غير معلنة بهذا الشأن من منظمة التحرير الفلسطينية ، بالحكم الذاتي ، ثم ينطلقون من ذلك الاساس للمطالبة باستقلالهم واقامة دولة فلسطينية . كما يعتقد اولئـــك ان الاستيطان الاسرائيلي لن يزدهر في تلك المناطق في ظل ادارة عربية ، حتى وان كان الجيش الاسرائيلي هو المكلف بحفظ الامن . ثم ان عددا لا بأس به مـــن السكان العرب قد يطالب فعلا بالحصول على الجنسية الاسرائيلية ، مما قد يزيد مع مرور الوقت عدد سكان اسرائيل العرب ، فيؤثر على طابعها اليهودي . ولذلك يرى المعارضون ان الحـل الافضل هو التخلي عـن مبدأ ليكود وبيغن القاضي بـ « عدم تسليم اي جزء من ارض ـ اسرائيل الى سيادة اجنبية » ، والموافقة على تقسيم الضفة الغربية ، بحيث تضم اسرائيل اليها الاجزاء غَيـر المأهولة منها ، خصوصا في غور الاردن ، وهناك يعسكر ايضا ، على الحدود ، الجيش الاسرائيلي . أما الاجزاء الاخرى المأهولة من الضفة ، بالاضافة الـى قطاع غزة ، فينبغي ان ترضع تحت ادارة الاردن ، اذ انه الجهة الوحيدة المؤهلة لمنع قيام دولة فلسطينية . وفي اطار هذه الترتيبات يمنح للاردن ممر من الضفة الشرقية ، عبر الغور ، الى قلب الضفة الغربية ، وممر اخر بين الضفة وقطاع غـزة .

وباختصار ، يمكن القول ان الخلافات بين الحكومة الاسرائيلية والمعارضة ، من حيث موقفهما تجاه الحلول التي تطرحانها للقضية الفلسطينية تتلخص في البحث عن ايجاد انجع الوسائل الكفيلة بالغاء وجود فلسطين ومنع قيام دولة فلسطينية وطمس الهوية الفلسطينية بأسرها .

اما الفلسطينيون المقيمون خارج الوطن المحتل فينبغي توطينهم فـي الدول العربية ، ان شاءوا هم او الدول العربية ذلك ام أبوا . وعمليات التوطين تلك يجب ان تتم على حساب الدول العربية ، دون ان تكون لاسرائيل اية عـلاقة او التزامات بهذا الشأن ، لان المشكلة هي اساسا عربية . فاسرائيل استوعبت ، على حد زعمها ، عددا من « اللاجئين اليهود » من الدول العربية ، يكاد يساوي

عدد اللاجئين الفلسطينيين على حد زعمها ، ووطنتهم على حسابها ــ ونفقات توطين هؤلاء مقابل نفقات اولئك · واما منظمة التحرير الفلسطينية فتستطيع ان تتبخــر ·

لا تكرهوا شيئا ···

لم تسفر زيارة السادات لاسرائيل عن نتائج او ردود فعل سلبية فقط ، اذ كان لها « فوائدها » ايضا · ولا شك ان السادات ، من حيث لم يشأ ، او لم يدر ، قدم لحركة التحرر العربي وللوطنيين العرب ، وحتى لباقي حركات التحرر فــي العالم ، عبرا «ايجابية » للغاية من زيارته تلك لبيغن ·

ولعل أبرز الفوائد الناجمة عن الزيارة الساداتية لاسرائيل كامنة في اختصار الزمن · فمنذ اطلق السادات فكرته « المدهشة » بشأن عقد مؤتمر للصلح فــي جنيف ، خلال حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، والمشرق العربي بأسره ، ومعه كافة المعنيين بشؤون الشرق الاوسط خاصة والعالم العربي عامة ، من دول كبرى او صغرى ، يدورون فــي دوامة جنيف ، حتى كاد الجميــع يتوه بين ادغالها · ولا شك ان ذلك المؤتمر ، لو عقد بأية صورة من الصور ، لاستمرت تلك الدوامة بضع سنــوات اخرى · ولكن زيارة الســادات لاسرائيل كشفت ، وخلال أقل من شهرين ، ما كان يمكن ان يكون عليه الموقف بعد عدة سنوات من المفاوضات المضنية ، فيما لو انعقد ذلك المؤتمر · ولعل السادات يستحق الشكر اخيرا ، لكونه عاد وخلص الاخرين من تلك الفكرة وما كان يمكن ان تجر اليه من مماطلات وفقدان الوقت والجهد ·

كما انه لا شك ايضا ان تلك الزيارة ساهمت بشكل فعال في كشف مواقف كافة الاطراف المعنية بأزمة الشرق الاوسط والصراع العربي ــ الاسرائيلي ، وبصورة لم يسبق لها مثيل · فالموقف الاسرائيلي ، المعارض في حقيقته للسلم والهادف ، عمليا ، الى فرض الاستسلام على العرب من ناحية ، وتأمين ظروف مواتية لاستمرار النمو الصهيوني في المستقبل من ناحية اخرى ، اصبح الان واضحا للغاية ، ولا حاجة بعد اليوم للجوء الى الاجتهادات المختلفة للوقوف على حقيقته · كما ان الموقف الامبريالي الاميركي لا يقل ايضا وضوحا عن الموقف الصهيوني · لقد قدم السادات للاميركيين والاسرائيليين اكثر ما يستطيع اي زعيم عربي تقديمه ، بل ذهب في محاولات استرضائه لهم الى رسم سياسة تهدف الى تجنيد مصر ، ومعها ايضا بعض العرب ، في خدمتهم · وكان جزاؤه في مقابل ذلك ، اتهامه انه لا يستطيع ان يكون الا بمثابة عميل فرعي فــي المنطقة ، لا يحظى بثقة كاملة ، وعليه ان يكتفي بالدور المحدد له ·

ولا شك ايضا ان السادات ، بزيارته لاسرائيل ، ساهم بشكل فعال في فضح

الموقف ، بل المواقف ، العربية ٠

ولا يبدو ، باختصار ، ان الوضع العام للصراع العربي ـ الاسرائيلي اوضح مما هو عليه الان ، خصوصا بالنسبة للمؤمن ان الطريق طويلة ، ولا مجال للانهزامية او الاستسلام ٠

فلا تكرهوا شيئا ٠٠٠

المصادر

(١) نص خطاب السادات في « الاهرام » ، ٢٧ـ١١ـ١٩٧٧ ٠

(٢) مقابلة مع مجلة « اكتوبر » ، ١٤ـ١ـ١٩٧٨ ٠

(٣) في حديث مع التلفزيون المصري ، وزعت نصه وكالة انباء الشرق الاوسط المصرية، ونقلته « النهار » ، ١٥ـ١ـ١٩٧٨ ٠

(٤) انظر ، لمزيد من التفاصيل ، مقالة يعقوب ايرز في معاريف ، ٢٥ـ١ـ١٩٧٨ ومقالة حغاي اشد في دافار ، ٢٧ـ١ـ١٩٧٨ ٠

(٥) انظر مقالة النائب زلمان شوفال في يديعوت احرونوت ، ١٦ـ١ـ١٩٧٨ ٠

(٦) المصدر نفسه ٠ وانظر ايضا شموئيل سيغف في معاريف ، ١٠ـ١ـ١٩٧٨ ٠

(٧) « اكتوبر » ، ١٤ـ١ـ١٩٧٨ ٠

(٨) انظر ايضا مقالة عاموس كينان في يديعوت احرونوت ، ٢٧ـ١ـ١٩٧٨ ٠

(٩) انظر ، مثلا ، مقالتي تسفي شيلواح في يديعوت احرونوت ، ٢٦ـ١٢ـ١٩٧٧ و ٢٣ـ١ـ١٩٧٨ ومقالة اهرون بن ـ عامي في المصدر نفسه ، ١٧ـ١ـ١٩٧٨ وموشي شامير في معاريف ، ١٨ـ١ـ١٩٧٨ ٠

(١٠) انظر مقابلة شموئيل كاتس مع ملحق هآرتس ، ١٣ـ١ـ١٩٧٨ وتصريحات غيئولاه كوهين في المصدر نفسه ، ٢٣ـ١٢ـ١٩٧٨ ، ومقالة تسفي شيلواح في يديعوت احرونوت ، ٢٣ـ١ـ١٩٧٨ ٠

(١١) دافار ، ٩ـ١ـ١٩٧٨ ، وانظر ايضا مقالة يوئيلي في المصدر نفسه ، ١٣ـ٢ـ١٩٧٨

(١٢) انظر محضر ندوة رؤساء الحركات الاستيطانية في اسرائيل في المصدر نفسه ، ٦ـ١ـ١٩٧٨ ٠

(١٣) من خطاب السادات في مجلس الشعب المصري ، كما نقلته « الاهرام » ، ٢٧ـ١١ ـ١٩٧٧ ٠

(١٤) نقلا عن « السفير » ، ٢٥ـ١١ـ١٩٧٧ ٠

(١٥) معاريف ، ١٢ـ٢ـ١٩٧٨ ٠

(١٦) من مقابلة مع « اكتوبر » ، ١٤ـ١ـ١٩٧٨ .

(١٧) من خطاب السادات في مجلس الشعب المصري ، نقلا عن « الاهرام » ، ٢٢ـ١ـ١٩٧٨

(١٨) المصدر نفسه .

(١٩) من مقابلة مع « اكتوبر » ، ١٤ـ١ـ١٩٧٨ .

(٢٠) من خطاب السادات في مجلس الشعب المصري ، نقلا عن «الاهرام»، ٢٢ـ١ـ١٩٧٨

(٢١) مقابلة مع « اكتوبر » ، ١٤ـ١ـ ١٩٧٨ .

(٢٢) من خطاب بيغن في الكنيست ، نقلا عن معاريف ٢٤ ـ ١ ـ ٧٨

(٢٣) مقابلة مع « اكتوبر » ، ١٤ـ١ـ١٩٧٨ .

(٢٤) من خطات السادات في مجلس الشعب المصري ، نقلا عن الاهرام ، ٢٢ـ١ـ١٩٧٨.

(٢٥) مقابلة مع « اكتوبر » ، ١٤ـ١ـ١٩٧٨ .

(٢٦) المصدر نفسه .

(٢٧) من مشروع سلام بيغن ، كما عرضه في الكنيست ونقلته دافار ، ٢٨ـ١٢ـ١٩٧٧ .

(٢٨) المصدر نفسه .

(٢٩) انظر مثلا ، لمزيد من التفاصيل ، مقالتي شمعون بيريس في يديعوت احرونوت ، ٢٣ـ١٢ـ١٩٧٧ ودافار ، ٤ـ١ـ١٩٧٨ ، ومقابلته مع هاتسوفيه ، ٢٧ـ١ـ١٩٧٨ ومقالتي يتسحاق رابين في يديعوت احرونوت ، ٣٠ـ١٢ـ١٩٧٧ و ٣ـ١ـ١٩٧٨ ومقابلة يسرائيل غليلي في المصدر نفسه ، ٦ـ١ـ١٩٧٨ ومقالة حاييم تسادوك في معاريف ،٦ـ١ـ١٩٧٨ .

سمير كرم

إيران : يابان الشرق الاوسط ؟ "٢"

الخليج العربي الهدف ، القوميّة العربيّة العدو

منذ ثلاثة اعوام قامت ثلاث هيئات « علمية » للابحاث بدراسة لحساب وكالة الاستخبارات المركزية الاميركية C. I. A. كان موضوعها احتمالات سلوك كل من الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة إندلاع صراع اقليمي عسكري في واحدة من المناطق الساخنة في العالم ·

ـ كان من نصيب جامعة « ييل » Yale القيام بدراسة عن احتمالات الموقف في حالة نشوب حرب فعلية بين الصين وفيتنام (الموحدة) حول مجموعة جزر « سبارتلي » المتنازع عليها بين « البلدين الاشتراكيين » ·

ـ وكان من نصيب « معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا » (M.I.T.) دراسة احتمالات الموقف في حالة نشوب حرب بين الجزائر والمغرب ، بسبب مشكلة الصحراء الغربية والحدود المتنازع عليها بين « البلدين العربيين » ·

ـ وكان من نصيب « مؤسسة راند » Rand للابحاث دراسة احتمالات الموقف في حالة نشوب حرب بين العربية السعودية وايران ، بسبب التنازع على السيطرة على منطقة « الخليج » (العربي / الفارسي !) بين « الدولتين النفطيتين » ·

وكما يتضح فان الحروب الثلاث المتصورة يجمع بينها قاسم مشترك هو قيام كل منها بين طرفين يفترض في الاحوال العادية ان بينهما التقاء ايديولوجيا (كما في حالة الصين وفيتنام) او قوميا (كما في حالة الجزائر والمغرب) او اقتصاديا (كما في حالة السعوديةوايران عضوي « الاوبيك ») ·

وقد جرت الدراسات الثلاث وفقا للمنهج المفضل لدى الجهة التي اجريت

لحسابها ـ اي وكالة الاستخبارات المركزية ـ وهو منهج يتألف من وضع « سيناريو » للازمة وتوزيع ادوار الدول والشخصيات صانعة القرار فيها على اشخاص حقيقيين من القائمين بالدراسة وتركهم يسلكون ويتصرفون على هذا الاساس ورصد ردود فعلهم وقراراتهم ازاء الازمة · (١)

وفي هذا المجال لا تهمنا النتائج التي انتهت اليها لعبة سيناريو الازمات والقرارات المتصورة ، انما يهمنا ان نلاحظ مغزى الدراسة الثالثة ، وهي الدراسة عن حرب بين السعودية وايران حول النفوذ على الخليج العربي · فهي وان كان المقصود منها تصور الكيفية التي يمكن ان يتصرف بها الاتحاد السوفياتي في حالة نشوب مثل هذه الازمة ، والكيفية التي ينبغي ان تكون عليها قرارات صانعي السياسة الخارجية والدفاعية الاميركية ، الا انها تعني ان الجهات الاميركية المعنية برسم هذه السياسة ترى هذا الاحتمال بالذات قائما بين احتمالات الصدام بين دول بينها في الظروف العادية حيز التقاء واتفاق واسع ·

فهذا الاحتمال قائم في تصور السياسة الاميركية الخارجية والدفاعية منذ وقت سابق على صدور التقرير الذي يعرف الآن باسم « تقرير جاكسون » والذي يحمل عنوان « **الوصول الى النفط ـ علاقات الولايات المتحدة مع العربية السعودية وايران** » ، (١٣ صفحة) ، وقد صدر في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٧ متضمنا دراسة طلب وضعها السناتور الجمهوري الاميركي هنري جاكسون رئيس لجنة الطاقة والمصادر الطبيعية التابعة لمجلس الشيوخ الاميركي · (٢)

بل ان تصور احتمال التناقض الى حد التطاحن بين ايران والسعودية موجود في فكر السياسة الاميركية منذ وقت سابق على حرب تشرين (اكتوبر) ١٩٧٣ ، وسابق على دراسة « مؤسسة راند » التي اشرنا اليها · ففي يومي ١ و ٢ تشرين الاول ١٩٧١ تناول « معهد الشرق الاوسط » في مؤتمره السنوي في واشنطن هذا الاحتمال ، قبل ان تكون ازمة الطاقة قد عرفت طريقها الى اولويات المشكلات الاميركية · حيث تناولت احدى الدراسات التي ناقشها هذا المؤتمر عوامل التناقض بين الدولتين رغم وقوعها في دائرة الدول الملكية ، التقليدية، النفطية ، المعادية للراديكالية ، والداخلة في اطار التحالف الغربي · (٣)

وتعرض المعهد نفسه ـ في مؤتمره السنوي الثامن والعشرين في ١١ و ١٢ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٤ ـ للموضوع ذاته ، مع تركيز الضوء على تجاوز اهتمامات ايران ـ مع نمو قدرتها العسكرية ـ منطقة الخليج الى ما وراء ذلك لتشمل المحيط الهندي والهند وباكستان ·

وخارج اطار الفكر السياسي الاميركي ، فان الاهتمام باحتمالات الصدام

بين ايران والعرب موجود لدى الجهات المعنية بالاستراتيجية ودراسة الازمات الدولية في الغرب والشرق على السواء · وعلى سبيل المثال عندما عهد « معهد الدراسات الاستراتيجية الدولي » .I.I.S.S (لندن) الى عدد من الباحثين (من المانيا والولايات المتحدة وفرنسا واليابان) بتقديم ابحاث عن « انتشار القوة » (وهي ابحاث نشرها المعهد ضمن ابحاثه الدورية في مجموعة « ابحاث ادلفي» Adelphi Papers) ـ وجدت فكرة الصدام بين ايران والعرب مكانها بين احتمالات الصراعات القادمة · ووجدت منطقة **الخليج العربي** اهتماما خاصا « **بوصفها منطقة تتميز بنمط شديد التعقيد وبتوترات متداخلة · فقد حققت ايران في السنوات الاخيرة مركزا مسيطرا مبنيا مع قوتها الاقتصادية والعسكرية المتعاظمة · وحيث اهتمامها الرئيسي هو تأمين طرقها التجارية الحيوية ، والحيلولة دون اقامة نظم حكم ثورية على الشواطيء الغربية للخليج، الامر الذي قد لا يهدد امن ايران فحسب ، بل يهدد نظامها ايضا ·**» (٤) **ليس بالنفط وحده ·**

والامر الملفت للنظر هو التوافق التام بين توقيت خروج ايران الى ممارسة دور استراتيجي بالنسبة لمنطقة الخليج العربي ، وبوادر ظاهرة التسلح المفرط للقوات المسلحة الايرانية ، وهي ظاهرة لم تخلقها الاسعار الجديدة للنفط وانما ساعدت على نموها ·

وهذا الدور الايراني ـ بالتالي ـ سابق على ظهور ازمة الطاقة وحرص الغرب ـ بزعامة الولايات المتحدة ـ على تأمين احتياجاته النفطية من الشرق الاوسط · وبعبارة ادق فان قلق الغرب على نفط الشرق الاوسط الحيوي بالنسبة لاقتصاده ونشاطه الحياتي لم يخلق دور ايران في «الدائرة الثالثة» لهذا الدور ـ اي في الخليج العربي ـ وانما دعم هذا الدور والتقى معه استراتيجيا واقتصاديا معا ·

وعندما اوجدت التطورات الهامة التي سبقت وواكبت حرب تشرين ١٩٧٣ واقعا جديدا في العلاقة بين الغرب والعالم العربي النفطي ، نشأت عن ذلك علاقة تنطوي على التحالف والتناقض في وقت واحد بين هذين الطرفين ، واكتسب الدور الايراني بالنسبة للخليج العربي ابعادا جديدة هامة ·

اما لماذا ايران بالذات دون باقي دول الشرق الاوسط · فهذا لعدد من الاعتبارات الخاصة بموقعها وواقعها الاستراتيجي والاقتصادي في المنطقة · ذلك ان ايران :

- تدخل في دائرة الاحلاف العسكرية الغربية ، بحكم عضويتها في الحلف المركزي ·
- تدخل في دائرة القوى الاقليمية القوية ، التي لا تحتاج الى دعم مادي

يشكل عبئا على اقتصاد الغرب ، اميركا بالذات ، بحكم الزيادة الهائلة في عائداتها من النفط ٠

● تدخل في دائرة الصراعات الاقليمية المرتقبة للفترة القادمة ، خاصة الثمانينات ، بحكم وجود منازعات متعددة لها متعلقة بالحدود والملاحة البحوية والممرات التجارية ٠

● تدخل في دائرة الصراعات الاجتماعية الاكثر حدة ، بحكم الاستقطاب الشديد بين الغنى والفقر ، الذي ارتفعت حدته بتزايد دخل ايران من عوائد النفط ٠

● تدخل في دائرة الصراع على مصادر الطاقة من جانب الدول التي تعاني من ندرة هذه المصادر مع حاجتها الماسة اليها ، بحكم موقعها كدولة منتجة وكقوة تسيطر على ممرات النفط الى العالم الغربي ٠

وايران بالاضافة الى هذا كله تقع على تخوم اخطر صراع اقليمي في العالم، وهو الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، وعلى تخوم صراع اقليمي آخر له خطورته هو صراع القرن الافريقي ٠ وقد وجدت ايران لنفسها دورا في صف اسرائيل في الصراع الاول ، وارادت ان تجد لنفسها دورا ـ من المنطلقات ذاتها ـ في الصراع الثاني ٠ وفي هذه الحالات جميعا فان **لدى السياسة الايرانية ـ الخارجية والعسكرية ـ اقتناعا كاملا بأن كل الدوائر تلتقي عند محور الخليج ٠ بمعنى ان السيطرة على الخليج العربي تحتم ـ وتحقق ـ اهدافا عديدة متوالية :**

ـ تأمين استقرار النظام الايراني الحاكم وتشكيلته الاقتصادية ـ الاجتماعية٠

ـ تأمين التوسع التجاري والاقتصادي في « المجال الحيوي » الاقرب لايران ، المتمثل في دويلات الخليج ٠

ـ تأمين الدور « تحت الامبريالي » الذي تنوب فيه ايران عن الدور الامبريالي المباشر في السيطرة العسكرية على المنطقة ٠

ـ تأمين دور ايران الاستراتيجي كقاعدة متقدمة ضد « الشيوعية » وضد كل اشكال الثورة الاجتماعية في مجال كامل واسع يحيط بها ٠

ـ تأمين قدرة ايران على تحدي تيار القومية العربية الذي يشكل التحدي الرئيسي والمباشر بالنسبة لنظامها الراهن واستراتيجيته ٠

ولعله يكفي لتأكيد حقيقة اهمية ايران العسكرية في الاستراتيجية العامة الاميركية ان نعرف ان مبيعات الاسلحة من الولايات المتحدة لدول « مناطق الدفاع الامامية» (وهي وفقا لاولويات وزارة الدفاع الاميركية ـ «البنتاغون» ـ

فيتنام الجنوبية وكوريا الجنوبية والفيلبين ولاوس واليونان وتركيا وباكستان وايران) انخفضت منذ العام ١٩٦٧ فيما عدا ثلاث من هذه الدول هي فيتنام ولاوس وايران ونلاحظ على الفور ان الدولتين الاوليين كانتا في حالة حرب اما الثالثة ـ ايران ـ فانها كانت استثناء من ظاهرة انخفاض مبيعات السلاح على الرغم من أنها لم تكن في حالة حرب · مما يعني انه كان للزيادة الهائلة في مبيعات الاسلحة لها دلالات واهداف آجلة · (٥)

ولقد كانت من اوائل التبريرات التي قدمها الشاه بشأن صفقات الاسلحة الضخمة التي توالت على ايران سنويا منذ منتصف الستينات بشكل خاص (كانت قبل ذلك المساعدات العسكرية الاميركية تقوم مقامها) قوله ـ في حديث لصحيفة ـ « واشنطون بوست » الاميركية في العام ١٩٦٩ ـ انه من الضروري لايران ان تبني قدرة دفاعية لمواجهة كافة مثيري الاضطرابات في المنطقة مجتمعين · واشار الى ان العرب يزعمون تبعية منطقة « **خوزستان** » التي تسكنها اغلبية عربية ، وهي مصدر اغنى حقول البترول الايراني · وقال الشاه فيذلك الحديث : « **ينبغي علينا ان نبني مثل هذه القوة لنحافظ على هذه المنطقة آمنة بعد أن يغادرها البريطانيون · وباستطاعة ايران ان تقوم بهذا الدور لاننا لا نملك خططا اقليمية او استعمارية · اذما دور ايران في منطقة الخليج (الفارسي) هو ان تقدم صورة القوي ، الحكيم ، صاحب الاهداف الغيرية** ··· » ·

في البدء كانت الجزر

وكان اول ما فعلته ايران لتأكيد هذا الدور الجديد هو احتلالها للجزر العربية الثلاث : طنب الكبرى وطنب الصغرى وابو موسى قبل يوم واحد من الانسحاب الكامل للقوات البريطانية من الخليج العربي · واحتلال ايران لهذه الجزر هو حالة دراسية Case - Study للاستراتيجية الايرانية بالنسبة للخليج العربي ، تصور وفي الوقت نفسه عجز المواجهة العربية وتخاذلها ازاء هذا الاحتلال ·

فقد مهدت ايران بهذا العمل التوسعي بالتوصل الى اتفاقات تصفي مشاكلها الحدودية مع اقوى دول المنطقة وهي العربية السعودية، بهدف تحييدها · فخلال اجتماع عقد في جدة في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٨ توصل الشاه والملك فيصل الى حل بشأن الجزر المتنازع عليها بين بلديهما ، وهما جزيرتا « فارس » و « عربي » حيث « تبودلت الوثائق الخاصة بالتصديق على الاتفاقية القاضية بحقوق ايران على جزيرة « فارس » وحقوق السعودية على جزيرة « عربي »· وعند تعيين الرصيف القاري طلبت ايران وجوب مرور الخط البحري الفاصل

في منتصف المسافة بين جزيرة « خرج » والساحل العربي ، وليس بين منتصف الساحل العربي والساحل الايراني ، اذ ان جزيرة « خرج » تبعـــد مسافة ٥٠ كيلو مترا عن الساحل الايراني · وقد لبت السعودية مطلب ايران فكان التخطيط لمصلحة الاخيـرة ·

وعقدت ايران اتفاقات مماثلة مع قطر والبحرين وابو ظبي في العام ١٩٧١ ·

وفي الوقت نفسه عملت ايران على اجتذاب امراء الساحل لتحقيق اهدافهـا في تسهيل الهجرة الايرانية الى ساحل الامارات · وذهب الشاه الى حد انـــه عرض على حاكم رأس الخيمة ــ اثناء زيارة قام بها لطهران في تشرين الثاني ١٩٦٤ ــ اقامة عدد من المستشفيات والمدارس وامداد رأس الخيمة بالمدرسين والاطباء ، مقابل التوقيع على وثيقة بتنازله عن جزر الخليج التابعة له ·

وقبل وقت قصير من قيام ايران باحتلال الجزر الثلاث ــ وبالتحديـد في ٧ ايلول (سبتمبر) ١٩٧١ ــ عرضت مقترحات موحدة ــ خلال وساطة بريطانيا ــ على رأس الخيمة والشارقة بمناصفة السيادة وعائدات النفط مع ايران ، على أن تقوم ايران بدفع منحة سنوية لكل من الامارتين مع تعهدها بعدم اذاعة نبـأ نزول القوات الايرانية في الجزر الثلاث الا بعد مرور عام ونصف تجنبا لاثـارة الرأي العام العربي · وقد رفض هذا العرض الذي كشف تواطؤ بريطانيا مـع ايران · اذ كان الوسيط في هذا العرض الايراني هو البريطاني وليام لوس ، وكان ذلك بحضور المعتمد البريطاني في الخليج جفري آرثر ·

وكان الشاه قد مهد لاحتلال الجزر ايضا في اكثر من حديث ، منها تصريحه في ١٤ نيسان (ابريل) ١٩٧٠ لصحيفة « التايمز » البريطانية بانه قد « بـدأ عصر جديد للخليج · وترى ايران ان مصالحها الحيوية تحتم عليها حفظ الامن والاستقرار فيه بالتعاون مع الدول المطلة على سواحله » · وقال ان « **بعـض الجزر المملوكة الان لبعض المشيخات تهم ايران من الناحية الاستراتيجية ، بل انها تابعة لها أصلا ، وهي جزر طنب الكبرى وطنب الصغرى وابـو موسى · وايران غير مستعدة اطلاقا لترى سقوط هذه الجزر بيد اعدائها** » ·

وفي الوقت نفسه تقريبا ذكر « كتاب أخضر » أصدرته وزارة الخارجيـــة الايرانية انه « **ما لم تعد هذه الجزر الثلاث الى ايران فان الحكومة الايرانيـة لن توافق قط على قيام الاتحاد الفيدرالي للامارات العربية في الخليج ، بـــل انهـا ستعمل ضده** » · (٦)

ولم يكن هذا النوع من التصريحات الا امتدادا لتصريحات اوسع نطاقـــا كانت تطلقها ايران وهي اضعف عسكريا ، ولم تكن تؤخذ عليها بأي قدر مـن الجدية ، مثل تصريح الجنرال زاهيدي رئيس وزراء ايران اثناء زيارة لـــه لباكستـــان :

« ان لايران حقوقا مشروعة في كل انحاء الخليج الفارسي وبالتحديد في بعض المناطق ، وهي جزر طنب وابو موسى وشط العرب » ٠

ويمكن القول ان تراجع ايران التكتيكي عن مطلبها باحتلال « البحرين » اثر استفتاء جرى في العام ١٩٧٠ واكد تمسك سكان « البحرين » الكامل بعروبتهم ورفضهم اي علاقة تبعية لايران ٠٠ هذا التراجع التكتيكي الذي اتخذ صورة الموافقة على الاستفتاء ثم على نتيجته المعاكسة لاطماعها ، كان في الحقيقة جزءا من امتصاص رد الفعل العربي ازاء خطوة احتلال الجزر الخليجية الثلاث بعد ذلك بنحو عام ٠ وهو تراجع واكبه ايضا الاسقاط التدريجي لمعارضة ايران لقيام دولة اتحاد الامارات العربية ٠ ويفسر هذا التوقيت الذي اتخذته ايران لخطوة احتلال الجزر الثلاث قبل يوم واحد من اتمام الانسحاب العسكري البريطاني ، وقبيل قيام اتحاد الامارات العربية وانضمام امارتي الشارقة ورأس الخيمة ـ المالكتين الشرعيتين لهذه الجزر ـ الى هذا الاتحاد ٠

وهنا يمكن القول أن اقرب التفسيرات الى الموضوعية هو ما ذكره المؤلفان الايرانيان « شورام شوبين » و « سيبهر زابيه » عن العلاقات الخارجية الايرانية ، والقائل ان ايران « **قررت ان ترث انكلترا في الخليج ولا سيما بعد فشل دعوتها للعرب الى حلف يضمن امن الخليج ٠٠ وتطبيقا لهذا الاتجاه قررت ايران الاعتماد على نفسها وزيادة نفقات التسلح** » ٠

لم يتطلب احتلال ايران للجزر الثلاث جهدا كبيرا ، وعندما اصبح امرا واقعا احتجت الدول العربية « بشدة » على هذا الاجراء الايراني : وقطعت العراق علاقتها الديبلوماسية مع كل من بريطانيا وايران ، ودعت الى عقد مجلس الامن للبت في الامر ٠ وعقدت جامعة الدول العربية عدة اجتماعات خصصت لمناقشتها ٠

ولكن الاجراءات العربية (المقترحة ، ومنها تأميم حصة الحكومة البريطانية في شركة B.P البترولية) لم يفلح في اعادة الجزر وبعد مضي نحو سبع سنوات على الاحتلال الايراني لهذه الجزر ، اصبح هذا الاحتلال امرا واقعا واكتسب بذلك شرعية تؤيدها زيادة قوة ايران المسلحة عشرات المرات عما كانت عليه في العام ١٩٧١ ٠ وربما كان من ابرز ملامح « المواجهة » العربية السلبية للامر هو الانخراط في مناقشات شكلية لا جدوى منها حول مدى تواطؤ بريطانيا مع ايران في تمكينها من احتلال هذه الجزر ، ومسؤولية بريطانيا « القانونية » و « الدولية » ٠٠٠ الخ ٠

فماذا حدث منذ ان احتلت ايران الجزر ؟ وبعبارة اخرى كيف تابعت ايران خطوات استراتيجيتها في « الدائرة الثالثة » لعلاقاتها ـ دائرة الخليج العربي ـ منذ عام ١٩٧١ ؟

صدمة الموقف الاميركـي

في الشهر التالي لاحتلال ايران جزر الخليج العربية الثلاث نشبت الحـرب الهندية ـ الباكستانية ، حرب تحرير بنغلاديش ، التي فاجأت الشاه الايرانـي بفشل اميركي واضح في اتخاذ موقف جاد الى جانب باكستان زميلة ايـران في عضوية الحلف المركزي · وكانت تلك بمثابة صدمة للشاه اقلقته على موقعه في الخليج العربي ـ امتداد المحيط الهندي الذي فشلت الولايات المتحدة في ان تمارس فيه دورا يرهب الهند في تلك الحرب او يشل فاعلية التسليح السوفياتي لهـا · فضلا عن **ان ترك باكستان لتنقسم كان يشكل سابقة خاطرة مخيفة للشاه الذي يواجه متاعب من نوع مماثل مع الاقليات القومية داخل ايـران ، خاصة من « البلوخستان » والعرب ·**

وربما كانت تلك الصدمة بمثابة المنبه الرئيسي الذي صحا به الشاه علـى حقيقة ضرورة امتلاك قوة عسكرية هائلة ، لا تكون فقط رادعة للقوى الداخليـة المعادية لنظامه ، ولا للقوى الاقليمية التي يعتبرها خصوما لايران ـ مثل العراق او اليمن الجنوبي ، او اية قوة ثورية يمكن ان تنشأ فجأة قريبا من منطقـة الخليج او في مجال التأثير فيها ، بل تكون ايضا قادرة على التوسع والانقضاض عند الضرورة ·

وقد جاء بعد « تخاذل » الموقف الاميركي ازاء باكستان وانقسامها باستقلال « بنغلاديش » (باكستان الشرقية) حدثان هامان اخران اكدا الاتجاه نفسه ، وهو ان الولايات المتحدة ليست سيدة الموقف على المسرح الدولي ، وخاصة في الصراعات الاقليمية الكبيرة · اولهما الهزيمة الاميركية المباشرة في حـرب الهند الصينية في اوائل العام ١٩٧٣ ، ثم حرب تشرين العربية ـ الاسرائيلية (وكانت بدرجة ما ايضا هزيمة اميركية ولكن غير مباشرة) ·

ولم تكن استراتيجيةالشاه هي وحدها التي تعيد تشكيل ذاتها تحت تأثيـر تلك الاحداث فحسب ، بل كانت استراتيجية الولايات المتحدة ايضا تتشكل مـن جديد تلبية لمعطيات عديدة ، منها فيتنام ، ومنها حرب تشرين ، ومنها ازمـة الطاقة ، والتنافس بين اوروبا الغربية ، ،(خاصة فرنسا وبريطانيا) وبيـن الولايات المتحدة على اجتذاب اموال النفط مرة اخرى اليهـا بعد ان زادت اسعاره وزادت مداخيل الاقطار المصدرة له ·**وكان اكثر اساليب اعـادة امتصاص اموال النفط من الاقطار المصدرة هي مقايضة هذه الاموال بصفقـات اسلحة ضخمة** · وكان الحصول على الاسلحة رغبة لدى الشاه لا تحتاج الـى اختلاق من جانب الغرب · ولكن الامر الذي بدأ بداية عادية متناسبة مع حجم ايران الاقتصادي والسكاني وطبيعة « الاخطار » المحيطة بها ، تحـول الى ظاهرة خطيرة تتجاوز في ابعادها كل المقاييس والمعايير ، حتى معيار رغبـة

الغرب في اعادة اموال النفط الى خزائنه من خزائن الدول النفطية ٠

ولهذا تعد ظاهرة **التسلح الايراني** ظاهرة قائمة بذاتها جديـــرة بالنظـــر والتحليل ، وعدم الاكتفاء منها بأخبار الصفقات الضخمة ٠

اكبر قوة غير ذريـــة

● لقد اصبحت ايران تحتل المرتبة الرابعة بين دول العالم من حيث أرقام الإنفاق العسكري (وليس من حيث نسبتها) بعد الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة وفرنسا ، وقبل بريطانيا والصين ٠

● في الميزانية التي اعلنها رئيس الوزراء الايراني جمشيد اموزيغار فـي شهر شباط الماضي للعام ١٩٧٨ / ١٩٧٩ ــ والتي بدأ العمل بها في ٢١ آذار (مارس) المنصرم بلغت قيمة النفقات العسكرية ٧٠٠ مليار ريال ايراني، (★) وكانت ٥٦١ مليار ريال في ميزانية العام ١٩٧٧/١٩٧٨ ، اي بـزيادة ٢٥ ٪ ٠ وهي نسبة ضخمة بالنسبة للفرق بين ميزانية عام والعام التالي له مباشرة ، خاصة وان هذه الارقام لا تشمل نفقات الامن الداخلي (السافاك ــ اي البوليس السري) الذي خصص له ٧٤ر٧ مليار ريال مقابل ٥٦ر٣ مليار ريال في السنـة المالية الماضية (الامر الذي يوحي بان السلطات الايرانية كانت تتوقع وتتهيـــأ للاضطرابات الداخلية الواسعة النطاق التي شهدتها المدن الايرانية خـــلال الشهرين الماضيين) ٠

هذا بالاضافة الى ان هذه الارقام الضخمة للانفاق العسكري ، ونفقـــات الامن الداخلي مقتطعة اصلا من ميزانية اجمالية لايران تنطوي على عجز ضخم قيمته ٤٠٠ مليار ريال (يمثل زيادة رقم النفقات على رقم الايرادات) ، وهو عجز سيتم تمويله بواسطة قروض من الخارج قيمتها ١٥٠ مليار ريال او قروض داخلية قيمتها ٢٥٠ مليار دولار ٠ (٧)

ويلاحظ ان تقدير ايرادات ايران من النفط ــ الذي بنيت على اساسه أرقام هذه الميزانية ــ يبلغ ١٤٥٢ مليار ريال (يقتطع منه مبلغ ١٧٦ مليار ريال قيمة نفقات على النفط خلال السنة المالية نفسها) وهذا يعني ان ايران ستنفق عـلى أهدافها العسكرية خلال السنة الحالية التي بدأت لتوها اكثر من نصف دخلهـا من النفط ٠

● منذ ١٠ سنوات ــ اي في العام ١٩٦٨ ــ لم تكن ميزانيـــة الانفـــاق

العسكري الايراني تزيد على ٥٠٠ مليون دولار ، وقفز هذا الرقم الى ٢٠٠٠ مليون دولار في العام ١٩٧٣ ثم الى ١٠ مليارات دولار في العام ١٩٧٦ ٠

● في مقابل هذا الارتفاع الصاروخي في أرقام الانفاق العسكري ، وهو يعني بالدرجة الاولى نفقات التسلح والمنشآت العسكرية ، يلاحظ ان الاحتياطي النقدي الايراني يعاني حالة تآكل مستمر ٠ فبعد ان كانت ايران تملك فائضا في ميزان مدفوعاتها قيمته ٥٠٠ مليون دولار في العام ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣ (اي قبل الزيادة الكبيرة التي طرأت على اسعار النفط في اخر العام ١٩٧٣) ، وارتفع الى فائض قيمته ٥ر٢٥ مليار دولار في العام ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ ولكن هذا الفائض تحول الى عجز يقارب الالف مليون دولار في العام ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ ٠

● يتألف الجيش الايراني في الوقت الحاضر من ٢٢٠ الف رجل تنظمهم ثلاث فرق مدرعات ، واربع فرق مشاة ، واربع فرق مستقلة (اثنتان مشاة وواحدة محمولة جوا وواحدة تشكل « القوات الخاصة ») ٠ ويملك هذا الجيش نحو اربعة الاف دبابة ومدرعة وحوالي ١٥٠٠ قطعة مدفعية ٠ كما يملك الجيش الايراني مجموعة ضخمة من القذائف المضادة للدبابات و ٦٥٠ مدفعا مضادا للطائرات وصواريخ ارض ـ جو من طراز « هوك » ، وتملك قيادة الجو التابعة للجيش (وهي غير السلاح الجوي) ٦١ طائرة و ٢٤٧ هيليكوبتر ٠

« وعلى الرغم من ضخامة هذه الارقام فانها تبدو قزمة امام المعدات قيد الطلب في الوقت الحاضر » ٠ (٨)

لقد طلبت ايران من بريطانيا ١٨٠٠ دبابة حديثة من طراز « تشيفتين »، بالاضافة الى ٣٦٠ دبابة خفيفة من طراز سكوربيون و ٢٤٠ عربة مدرعة من طراز « فيكرز » ٠ وهذه الطلبات تشكل اضافة للجيش بمقدار ثلاث او أربع فرق مدرعة جديدة ٠

كذلك طلبت ايران كميات هائلة من الاسلحة المضادة للدبابات من الولايات المتحدة (صواريخ من طرازي « دراغون » و « تاو ») بالاضافة الى صواريخ أرض ـ جو (سام) مطلوبة من الاتحاد السوفياتي وبريطانيا ٠ كما طلبت قيادة الجو التابعة للجيش ٣٢٩ طائرة هيليكوبتر (وهو ـ كما نلاحظ ـ عدد اكبر من العدد الذي تملكه هذه القيادة مثلا) ٠ وهناك مشروع لصناعة طائرات الهيليكوبتر في ايران ٠

● والتوسع البحري الايراني هائل بالقدر نفسه · اذ تملك البحرية الايرانية (٢٥ الف رجل) ثلاث مدمرات حاملة للصواريخ ، واربع فرقاطات ، و ٢٩ قطعة بحرية اخرى · وتتضمن طلبات الاسلحة البحرية « المعروفة » التي تعاقدت عليها ايران أربع مدمرات ضخمة و ١٤ سفينة حربية من انواع اخرى ، بالاضافة الى عدد من الطائرات البحرية البعيدة المدى ، كما تتضمن عددا من الغواصات (من المانيا الغربية خاصة) ·

● **التوسع الاكبر هو في السلاح الجوي الايراني (الامر الذي له مغزاه اكثر من غيره بالنسبة لاستراتيجية ايران الهجومية)** · ويتألف سلاح الجو الايراني من مائة الف رجل ، ويملك ١٧٧ طائرة « فانتوم » مزودة بصواريخ طراز « سايدوندر » ، و « سبارو » ، و « مافريك » ، بالاضافة الى ١٢٥ قاذفة مقاتلة طراز ف ـ ٥ و ١٥ طائرة ف ـ ١٤ أ « تومكاتس » التي توصف بأنها احسن المقاتلات الاميركية من الجيل الجديد واكثرها تكلفة · ويضم السلاح الجوي الايراني ايضا ٧٢ طائرة نقل ضخمة فضلا عن ٧١ طائرة خفيفة و ١٥١ هيليكوبتر ·

وتشمل الطلبات للسلاح الجوي ٤٨ « فانتوم » و ٤١ ف ـ ٥ و ٦٥ « تومكاتس » · وقد اتفقت ايران على شراء ١٦ طائرة طراز ف ـ ١٦ من الولايات المتحدة مقابل ٣ر٢ مليار دولار ، وطلبت ايضا ٢٥٠ طائرة ف ـ ١٨ ل المقاتلة · (٩)

● على أساس هذه الارقام اصبح من المنتظر ان **تصبح ايران بحلول العام ١٩٨٢ ـ « ما لم يحدث تحول فجائي في السياسة ـ مالكة لقوات برية وبحرية تعادل قوات المانيا الغربية من حيث الحجم والتطور ، وقوة جوية تعادل ضعف قوة المانيا الغربية الجوية »** · **وينبغي هنا ان نلاحظ ان القوات المسلحة لالمانيا الغربية هي أضخم قوات في حلف شمال الاطلسي باستثناء الولايات المتحدة ، واضخم من قوات اي دولة في حلف وارسو باستثناء الاتحاد السوفياتي !**

لقد أثارت ظاهرة التسلح الايراني المخاوف حتى داخل الولايات المتحدة (وان لم تثر القدر اللازم من المخاوف في الوطن العربي) · ووصل الامر الى حد فتح ملفات تحقيق في لجان الكونغرس حول ضخامة صفقات الاسلحة الاميركية وتأثيرها على مخزون الجيش الاميركي واحتياجاته ·

واذا اخذنا جانبا واحدا من هذه المخاوف وجدنا هذا التصريح للنائب الديمقراطي الاميركي « لس أسبين » (في شباط ١٩٧٧) الذي قال فيه « ان ٤٠٪ من جميع الذخائر التي أوصى عليها ٦٠ بلدا من الولايات المتحدة مخصص لايران وحدها · وانني لاتساءل اذا كانت ايران تحتاج الى هذا القدر

من الذخائر لغايات التدريب المشروعة والمخزون الدفـــاعي · ان ايـــران تصرف من الذخيرة بالنسبة لكل فرد عسكري اكثر بكثير مـــن الولايـــات المتحدة » ·

وقد حذرت لجنة فرعية بمجلس الشيوخ الاميركي في تقرير أذاعته فـــي شهر اب (اغسطس) ١٩٧٦ استمرار المبيعات العسكرية لايران لانها « خرجت عن حدود السيطرة » ولان « متطلبات الدفاع الايراني لا تبررها » ·

ورغم هذه التحذيرات ـ التي تجيد الحكومات الاميركية دائما الافـــلات منها او تجاهلها كلية ـ فان مصادر اميركية قدرت ان المحادثات التي اجراها سايروس فانس وزير الخارجية الاميركي في طهران في الشهر نفسه الـــذي صدر فيه ذلك التقريـــر (اب ١٩٧٦) أسفرت عن التصديق على **عقود لصفقات اسلحة اميركية لايران تبلغ قيمتها ٤٠ مليار دولار على مدى السنوات الخمس ١٩٧٦ ـ ١٩٨٠** ·

السياسة وراء الاسلحة

فما هو الوجه السياسي ـ الاستراتيجي لهذه الارقام العسكرية ؟ ان كـــل هذه الارقام تفقد اي مغزى استراتيجي لها اذا هي ظلت مجـــرد مقارنـــات احصائية بين اعوام واعوام ، ميزانيات وميزانيات سابقـــة ولاحقـــة ، دول وجيوش ودول وجيوش اخرى ··· الخ ·

ان تكوين قوة عسكرية بهذه الضخامة لايران ـ لتكون وفقا لاقوال الشـــاه نفسه « **اكبر قوة عسكرية غير ذرية في العالم** » هو في حد ذاتـــه عمـــل من اعمال الاستراتيجية العسكرية ، خاصة اذا كان لدولة لها حجم ايـــران وشاكلها الاقتصادية والسياسية الداخلية ، واذا كانت هذه القوة تتجاوز فـــي خطورتها اي تهديد تتوقع ايران ان تتعرض له الان ولسنوات طويلة قادمة · وبالتالي فانه يبقى تحديد هدف هذه الاستراتيجية من خلال الحجج التـــي تقدمها ايران ، وفيما يتجاوز هذه الحجج ايضا من حقائق الاوضاع الراهنة ·

لقد اشتركت ايران اشتراكا مباشرا في عدة عمليات ذات صفة عسكريـــة ، وهددت بالتدخل العسكري في عدة عمليات اخرى خلال السنوات الماضية منذ انضمامها الى الحلف المركزي · وتصاعد دورها العسكري واتسعت آفاقـــه مع اتساع قدراتها العسكرية ، ولكن بقيت منطقة الخليج العربي هي مركـــز الاهتمام « والمجال الحيوي » للاستراتيجية العسكرية الايرانية ·

□ قامت ايران بدور عسكري مباشر عندما شاركت في **محاربـــة الجيش المصري الى جانب الملكيين في اليمن** في منتصف الستينات ·

□ قامت ايران بدور عسكري مباشر عندما **احتلت جزر الخليج العربية الثلاث** طنب الكبرى وطنب الصغرى وابو موسى في اواخر العام ١٩٧١ على نحو ما ذكرنا من قبل · ولا يزال احتلال ايران العسكري لها قائما ·

□ قامت ايران بدور عسكري مباشر عندما وضعت ثقلا كبيرا من قواتها المسلحة (السلاح الجوي اساسا) **ضد ثوار ظفار** · وقد وصل حجم القوات الايرانية في هذه الحرب خلال عامي ١٩٧٤ و ١٩٧٥ الى حوالي نصف القوات المقاتلة ضد الثوار ، وتكون النصف الثاني من قوات السلطان قابوس وقوات بريطانية وقوات اردنية · ولا يزال وجود ايران العسكري قائما في عمان حتى بعد ان اعلن عن القضاء على الثورة المسلحة فيها بفضل الدور الايراني · بل اصبحت لهذا الوجود ابعاد ثابتة تتمثل في قواعد عسكرية ضخمة اهمها قاعدة « تمريت » · وليس من قبيل المصادفة او الرومانسية **ان الجيش الايراني قد اطلق اسماء فارسية على كل المراكز والمواقع العسكرية التي اقامها في عمان ، الامر الذي يهدف الى اعطاء شعور للقوات الايرانية هناك بانها موجودة على أرض فارسية تابعة للامبراطورية الفارسية الجديدة ·**

ولم يخف شاه ايران في أي وقت الوجه الحقيقي لهذه العملية العسكرية ، انه يعتبر عمان وظفار قاعدة متقدمة للدفاع عن الاراضي الايرانية · وقد صرح في حديث لمحرري وكالة انباء « يونايتدبرس انترناشيونال » (الاميركية) في ١١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٦ بقوله : « **تصوروا ماذا يمكن ان يحدث لو وقعت عمان في ايدي ما يسمى جبهة تحرير عمان التي اوجدتها الشيوعية الدولية · كان يمكنهم ان يهددوا الممر الذي يعبر منه مصدر الطاقة الى العالم ، ولك ان تتصور التهديد الذي كان من الممكن ان يقع اذا لم تتخذ ايران اجراءاتها الحازمة · لذلك فان قدرتنا قبل كل شيء هي ضمان لامن شعبنا ، وايران هي عامل لاستقرار وثبات منطقة الخليج (الفارسي) ··· واذا قامت هذه الدول بالتعاون معنا ، فهذا جيد ، وفي غير ذلك يجب ان نكون اقوياء لكي نحتفظ بهذا الممر المائي كركن من اركان الاستقرار في غربي آسيا** » ·

ولهذا يمكن التأكيد بصحة الاستنتاج القائل بان « عملية ظفار يمكن اعتبارها مقياسا لتصميم ايران على الحفاظ على نظم الحكم القائمة على الطرف المقابل من الخليج ، وكذلك مقياسا لمدى التسامح العربي ازاء مثل هذه المبادرات الايرانية » · (١٠)

□ هددت ايران بالتدخل العسكري في حالة وقوع حركة انفصالية جديدة في اقاليم « بلوخستان » في باكستان ، الامر الذي يخلق سابقة للبلوخستانيين في ايران ايضا او يغريهم بالانضمام الى دولة بلوخية تنفصل عن باكستان · وفي هذا الصدد قال الشاه (في الحديث السابق نفسه) : « **انني احذر**

اصدقائي واعدائي بأن قدرتنا ليست بابقاء مضيق هرمز مفتوحا فقط ، وانما في سبيل ضبط الوضع القائم في شرقي ايران ، وذلك في صالح الجميع » ٠

وبهذا المفهوم تسمح ايران لنفسها بالقيام بعمليات استطلاع جوي تنتهك اجواء الدول العربية (وغير العربية) المحيطة بها ، لانها وضعت من نفسها وصيا على استمرارية النظم التي تحيطها بسياج يحمي ـ فيما يتصور الشاه ـ من تيارات الثورة السياسية والاجتماعية ٠ (عندما اسقطت اليمن الجنوبية طائرة تابعة للسلاح الجوي الايراني بعد دخولها مجالها الجوي ، رشحت وسائل الاعلام الغربي ، ومنها الايرانية ، ان طائرات السلاح الجوي الايراني الاخرى هي التي اسقطت الطائرة « لكي لا تقع في ايدي الشيوعيين » ، وكأن المجال الجوي لمنطقة الخليج مفتوحا للطائرات الحربية الايرانية بلا حساب !)

□ اخيرا هددت ايران بالتدخل المباشر في حرب القرن الافريقي بين الصومال واثيوبيا ، ولولا الهزيمة التي عاجلت النظام الصومالي وادت الى انسحابه لكانت للموقف حسابات اخرى خطيرة ٠

فبعد ان تبينت ايران ان مساعداتها العسكرية من بعيد للنظام الصومالي لا تكفي لمساندته وتثبيت اقدامه في اقليم « اوغادين » ارادت الظهور على مسرح هذه المنطقة بصورة اكثف ، واعلن الشاه ان ايران لن تقف مكتوفة الايدي اذا ما هاجمت اثيوبيا حدود الصومال ٠ وراح المراقبون العسكريون يتساءلون هل يعني هذا ان ايران سترسل قوات لمساعدة الصومال في « أوغادين » فورا باعتبار ان الطائرات الاثيوبية كانت تشن غارات عبر حدود الصومال الاصلية وداخل اراضيها ، ام انها تنتظر ان تعبر قوات اثيوبية الحدود بعد ان تستعيد أوغادين ٠

وكان الشاه قد أعلن صراحة في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي انه سيرسل « اسلحة خفيفة » و « امدادات طبية » الى الصومال ، وقال وقتها انه لن يستطيع ان يرسل اكثر لان الدولتين الرئيسيتين اللتين تمدان ايران بالاسلحة ـ اي الولايات المتحدة وبريطانيا ـ لن تسمحا له بارسال هذه الاسلحة الى اطراف اخرى ٠ ولكن هذا الموقف تبدل فجأة بعد زيارة الرئيس الاميركي كارتر لطهران في كانون الاول (ديسمبر) حيث اعلن كارتر هناك ان الولايات المتحدة تؤيد قيام ايران بدور ايجابي ، بينما قال مسؤول اميركي في الوقت ذاته ان الولايات المتحدة غير مستعدة للتدخل مباشرة في القرن الافريقي على الرغم من شدة قلقها من حجم ونطاق الجسر الجوي السوفياتي الذي يمد اثيوبيا بالاسلحة ٠

والمعتقد ان كارتر قد « افسح الطريق امام دعم عسكري ايراني كبير » للصومال ، وقد اعتبرت المصادر الافريقية وقتها ان احتمال ارسال قوة

طوارىء ايرانية لمساعدة الصومال يضيف بعـــدا جديدا ومهـــددا للصراع كله » · (١١)

وليس التهديد الايراني بالاشتراك العسكري المباشر في حرب القرن الافريقي بعيدا ــ كما يبدو للوهلة الاولى ــ عن اهتمام ايران بالسيطرة على الخليـــج العربي · فهو اهتمام بما تعتبره ايران الطرف الاخر من مداخل البحر الاحمر باعتبارها امتدادا للمحيط الهندي والخلجان والبحار المؤدية الى المنطقـــــة العربية والشرق الاوسط ، اي طرق النفط ومنابعه ·

ولكن الدلالة الاهم ــ والتي تعكسها كل نشاطات ايران العســكرية وليس فقط تهديدها المحيط بالتدخل في القرن الافريقي ــ هي **ان ايران تـــدرك فـــي استراتيجيتها العسكرية ان السيطرة على الخليج العربي عسكريا تستوجـــب توسيع تواجدها العسكري حول المنطقة بالمعنى نفسه الذي تستوجب به توسيع نفوذها السياسي لدى النظم العربية الاكبر (كما هو الحال مـــع النظـــام المصري) او تحييد بعض هذه النظم (عن طريق اتفاقات كما حدث مـــع العراق باتفاق الجزائر) او محاولة التنازع على النفوذ او اقتسام النفـــوذ مع بعضها الاخر (كما هو الحال بالنسبة للسعودية)** ·

احتلال اميركي ·· ام ايراني ؟

ذلك انه اذا كانت اهداف الشاه تسوقه نحو تصور احتلال الخليج العربـــي عسكريا ، فانه يعرف انه لو كان يواجه القوى الخليجية وحدها فان الامر لا يتطلب كل ما يكدسه من اسلحة ، وانما هذه الاسلحة مطلوبة لان الصـــراع عندئذ سيكون أوسع بكثير من مجرد مواجهة دويلات الخليج · فضـــلا عـــن الحقيقة الاستراتيجية البسيطة وهي ان احتلال منطقة معينة شيء ، والاحتفاظ بها شيء اخر ·

وربما يكون من المنطقي ان نتساءل عما اذا كان باستطاعة ايران ــ بشريا ــ ان توفر اعداد القوات والقيادات العسكرية اللازمة لاستخدام كل هذه الاسلحة التي تتكدس فيها · وصحيح انه يوجد في ايران في الوقت الحاضر نحـــو ٢٥ الف خبير عسكري اميركي يقومون بمهمة تنفيذ عقود الانشاءات والتدريبـــات العسكرية ، ويتوقع المراقبون العسكريون ان يزداد هذا العدد باطراد ليصـــل الى عدد يتراوح بين ٥٠ الفا و ٦٠ الفا في العام ١٩٨٠ · ولكن الشكوك تحيط بقوة بقدرة ايران على توفير القوة البشرية اللازمة لاستخدام هذه الاسلحة ·

وهذا هو السبب في **ان مصادر ــ بعضها اميركي ــ يعتقد بوجود صلـــة بين ظاهرة التسلح الايراني بصورتها المتضخمة الراهنة وبين تهديدات الولايات المتحدة واللجوء الى احتلال منابع النفط العربي** · وها هـــو كاتب اميركي ــ

جيوفري كيمب ـ يقول « « منذ العام ١٩٧٣ وهناك حديث عن استخدام قوة عسكرية غربية لـ « تحرير » حقول النفط العربية في حالة فرض حظر وثمة اقتراح بامكان اغراء ايران ـ التي تواجه النضوب السريع لامداداتها النفطية الخاصة ـ بان تهاجم عبر الخليج (الفارسي) لكي تسيطر على الاحتياطيات الهائلة لجزء على الاقل من شبه الجزيرة العربية » · (١٢)

واذا كان الكاتب الاميركي يذكر دافعا واحدا لايران للقيام بهجوم للسيطرة على احتياطيات النفط العربية ، فان هناك دوافع اخرى ، غير هذا الدافع الاقتصادي ـ سياسية وقومية واجتماعية أيضا · هناك التركيز على ماضي امبراطورية « فارس » وفتوحاتها وسيطرتها على المنطقة العربية ، وخضوع شعوب هذه المنطقة لها ودفعها الجزية والضرائب لاباطرة فارس · وايقاظ الشعور القومي الفارسي المتعصب في نفوس الايرانيين وحثهم على استعادة أمجادهم الغابرة باعتبارهم كانوا الاسياد والحكام في المنطقة الممتدة من حدود روسيا حتى الناقورة في جنوبي لبنان ·

فاذا التقت احلام الشاه والاهداف « القومية » التي يرفعها كشعارات لسياسته العسكرية مع المصالح الاقتصادية والاستراتيجية للغرب ، يجري اعداد ايران للقيام بدور الدولة الكبرى المصغرة Mini - Super Power التي تحكم قبضتها العسكرية على المنطقة لحساب الدولة الكبرى الامبريالية ولمصالحها ·

ولعل من الامور الجديرة بالملاحظة ـ فيما يجري من دراسات في الولايات المتحدة ـ حول احتمالات الصراع في منطقة الخليج العربي ـ ان واضعي هذه الدراسات يتصورون ابعد الاحتمالات ويطرحون افتراضات على درجة قصوى من « اللااحتمالية » ، كالقول ، مثلا ، بأنه « في حالة تسلم حكومة سعودية متطرفة (ثورية) السلطة ـ كنتيجة للديناميات الداخلية للتغير الاجتماعي السريع او بسبب هزيمة عسكرية في حرب ضد اسرائيل ، فان الاتحاد السوفياتي سيتمكن في النهاية من السيطرة على النفط السعودي دون ان يطلق رصاصة واحدة » (١٣) ··· ولكن هذه الدراسات لا تتطرق ابدا الى افتراض مماثل بالنسبة لايران · وكأن دارسي السياسة الاميركية يفترضون ان ايران (والشاه على رأسها) النقطة الارشميدية ـ النقطة الثابتة المستقرة ـ التي يمكن منها تحريك كل شيء في المنطقة !

تناقضات المتحالفين .

فهل يمكن ان نعتبر هذا من قبيل القصور الفكري لدى واضعي هذه الدراسات ، ام من قبيل تحديد الثوابت والمتغيرات في رسم السياسة

الاميركية ؟ يؤكد صحة المعنى الثاني ان هؤلاء الدارسين يهتمون جدا بعامل **قرب اسرائيل العسكري من منابع النفط العربية كمعادل خطير لقرب الصراع العربي ـ الاسرائيلي من مقولة استخدام النفط سلاحا سياسيا** للضغط من أجل اهداف عربية مضادة لاسرائيل ٠

وهم يدركون ان ادخال اسرائيل في الدور الاستراتيجي الخاص بالنفط يقرب احتمال « تخريب » الابار للحيلولة دون وقوعها تحت السيطرة الاسرائيلية في حالة امتداد حرب عربية ـ اسرائيلية اخرى الى هذه المناطق اي الى الخليج ٠ وهنا يبرز دور ايران العسكري باعتباره الوسيلة الافضل الى **« قطع الصلة السياسية بين النفط العربي والصراع العربي ـ الاسرائيلي » (١٤) عن طريق فرض سيطرة ايرانية بالقوة على منابع النفط العربي** ٠ ولهذا يدخل تصور نشوب حرب ايرانية ـ سعودية من اقرب ابواب الاحتمالات ، ليس فقط باعتبار ان للسعودية تصوراتها عن دور ونفوذ لها في منطقة الخليج العربي ، وانما ايضا باعتبار ان السعودية هي « الاكبر » عسكريا بين دول الخليج وهي الحلقة التي تربط بين طرفي مداخل المحيط الهندي ، فشرقها يقع على الخليج ، وغربها يقع على البحر الاحمر ٠ كما ان السعودية هي صاحبة اكبر مخزون نفطي في باطن الارض ، وهو أمر لا بد ان يوضع في الاعتبار ما دامت سرعة نضوب المخزون النفطي في باطن الارض الايرانية في مقدمة الدوافع المطروحة لتدخلها عسكريا للسيطرة على الخليج العربي ـ على النفط العربي ٠

واتساقا مع هذا الاحتمال فان الدراسات ـ التصورات لسيناريو التدخل الاميركي العسكري لاحتلال منابع النفط (ضد خطر سوفياتي متصور) ترى انه لا بد من الافتراض بأن اسرائيل وايران ستقفان في صف الغرب ، وفي هذه الحالة فان حيفا واللد وبندر عباس (حيث توجد قاعدة بحرية وجوية ايرانية) وشاه باهار (وهي اكبر قاعدة عسكرية ايرانية على ساحل خليج عمان) ، وكذلك دييغو غارثيا (القاعدة الاميركية في المحيط الهندي) ، وربما اليونان وتركيا ، ستصبح هي القواعد المتقدمة لعمليات القوة الاميركية ٠ (١٥)

فيلاحظ ان هذا « السيناريو » لا يضع السعودية في الاعتبار كقاعدة مؤيدة للتدخل الاميركي ـ حتى ضد خطر سوفياتي مفترض ـ لانه اذا كان دور ايران يسمح بسيطرتها على الخليج العربي وعلى منابع النفط العربية ، فانه لا يعود بالامكان انتظار قيام السعودية بدور في الاتجاه نفسه ، باعتبار انها ستكون احدى ضحايا هذا الدور الايراني ٠ وربما يلقي هذا بعض الضوء على تركيز اسرائيل بشدة في الاونة الاخيرة على خطورة حصول السعودية على صفقة طائرات متقدمة من الولايات المتحدة ٠ فهو بمثابة تهديد من اسرائيل بأن وجود هذه الطائرات يعطيها مبررا لفتح الجبهة على اتساع يمتد

الى السعودية والخليج · وقد ذكر شارلز هولي « ان السعودية ليست غافلة عن النوايا الايرانية ولا هي مطمئنة الى تنامي قوتها العسكرية ولا الى عواطفها تجاه دول الخليج » ·

بل ان معلقا سوفياتيا ذكر مؤخرا ان شاه ايران حاول خلال زيارته الاخيرة للرياض اقناع القادة السعوديين بالتخلي عن تأييد منظمة التحرير الفلسطينية وانه رأى من الممكن « تحذير » الرياض من ان الدولة الفلسطينية المستقلة « يمكن ان تشكل خطرا محتملا على حقول النفط في منطقة الخليج » · لكن اللهجة التي قيل بها هذا « التحذير » اثارت رد فعل عكسيا في العربية السعودية · وقد تساءلوا في الرياض « ان كان ذلك يعني ان ايران اصبحت دولة من الدرجة الاولى في الشرق الاوسط بينما اصبحنا نحن ـ السعودية ـ دولة من الدرجة الثالثة او الخامسة ؟··· » (١٦)

وجوهر المسألة بطبيعة الحال لا يكمن في تصنيف الدول الى دول من الدرجة الاولى او الثالثة ·· انما هو تصنيف الدول حسب تعاظم قدرتها العسكرية ومدى تناسب هذه القدرة مع الاخطار المحيطة بها ، ثم ـ اهم من هذا كله ـ تلمس طرق ومجالات استخدام هذه القوة العسكرية · والواقع انه بعد تجربة الدور الايراني في عمان فان بعض دول الخليج العربي ، **وبعض الدول العربية الاخرى خارج نطاق الخليج لا يزال يعتقد بان لايران دورا في « المحافظة على أمن الخليج العربي » لا بد ان نقول ان الاستراتيجية العسكرية ـ الايرانية تتقدم نحو السيطرة العسكرية الكاملة على الخليج العربي ، ونحو بسط نفوذ سياسي يستند الى ضخامة قدراتها المسلحة على باقي انحاء الوطن العربي** ·· يواجهها في هذا كله انقسام عربي فادح ، واستعداد في بعض اقسام هذا الوطن للتهاون الوطني والقومي في مقابل بقاء نظم سياسية ـ اجتماعية معينة · ولا ندري اذا كان مثل هذا الوضع المعكوس ـ الذي يضحي بالقضية الوطنية والقومية في سبيل تثبيت اوضاع ونظم اجتماعية بعينها نظير خارج الوطن العربي · ولكننا نعرف بالتأكيد انه يشكل احتمال كارثة كبيرة تفوق في حجمها ونسبها ونتائجها كارثة التهاون امام الصهيونية · والدلائل كثيرة على ان تحديا من « القومية الفارسية » مدعومة من الامبريالية يوشك ان يكرر تحدي الصهيونية للقومية العربية ···

ومع ذلك ، فانه اذا كان الخطر الايراني بهذه الدرجة من الجسامة ، فانه يحمل معه تحديات جديدة وتناقضات جديدة من شأنها ان تقلب موازين كثيرة ، وان تبدل تحالفات وتخلق تحالفات جديدة ، وتفجر صراعات ليست لها الصيغة البسيطة المجردة للصراع بين القوى الامبريالية والقوى الحليفة لها من ناحية ، والقوى الوطنية والتقدمية والحليفة لها من الناحية الثانية فحسب ·· انما لها صيغ الصراعات الاكثر حدة والاشد تعقيدا ·· صراعات البقاء ، صراعات الحياة والموت ، لنظم وطبقات واوضاع بأكملها ·

الحواشي

(1) « Politial Gaming and Foreign Policy Making During Crisis » , Robert Mandel, World Politics quarterly , July 1977

(٢) اشرت الى هذا التقرير في المقال الاول من هذا البحث في « شؤون فلسطينية » (٧٦) اذار (مارس) ١٩٧٨ ٠

(3) People, Power and Political Systems Prospects in the Middle East, A Summary Record. The 25th Anniversary conference of the - Middle East Institue, Washington, 1971

(4) « The Proliferation of Conventional Arms » Helga Haftendorn, Adelphi Papers, No. 133, P.36

(٥) تقرير معهد السلام الدولي (ستوكهولم) عن تجارة الاسلحة مع العالم الثالث نشر « بنغوين » ، لندن ، ١٩٧٥ ٠

(٦) مذكورة في مقال « مشكلات الحدود بين امارات الخليج العربي » للدكتور محمد رشيد الفيل ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ٠ العدد ٨ ٠

✱ يعادل الدولار الاميركي ٧ ريالات ايرانية ٠

(٧) ارقام الميزانية الايرانية مستقاة من تقرير في مجلة
The Middle East, March 1978, No. 41. London.

(8) The Middle East, No. 31 London.

(٩) أرقام التسلح الايراني مستقاة من مصدرين :

- The Military Balance 1977 - 1978. I.I. S. S. London
- The Middle East, No. 31 London.

(10) Charles Holley, Iran's Defense Strategy : The Order of Priorities. The Middle East, May 1977, London.

(11) Africa, No. 78, February 1978. London P. 25.

(12) Geoffrey Kemp, Scarcity and Strategy, Foreign Affairs, January 1978, P. 398

(١٣) المصدر السابق ، ص ٤٠١ ٠

(١٤) مجلة « الاقتصاد العربي » (لندن) ــ العدد ٨ ــ فبراير ١٩٧٧ ٠

(١٥) Geoffery Kemp المصدر السابق ، ص ٤٠٢ ٠

(١٦) « الحدود التي يبدأ عندها التدخل الايراني في الشرق الاوسط » ــ تعليق لوكالة « نوفوستي » بقلم ف٠ سافين ٠

أحمد صدقي الدجاني

نظرة تحليلية في تاريخ فلسطين "٢"

فلسطين ما بين ١٠٢٠ ق.م و ٦٣ ق.م.

ونعود لتتبع الاحداث الهامة التي شهدتها فلسطين في القسم الاول من تاريخها قبل الانطلاقة العربية بالاسلام ، فنجد ان العبرانيين بعد ان احتلوا اجزاء من فلسطين اسسوا المملكة العبرانية · واختاروا شاول اول ملك عظيم نحو عام ١٠٢٠ ق·م· بعد ان اقتبسوا فكرة الملكية من جيرانهم ، وكان هذا الملك الاول فاشلا ومخيبا للامال ، وقد انتحر بعد ان هزم امام الفلسطينيين في معركة جلبوع ـ جلبون الحالية ـ وتولى داود حامل سلاح شاول (نحو ١٠٠٤ ـ ٩٦٣ ق·م·) فكان المؤسس الحقيقي للدولة · وكان محاربا فنجح في توسيع حدود المملكة الى أبعد مما بلغته في اي وقت اخر · واتخذ اورشليم عاصمة له بعد ان انتزعها من أيدي سكانها اليوبسيين وكانت القدس اليبوسية « مملكة مدينة » كمدن الكنعانيين الاخرى ، وسكانها اليبوسيون بطن من الكنعانيين ، ويعود تاريخ تأسيسها الى الفي سنة قبل ان يحتلها داود · وقد وفق داود في اختياره لها عاصمة له لانها حصينة ويسهل الدفاع عنها ، كما انها تقع خارج المراكز القبلية الاصلية وتتحكم في طريق رئيسي من أهم الطرق الداخلية يربط شمال البلاد بجنوبها ، واشتهر داود « المحارب » ببنائه قصرا في القدس بناه له معماريون صوريون ارسلهم صديقه الفينيقي الملك حيرام ، كما اشتهر بشعره وقد نسبت له « المزامير » وفي عهده ظهر الادب العبراني وبدأ « المذكر » بدون الاحداث الهامة ويحفظ الحوليات الملكية · وقد ورث داودا ابنه سليمان (حوالي ٩٦٣ ـ ٩٢٣ ق·م·) ، الذي وصلت المملكة في عهده درجة عالية من المجد والابهة · وكانت له مشاريعه التجارية والصناعية واعماله العمرانية · وقد بنى هيكلا وتحصينات وثكنات · واختلطت مع تاريخه الاساطير والقصص الخيالية لتجعل اسمه مرادفا

للقوة والفخامة والحكمة ، غير ان الوثائق التاريخية لا تدعم هذه الافكـــار لان المملكة انكمشت في عهده مساحة وضاق الناس بنظام السخرة الذي استخدمه في تشغيل العمال وبالانفاق والتبذير الامر الذي ادى الى انقسام المملكة فـــي عهد خلفه ٠

وجاء انقسام المملكة حين رفضت عشر قبائل اسرائيلية الاعتراف برحبعام ملكا عليها ٠ وكان فتى في السادسة عشرة قاسيا ومتهورا ٠ وشكلت هذه القبائـــل مملكة اسرائيل وبقيت قبيلتان مع رحبعام فشكلتا مملكة يهوذا ٠

فأما مملكة اسرائيل فكانت في الشمال وقد اتخذت عاصمة لها شكيم اولا ثم ترزه ثم السامرة ٠

وأما مملكة يهوذا فكانت في الجنوب وبقيت اورشليم عاصمة لها ٠ وقد اشتد الخلاف بين المملكتين فخاضتا حروبا عدة ضد بعضهما ، وحفل تاريخها القصير بالثورات والمكائد ، الامر الذي ادى الى خرابهما ٠ وكانت نهاية مملكة اسرائيل على يد سرجون الثاني الملك الاشوري عام ٧٢٢ ق٠م٠ الذي سبى أحسن رجالها واخذهم الى ميديا ٠ وانتهت مملكة يهوذا عام ٥٨٦ ق٠م٠ على يد نبوخذ نصر ملك بابل الكلداني ، وكانت قد تعرضت في نشأتها الاولى لغزو شيشنق فرعـــون مصر لها عام ٩٢٠ ق٠م٠ فوقعت تحت النفوذ المصري لفترة ، ثم تعرضت لهجمات الاشوريين ودفعت لهم الجزية حتى كانت نهايتها التي اقترنت بتخريب نبوخذ نصر للقدس وسبيه عظماء البلاد ونقلهم الى بابل ٠ وهكذا اصبحت فلسطين ــ شأنها شأن سورية كلها ــ تحت حكم الكلدانيين الذي ورثوا مملكة اشور فيما بين النهرين ٠ (٨)

وننظر في حضارة العبرانيين على ارض فلسطين فنجد انهم اتبعوا في مراحل حياتهم الاولى النموذج الحضاري للمنطقة الذي كان يمثله الكنعانيون ٠ واخذوا من كنعان لغتها وابجديتها كما سبق ان ذكرنا ٠ وحين جاء بنو اسرائيل فـــي الهجرة العبرانية الثالثة الى فلسطين تركوا لهجتهم السامية القديمة واتخـــذوا لهجة شعب فلسطين ٠ وتعلموا من هذا الشعب الكنعاني الزراعة فانتقلوا من البداوة والرعي الى الزراعة والاستقرار ٠ واقتبسوا طقوس الكنعانيين وفنهم ، وقد خطط هيكل سليمان وفقا لتخطيط معبد كنعاني وزخرف بنماذج كنعانية ٠ واستخدم العبرانيون في الطقوس الالات الموسيقيـــة وفقا لما كان يقوم بـــه الكنعانيون ٠ كما اقتبسوا منهم العادات بعد ان تزاوجوا معهم ٠ وهكذا تـــكرر مع العبرانيين ما حدث للشعوب والجماعات الاخرى التي استوطنت فلسطيـــن وانصهرت في بوتقة حضارة شعبها ٠ ولقد أسهم العبرانيون في هذه الحضارة في مجال واحد محدد هو المجال الروحي ، وتجلى هذا الاسهام في العهد القديم الذي حفظ تاريخ المعلمين الدينيين العبرانيين وانبياء بني اسرائيل ، والـــذي

اكتسب أهمية خاصة ككتاب في العصور التي سبقت المسيحية · وترجع هـذه الاهمية الى انه الاثر الادبي الوحيد الذي توارثته الاجيال عن طريق المرويات والتقاليد المتواصلة ، بينما تأثر وصول الاثار الادبية للحضارات القديمة حتى حدثت الاكتشافات الاثرية الحديثة فأخرجتها من باطن الارض حيث ظلت مدفونة أجيالا طويلة · وقد أسهم في تأليف العهد القديم مؤرخون ومعلمون دينيون على مدى فترة طويلة ، ومرت مادته بأطوار كثيرة من الانتقاء والحذف والتحقيق والضبط قبل ان تتخذ شكلها النهائي · ونجد من بين هؤلاء المعلمين الدينيين المشرع الذي يتكلم بلسان « يهوه » ، والكاهن الذي يعلم الشريعة ، والرجـل الحكيم الـذي يخاطب الفرد ، والشاعر الذي يطلق اغانيـه معبرا عن عواطف الانسان ، ثم النبي الذي يتكلم نيابة عن الله · ويلاحظ ان عقيدة التوحيد تطورت في العهد القديم من اعتبار يهوه الها للعبرانيين وحدهم الى الاعتقاد به الها لهم ولشعوب اخرى · وبعد التوراة جاء تأليف التلمود (بمعنى دراسة او عقيدة) وهو يضم الشرائع التقليدية او الشفهية التي تشرح قانون الكتب الخمسـة المكتوب · وقد كتب جزء منه بالارامية التي اصبحت وسيلة التعبير بعد العبرية عند المفكرين الدينيين اليهود · (٩)

□

بقيت فلسطين بعد اخضاع نبوخذ نصر لها وتدميره القدس عام ٥٨٦ ق·م· تحت حكم الكلدانيين حتى عام ٥٣٨ ق·م· الذي شهد سقوط بابل في أيـدي الفرس بقيادة كورش وانتهاء الامبراطوريـة البابلية · وقد اعترضت منـاطق الامبراطورية بما فيها فلسطين بالحكم الفارسي الجديد الذي جاء من بلاد فارس شرقي العراق · وكان الفرس من الشعوب الهندية الاوربية ، وقد اعتبر حكمهم نهاية عصر حكم الشعوب السامية العربية في تاريخ المنطقة القديمة · واصبحت دويلات سورية وفلسطين جزءا من امبراطورية عظيمة تعتبـر مـن اكبـر الامبراطوريات التي عرفها العالم القديم · وقد ضمت الامبراطورية بعد ربـع قرن من ولادتها العالم المتمدن القديم بأسره الممتد من مصر واسية الصغـرى الى البنجاب في الهند · وقد نظم دارا (داريوس) (٥٢٦ ـ ٤٨٦ ق·م) · هذه الامبراطورية احسن تنظيم ، وكان من أقدر ملوك العالم القديم واكثرهم اطلاعا وتنورا · وقسم البلاد التي يحكمها الى ثلاث وعشرين مقاطعة تسمى كل منها ، مرزبانة ، وكانت فلسطين مع سورية وقبرص في المقاطعة الخامسة التي سميت مرزبانة « عبر نهرا » اي عبر نهر الفرات · وقد تمتعت مع جميع المرزبانـات الاخرى بوضع مستقل الى حد ما ودفعت جزية خفيفة نسبيا ، وكان ذلك ممـا ساعد على الاستقرار فيها ، وعادت المدن الكنعانية الى الازدهار كمراكز للتجارة العالمية في ظل هذا السلم الفارسي ·

وشهدت فلسطين مع بداية حكم الفرس لها رجوع بعض يهود السبي من بابل· فقد أصدر كوروش مرسوما بعد احتلاله المدينة يسمح لهم بالعودة ، متصورا على ما يظهر ان وجود طائفة يهودية في فلسطين تواليه سيشكل توازنا فعالا مع الحزب الموالي للمصريين الذي ظالما برز في شؤون فلسطين · ولا يمكن ان نحدد بالضبط عدد اليهود الذين عادوا ، ولكن الرقم الذي ورد في بعض كتب اليهود وهو حوالي اثنين واربعين ألفا يبدو مبالغا فيه اذا ما قورن بمجموع المسبيين وهو ثمان وخمسين الفا · وقد فضل اغنياء المسبيين البقاء في بابل ـ كما تظهر الوثائق ـ وعاد اولئك الذين لم يمدوا جذورهم فيها · وكان زعيم اليهود العائدين زرو بابل وهو من سلالة احد ملوك اليهود ، وقد أرجع معه كنوز الهيكل التي نهبها نبوخذ نصر ، واعترفت به الجماعة العائدة حاكما عليها لبعض الوقت · وبعد صعوبات كثيرة انتهى بناء الهيكل ثانية سنة ٥١٥ ق·م· في عهد داريوس وتم المشروع على نفقة الدولة · وفي عهد ارتحشتا الاول (٤٦٥ ـ ٤٢٤ ق·م) عاد فريقان اخران من اليهود المسبيين احدهما برئاسة نحميا والاخر برئاسة عزرا · ويلفت النظر البرنامج العنصري الذي سارا عليه وادخلاه العقيدة الدينية ، والذي كان منه وجوب طلاق الزوجات غير اليهوديات واعلان ابنائهن غير شرعيين · كما يلفت النظر ايضا ان اللغة الارامية حلت محل اللغة العبرية كلغة دارجة وفي المراسلات الرسمية بين اليهود ، وظلت العبرية تستخدم كلغة دينية ·

لم يقابل شعب فلسطين رجوع هؤلاء اليهود بالارتياح ، وحاولت جماعات منهم مقاومته · وكان من بين هذه الجماعات اليهود الذين بقوا وسكان الجنوب والساحل الذين اسمتهم التوراة لاول مرة « بالعرب » ، بعد ان كانت تسميهم « الكنعانيين » ·

استمر الحكم الفارسي لفلسطين والمنطقة نحو قرنين · وقد استطاع ان يستميل اليه اهل البلاد بما وفره من استقلال نسبي لهم ، وما حققه من تنظيم ، حيث عبد الطرق ونظم البريد وصك النقود · وبقيت اللغة الارامية لغة رسمية في فلسطين والمقاطعات الغربية عموما تستعمل في التجارة والكلام والمعاملات الى جانب اللغة الفارسية التي استخدمها الولاة · وعلى الرغم من اننا لا نعرف سوى القليل عن تطور الحضارة في فلسطين خلال هذا الحكم ، الا انه يمكن القول ان هذه الحضارة ظلت كما كانت في العصور السابقة تتألف من عناصر سامية عربية وتشكل المصادر الارامية والكنعانية عنصرها السائد ، وقد ظهر شيء من التأثير الفارسي على الديانة اليهودية ، كما خلف الفرس بعض الاثار في فلسطين من أهمها بقايا قصر ومعبد عثر عليهما في تل الدوير ـ لا خيش يعود بناؤهما الى منتصف القرن الخامس ، وانقاض قبر فارسي عثر عليه في تل الفارعة ، ومجموعة من أدوات المائدة مصنوعة من الفضة · (١٧)

كانت نهاية الحكم الفارسي في فلسطين والمنطقة عام ٣٣٢ ق٠م٠ على يد الاسكندر المقدوني الذي خرج من بلاده وهو في سن العشرين في ربيع اول عام ٣٣٤ ق٠م على رأس جيش يتراوح عدده بين ثلاثين واربعين الفا وهاجم الامبراطورية الفارسية ٠ وقد عبر مضيق الدردنيل الى آسيا الصغرى ومنها الى كليكيا فمناطق السهول حيث انتصر في معركة ايسوس عام ٣٣٣ ق٠م على داريوس الثالث انتصارا حاسما ٠ وتخليدا لهذا الانتصار أمر ببناء مدينة الاسكندرونة ، ثم اندفع باتجاه الجنوب فاستسلمت له المدن الفنيقية الساحلية حتى وصل صور التي قاومت بشدة ٠ وقد حاصرها الاسكندر سبعة اشهر حصارا مريرا وطم البحر ليصلها بالبر ثم فتحها عنوة وانتقم من أهلها ٠ وفتحت الطريق امامه الى ساحل فلسطين فاحتله حتى وصل الى غزة التي قاومت بدورها ببطولة وصمدت شهرين امام حصاره المحكم لها ، ثم قهرت حاميتها وابيدت فدخلها الاسكندر مصابا بجروح طفيفة ونكل بأهلها واستولى على كنوزها وثرواتها حيث كانت المستودع الرئيسي على البحر المتوسط لمنتجات الجزيرة العربية ٠ وبعد ان استكمل سيطرته على فلسطين اتجه الى مصر فاخضعها ، ووصل الى واحة سيوة حيث زار معبد آمون كما امر ببناء مدينة الاسكندرية ٠ وعاد الفاتح الى بلاد الشام فمر بفلسطين واقام بصور بعض الوقت حيث احتفل بانتصاراته ٠ وهناك شك في امر زيارته للقدس في طريق ذهابه الى مصر وتقبل خضوعها شخصيا كما ذكر يوسيفوس ٠ وقد تابع سيره من صور مع وادي العاصي ثم مع الفرات الى بلاد الرافدين حيث لاقى جيش الفرس في موقعة اربيل عام ٣٣١ ق٠م٠ وهزمه شر هزيمة ، ثم دخل بابل مقر الحكومة المركزي ٠ وتوجه شرقا ففتح بلاد فارس ، ثم اخذ بلاد الافغان والتركستان ، وعبر مضايق جبال هيلايا فدخل الهند واستولى على البنجاب ، وسار جنوبا مع نهر السند حتى بلغ شواطىء المحيط الهندي ٠ ثم اختار العودة الى بابل عام ٣٢٦ ق٠م بعد ان ظهر التذمر بين ضباطه وجنوده بسبب ما نالهم من تعب وانهاك ، وانشغل بتنظيم الدولة العظيمة والتمتع ، ولم يلبث ان توفي بالحمى في حزيران ٣٢٣ ق٠م قبل ان يتم الثالثة والثلاثين من عمره ٠

شهدت فلسطين خلال السنوات التسع التي امتدت بين فتح الاسكندر لها وبين وفاته بداية تجربته في تحقيق التفاعل الحضاري بين الحضارة الاغريقية والحضارات الشرقية ، من خلال امتزاج الافكار والمؤسسات اليونانية والشرقية٠ وقد وصلتها اصداء ذلك الحديث العظيم الذي جرى على ضفاف دجلة حين صلى الاسكندر في مأدبة حضرها تسعة آلاف مقدوني وفارسي لاجل وحدة القلوب ، وبارك زواجه وزواج الاف من جنده من نساء شرقيات ٠ كما شهدت فلسطين النشاط الثقافي في المدن التي انشأها والتي يروي انها زادت عن السبعين ، والتي هدف من انشائها ان تكون

مراكز سكنى للمحاربين المسرحين ، ونقاطا عسكرية على خطوط المواصلات ، ومراكز نشر التأثير الثقافي الهيلني · وحين توفي الاسكندر على غير توقع ، وتسابق قواده للفوز بأقسام امبراطوريته ، كانت فلسطين من حصة القائد « لاوميدون » ، وانطوى هذا التسابق على حروب طويلة دامية برز من خلالها اربعة قواد على رأس اربع دول هم بطليموس في مصر وسلوقس في مرزبانية بابل التي تضم سوريا ، وانيتفونس في آسيا الصغرى ، وانيباتر في مقدونية ·وقد نجح بطليموس في اخذ فلسطين من لاوميدون عنوة ومد سيطرته عليها ، ولكن انيتفونس غزا سوريا واستولى عليها ووصل حتى غزة ، وتجددت الحروب الدامية بينه وبين القواد الآخرين حتى خر صريعا عام ٣٠١ ق·م ، وتمكن بطليموس حينئذ من استرداد فلسطين وضمها الى مملكة البطالسة · (١١)

بقيت فلسطين جزءا من المملكة البطالسية اكثر من قرن باستثناء فترات متقطعة · وقد وصلت حدود هذه المملكة الى خط يقع شمال ارواد وجنوبي حمص · وفي عام ٢١٩ ق·م نشب الصراع بين البطالسة والسلوقيين ، واستمرت الحرب اكثر من عشرين سنة بين الاسرتين اليونانيتين فجرت على فلسطين وجاراتها الويلات والشدائد ، وانتهت هذه الحرب بنجاح انطيوخس الثالث السلوقي الملقب بالكبير في الاستيلاء على فلسطين عام ١٩٨ ق·م· بعد ان انزل هزيمة فادحة بخصمه البطلمي في بانياس (بانيون) قرب منبع نهر الاردن · وقد ساد التسامح في فلسطين بشكل عام خلال الحكم البطلسي الذي لم يتعرض لعقائد الاهلين وتقاليدهم · وفي عهد بطليموس فيلادلفيوس « محب العلم » ترجمت التوراة الى اليونانية على يد سبعين عالما يهوديا دعاهم الى مصر للقيام بهذه المهمة · وحاول الحكام البطالسة نشر المدنية اليونانية في فلسطين والبلاد التي حكموها عموما · واشتد بطليموس الرابع في محاولته وضاق ببعض اليهود الفلسطينيين الذين لم يستجيبوا له فزاد عليهم الضرائب · وكان حماس السلوقيين لنشر المدنية اليونانية اشد انسجاما مع سياستهم التقليدية التي اعتبرت الهلنية القاسم المشترك الذي يلتقي عليه جميع رعاياهم · وقد ذهب انطيوفس ابعد مما يجب في محاولته حتى انه اعلن نفسه « الاله الظاهر » وقرن نفسه بزفس كبير آلهة اليونان ، وشجع اعتبار يهوه اله اليهود مساويا لزفس ، وكانت خاصة اليهود في القدس قد تجاوبت مع رغبات الحكام السلوقيين فتبنت اللغة والعادات اليونانية ، وأصبح البطاس اليوناني شائعا بين الشبان وكذلك الالعاب اليونانية · ولكن تشدد انطيوخس ادى الى ظهور معارضة قوية بين اليهود دعت الى التمسك بأصول الديانة اليهودية وباساليب الحياة التي درجوا عليها · ويلاحظ ان شعب فلسطين على وجه العموم بقي على طبيعته الكنعانية العمورية في المعيشة والعادات والديانة ، وبقيت اللغة الآرامية هي السائدة ، وانحصرت معرفة اليونانية ـ لغة الحكام ـ بين الخاصة · ونلاحظ ان انطيوخس

حين فرض عبادة زفس اوليمبوس على السكان فانهم عبدوه بعد ان قرنـــوه بشخصية الههم بعل ٠ وألبسوه ثيابا وصفات نصف سامية وأقاموه في معابـد شبه ساميـة ٠

تفجرت معارضة بعض اليهود من شعب فلسطين لسياسة انطيوخس / ثورة في عام ١٦٨ ق٠م٠ وقد وجهت الثورة اول الامر ضد الطبقة العليا التي تستغل الجماهير اكثر منها ضد الحكومة المركزية ٠ وكانت شرارتها خلافا بين اخوين على شغل وظيفة الحبر الاعظم ادى الى الحرب ثم اعلان انطيوخس الحكـــم العرفي واباحته مدينة القدس وأمره الغاء الدين اليهودي ، فكان ان هب الكاهن ماتاتياس من قرية مودين « المدية » الواقعة شرق اللد واعتصم بقريته ومعـــه ابناؤه الخمسة ، وشرع يحضر الثورة ٠ وقد قاد الثورة ابنه يهوذا الذي اتخذ فيما بعد لقب « المكابي » ، وأصل التعبير غير واضح وربما اشتق من العبرية مقبة اي المطرقة بالاشارة الى ضرباته للعدو ٠ وكانت اول مشكلة جابهت الثوار هي القتال في يوم السبت ، وقد رفض بعض اتقياء حاسديم (من المتشددين في التمسك الحرفي بالوصايا العشر) تدنيس السبت بالقيام باعمال حربية فأبادهم جنود انطيوخس بسهولة ٠ وعولجت هذه المشكلة بصدور فتوى تبيح القتال في السبت ٠

ونظم يهوذا واخوته عصابات غير نظامية تعمل في التلال وتتجنب المواجهة المباشرة مع قوات الحكومة ٠ وقد نجحت هذه العصابات في انزال ضربـــات قتالية بجنود انطيوخس كان اولها تصديهم لحاكم نابلس « ابولونيوس » وقتله٠ وبعد عدة معارك نجحت في السيطرة على القدس ، فطهر اليهود الثائرون هيكلهم واعادوا المذابح اليومية ، وأصبح ذلك اليوم عيدا يهوديا يحتفل به سنويا باســم عيد هنوكه « التكريس » ٠

كانت ثورة المكابيين في بدايتها ذات طابع ديني ولم تلبث ان تطـورت الـــى ثورة سياسية ٠ وقد توجهت في وقت واحد ضد القوات الحكومية وضد انصار الثقافة الجديدة « الهلنستيه » من اليهود ، وانتصرت في المجالين ٠ ويلاحظ ان الدولة السلوقية كانت قبل نشوب هذه الثورة قد بدأت تعاني من الضعف ، وقـد اصيبت بهزيمة على يد الدولة الرومانية الغنية في آسيا الصغرى واضطرت في عام ١٨٨ ق٠م٠ الى التخلي عن ممتلكاتها وراء جبال طوروس ٠ وزاد مـــن ضعفها انهماك حكامها في الملذات وانقسام ولائهم ٠ وهكذا استطاع المكابيون فرض وجودهم في فلسطين وانتخبوا سمعان شقيق يهوذا كاهنا اعظم وحاكمـا سنة ١٤١ ق٠م٠ ولم يجد الملك السلوقي ديمتريوس الثاني مناصا من الاعتراف بالامر الواقع ، فمنح اليهود من شعب فلسطين الاستقلال تحت حكم سمعان ٠ وبقي هذا الوضع حتى جاء الرومان بعد ثمانين سنة ٠

سيطر التعصب على اليهود والمكابيين بعد انتصارهم ، فحاربوا اخوانهم اصحاب النزعة الهلينية كما حاربوا غير اليهود من شعب فلسطين · وقد اكره يوحنا هيركانوس الاول (١٣٥ ـ ١٠٥) ـ الذي خلف والده سمعان ـ الآدوميين سكان جنوب فلسطين على التهود والاختتان حوالي سنة ١٢٦ ق·م· كما هاجم السامريين الذين قبلوا مشروع انطيوخس وهدم مدينتهم مع معبدها · وكانت سلطته تعم الاجزاء الواقعة جنوب الكرمل عدا مدن الساحل · وحين تولى ابنه اريسطوبولس (١٠٥ ـ ١٠٣) اتخذ لنفسه لقب ملك ووضع تاجا على رأسه · ويلفت النظر انه اتخذ اسما يونانيا وحذا حذوه ملوك سلالته المتأخرون · وفي عهد خلفه اسكندر حنا ديوس (١٠٣ ـ ٧٦) اصبحت الكلمات اليونانية مستعملة على النقود بجانب العبرية ، واتسعت رقعة ملكه · وقد حكم هذين الاخوين بصور وجرائم التعصب الديني التي كان منها اكراه سكان الجليل من الايسوريين العرب الذين يتكلمون الآرامية على التهود والختان · ويشير « توييني » الى هذا الحادث باعتباره « اقدم حادث تاريخي معروف من حوادث التعصب الديني » · كما يلاحظ « ان سكان الجليل هؤلاء هم الذين عمل بينهم فيما بعد السيد المسيح واتخذ منهم اكثر تلاميذه ، فكانوا من اصل غير يهودي ويتكلمون اللغة العبرية برطانة · كما كان اليهود ينظرون اليهم بأنهم ادنى من اليهود القدماء وغير اهل لظهور نبي فيهم · وقد اعتبر تصرف يوحنا هيركانوس وولديه في التخيير بين التهود او الابادة سابقة اتبعها آخرون من البيت « الهسموني » في معاملتهم للمدن او الشعوب التي يقهرونها ، وتكثر في تاريخ هذه الاسرة قصص الجرائم التي اقترفها ملوكها ، فقد ترك ارسطوبولوس امه تموت جوعا في السجن وقتل احد اخوته ، وحين فتح اسكندر جنيوس احدى المدن قبض على ثماني مئة رجل من العصاة واتى بهم الى اورشليم حيث صلبهم جميعا في يوم واحد واستحضر نساءهم واطفالهم وذلك عام ٨٦ ق·م· وقبل ذلك اتبع استيلاءه على غزة بمذابح مخيفة عام ٩٦ ق·م· ادت الى تحول الشاطىء المزدهر بين غزة وعسقلان الى صحراء بلقع · (١٢)

شهدت المملكة السلوقية في تلك الفترة انتفاضات اخرى في المنطقة فضلا عن انتفاضة المكابيين ، وضغطت القبائل العربية على الجزء الجنوبي منها ، واصبح هؤلاء الانباط العرب قوة هامة هناك ، وكانوا قد طردوا بقايا الآدوميين من منطقة البتراء قبل ٣١٢ ق·م· ثم استقلوا عن السلوقيين بسورية الداخلية الجنوبية حوالي ٨٥ ق·م· واصبحت دمشق تحت حمايتهم كما استقل الايطوريون العرب بالبقاع واللجاة ·واستقلت بعض المدن الفينيقية ·وفي الشرق برزت سلالة عربية في الرها حوالي سنة ١٣٠ ق·م· عرفت باسم الفرتيين وامتدت امبراطوريتها من الفرات الى السند ومن جيحون حتى المحيط الهندي· وبرزت على حدود المملكة السلوقية الشمالية مملكة ارمنية استطاع ملكها

تيغرانس ان يصل بجيوشه حتى جنوب عكا عام ٦٩ ق·م· ثم انسحب بها حين اعلنت روما الحرب عليه · وكانت قوة روما قد بلغت درجة عظيمة فمدت سيطرتها على آسية الصغرى ثم جاء القائد الروماني بومبي لينهي الحكم السلوقي ويحتل سوريا عام ٦٤ ق·م· ثم يحتل فلسطين في السنة التالية عام ٦٣ ق·م· ويمكننا ان نوجز الحديث عن اهم ملامح هذه الفترة في النقاط التالية :

★ كانت أبرز مظاهر الحكم اليوناني لفلسطين بطلميا او سلوقيا انتشار الهلينية فيه ، حتى أن هذه الفترة من تاريخ فلسطين والمنطقة اشتهرت باسم العصر الهلنستي · وقد انحصرت الهيلينية من وجهة زمنية بين عصرين ساميين ـ كما يقول حتي ـ اولهما الارامي وثانيهم العربي · ودامت حوالي الف عام حتى الفتح العربي الاسلامي ·

★ نشط الحكام اليونانيون خلال حكمهم في تأسيس المدن لتكون مراكز للثقافة اليونانية ، واختاروا لها المواقع بعناية في نقاط استراتيجية وعند مراكز المواصلات الهامة وعلى طول مجاري الانهار · وكان سكان هذه المدن بالدرجة الاولى من الجنود اليونان وقد تزوج بعضهم من اهل البلاد ، وانضم اليهم مع الزمن سكان مولدون واصليون اقتبسوا المظاهر الخارجية للهلينية ، وضموا فيما بينهم جماعة من التجار والفنانين والعلماء والعبيد · ومن المدن التي اسست في فلسطين ابان ذلك العصر مدينة فيلوتيريا على بحر الجليل في موقع خربة كرك في الطرف الجنوبي لبحيرة طبرية ، وقد بناها بطليموس الثاني واعطاها اسم شقيقه وكذلك مدينة جدارا وهي ام قيس الحالية غربي اربد ، ومدينة بيلا وهي خربة فحل مقابل بيسان ، وكانت من بين مجموعة مدن سميت بالديكابوليس اي المدن العشر ، وقد بنيت هذه المدن اليونانية حسب مخطط مرسوم وزودت بالمسارح والحمامات والملاعب والساحات العامة ، واحتفظت بالشكل السياسي لدويلات المدن اليونانية ·

كذلك جدد الحكام اليونانيون بعض المدن القديمة وحولوها الى مدن هلنستية وغيروا اسماءها · ومن هذه المدن عكا التي اصبح اسمها بتولمايس في عهد بطليموس الثاني ، وبيسان التي اصبح اسمها سكيثوبوليس ، وابولونيا وهي ارسوف القديمة ، ويافا التي أصبحت يوبا ، ورفح ـ رفيا ، وعتليت ـ بولوكون بوليس ، والزيب ـ اكديبا · ويلفت النظر ان هذه المدن سرعان ما طرحت اسماءها اليونانية وطرحت معها المظاهر السطحية للهلينية واستعادت صفتها الكنعانية واسماءها القديمة التي تعرف بها اليوم · ويمكن ان نشير الى نابلس كاستثناء لهذه الظاهرة في فلسطين فقد لصق بها اسم ينابوليس (المدينة الجديدة) الذي اطلقه عليها الامبراطور الروماني تيطس حين اعاد بناءها وكان اسمها القديم شكيم ·

★ تفاوت انتشار الهلينية من منطقة الى اخرى في فلسطين وغربي آسيا عموما · ولم يتبع انهيار الحكم اليوناني انهيار الثقافة الهلينية التي استمرت خلال الحكم الروماني للمنطقة · وقد برز مثقفون من اهل البلاد اسهموا في صنع هذه الثقافة · ومن هؤلاء انطيوخس العسقلاني من مدينة عسقلان الذي حاول ان يوحد آراء الافلاطونيين والرواقيين وكان يتبع الفلسفة الانتقائية والشاعر ملاجر من ام قيس وقد جمع ديوانا سماه الاكليل · ولم يتبع انهيار الحكم اليوناني انهيار الثقافة الهلنستية اذ استمرت خلال الحكم الروماني (١٣)·

★ بقيت اللغة الآرامية خلال هذه الفترة لغة الشعب الدارجة ، وبقي الشعب هو الاخر محافظا على كنعانيته في طرق معيشته · وقد احتفظ الريف على الخصوص بلغته القديمة وعاداته وطريقة حياته · وعلى العموم نجحت الحضارة الكنعانية في عملية التفاعل الحضاري مع الحضارة الاغريقية في المحافظة على مكانتها بوجة عام فاعطت اكثر مما اخذت · وقد لخص بريستد حصيلة التأثير اليوناني على البلاد بقوله : « ان هذا التأثير لم يسر على السواء في جميع انحاء البلاد ، بل كاد ينحصر في المدن فقط ، ولم يتأثر به كثيرا سكان القرى والدساكر الذين آثروا البقاء على عاداتهم السامية القديمة ، والتكلم بلغات ابائهم والاحتفاظ بتقاليدهم وافكارهم » (١٤) ·

★ حافظ اليوناني بوجه عام على الوحدة الادارية الفارسية « المرزبانة » ، وقسمت فلسطين في ذلك العهد الى ثلاثة الوية هي الجليل والسامرة والقدس ، وهذه الاخيرة كانت ذات تنظيم خاص لكنها تدفع الضريبة للدولة · وازدهرت التجارة في فترات السلم ، ومن المراكز التجارية الهامة في فلسطين آنذاك مريسا قرب بيت جبرين · وتقدمت الزراعة والصناعة تقدما ملموسا في ذلك العهد · وتداول الناس ثلاثة انواع من العملة وعرفوا مظاهر الترف في بعض القطاعات ، وبلغ عدد سكان فلسطين حوالي مليونين·

الحواشي :

٨ ـ يراجع للتوسع في تاريخ المملكة العبرانية كتاب بلادنا فلسطين السابق ذكره والعهد القديم وكتابا

K. Kenyon , Archaeology in the Holy Land (London , 1970).
Noth , Martin , The History of Israel (London 1960).

٩ ـ انظر حتي الفصل الخامس من كتابه السابق الذكر و

Albright , Archaeology and The Religion Of Israel
Wells , H.G. The Outline Of History (London 1961)

١٠ – يراجع للتوسع الفصل السادس عشر من كتاب حتي والقسم التاريخي من كتاب بلادنا فلسطين و

A. T. Olmstead History Of The Persian Empire (Chicago , 1948).

١١ – انظر حتي الفصل السابع عشر و

W. W. Tarn « Alexander » Cambridge Ancient History , Vol . vi (Cambridge 1927)

١٢ – انظر سفر المكابيين الاول وحتى الفصل السابع عشر و

M. Rostoutzeff , The Social and Economic History Of The Hellenistic World (Oxford , 1941)

١٣ – يراجع للتوسع في العصر الهلنستي الفصلان الثامن عشر والتاسع عشر من كتاب حتي و

The Greek Anthology ed. and tr. W. R. Raton (Newyork 1927)

١٤ – انظر حتي الفصل الحادي والعشرون والدباغ ص ٦٢٣ من الجزء الاول و

M. Momensen , History Of Rome (Newyork , 1894)

تقارير

ندوة كمال جنبلاط
تظاهرة تأييد لنضال الشعبين اللبناني والفلسطيني

١٦ اذار ١٩٧٧ ، في الساعة الثانية والربع تماما ، وعلى مفرق دير دوريت تطلق النار على سيارة القائد كمال جنبلاط يسقط شهيدا مع مرافقيه ٠ ١٦ اذار ١٩٧٨ تدخل اسرائيل الجنوب بقوة قوامها ثلاثين الف جندي من اجل ما وصفته بانه « اجتثاث الارهاب واقامة حزام أمني » ٠ تسجل القوات المشتركة بطولات خالدة في التصدي للعدو ٠ يترسخ الدم بين فلسطين ولبنان ، ويظل اقوى من الاغتيال السياسي والة الحرب الصهيونية ٠

ليس صدفة ان يكون الهجوم الاسرائيلي في الذكرى الاولى لاستشهاد القائد كمال جنبلاط ، فالهجوم هو التكملة المنطقية للاغتيال ٠ او بالاحرى الدليل على فشل الاغتيال في تحقيق اهدافه السياسية ٠ وفي مقدمتها فلسطين الرمز والقضية وخشبة الخلاص نحو المستقبل ٠ ولبنان المعبر الى فلسطين عبر بوابة الجنوب ٠ اداة واحدة ؟ ربما ٠ او ادوات عدة في يد واحدة ٠

كان تكريم القائد الشهيد كمال جنبلاط في ذكراه الاولى خاصا ، فقد عمد بالنار والدم الفلسطيني واللبناني المقاتل على ارض الجنوب ٠ الندوات الشعبية حول القائد الشهيد ونضاله العربي والعالمي والفلسطيني ، شملت كافة المدن اللبنانية، واللافتات والملصقات غطت الشوارع والحارات ، والاستعداد لمهرجان السادس عشر من اذار بلغ اقصاه ٠

مساء يوم الاثنين في ١٣-٣ وقف ابو عمار قائد الثورة الفلسطينية امام الوفود المشاركة قائلا : ان اروع ما في استشهاد كمال جنبلاط ، استشهاد هذه القمة وسقوطها دفاعا عن هذه القاعدة العريضة قاعدة الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية ٠ ومضى الاخ ابو عمار يقول : نحن واخوتنا في الحركة الوطنية نقف في هذا الخندق الامامي في امتنا العربية وفي اخطر موقع ضد الامبريالية والصهيونية والاستعمار بقيادة الولايات المتحدة الاميركية ٠ وقال ان التزاوج اللبناني الفلسطيني هو اروع ما انجبته امتنا في هذا العصر ٠٠٠ عصر الظلمة التي تحاول ان تخيم بكل تشعباتها على المنطقة العربية ٠٠٠ ولكن كلما اشتدت حلكة الظلام كلما اقترب طلوع الفجر ٠٠ هذا الفجر الثوري التقدمي الوطني الذي سيعم بالنهاية ٠ وبكل تأكيد امتنا العربية من محيطها الى خليجها ومعا وسويا في الثورة حتى النصر ٠

وكانت ندوة كمال جنبلاط اللبنانية العربية العالمية حول قضايا التحرر الوطني

والديمقراطية قد بدأت في فندق البوريفاج بكلمة الحركة الوطنية القاها وليد جنبلاط رئيس مجلس القيادة في الحزب التقدمي الاشتراكي حدد فيها منطلقات الحركة الوطنية في نضالها وهي عروبة لبنان ، لاننا لن نسمح باقامة دويلة عنصرية مهما كان الثمن · ووحدة لبنان ارضا وشعبا والخروج من النظام الطائفي الى نظام ديمقراطي علماني · واكد على التلاحم مع المقاومة الفلسطينية في نضالها الوطني العادل من اجل استعادة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني · كما حدد مواقف الحركة الوطنية العربية والعالمية · والقى الدكتور البير منصور مداخلة الحركة الوطنية « حول قضايا التحرر الوطني الديمقراطي في لبنان » وركزت على التجربة الجبهوية الرائدة التي بدأت تحت تأثير فكر ونضال قيادة كمال جنبلاط الفذة · وشددت على ان الهجمة التي يشهدها لبنان انطلاقا من المخطط الانعزالي تستهدف نزع عروبة وتصفية الوجود الفلسطيني على ارضه ، وتحويل كيانه الى كيان فئوي طائفي متصالح مع الدولة الاسرائيلية ، باعتبارها نموذجه الام · وشددت المداخلة على ان الجبهة اللبنانية تعمل على فرض بناء المؤسسات الفئوية على السلطة الرسمية · واكد ان الحركة الوطنية تتمسك باستقلالية خطها السياسي وقرارها وارادتها ، وانطلاقا من ذلك فانها تعتبر الديمقراطية في اولوية نهجها وسلوكها · واشارت المذكرة الى الوضع العربي مؤكدة ان الخط القادر على الانخراط في نضال طويل المدى ضد الحلول الاستسلامية المفروضة على منطقتنا هو خط المواجهة المتكاملة على مختلف الاصعدة السياسية والعسكرية والاقتصادية والتعبوية ·

وقدم الاخ ماجد ابو شرار مداخلة المقاومة الفلسطينية حول « الصراع العربي الصهيوني في مرحلته الراهنة » ·

وفي اليومين الثاني والثالث استمع الحاضرون الى مداخلات الوفود العربية والاجنبية ومنها كلمة وفد اليمن الديمقراطية التي القاها حسن يحيى بدلا من عبد الفتاح اسماعيل ، وكلمة الوفد الفيتنامي ، وكلمة حزب البعث العربي الاشتراكي التي القاها وزير الدولة طارق عزيز ، وكلمة منظمة تضامن شعوب اسيا وافريقيا واميركا اللاتينية والحزب الشيوعي البرتغالي والايطالي وكلمة بلغاريا ومجلس السلم العالمي والحزب الشيوعي القبرصي والحزب الشيوعي الكوبي وعميد معهد موسكو الجامعي للبلدان الاسيوية الافريقية والحزب الاشتراكي الالماني الموحد ومنظمة تضامن الشعوب الافرو اسيوية والاستاذ كمال حمدان والحزب الشيوعي العراقي ، والجبهة الوطنية في الجمهورية العربية اليمنية ، والقيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي في سوريا ، والحزب الشيوعي الاردني ، وجبهة التحرير البحرانية ، والمنظمة الدولية لتحرر الشعوب ، والحزب الديمقراطي الكردستاني ·

عندما انهت هذه الوفود مداخلاتها ، كان جو العدوان الاسرائيلي على جنوبي لبنان قد سيطر على الحضور ، وقد كشف محسن ابراهيم الامين العام التنفيذي للمجلس السياسي الاهداف الفعلية لهذا العدوان فقال : لم نفاجأ بسعة العمليات العسكرية ، كنا ننتظر ان تشن اسرائيل مثل هذه الحرب لاننا ندرك انها سوف تتوج مخططها المستمر بمثل هذه العمليات الضخمة ، اما التذرع بالعملية البطولية فهو من قبيل الحجة لتحقيق مطالب طلبوها سلما · واختصر ابراهيم اهداف اسرائيل بـ :

١ ـ تجسيد الاطماع القديمة في الجنوب ارضا ومياها كما ورد في العديد من الوثائق الصهيونية ٠

٢ ـ تحويل الجنوب الى منطقة سيطرة اسرائيلية عسكرية وأمنية ولا يبقى للسلطة سوى بعض المهام الادارية هذا اذا فعلت ٠

٣ ـ تصفية الوجود الفلسطيني عن طريق شطب هذا الشعب من الخريطة ٠ ان هذه الكيلومترات تختزل كل محصلات الصراع العربي ـ الاسرائيلي ٠ وختم محسن ابراهيم قائلا : لا نبالغ اذا قلنا ان هنا ينهزم الحل الاستسلامي وهنا ينتصر ٠ وبعد ان وجه المشاركون في الندوة نداءهم الذي يطالب بادانة العدوان الاسرائيلي واتخاذ التدابير لوقفه وانسحاب الغزاة والحفاظ على سيادة لبنان ووحدته وتمكين الشعب الفلسطيني من ممارسة حقوقه الكاملة ، وتحرير كافة الاراضي العربية المحتلة ٠ القى الدكتور البير منصور كلمة المجلس السياسي الختامية ٠

ومن الطبيعي ان يتحول المهرجان الجماهيري الذي كان مقررا في المدينة الرياضية الى مهرجان سياسي مختصر في البوريفاج ، القى خلاله الاخ ابو عمار كلمة اكد خلالها ان الثورة والحركة الوطنية ماضيتين في طريقهما وان المعركة ستصلبهما وتجعلهما اقوى مما كانتا ٠ وقال ان هذا العدوان كشف التخاذل العربي وكشف المخطط الامبريالي الاميركي الصهيوني ٠ ولكننا نقول لكل ذي نفوذ وسلطان في منطقتنا العربية ان هذا المخطط لن يمر ٠ وكان ابو عمار يتحدث بعد كلمة رئيس الوفد السوفياتي الكسندر فودكوف ٠ ومحمد مساعديه ممثل الجبهة الوطنية الجزائرية ٠

والقى طارق عزيز كلمة مختصرة ، ثم تلاه نائب رئيس اللجنة الفيتنامية وممثل الحزب الشيوعي الايطالي ٠ وممثلوا اليمن الديمقراطية والجماهيرية العربية الليبية ومنظمة التضامن الافرو اسيوية واتحاد الشباب الديمقراطي وجمهورية كوبا وممثل اليابان ٠ وختم المهرجان بكلمة القاها وليد جنبلاط قال فيها : تصادف ذكرى اغتيال كمال جنبلاط اليوم ، واليوم ايضا محاولة اغتيال المقاومة الفلسطينية في لبنان من قبل الصهيونية وانظمة التسوية وهي كثيرة ومتعددة ٠ الا اننا كحركة وطنية نطلب ونطالب الذين بالفعل يهمهم ان يبقى لبنان تقدميا عربيا، نطالبهم ونتوجه الى جبهة الصمود والتصدي بان تتقدم بجحافلها ، بطائراتها بدباباتها لتحمي الجنوب ٠ اننا ايدنا الجبهة ولا نزال ، لكنا نطالبها بالترجمة الحقيقية وكفانا « طق حنك » وتنظير كلام ٠

رغم الظروف الدقيقة التي عقدت خلالها الندوة ، على الصعيدين السياسي والتنظيمي ، بعد رفض السلطة اللبنانية لاقامتها في قاعة الاونيسكو بعد تبريرات لا تنطلي على احد ، الا ان الندوة تمكنت من ان تتحول الى تظاهرة تأييد عربية وعالمية لنضال الشعبين اللبناني والفلسطيني بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية ٠ ومن خلال المداخلات التي القيت من جانب الوفدين اللبناني والفلسطيني امكن لفت النظر الى الكثير من المخططات التي ترسم للساحة اللبنانية ٠ ولعل شعور الوفود المشاركة الرسمية والشعبية بالظروف الدقيقة التي تجتازها حركة التحرر الوطني العربية ، باعتبار ان هذه الحركة تعيش الان احدى المنعطفات الحاسمة في تاريخ منطقتنا الحديث ، هو

ما ادى الى قيام اوسع حملة تنديد بالعدوان الصهيوني وتضامن مع نضال الشعبين اللبناني والفلسطيني عند عودة هذه الوفود · واذا كان المؤتمر قد افتقد المشاركة الشعبية الواسعة نظرا للاجراءات الامنية الدقيقة التي قامت بها اجهزة الحركة الوطنية ، ولظروف العدوان الاسرائيلي التي اضطرت معها الحركة الوطنية الى اعلان تأجيل المهرجان المركزي الذي كان من المقرر اقامته في المدينة الرياضية الى الاول من أيار ، فان هذا التأجيل لا بد وان يكون دافعا الى تعميم نشاطات هذا المؤتمر والمداخلات التي القيت خلاله وعلى اوسع نطاق ، في الداخل والخارج ، سيما وان هذا التعميم يعطي لنضال الحركة الوطنية افاقه على الصعيدين العربي والدولي ، باعتباره جزءا لا يتجزأ من نضال الشعوب في سبيل الحرية والكرامة والسلام ·

في مهرجان كمال جنبلاط كانت دروس عام كامل تؤكد ان النضال الذي خاضه الشهيد يؤكد على استقلالية الحركة الوطنية في قرارها السياسي · وعلى الالتحام النضالي اللبناني الفلسطيني من اجل دحر العدوان ·

جورج ناصيف

بيت أطفال الصمود

فكرة مؤسسة تل الزعتر ـ بيت اطفال الصمود بدأت منذ وصول اول دفعة من جرحى المخيم البطل مع الصليب الاحمر ، وكان من ضمن الدفعة ، عدد من الاطفال الجرحى ممن كانوا يعانون الجفاف بسبب الجوع والعطش ، وكان بينهم اطفال ثلاثة فقدوا الاب والام في المخيم وخرجوا الى العالم وحيدين دون معيل ··

لم يكن صعبا على كوادر الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية ، التي كانت مستنفرة في تلك الفترة للعمل مع الجرحى والمهجرين ·· ان يقدروا ان حالة مثل هؤلاء الاطفال ستتسع مع خروج دفعات جديدة من أهل المخيم · فكان لا بد منذ البداية من القيام بعمل يسهم في حل هذه المشكلة ويحتضن من فقد الاهل والبيت معا ·

كان القرار سريعا وحاسما ·· انشاء مؤسسة تل الزعتر ، تخلد المخيم البطل وتسهم في تضميد جراحاته واحتضان اشباله وزهراته وتكون ردا عمليا متواضعا على المؤامرة الكبرى ضد الشعب والارض·

وهدف المؤسسة كان يشمل قطاعين من ابناء تل الزعتر :

اولا : الاطفال الذين فقدوا الاب والام معا في معارك الصمود في المخيم ·

ثانيا : الفتيات اللواتي يتجـــاوزن الخامسة عشرة من عمـــرهن واصبحن معيلات لعائلاتهن بعـــد استشهاد الاب والاخوة الكبار وفي كثير من الاحيـان الام ايضا ٠

فكان بيت اطفال الصمود للقطاع الاول، وكان مركز التأهيل المهني للقطاع الثاني٠٠

واذا كـــان الاتحاد العام للمـــرأة الفلسطينية لم يزل يعد العدة لانشاء مركز التأهيل ، فانه بالنسبة (لبيت اطفـــال الصمود) قد بدأ عمله فور نزوح اهـــل المخيم في ١٢ آب ١٩٧٦ ٠ لان الاطفـال كانوا منذ اللحظة الاولى بحاجة الى رعاية فورية ، والى مكان هادىء مستقر يمنحهم بعض ما فقدوه في أيام الحصار الصعبة ٠

وكان اول ما عمله الاتحاد في نطـاق الاعداد الجدي (لبيت اطفال الصمود) هو العمل على احصاء للاطفال المحتاجين الى رعايتنا وللكوادر القادرة على العمل فيه ٠ فكانت استمارات خاصة بالالتحاق واستمارات خـــاصة بالعمل ٠ وبـــدأت عضوات الاتحاد من كوادر تل الزعتر ملء هذه الاستمارات في كافة مراكز تجمـــع أهل المخيم النازح ٠

وكانت أبرز نتائج هذه الحملة الاحصائية الاولى ، اننا امام مئتي (٢٠٠) طفل فقدوا الاب والام وامام مئة وخمسين طفلا فقدوا الام ٠ لنكتشف في الحملة الاحصائيـــة الثانية بعد عشرة اشهر ان عدد الـذين فقدوا الام والاب معا يزيد على ثلاثمائة (٣٠٠) طفل ٠

اما اعمارهم فتتراوح بين السنـــة والخامسة عشرة لكن اكثرهم لم يتجـاوز السبع سنوات من عمره ٠٠

كان علينا ان نجد المكان المناسب لهذا البيت الذي تتوفر فيه جملة شروط صحيـة وامنية وسكنية واجتماعية ملائمة للمشروع ولم نتمكن من ايجاد هذا المكان في منطقة بئر حسن بالقرب من مخيم شاتيلا قبـل مطلع هذا العام حيث باشرنا على الفور باجراء كل التصليحات والترتيبات وتأمين التجهيزات اللازمة لجعله بيتا حقيقيـــا للاطفال ٠

وفي ١٥ أيار ١٩٧٧ ، ذكرى النكبـة الاولى ، استقبل البيت اول عائلاتـــه ٠ وكانت مكونة من سبعة اطفال اصغرهـم اياد وعمره حينذاك لم يكن يتجاوز السنة واكبرهم جميلة وكان عمرها ١٥ سنة ٠

في ١٢ آب الذكرى الاولى لاستشهاد المخيم احيى اطفال البيت والعاملات فيه مع قيادة الثورة وكوادرها تلك الذكـرى القاسية بجو يملأه الامل والتفاؤل ، فقـد اشعلوا شمعة صغيرة في الظلام الدامس ، وخطوة صغيرة في طريق الرد الطويل ٠

يومها كان عدد الاطفال قد بلغ ٦٥ ٠ ومن يومها والعدد يتزايد باستمرار حتى وصل مع نهاية آب الى ثمانين طفلا ٠

وبسبب ضعف الامكانيات الماديـــة والنقص في الكادر البشري المؤهـــل لاستيعاب المزيد من الاطفال ، قرر مجلس ادارة مؤسسة تل الزعتر ــ بيت اطفال الصمود تعليق قبول اطفال جدد لمـــدة شهرين من أجل تهيئة الكادر المطلـوب ، وكي ينجز الاتحاد حملته المالية الواسعة ٠

بيت اطفال الصمود يكمل التراث

بيت اطفال الصمود يكمل تراثا فـــي الرعاية الاجتماعية لابناء الشهداء مـــن شعبنا طوال فترات نضاله واثر كـــل نكبة من نكباته ، فهو يرتكز عليها وفـي الوقت نفسه يتطلع ويستفيد من التـطور العالمي في مجال الرعاية الاجتماعية ٠

وقد كانت دوما المرأة هي المبادرة الى انشاء دور الرعاية الاجتماعية للايتام لا

سيما ابناء الشهداء · باعتبار ان المرأة – الام هي الاقرب الى الطفل لاسيما في سنيه المبكرة – والاكثر قدرة على تلبية حاجته في التعويض عن الحنان الطبيعي الذي فقده بفقدان أهله · فأثر مذبحة دير ياسين انشأ الاتحاد النسائي العربي في القدس دار الطفل العربي عام ١٩٤٨ لرعاية من تبقى من أطفال دير ياسين بدون ام وأب ، كما نشأ الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني في بيروت بيت اسعاد الطفولة في سوق الغرب · وبعد نكسة حزيران انشأت المرأة في الثورة الفلسطينية مؤسسة بيت المقدس لابناء الشهداء ايضا ·

الاسرة ام المؤسسة ؟

سؤال هام يطرح نفسه دائما في مثل هذه المواقف ، هل ايواء الاطفال الذين فقدوا الوالدين في مؤسسة هو الحل الافضل لهم · ام ان هناك حلول اخرى ·· ان الوضع الطبيعي الذي يعيشه الطفل في مجتمعنا هو ضمن الاسرة ·· حيث يقوم بدوره داخلها فهو اخ وابن وله اخوة وام واب وعم وخال وجدة الخ · واهم ما تعطي هذه الاسرة هي الاستقرار العاطفي والنفسي بالنسبة للطفل · مما يعطيه ارضية للانطلاق في الحياة ، فتتبلور شخصيته متأثرة بشكل اساسي بطبيعة العلاقات التي تسودها ·

فقدان الوالدين او احدهم هو حرمان عاطفي كبير بالنسبة للطفل · ولكن حرمانه من جو الاسرة يصبح حرمانا مزدوجا · ان تنقلب حياته كليا فيفقد الاستقرار والاستمرارية في حياته · والانطلاق به الى جو مؤسسة ، لا سيما التقليدية منها حيث الفرد فيها هو رقم ، يؤدي غالبا الى فقدان الطفل للتوازن في شخصيته ·

وانطلاقا من هذه الحقيقة وفي محاولة لتعويض الاطفال بعض ما فقدوه في اسرتهم،بنيت قرى الاطفال العالمية (SOS) حيث تعيش كل مجموعة اطفال من ٨ او ٩ مع اب وام (زوج وزوجة بديلين · كأسرة في بيت صغير ·· وتشكل مجموعة البيوت قرية تشترك معا في بعض الانشطة والخدمات كالمغسلة ، المستوصف ، النادي المكتبة ، وحتى المدرسة) · وهنا يجد الاطفال الذين فقدوا الاهل اخوة لهم واهلا بديلين ·

الا ان المأخذ الاساسي لهذا الاسلوب هو ترسيخ القيم الفردية والليبرالية في الاطفال ·· اذ لا هدف يربط الجميع الا التعويض الفردي ·· وهو نتيجة طبيعية للقيم الفردية الغربية ·

ان انتشار مثل هذا الاسلوب في الرعاية الاجتماعية في الاقطار العربية حديث ومحدود في مصر ولبنان · فمؤسسات الرعاية الاجتماعية الكثيرة في بلادنا تعتمد الاسلوب التقليدي في توزيع الاطفال حسب الاعمار وباعداد كبيرة تشرف عليهم ما تسمى بالمشرفة ، والنظام هو نظام الاشراف · وبذلك تصبح العلاقات بين المشرفة والاطفال بالضرورة جامدة روتينية حيادية رغم بعض الاستثناءات هنا وهناك ··· مما يجعل الطفل يعيش في حرمان مضاعف ·

نظام الاسرة

عندما حددنا اهداف بيت اطفال الصمود ونظامه وبرامجه وتجهيزاته ومواصفات العاملين فيه ، كان هاجسنا دائما صورة هؤلاء الاطفال ، فنحن نريدهم اولا ، اطفالا فرحين ، مرتاحين ، منطلقين ،

يشعرون بأنهم قد عوضوا فقدانهم الكبير ببيت واسرة بديلة ·

ثانيا ، اطفالا مستقلي الشخصية ، متطورين ، عقليا وجسديا وروحيا ·

ثالثا ، اطفالا يحترمون النظام ، ويقدرون العمل الجماعي ويعملون من ضمنه ·

رابعا ، يفهمون قضيتهم التي من أجلها قضى أهلهم ، ويتهيأون لتحمل مسؤولياتهم تجاهها ·

كان نظام الاسرة بالنسبة لنا هو الضمانة لتحقيق صورة الطفل المرتاح في البند الاول ·· ولتجنيب اطفالنا العذاب الذي يعاني منه اخوة لهم في المؤسسات الاخرى ·· فكان هو النظام الذي اختير لتحديد طبيعة العلاقات في بيت اطفال الصمود · واول المبادىء في هذا الاطار هو مبدأ عدم التفريق بين الاخوة ·

تواجهنا في هذا النظام ثغرتان اساسيتان تتركز برامج البيت لسدها وهي :

١ ـ تعلق مرضي متبادل بين الام او الخالة والاطفال في عائلتها ·· وخطورة هذا الامر تكمن في انها قد تنسي الاطفال اهلهم الحقيقيين ، وهذا مخالف لاهدافنا · اذ اننا نريد هؤلاء الاطفال ان يتذكروا دائما ان والديهم الحقيقيين قد استشهدوا وان هذا شرف كبير لهم ، وان من واجبهم ان يفهموا القضية التي استشهد أهلهم من أجلها ، وان يعملوا هم من اجلها · بالاضافة الى ذلك قد يؤدي تعلق الاطفال بالام البديلة الى اصابتهم بصدمة عاطفية في حال ترك هذه الام لعملها بسبب من الاسباب لا سيما وان معظم الامهات في البيت حاليا هم فتيات تحت سن الثلاثين ·

٢ ـ نمو قيم فردية وعلاقات موضوعية ضمن الاسرة الواحدة وبالعلاقة بين الاسر · ولسد هذه الثغرات ، وضعت برامج البيت بشكل يجعل اوقات الاطفال مليئة بالدراسة والنشاطات الثقافية والرياضية والفنية التي تقام بشكل جماعي وبمعزل عن الاسرة · رغم مساعدة الام فيها كما سيمر لاحقا · وبذلك لا يعطى للاطفال المجال لتمضية وقت كثير مع امهم او خالتهم البديلة ، يمكن ان يؤدي الى نشوء علاقات مرضية تسيء الى تبلور شخصيتهم المستقلة ·

كيف طبق نظام الاسرة

يشكل الاطفال في بيت اطفال الصمود اسرا تضم كل منها سبعة او ثمانية اعضاء من مختلف الاعمار يعيشون مع امهم او خالتهم في غرفتين متلاصقتين · حيث لكل طفل سريره وخزانته · وترعى الام او الخالة الاطفال في عائلتها في كافة امورهم تساعدها في ذلك اكبر الاخوات سنا في الاسرة · ومن اصل ١١ اسرة موجودة في البيت حتى الان ، هناك اربع حالات يشكل الاطفال فيها اسرة حقيقية في الاساس والمساعدة فيها هي الاخت الكبرى في العائلة الحقيقية ·

وقد وضع نظام البيت والخدمات المقدمة لمساعدة الام في رعاية الاطفال وتخفيف الاعباء عنها من ناحية وترسيخ جماعية العمل من ناحية اخرى · فبينما تهتم الام مباشرة بلباس الاطفال وماكلهم وصحتهم ، ونظافتهم ومتابعة دروسهم ونظافة اماكن منامتهم تتعاون في ذلك مع الاطفال انفسهم · تؤمن اقسام البيت المختلفة الخدمات الجماعية التالية :

ا ـ التغذية والصحة ·

ب ـ التعليم ·

ج ـ النشاطات ·

د ـ الادارة والتجهيزات / التموين والمشتريات ·

ا ـ التغذية والصحة

تشرف على قسم التغذية والصحة طبيبة البيت فتهتم بمساعدة المرضة المداومة ، بكافة القضايا الصحية للاطفال والعاملين بالتعاون مع الهلال الاحمر الفلسطيني ·

فتجري الفحص الطبي الشامل للاطفال عند دخولهم المؤسسة وتعطي العلاج للاطفال المرضى بحيث تتابع معالجتهم المرضة بمعاونة الام ·

تعاين الاطفال المرضى مرتين كل اسبوع وتصف لهم الدواء على ان تتولى اعطائه لهم المرضة بمساعدة الام ·

تجري للاطفال التطعيمات اللازمة للامراض المعدية دوريا وقد افترضت عدم اخذهم لاي طعم من قبل ·

تشرف على البرنامج الغذائي الاسبوعي للاطفال بالتعاون مع المرضة ومسؤول المطبخ ، بحيث يتضمن المواد الغذائية الضرورية للنمو ، آخذين بعين الاعتبار رغبات الاطفال انفسهم · يقدم الطعام للجميع في قاعة الطعام حسب برنامج البيت فتأكل كل اسرة طعامها على مائدة واحدة وحولها بقية الاسر في المؤسسة · أما عملية الطبخ نفسها فيقوم بها متفرغون وتساعد الامهات والاطفال فيها بالتناوب·

يجري الغسيل والكوي في البيت بشكل جماعي ايضا تتولاه عاملتا تنظيفات وتساعدها في ذلك الامهات والاخوات الكبيرات بالتناوب ·

ب ـ التربية والتعليم

التربية في المؤسسة هي عملية دائمة ومستمرة وتتم من خلال النشاطات المختلفة وطبيعة العلاقات التي تسود داخل البيت ، والتي تتسم بشكل اساسي بالديمقراطية والحس العالي من المسؤولية والعمل الجماعي ·

التعليم المدرسي

يتم التعليم المدرسي بالنسبة للاطفال فوق سن ٦ سنوات خارج المؤسسة ، في مدارس وكالة الغوث في المخيمات القريبة (شاتيلا وبرج البراجنة) · والهدف من ذلك **اولا** : المزيد من اشعار الطفل بأنه يعيش مع اسرته وفي بيته ·· فهو كأي طفل عادي يذهب الى المدرسة ليعود عند انتهائها الى بيته حيث امه واخوته الصغار بانتظاره · **وثانيا** لتطوير علاقته مع مجتمعه من حوله وتفاعله مع قضاياه ومشاكله ·· ولتجنب العزلة التي يمكن ان تنشأ بوجود اطفال ضمن مؤسسات ··

وفي البيت تساعد المشرفة التربوية الام في متابعة دروس اطفالها في غرفة المطالعة · كما تضع البرامج التعليمية لتقوية هؤلاء الاطفال في الدروس التي يحتاجون فيها الى تقوية ·· وتتعاون في ذلك مع معلمي ومدراء ومفتشي مدارس الاطفال انفسهم في الوكالة · ويتم ذلك من خلال زيارات مستمرة تقوم بها المشرفة التربوية للمدارس تتابع فيها كل طفل على حدة وتنقل ذلك الى الام نفسها ··

ويجد العاملون في هذا المجال العمل مضنيا ·· فالمستوى التعليمي للاطفال متدن جدا ·· لان انقطاعهم عن الدراسة مدة سنتين ، وهم في هذه السن المبكرة قد هز كل المعلومات والمهارات العلمية التي اكتسبوها قبل ذلك ·· كما ان التجربة القاسية التي مروا بها خلال فترة الحصار والنزوح وفقدانهم اعز الاشخاص لديهم

بالاضافة الى التغيير الجذري في معيشتهم كفيل بمحو هذه المعلومات والمهارات بشكل شبه كلي ٠

وقد جرى اهتمام خاص في هذه الناحية طوال فترة الصيف الماضي بحيث اعطيت للاطفال دروس مكثفة في مواد الدراسة الاربع (عربي ، انكليزي ، رياضيات ، وعلوم) ٠ ساهم فيها متطوعون من خارج المؤسسة ٠

وكانت نتيجتها تقوية فعلية للاطفال بشكل عام ٠ وترفع اربعة اطفال الى صف أعلى من الصف الذي اعادوه في السنة الماضية ٠ وتستمر برامج التقوية خلال السنة الدراسية الحالية بمساعدة متطوعين ايضا ٠

كما يجري حاليا اعداد برنامج لتقوية الامهات انفسهن في المواد الاساسية ليصبحن اقدر على مساعدة اطفالهن في تحضير الدروس باشراف المشرفة التربوية في البيت ٠

الروضة والحضانة

ولسني الروضة والحضانة ، اي سن الست سنوات فما دون ، صفوف في المؤسسة نفسها ٠٠ تضم حاليا ٢٤ طفلا وطفلة من أطفال المؤسسة ٠ وتضم مستقبلا اطفالا من التجمعات الفلسطينية المحيطة ، بهدف عدم عزل اطفالنا عن اطفال المجتمع المحيط ، حتى في هذه السن المبكرة ٠

برنامج الروضة يعتمد بعض الاسس التربوية المتبعة في رياض الاطفال في المخيمات الفلسطينية التي تخوض تجربة جديدة متقدمة في عالم تربية الاطفال ، وهذه الاسس تتلخص **اولا** الاعتماد على سن الطفل وتنمية مهاراته وقدراته بمضمون جماهيري نضالي ينبع من مشاكل وجود الطفل نفسه ، وتوجهه نحو قيم تخلق منه انسانا صادقا مناضلا متكاملا ، فتدور القصة والاغنية والرقصة واللعبة ، واللوحة حول القيمة المطلوب غرسها في الاطفال ٠ وابرز هذه القيم ـ الصدق ، التعاون والعمل الجماعي ، الوطن ، الاستقلالية ، الجمال ٠٠

ثانيا : الاعتماد على المواد الاولية في البيئة المحيطة لتستخدم في الالعاب التربوية البناءة ٠ **ثالثا** العمل كمجموعات او حلقات في النشاطات المختلفة ٠

يقضي الاطفال في الروضة معظم اوقاتهم من الساعة السابعة والنصف صباحا وحتى الرابعة مساء يتخللها ساعة واحدة لوجبة الغداء حيث يلتقي فيها الاطفال مع بقية عائلاتهم في البيت ٠ كما تتناوب الامهات المساعدة في برنامج الروضة ايضا كما في بقية الانشطة في البيت ٠

جـ ـ النشاطات :

للنشاطات الفنية والرياضية والثقافية الاهتمام الاكبر في المؤسسة ٠ فهو المجال الذي يمكن من خلاله تحقيق الشمولية في تربية هؤلاء الاطفال ٠٠ واكتشاف وتطوير الكفاءات الخاصة لكل منهم٠

وبناء على ذلك تدور الانشطة في محورين ٠ المحور الاول يهدف الى تحقيق التكامل في نمو الطفل الجسدي والعقلي والروحاني ويشمل هذا ، برامج الرياضة اليومية والموسيقى ، لتعليم الاناشيد والاغاني الوطنية والشعبية الذاتية ، والتثقيف الوطني المتضمن الافلام والسلايدات حول فلسطين والقضية ، والخياطة والتطريز للفتيات ، والافلام الفنية للاطفال ٠

المحور الاخر هو الانشطة التي تهدف الى تنمية المهارات والقدرات الخاصة

للاطفال ، والتي ربما تبرز من خـــلال البرنامج للمحور الاول · والعمل في هذا المجال لم يصل بعد الى المستوى المطلوب ليشمل جميع رغبات وامكانات الاطفال ، رغم ان هناك بعض الانشطة التي تتـم حاليا بمساعدة بعض المتطوعين مـــن الاخصائيين من خارج المؤسسة · وقـد تشكلت حتى الان بدايات لفرقة الدبكة ، وفرقة رياضية وبدايات لنادي الرســـم وفرقة تمثيل ، ولجنة جريدة حائط (التي تعبر بشكل خاص عن انتاج الاطفـــال الادبي) ·

يترافق هنا عاملان ، امكانيات الفـرد واهتمامات واسلـــوب العمل الجماعي · فالطفل يختار نشاطه حسب رغبته ، ويشكل مجموع الاطفال في نشاط معين ناديا او لجنة تختار من بينها رئيسا او نائبا ، وتضع برنامجها معا ، بمساعدة احـــدى الامهات وباشراف مسؤولة الانشطة ·

واستنادا الى احدى القواعد التربويـة الاساسية في البيت ، وهي التعليم والانتاج مترافقان ، يتم جمع افضل انتاج الاطفـال الفني في الخياطة والتطريز والرســـم والنجارة لتحضير معرض دائم يذهب ريعه لتنمية امكانات البيت ·

الكـــادر

كادر المؤسسة هو الاساس والضمانـة والاداة لتحقيق اهداف المؤسسة وبرامجها لخلق جيل واع مناضل متوازن الشخصية لذا فقد اهتمت اللجنة المشرفة على البيت بكيفية اختيار افراد هذا الكادر وفـــي تدريبهم مهنيا واجتماعيا ، وارساء اسس لطبيعة العلاقات التي تسود فيما بينهم وبين الادارة والاطفال ·

ولاختيار الكادر المؤهل لهـــذا العمل ، وبعد الاطلاع على استمارات طلب العمل من لجنة مكلفة من مجلس الادارة ، تتـم مقابلات مع المتقدمات والمتقدمين للمهنـة ليقبل منهم من تتوفر فيه الشروط التالية :

اولا : وجود الكفاءة المطلوبة للمهمـة وهي محددة للمهمات المختلفة في المؤسسة اما الامهات فالكفاءة المطلوبة منهن بشكل خاص هي حب العمل مع الاطفال ، التوازن النفسي ، ومستوى من التعليم لا يقل عن الشهادة الاعدادية ·

ثانيا : تعطى الاولوية في الاختيار ، في حال تقارب الكفاءات او تماثلها ، لمهجري تل الزعتر الذين عاشوا التجربة نفسها التي مر بها الاطفال هناك ، وذلك كـــي يتمكنوا من استيعاب مشاكل الاطفـــال النفسية ومساعدتهم على حلها ·

ثالثا : تعطى الاولوية بين المهجريـن للمعيلين منهم ممن فقدت عائلاتهم معيلها واصبحت تعتمد على النساء او الفتيـات كمعيل وحيد ·· لا سيما ان عدد هـــذه العائلات قد اصبح كبيرا جدا ·

تدريب الكادر

كان تدريب الكادر من اولى الخطوات التي بدأ العمل فيها في مجرى التحضيـر والتخطيط للمؤسسة بل قبل تأمين المكان نفسه حيث كان مقر اللجنة التنفيذيـــة للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية مقـــرا لكوادر مؤسسة تل الزعتر ـ بيت اطفـال الصمود ـ اللواتي شاركن منذ البداية في اجراء الاحصـــاء وملء الاستمارات ، لمعرفة عدد الاطفال الذين فقدوا الابويـن او الام ·· والمساعدة في جلب العروض لتحضير التجهيزات للبيت عند ايجـــاد المكان ، والمداومـــة في المركز الجديـد ومتابعة العمل في التصليحات ، فكانت

الدورة التدريبية الاولى للأمهات في كانون الاول ١٩٧٦ ·· وتضمنت حلقات في (علم نفس النمو) ومشاكل الاطفال الايتام ، الرعاية الاجتماعية ، الاطفال ، الاسرة ، التغذية ، والامراض ، ومراحل النمو الجسدي ·· العمل الجماعي والتربية الفلسطينية واهدافها ·

كما اجريت دورتان قصيرتان ، فيما بعد في التغذية والامراض والرعاية الاجتماعية ·

وتضمنت هذه الدورات مشاهدات حية من مؤسسات الرعاية الاجتماعية ·· كانت ابرزها دار الايتام الاسلامية ·

ولمتابعة هذا التدريب وضع مجلس ادارة المؤسسة برنامجا لتدريب الكادر اثناء الخدمة للسنة المقبلة قسم الى أربعة اقسام حسب حاجة الامهات بعد التجربة · هي كالتالي (١) علم النفس وتتضمن علم نفس النمو ، صحة نفسية او مشاكل السلوك ، علم نفس تربوي · (٢) تربية وتعليم وتتضمن اهداف التربية الفلسطينية مشاكل تطبيقها في الوكالة وكيفية معالجتها ثم التربية من خلال الانشطة والعمل مع الجماعة وكيفية اعداد برامج للانشطة ·

(٣) الرعاية الاجتماعية وتتضمن ، اساليب الرعاية الاجتماعية ، وتطورها ، الاسرة الفلسطينية اسلوب العائلة في الرعاية الاجتماعية · واسس العمل مع الجماعة

وتطبيقه في المؤسسة · (٤) صحة وتغذية ، النمو الجسدي للطفل ، تغذية الطفل ، الامراض العادية للاطفال ، الامراض السارية والمعدية والنظافة ·

اما اسلوب التطبيق فيعتمد الحوار والنقاش الجماعي ومشاغل العمل والنشاطات العملية ويعتمد بالدرجة الاولى على تجربة العاملين في المؤسسة نفسها ·

صعوبات امام المشروع

ان اي مشروع يساهم في التصدي لمشاكل شعبنا الاجتماعية المتزايدة مع تواصل حرب الشعب الطويلة ، لا بد وان يواجه مشكلة اساسية وهي انه ، رغم حجمه وطموحه ، يبقى عاجزا عن استيعاب الحالة الاجتماعية المحددة التي يطمح اليها ·

ورغم الدعم الكبير الذي قدمته قيادة الثورة وبعض المنظمات لهذا المشروع ، فان بيت اطفال الصمود ما زال يعاني من صعوبات مالية تقف في وجه استمراريته واستكمال تجهيزاته ، كما انه بسبب عدم توفر الكادر المطلوب والمهيأ للعمل فيه لم يستطع المشروع ان يستوعب حتى الان اكثر من ربع الاطفال ممن فقدوا الاب والام في تل الزعتر ·· هذا مع العلم انه حتى لو تم تجهيز المبنى الحالي لبيت اطفال الصمود تجهيزا كاملا فانه غير قادر ان يستوعب اكثر من ١٥٠ طفلا كحد اعلى ·

وعندما يحدد المشروع اهدافه في رعاية او تبني الاطفال الذين فقدوا والديهم في تل الزعتر فانه لا يستطيع ان يغلق الباب امام الاطفال الذين لا يحصى عددهم من ابناء شعبنا ممن فقدوا احد الوالدين خلال معارك نضالنا المستمرة ، لاسيما وانهم في حالة سيئة فعلا وتحتاج الى عناية ورعاية بشكل ملح وسريع ·

ومن هنا ، ومنذ افتتاح بيت اطفال الصمود ، وبابه يطرق كل يوم من أجل اطفال تشابه حالاتهم حالات اطفال البيت وتحتاج الى رعاية اسرة البيت ، لاسيما ان اطفالنا جميعا ، وهم ثوار المستقبل وبناته ، مسؤولية علينا ··

ونسعى الان لتوفير الموارد الماليـــة الضرورية وهي تتجاوز طاقة الثورة المالية من كل المصادر ذات العلاقة بنضال شعبنا واطفال العالم ، كما نعمل على توفيـــر الكادر البشري لتحقيق طموحنا وتبني من لا يجد من يرعاه من أطفالنا ..

وتبقى الاولوية حاليا لمن انشأ المشروع من أجلهم في الاساس .. حتى يكتمل .

نجلاء نصير بشور

اليوميّات الفلسطينيّة

المجلد الثامن عشر

من ١/٧ الى ١٩٧٣/١٢/٣١

مجلد ضخم مؤلف من ٨٥٠ صفحة من القطع الكبير ، يضم عرضا موجزا ودقيقا لما يحدث في العالم فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية مباشرة ، او ما يقال او يكتب عنها ، يوما بعد يوم .

يغطي هذا المجلد الفترة من ١/٧ الى ١٩٧٣/١٢/٣١ ويضم جدولا بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية عن تلك الفترة ، كمـــا يضم فهرسين : الاول بالاسماء والثاني بالموضوعات الواردة في متن اليوميات .

مجلد لا غنى عنه لكل باحث ولكل مهتم بالقضية الفلسطينية .

سعر المجلد ٣٠ ل.ل. يضاف اليها أجور البريد .

اطلبه من : مركز الابحاث ـ قسم التوزيع

ص.ب ١٦٩١ ـ بيروت

مراجعات

صبري جريس ، **تاريخ الصهيونية ، الجزء الاول : ١٨٦٢ ـ ١٩١٧** ، (مركز الابحاث/منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت : ١٩٧٧) ٠

١

الكتاب الثاني الذي اصدره الباحث الفلسطيني صبري جريس بعد خروجه من الارض المحتلة ، وجد طريقه الى ايدي القراء اواخر العام المنصرم بعنوان « تاريخ الصهيونية » ٠ وبذلك ، استمد الكتاب اهمية استثنائية فور صدوره ، ليس باعتبار صاحبه من الباحثين الواسعي الاطلاع على تاريخ الصهيونية فحسب ، بل باعتبار صاحبه من الذين عاشوا مرحلة تحقق الصهيونية في فلسطين ، ونجاحها في تجسيد مشروعها الخاص المسمى اليوم « باسرائيل » ٠

وهذا الكتاب الذي يقع في ٣٦٨ صفحة من القطع الكبير (منها ٧٠ صفحة للفهارس والمراجع) والذي اصدره مركز الابحاث الفلسطيني هو الجزء الاول من ثلاثة اجزاء تؤرخ قصة تلك الحركة السياسية التي نشأت في اوروبا في اواسط القرن الماضي ، وحتى اعلان قيام الدولة الصهيونية ليلة ١٤ ـ ١٥ ايار ١٩٤٨ ٠ وقد غطى الجزء الاول تلك الحقبة الممتدة من سنة ١٨٦٢ وحتى صدور وعد بلفور عام ١٩١٧ ، بينما سيغطي الجزء الثاني المرحلة التالية من تاريخ الصهيونية بين عامي ١٩١٨ و ١٩٣٩ غداة اندلاع الحرب العالمية الثانية ٠ اما الجزء الثالث والاخير فسيؤرخ للفترة التي سبقت قيام الدولة بين عامي ١٩٤٠ و ١٩٤٨ وذلك كما جاء في تقديم جريس لكتابه هذا ٠

وعليه ، وكما يتضح من اسم هذا العمل ـ تاريخ الصهيونية ـ فان الكاتب قد تصدى لمعالجة هذا الموضوع بشمولية تعدت نطاق حقبة معينة من تاريخ الصهيونية ، او نشاط الصهيونيين في بلد معين ، او تاريخ منظمة او حزب او مؤسسة صهيونية في هذا البلد او ذاك، الا ان عملا كهذا يحتاج بالطبع الى جهود عديدة تغطي الاف الصفحات ٠ ولذلك فقد اختار الكاتب ان يسقط الكثير من الوقائع « المتعلقة بنشاط التنظيمات او الاشخاص او بالاحداث التي كانت كبيرة او مهمة في حينه ولكن يظهر اليوم انها كانت ، على المدى الطويل ، عديمة التاثير » (ص ١٠) ٠

والتقييد المتسرع الوحيد الذي وضعه الكاتب على نفسه لدى مباشرته لهذا العمل القيم ، هو ما جاء في التعريف بهذا الكتاب الذي هو « اساسا ، قصة الصهيونية داخليا » ٠ غير انه لدى تتبعه لنشأة الصهيونية وأسباب نشوئهاومراحل انتشارها وجد نفسه **مضطرا** للخروج عن

اطار السياق الداخلي لقصة الصهيونية، لمتابعة الظروف الدولية والعربية التي عاصرت مراحل البناء الصهيوني · ولذلك فانه عندما لم يجد بدا من كسر ذلك القيد المتعسف احيانا ، كانت متابعته للاوضاع التاريخية المحيطةبنشأة وتطور الصهيونية ، متابعة مجتزأة وغير وافية ، بالرغم من ان تلك الاوضاع هي في المحصلة النهائية جزء لا يتجزأ من عوامل نشأة وتطور ونجاح المشروع الصهيوني ·

ومع ذلك فان كتاب « **قصة الصهيونية داخليا**» يقدم تلك الحركة تقديما تاريخيا موثقا يفي بالهدف الذي وضعه الكاتب نصب عينيه · فهو الى جانب المقدمة ، نظم الجزء الاول من مؤلفه في خمسة فصول هي : طلائع الصهيونية ، اي المفكرون الاوائل (١٨٦٢ ـ ١٨٨٤) ، هواة صهيون ، اي المنفذون الاوائل (١٨٨٢ ـ ١٩٠٤) ، هرتسل والمنظمة الصهيونية العالمية ، اي مشروع الدولة اليهودية واجهزتها (١٨٩٧ ـ ١٩٠٤) ، الهجرة الثانية ، اي اسس النظام الصهيوني (١٩٠٤ ـ ١٩١٤) ، الحرب العالمية الاولى ووعد بلفور ، اي تحالف الاستعمار والصهيونية (١٩١٥ ـ١٩١٧)·

وهو في ذلك كله يتجنب سياسة لوي عنق الحقائق بهدف توظيفها لوجهة نظر خاصة او احكام قبلية متحيزة ، ويتمسك الى ابعد الحدود بمنهجية البحث العلمي، بدون اكاديمية ضيقة الغاية والقصد ، وبغير « مدرسية » تسطح المعرفة والمفاهيم فحينما يتتبع المسألة اليهودية منذ طرد اليهود من اسبانيا سنة ١٤٩٢ ، يلتقط بعناية المفاصل الاساسية لقصة العذاب اليهودي في اوروبا والذي ادى ، الى جانب جملة من العوامل الاخرى ، الى نشأة الصهيونية في اواسط القرن الماضي خاصة بعد المذابح التي تعرض لها اليهود في روسيا القيصرية عام ١٨٨١، ويقرر بشجاعة ، في ختام استعراضه لعوامل نشأة الصهيونية ، ان الدين اليهودي هو احد العناصر المكونة للمفهوم الصهيوني بتعريفاته السياسية الحديثة · ويضيف بدون مجازفة علمية ان المعتقدات التوراتية وما تبعها من اجتهادات وتفسيرات « هي التي تقف وراء العديد من اسس الصهيونية ونظرياتها ، اذا قيست بالاثر الذي تركته على تفكير اباء الصهيونية وزعمائها ، كما يتضح من كتاباتهم واعمالهم · وتقف هذه المعتقدات ايضا وراء العديد من الحقوق والمتطلبات الاستثنائية ، التي تدعيها الصهيونية ، في مواقفها من باقي الشعوب والدول » · ويخلص الى ان القيمة التاريخية لتلك الثيولوجيا هي في كونها « عنصرا من عناصر الوعي الاجتماعي واحيانا القومي ، لدى اليهود » (ص٥٨)·

وبهذا يكون جريس قد ميز نفسه بوضوح عن اولئك الذين يدعون بان الصهيونية نشأت مع الديانة اليهودية،وان الاخيرة لعبت في كل العصور دور الحاضنة الفكرية لبذور تلك الحركة السياسية المعاصرة · وفي الوقت نفسه ، ميز جريس نفسه ايضا عن اولئك الذين يزعمون بان الصهيونية كانت وليدة فكر وتخطيط رجال الاستخبارات البريطانية، اي انها نشأت وتطورت بقرار من حكومة بريطانيا بمعزل عن التطورات الفكرية الذاتية التي شهدتها التجمعات اليهودية الاوروبية ·ومع انه يعود لاحقا الى التأكيد على تلك العلاقة ، الا انه قد استخلص مبكرا ان اليهودية هي فقط احدى مركبات الصهيونية وان الاخيرةهي حركة سياسية وليدة الظروف الاوروبية

التي عاشها اليهود في القرن التاسع عشر على وجه الخصوص ٠

وبعد مقدمته المطولة (٧٠ صفحة) التي هي احد الاجزاء الحيوية من كتابه، يعرض صبري جريس في الفصل الاول لنشأة الفكرة ومن ثم الحركة السياسية الصهيونية على يد مفكريها الاوائل (طلائع الصهيونية) من امثال الحاخام يهودا الكلعي الذي عاش في يوغسلافيا (١٧٩٨ ـ ١٨٧٨) والحاخام تسفي هيرش كاليشر الذي عاش في تورين في المانيا (١٧٩٥ ـ ١٨٧٤) صاحب كتاب « البحث عن صهيون » ، وموشيه هس الذي عاش في المانيا ايضا (١٨١٢ ـ ١٨٧٥) واصدر تحت تأثير انتصار الحركة القومية الايطالية كتابا بعنوان « روما والقدس » والذي دعا فيه بوضوح الى قيام دولة يهودية ، ثم يعرض بعد ذلك لسلسلة المذابح والاعتداءات التي تعرض لها اليهود في روسيا ابتداء من عام ١٨٨١ وكيف كان لها الاثر الحاسم في بروز وتبلور الصهيونية ، حيث نشأت في ظل هذه المذابح حركة هواة صهيون التي عملت على تشجيع الهجرة من روسيا الى فلسطين وانشأت فيها اولى المستوطنات اليهودية بين عامي ١٨٨١ وحتى عام ١٩٠٤ ٠ وكيف بدأت على اثر تلك المذابح هجرة يهودية واسعة توجه غالبية اصحابها الى اميركا ٠ وكيف ان قسما من هؤلاء ـ وهم الذين يعرفون بأسم الهجرة الاولى ـ توجه الى فلسطين ووضع الاسس الاولى للنشاط الاستيطاني فيها ، حيث اقيمت اول مستوطنة جنوبي يافا واطلق عليها اسم ريشون لتسيون او « الاولى لصهيون » ٠

بعد ذلك ، يعرض الكاتب لبعض التفاصيل الاجتماعية والسياسية التي كانت سائدة في فلسطين في ذلك الوقت ـ العهد العثماني ـ ، ولكثير من التفاصيل الاخرى حول النشاط الاستيطاني الصهيوني واوضاعه الداخلية وعلاقة البارون روتشيلد بالمستوطنات الاولى التي اقيمت في فلسطين ٠ الا ان الذي يثير الاهتمام فيذلك العرض كله هو ما اورده جريس من حقائق عن المقاومة العربية المبكرة لمشروع الاستيطان الصهيوني هذا ٠ فقد ذكر ان من ابرز تلك الحقائق كان الهجوم الذي شنهالعرب الفلسطينيون ضد مستوطنة روش بينا سنة ١٨٨٣ ، والهجمات الاخرى التي تلته ضد مستوطنة بيتح تكفا في اواخر اذار سنة ١٨٨٦ ، وضد مستوطنة غديرة في تشرين الاول ١٨٨٨ ، وضد رحوفوت في اذار سنة ١٨٩٣ ، وضد بئير طوفيا في كانون الاول ١٨٩٦ ، وضد الخضيرة في ايلول ١٩٠١ ، وغيرها من المناوشات بين المستوطنين والعرب كما كان يحدث في مستوطنة المطلة وغيرها ٠

والذي يهم الكثيرين من المتتبعين والدارسين لمجرى الكفاح الشعبي الفلسطيني في مختلف مراحله ضد المشروع الصهيوني ، لم يهتم به جريس في هذا المقام ٠ ولا نجد له عذرا في ذلك الا اذا كانت المراجع الصهيونية التي اعتمدها حول اشكال المقاومة المبكرة للاستيطان جاءت مبتسرة ومجزوءة وناقصة ، كما وردت في كتابه ٠

وفي الفصل الثالث من كتابه يعرض جريس بشيء من التفصيل لمرحلة تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية على يد احد ابرز زعمائها تيودور هرتسل (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤) ، ولكتابه « دولة اليهود » ولمساعيه لدى ملوك وامراء تلك الحقبة ٠ ثم يتناول عقد المؤتمر الصهيوني الاول في مدينة بازل في سويسرا (١٨٩٧) ٠ ومساعي هرتسل واتصالاته الدولية بعد

ان اصبح رئيس المنظمة الصهيونية · ويتوقف جريس في هذا المجال عند مساعي رائد الصهيونية **لاقامة دولة يهودية في اي مكان يمكن أن تتم فيه** · وابرز مساعيه لدى الحكومة البريطانية لحملها على منح منظمته امتيازا لتوطين اليهود في العريش وشبه جزيرة سيناء وفي قبرص ايضا ، ثم في اوغندا بعد ذلك حيث قدم بنفسه عرض الحكومة البريطانية لاقامة استيطان يهودي يتمتع بحكم محلي في افريقيا امام المؤتمر الصهيوني السادس عام ١٩٠٣ ·

وفي الفصل الرابع يتحدث الكاتب بتفصيل شديد عن الهجرة الثانية (١٩٠٤ ـ ١٩١٤) التي ارست عمليا اسس ، النظام الصهيوني في فلسطين · الا ان ما يستوقف القارىء في معرض تحليل الكاتب للخلفيات الفكرية لاصحاب تلك الهجرة وتنظيماتها الحزبية التي وفدت اساسا من روسيا القيصرية ، ما ذكره حول أسباب نشوء التنظيمات اليهودية الاشتراكية في روسيا وغيرها · فقد قال جريس ان احد عوامل نشوء تلك التنظيمات « اتخاذ اكثر من فئة اشتراكية موقفا سلبيا في حينه من اليهودية واليهود » · وابرز في هذا الخصوص اراء كارل ماركس التي وردت في مقالته « حول المسألة اليهودية » عام ١٨٤٣ · وأضاف قائلا ان تلك المواقف والاراء ادت في نهاية الامر الى « تقوية الصهيونية وصقلها » ·

وبالرغم مما في هذا الاستخلاص من غرابة ـ كما يعترف الكاتب نفسه ـ فهو حري بالمناقشة الجدية ، باعتبار ان النفس الذي ورد في سياق هذا الاستخلاص غير معاد للشيوعية وليس موظفا في خدمة التنظيرات الرجعية السائدة على هذا الصعيد ·

كما يرد مرة اخرى ، استخلاص اخر في هذا المجال ، عند عرض الكاتب لنشأة تنظيم « الاتحاد العام للعمال اليهود في روسيا وبولونيا » المعروف باسم البوند وعلاقاته بالحزب الاشتراكي الديمقراطي (البلاشفة) · اذ يعتقد جريس ان البوند كان منظمة يهودية معادية للصهيونية وان افكاره وحلوله المقترحة لحل المسألة اليهودية في روسيا كانت ستقوض الحركة الصهيونية فيما لو لم يتعرض البوند الى التصفية النهائية على يد لينين بعد نجاح ثورة اكتوبر الاشتراكية عام ١٩١٧ · ويكرر جريس في هذا المجال ان الاتحاد السوفياتي عاد واعترف في عهد ستالين باليهود القاطنين فيه كاحدى القوميات المستقلة المتساوية في الحقوق والواجبات مع القوميات الاخرى · اي كما كان ينادي به البوند سابقا ·

ومن الواضح ان هذا التذكير لم يسعف استخلاصات جريس الاخيرة هذه· اذ نرى ان الحقوق التي منحها الاتحاد السوفياتي لليهود واعترافه بهم كقومية لم يحل المشكلة ولم يحد من نشاط وتصاعد الحركة الصهيونية التي عادت بعد سنوات طويلة تطل برأسها ، حتى داخل الاتحاد السوفياتي · وان كنا نعترف بان ذلك كله يتم حاليا بتأثير الدعاية الغربية المعادية للاتحاد السوفياتي وليس بفعل اضطهاد او تمييز في المعاملة والحقوق بين المواطنين السوفيات ·

بعد ذلك كله ، يعرض الكاتب لتأثيرات تلك الافكار والتجارب « الثورية » التي خاضها المهاجرون اليهود في روسيا على احزابهم وتنظيماتهم وتجاربهم السياسية في فلسطين · ويؤكد في هذا الخصوص ان حزب « بوعالي تسيون » او « عمال

صهيون » الذي نشأ في روسيا وجاءت من بين صفوفه طلائع ورواد الهجرة الثانية ، نشأ بسبب القرار المعادي للصهيونية الذي اتخذه البوند في مؤتمره الرابع عام ١٩٠١ وأسفر عن طرد عدد من العمال الصهيونيين من بين صفوفه وللتدليل على الافكار الاشتراكية التي حملها المهاجرون الروس الى فلسطين يورد الكاتب مقتطفات عديدة من برنامج حزب « عمال صهيون » · ومن هذه المقتطفات ما جاء في الشطر العملي من برنامج الحزب في فلسطين حيث يقول انه « يسعى الى تجميع وسائل الانتاج وبناء مجتمع على اسس اشتراكية · ويرى ان الوسيلة الوحيدة لذلك هي صراع الطبقات الذي تختلف اشكاله بحسب الزمان والمكان » · غير ان هذا الحزب غير من اسسه النظرية بمرور الزمن وانتقل في افكاره من نظرية صراع الطبقات الى الصراع من اجل « العمل العبري » · ويذكر انه من رحم هذا الحزب ولد فيما بعد حزب المباي ـ الذي افرز فيما بعد حزب العمل الاسرائيلي ـ على يد دافيد بن غوريون أول رئيس حكومة في اسرائيل ·

وقبل ان يصل صبري جريس الى الفصل الاخير من كتابه تاريخ الصهيونية ـ اورد واقعة على درجة من الاهمية تتصل بالعلاقات الصهيونية ـ العربية في ذلك الوقت · فقد ذكر ان سوكولوف مدير الدائرة السياسية في المنظمة الصهيونية العالمية اجرى اتصالات خاصة مع عدد من الزعماء العرب في مطلع العام ١٩١٤ « للبحث في امكانية ايجاد سبل للتفاهم بينهم [العرب] وبين الصهيونيين وتوحيد جهود الطرفين » ضد الحكم التركي · واضاف انه في اطار ذلك تم الاتفاق على عقد اجتماع عربي ـ صهيوني في برمانا شرقي بيروت في صيف سنة ١٩١٤ · وقال : « كان بعض الزعماء العرب وخاصة رجال حزب اللامركزية وبعض المثقفين في بيروت قد حاولوا كسب ود الصهيونيين واستمالتهم لحملهم على الوقوف الى جانبهم ضد الاتراك » (ص ٢٦٥) · وبالرغم من ان ذلك اللقاء كان الاول من نوعه ولم يسفر عن اية نتائج ملموسة لاي من الطرفين ، فقد كان مؤشرا على بدايه اهتمام الصهيونية بالمحيط العربي الذي تنوي اقامة مشروعها بين ظهرانية ، بعد سنوات طويلة من تجاهل مفكريها ونشطائها في فلسطين لسكان البلد الاصليين وجيرانهم العرب ·

وفي الفصل الاخير من كتابه يتحدث الكاتب عن وعد بلفور باعتباره نتاج التحالف الفعلي بين الاستعمار والصهيونية · وابرز بشكل واضح الدور الذي لعبه حاييم وايزمن في صنع وعد بلفور دون غيره من زعماء الصهيونية من امثال اللورد روتشيلد الذي تقدم بطلب صدور التصريح والذي تسلم التصريح رسميا بعد صدوره · ثم يختم جريس كتابه هذا بنبذة عن مساعي الصهيونية لاقامة قوات عسكرية لها خلال الحرب العالمية الاولى ، وكيف فشلت في فلسطين ونجحت في مصر بانشائها «كتيبة سائقي البغال الصهيونية » من نحو ٦٥٠ متطوعا يهوديا ، ثم تشكيل « الفيلق اليهودي » من عدد من المتطوعين الذي كانوا في صفوف الجيش البريطاني،وذلك سنة ١٩١٧ ·

وبعد ، فان الجزء الاول من « تاريخ الصهيونية » كتاب يحفل بالكثير من الوقائع التاريخية التي كان لها ابرز

الاثار واخطرها على مسار الحركة الصهيونية خارج فلسطين ومن ثم على ارضها فيما بعد · ولقد نجح صبري جريس عبر تلك التفاصيل العديدة في ان يظل ممسكا بناصية الموقف ، برغم النقلات الواسعة بين تلك الاحداث والافكار المتباعدة التي وقعت فيها ·وهو في ذلك كله لم يلو عنق اي من الحقائق، واحيانا كثيرة تركها تتسلسل بدون تدخل منه ، الا فيما يخدم منهج البحث ويفي من الكتب المترجمة والكتيبات التعريفية كغيره من الدارسين لتاريخ الصهيونية واسرائيل ، ان يلغي عقل قرائه او يستخف بقدراتهم على استخلاص العبر والدروس المستفادة ·

واخيرا فان صبري جريس بعمله القيم هذا قدم الى المكتبة الفلسطينية ، اضافة جديدة ، تختلف عن كل ما شاكلها من الكتب المترجمة والكتيبات التعريفية المختصرة ، وذلك في اطار من الرصانة والجدية اللتان تتطلبان جهدا مضنيا وعملا دؤوبا لا يكل ·

عيسى الشعيبي

٢

كتابة التاريخ ـ تنقيبا ، رصدا ، وصفا ، تحليلا ، وصولا الى مؤشرات تعميمية ـ من أشق الكتابات عادة ·

هذه الصعوبة ليست وقفا على كتابة تاريخ معين بذاته ، وان كان لتأريخ الصهيونية فكرا وحركة ودولة حصة كبرى من هذه الصعوبة · نظرا لكثرة التشيع وحدة الانبهار السياسي لدى البعض ، ولتفشي داء الاستهانة عند البعض الاخر المأخوذ باسلوب التحقير والتصغير للظاهرة الصهيونية · والامثلة كثيرة على هذين التيارين ، المتخلف والزائف ، اللذين يلهثان يوميا وباصرار عجيب لتدمير فهمنا الموضوعي للبناء المنطقي المتماسك للصهيونية وخلفياتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية كجزء من ظاهرات اجتماعية كلية تخضع في اتجاه ومضمون تطور بنياتها وعملياتها التاريخية وديناميتها لقانون موضوعي طبيعي يمكننا من فهم وادراك العملية او الظاهرة بكل تعقيدها الداخلي ووسائطها الخارجية ·

وكأي بحث علمي تبقى النظرية بمبادئها وقضاياها المنهجية هي التي تحدد اهداف وطرق واساليب البحث التاريخي ، وعلى اساسها تتم معالجة البيانات الاجمالية والاولية من حيث حجمها ، دقتها ، اصالتها ثبات تسلسلها وتبعيتها المتبادلة · والنظرية لا احتشاد الوقائع وحدها تقدم امكانات حقيقية لمعالجة التطور التاريخي اتجاها ومضمونا بوضوح اكثر على الرغم من الصعوبات التي تواجه الباحثين في هذا المجال ·

وفي المكتبة الفلسطينية كتاب جديد

عن الحركة الصهيونية لم يلفت له الانظار كثيرا حتى الان · والصهيونية كما بات معروفا غابة طالما صالت واعتركت فيها الاقلام ولا تزال ، ولكنها في كل ذلك ، ظلت دون الحقيقة التي تشبع طموحات قطاعات واسعة من المثقفين العرب · وظلت الصهيونية ابوابا مفتوحة على كل الاتجاهات لكل من يحاول عبورها واكتشاف اعماقها ·

وها هو صبري جريس احد انشط الباحثين في الميدان الصهيوني ، والذي ارتبط اسمه بدراستها منذ زمن ليس بالقريب ، يخوض غمار التجربة التي قيمتها ليس في عطائها ، وانما في جرأتها ومخاطرتها في شق بطن التاريخ والبحث فيه دون التكيف مع الواقع المنظور لمناهج البحث العلمي في التاريخ · والذي يجعله قادرا على الغوص واستنباط الحقائق وسد ثغرة في الفهم العربي لهذه الظاهرة الجديرة باعادة تفكيك عواملها المكونة لها ومن ثم اعادة تركيبها من جديد ، كيلا تبقى مجرد احداث وروايات متناثرة تشوبها روح المغامرة الفردية والوهمية والمنقولة من فلان الى فلان بلا منطق يحكمها ·

ولكن كيف يحدد صبري جريس جديده في هذا الكتاب ؟ يقول الاستاذ جريس : انه يحاول ان يكتب قصة الصهيونية داخليا منذ نشوئها وحتى الاعلان عن اقامة اسرائيل ، ليتمكن القارىء في النهاية من تقييم المعطيات التي مكنت هذه الصهيونية من اقامة اسرائيل · كل ذلك من خلال تناوله للموضوع بواسطة منظار اليوم ، على حد قوله ، ومن خلال حرصه على متابعة اي فئة او شخص بدا له انهما اثرا في تاريخ الصهيونية وان كانا من المغمورين في حينه · ومن خلال تغاضيه عن اولئك الذين ظهر له ان اراءهم كانت في نهاية الامر ذات قيمة اكاديمية فقط ·

فهل وصل الكاتب الى مبتغاه الذي حدده لنفسه ؟ وهل صار بامكان القارىء ان يجد الجواب على باقة من الاسئلة الحائرة في ذهنه عن الصهيونية ، فكرة ، حركة ، ودولة ؟·

سنترك ذلك الى نهاية العرض كي لا نسمح لانفسنا بالاستنتاج الا حيث يفرض الاستنتاج نفسه ·

يتكون الكتاب الذي نحن بصدد عرضه ونقده من توطئة وخمسة فصول وثبت بالمراجع وفهرس · في المقدمة حدد الاستاذ جريس غرضه ومنهجه اللذين اشرنا اليهما قبل قليل ·

اما في التوطئة التي ارادها الكاتب مدخلا لفهم الصهيونية ، فقد تناول الصهيونية من حيث اسباب وتاريخ ظهورها ومكوناتها واسسها على اعتبار انها احدى مشتقات المسالة اليهودية التي خلقها حكام وشعوب اوروبا الشرقية كما يقول · مع انه يؤكد بأن المرحلة الاولى من المسالة اليهودية تبدأ بمفهومها الذي شكل مقدمة نشوء الصهيونية مع طرد اليهود من اسبانيا سنة ١٤٩٢ لاسباب دينية اساسا ·

لقد كشف الكاتب في هذه التوطئة ، ببراعة عن اختلاط مفاهيمه المستخدمة في هذه الدراسة وعدم وضوحها في ذهنه · ففي حديثه عن الصهيونية يستخدم مفهومات مثل ، اسس ، مكونات ، وسائل ، ادوات واسباب كأنها مفهومات مترادفة · وشتان ما بين دلالة مفهوم واخر من هذه المفهومات · فالاسس بالتأكيد هي شيء اخر يختلف عن الاسباب وعن الوسائل · وقد انعكس هذا الخلط الواضح في المفهومات عند الكاتب على مقاومة القارىء للملل المتسرب اليه عبر تفاصيل التفاصيل التي لا ضرورة لها · ومع ذلك بالامكان القول ، بأن الكاتب يعتبر بأن الظروف الموضوعية والاوضاع الذاتية لليهود خلال

القرن التاسع عشر هي احد العناصر التي تكونت منها الصهيونية · الى جانب عوامل اخرى لا تقل اهمية عنها ، من ابرزها ، تبلور الفكرة القومية واقامة العديد من الدول القومية ، ثم اتساع نفوذ الاستعمار الاوروبي وظهور اللاساميـة ونشاطها · الى جانب العنصر الديني الذي لم يكن بوسعها الاستغناء عنه في محاولاتها الهادفة الى تسخير الديانة اليهودية لخدمة اغراضها ·

اما الفصل الاول الذي يحمل عنوان (طلائع الصهيونية) او المفكرون الاوائل فيعرض الى ظهور دعاة الصهيونية الاوائل العلمانيين منهم والمتدينين · الذين نشطوا في مجال الدعوة الى هجرة اليهود من روسيا الى فلسطين وتوطينهم هناك · خاصة بعد الاعتداءات التي نظمت ضد اليهود على اختلاف طبقاتهم في روسيا على حد زعم الكاتب · على الرغم من انه يشير في مطلع هذا الفصل ، بان الفكرة الصهيونية بمفهومها السياسي الداعي الى اقامة دولة لليهود في فلسطين كانت وليدة القرن السابع عشر تقريبا ، حين ظهر اشخاص عديدون دعوا الى تحقيقها من خلال دوافع متباينة وفشلوا لعدم توفر الظروف الموضوعية يهوديا وعالميا لذلك ·

والفصل الثاني فقد كرسه المؤلف للحديث عن هواة صهيون او المنفذين الاوائل للفكرة الصهيونية · الذين ابتدأ بهم التسلل الاستيطاني الى فلسطين سنة ١٨٨١· حيث كانت الظروف الموضوعية التي كانت قائمة في دول اوروبا الشرقية خلال الربع الاخير من القرن التاسع عشر هي التي شجعت على هجرة اليهود من تلك البلدان · الى جانب الظروف الموضوعية (نظام الحماية) والاوضاع الادارية التي كانت سائدة في فلسطين ، والتي كانت خير معين لهم على التسلل ثم التغلغل لشراء الاراضي واقامة المستوطنات والمؤسسات عليها في فلسطين · ويقول المؤلف ان سنوات ١٨٨٢ ـ ١٨٨٤ كانت فاتحة نشاط هواة صهيون الاستيطاني في فلسطين ونهاية نشاطهم المستقل في الوقت نفسه · وذلك لاسباب اقتصادية جابهها المستوطنون الاوائل الذين كانوا من ابناء الطبقة المتوسطة· فاضطروا على اثرها الى طلب المعونة من جهات في اوروبا الغربية · فكان روتشيلد ابرز هؤلاء الذين مدوا يد العون · وبذلك يكون روتشيلد قد افتتح حقبة جديدة من تاريخ الاستيطان الصهيوني في فلسطين استمرت حتى سنة ١٩٠٠ لعب فيها دور البطل الرئيسي الذي اشرف على معظم عمليات الاستيطان التي نفذت خلالها · ويستطرد المؤلف ليقول ، بأن تجربة الاستيطان الصهيوني الاولى في فلسطين التي بدأها هواة صهيون واكملها روتشيلد ثم يكا لم تحظ بنجاح باهر· اذ برزت مشاكل متعددة امام المستوطنين اليهود غير نظام الوصاية الذي اتبعه روتشيلد في ادارة المستوطنات اهمها مشكلة التكيف مع البيئة الجديدة التي انتقلوا للعيش فيها ، وايجاد نمط من العلاقات مع سكان فلسطين من العرب الذين اتخذوا موقفا عدائيا منهم ·

اما هرتسل والمنظمة الصهيونية فقد كان عنوان الفصل الثالث الذي كرسه المؤلف للحديث عن مشروع الدولة اليهودية واجهزتها ·

وهرتسل كما يقول الاستاذ جريس كان يرى في بدء تصهينه ان حل المسألة اليهودية في اوروبا هو في شراء منطقة ما في العالم واقامة دولة لليهود فيها ،

ولاقامة هذه الدولة دعى الى انشاء مؤسستين لكل منها مهامها الخاصة بها ، الاولى هي « جمعية اليهود » والثانية « الشركة اليهودية » ·

وشرع هرتسل في مساع لمقابلة ملوك وزعماء عصره لحملها على تأييد فكرته

واقامة الدولة اليهودية · وعندما احس بانه لا يستطيع حل المسألة لوحده قرر عقد مؤتمر صهيوني عام للبحث في اوضاع الحركة الصهيونية واقامة «جمعية اليهود» ·

وفي مدينة بال بسويسرا عقد المؤتمر الصهيوني الاول سنة ١٨٩٧ الذي انتخب في ختام جلساته هرتسل رئيسا للجنة التنفيذية ورئيسا للمنظمة الصهيونية العالمية ·

وقد عقدت خلال عهد هرتسل خمس مؤتمرات صهيونية تركزت خلالها خلافات كانت قد نشبت بين هرتسل ومؤيديه من جهة وبين معارضيه من جهة اخرى حول اسلوب العمل الصهيوني وحول اهدافه · ومع ذلك فقد عمل هرتسل على تأسيس مؤسسات ادارية وحربية متخصصة تابعة للمنظمة · وبالرغم من وجود تلك المؤسسات بصيغها المختلفة فلم تحرز الصهيونية خلال عهده اي انجاز سياسي عملي ·

وكرد فعل على ظاهرة هرتسل وطريقته السياسية في العمل الصهيوني واسلوبه الفردي في ادارة سياسة المنظمة ، تبلورت نظريات وسياسات صهيونية اخرى سرعان ما افرزت تنظيمات ـ احزابا مستقلة داخل المنظمة الصهيونية مناوئة لهرتسل كالكتلة الديمقراطية والمزراحي والصهيونيين الاشتراكيين ·

وقد خصص المؤلف الفصل الرابع وهو اطول فصول الكتاب للحديث عن « الهجرة الثانية » القادمة من روسيا التي ارست اسس النظام الصهيوني خلال الفترة ١٩٠٤ ـ ١٩١٤ ، فاكثرية صهيونيي روسيا كانوا من اتباع الاستيطان في فلسطين دون غيرها · فعملوا تحت تأثير اراء احد ابرز زعمائهم مناحم اوسيشكين على استغلال الاضطهاد الذي تعرض له اليهود في روسيا خلال هذه الفترة لدفع المزيد من المهاجرين اليهود الروس الى فلسطين ·

ويتحدث المؤلف في هذا الفصل باسهاب عن صراعات وانقسامات الصهاينة العلمانيين السياسيين منهم والعمليين · وعن الانقسامات التي نشبت في صفوف الصهاينة المتدينيين ايضا والنتائج التي ترتبت عليها ·

وكان للتنظيمات العمالية اليهودية التي ظهرت في روسيا نصيب في رصد المؤلف لهذه الفترة · فيؤكد بأن الارضية والظروف الموضوعية والذاتية ليهود روسيا ساعدت على قيام احزاب وتجمعات وفئات عمالية متعددة على اسس قومية ، او اشتراكية او مختلطة ·

غير ان الاهم في هذه الاحزاب من حيث التأثير على الصهيونية كان حزب « عمال صهيون » الذين كانوا يؤمنون بالمبادىء الصهيونية وبالاشتراكية معا ولكن دون دمجهما ، والذين من بينهم جاءت طلائع المهاجرين اليهود الذين دخلوا فلسطين خلال فترة الهجرة الثانية · والذين انحصر نشاطهم في انشاء مستوطنات صهيونية جديدة في فلسطين تقوم على اسس مستحدثة اصبحت فيما بعد العمود الفقري للاستيطان الزراعي الصهيوني في فلسطين تحت تأثير خلفيتهم السياسية التي اكتسبوها في روسيا من جهة ومن خلال صراعهم مع الاجهزة الصهيونية الرسمية والمستوطنين اليهود القدامى والعرب عامة والعمال منهم خاصة من جهة اخرى ·

وفي ضوء كل ذلك اضطر المهاجرون الجدد الى الاعتماد على انفسهم من خلال اقامة تنظيمات ومؤسسات تنظيمية سياسية اقتصادية وحتى عقائدية وعسكرية قدر لها ان تنمو وتكبر وتصبح اسس النظام الصهيوني الذي نشاهده الان ·

وكان مهاجرو هذه الموجة من اليهود اول من طالب باقامة دولة يهودية في

فلسطين من خلال منظمة (العامل الشاب) اول حزب صهيوني اقاموه في فلسطين ·

ويشير المؤلف في هذا الفصل الى ان هؤلاء المهاجرين الجدد قد اتخذوا منذ البدء موقفا سياسيا واضحا عدائيا تجاه العرب لم تنتهجه اية فئة اخرى غيرها حتى ذلك الوقت ·

ولم تكن شعارات « احتلال العمل من أيدي العمال العرب » ، « احتلال الارض » الا تجسيدا للنظريات التي صاغوها قبل قدومهم الى فلسطين والتي نقلوها الى مرحلة العمل فاتخذوا في اكثر من مناسبة اجراءات عنصرية واضحة المعالم ضد العرب الذين لم يبق لهم بعد ذلك الا طريق الصراع مع الصهيونية ·

ويعتقد المؤلف على الرغم من قلة من بقي من افراد هذه الموجة من الهجرة في فلسطين ، ان الهجرة الثانية هي التي وضعت اسس الكيان الصهيوني في فلسطين والتي قامت عليها اسرائيل فيما بعد ·

وقد اختتم الاستاذ صبري جريس كتابه بالفصل الخامس الذي يحمل عنوان « الحرب العالمية الاولى ووعد بلفور » ليتحدث عن الاستعمار والصهيونية خلال الفترة ١٩١٥ ـ ١٩١٧ وهي اي علاقة الاستعمار بالصهيونية في رأيي الدراسة الاساسية الرئيسية التي كان يجب ان تكون مادة الكتاب والتي تلقي الاضواء المطلة لتلك الظاهرة الاقتصادية ـ الاجتماعية ـ السياسية والمسماة بالصهيونية فكرا وحركة ودولة · الا ان المؤلف يكتفي في هذا المجال بسرد متسرع لتحالف الاستعمار البريطاني مع الحركة الصهيونية الى درجة ان هذا الفصل على اهميته جاء اصغر الفصول فلم تزد صفحاته عن ٢٥ صفحة من ٣٦٨ هي عدد صفحات الكتاب ·

ويتجسد تسرع المؤلف واقترابه الحذر المبسط الى درجة الاخلال ، بالوقائع ومضمونها من هذه العلاقة ما بين الاستعمار والصهيونية · وادعاء المؤلف بأن وعد بلفور قد جاء بمثابة مكافأة لوايزمان من لويد جورج بسبب الخدمات التي قدمها للمجهود الحربي لبريطانيا خلال الحرب العالمية الاولى ، هذا الادعاء الذي يتبناه المؤلف تجسيد حي لتسرعه ومقاربته الحذرة والمبسطة للوقائع لدرجة الاخلال بها وبمضمونها ودلالاتها ·

وبعد ، فان الملاحظ بوجه عام على كتاب الاستاذ صبري جريس ان عنوانه لا يمت لمحتوياته بصلة على الرغم من ترابط التوثيق بالتأريخ ترابطا وثيقا · فالقارىء عندما يتناول كتابا يحمل اسم تاريخ الصهيونية وضعه احد العاملين في الثورة الفلسطينية فانه يتوقع ان يرى الكثير من التفسيرات والوقائع تسدرس وتناقش · ولكننا في كتاب صبري جريس لا نجد ذلك · فمما لا شك فيه ان الكاتب قد قدم رصدا للحركة الصهيونية فيه مادة غزيرة ، مملة في بعض الاحيان ومكررة · يصلح فيما لو استكملت نواقصه للمعالجة المنهجية من أجل كتابة واعية لتاريخ الصهيونية نشأة وتطورا ·

وقبل الدخول في مناقشة تفصيلية للكتاب موضوع بحثنا ، يجب الاعتراف بأن ما جاء فيه من تفاصيل ترويها المصادر الصهيونية ، لها قيمة علمية ستدفع بالكثير من مؤرخينا للتصدي الى دراسة كثير من جوانب الصهيونية كظاهرة هي جزء من ظاهرة كلية اقتصادية ـ اجتماعية ـ سياسية لا يلغي جانب منها جانبا اخر ، حتى لا يحصل تشابك في فهم او تفسير ·

والان ، اذا جاز الخوض في التفاصيل

درجة اخرى ، فاننا سنصل الى القول بأن ملاحظاتنا ستتضمن اشارات عامة واخرى في الشكل وثالثة في المنهج ورابعة في المحتوى واشارات اخيرة في النتائج نرجو ان يتسع لها صدر الكاتب وصفحات المجلة ·

اشارات عامة

١ــ لا بد بادىء ذي بدء من البوح ولو بهمس بأن ما كتبه صبري جريس وبالطريقة التي عرضها ، عن عذابات اليهود والمذابح التي تعرضوا لها في اوروبا الشرقية والمؤامرات التي يدعي الكاتب بأنها حيكت ضدهم لا توقظ في القارىء العادي اكثر من تعاطف مع الصهيونية ، وتوجيه اصابع الاتهام الى دول اوروبا الشرقية بدلا من ان تساهم في التوعية والاتهام لهذه الظاهرة الاستعمارية ·

٢ ــ ان ما احتواه كتاب الاستاذ جريس ليس تأريخا بالمعنى الدقيق للكلمة ، وانما توثيق ناقص للصهيونية ومن وجهة نظر صهيونية · اما انه توثيق من وجهة نظر صهيونية فيعود لاعتماد الكاتب للمصادر الصهيونية دون غيرها من مصادر عالمية كثيرة وفي متناول اليد · وهو توثيق ناقص غير مكتمل لان الكاتب كان في كتابته للوقائع الواردة في كتابه انتقائيا كما أشار الى ذلك بنفسه في الصفحات الاولى من مقدمته · وهذه السقطة لا تتفق بالضرورة مع مواصفات المؤرخ ولا حتى الموثق · فالتوثيق يستلزم الرصد الشامل المحايد · اما كتابة التاريخ فهي تفسير للظواهر الجزئية بربطها بالظواهر الكلية من خلال فلسفة تاريخية محددة · فنحن نعتقد ان لا تاريخ دون فلسفة تاريخية متماسكة ·

ملاحظات في الشكل

وهي للاسف الشديد كثيرة وهامة مع بساطتها الظاهرة ، وسأحاول الان ذكر ابرز هذه السقطات المؤثرة على سياق ما جاء في كتاب الاستاذ صبري :

١ ــ هناك خلل في قدرة الكاتب على استخدام الاقتباسات والاستشهادات فهو يوردها بكثرة وفي مواقع لا تصح وبكميات تصل في بعض الاحيان الى اكثر من نصف صفحة للاقتباس الواحد ·

٢ ــ يفضح الخلل السابق في قدرة الكاتب خللا اخر في قدرته على استخدام الاقواس التي تفصل كلامه عن كلام الاخرين المستشهد بهم ، فالاستاذ جريس مرة يورد الاقواس ويشير الى المصدر ومرة لا يشير اليه وغالبا ما يمتنع عن استخدامها

٣ ــ ويشارك الخلل الواضح في استخدام الكاتب للعديد من المفهومات والمصطلحات في دراسته الخللين السابقين ليشكلوا جميعا نقيصة لا مهرب منها في هذه الدراسة · فالى جانب ما سبق وذكرناه من اختلاط مفهومات اسباب ، ووسائل لدى الكاتب ، فهو يستخدم مصطلحات علمية عديدة في مواضيع لا تصح ، فهو يطلق لفظ حزب على البوند والحركة الصهيونية، ونفس الخلط بالنسبة لمصطلح طبقة اجتماعية فهو في الصفحة ٣٩ يقول : نمو طبقة يهودية عاملة كبيرة نسبيا ، وازداد ايضا عدد العاملين في الحرف بالاضافة الى ظهور طبقة من عمال المصانع اليهود ·

٤ ــ الى جانب سوء استخدام المصطلحات العلمية المحددة ، فان الكاتب يقع في خطأ اخر موازٍ له وبنفس الاهمية ، هو استخدام الفاظ غير علمية هلامية المعنى تشير الى كل شيء ولا تشير الى

شيء · ان جدية الابحاث العلمية تقتضي تحديدا واضحا للمعاني والحقائق بالابتعاد قدر الامكان عن الكلمات البراقة التي تنطوي على قدر ضئيل من الحقيقة لا يكفي حاجة الفهم · وامثل على دعواي بما ورد في الصفحة ٢١٩ عندما يقول الكاتب : تحفظ ماركسيون عديدون · دون ان يذكر لنا من هم لتؤيده في رأيه ولنعارضه او لنعدله · وفي ص ١١٥ يقول : استمر اليهود الروس في نشاطهم الاستيطاني ولكن بمساعدة جهات خارجية · دون ان يسميها رأسا · وفي الصفحة ٤٦ عند حديثه عن النشاط اللاسامي يقول في عدة دول اوروبية دون ان يسميها هي الاخرى · وفي الصفحة العاشرة يقول : استخدمت منظار اليوم في النظر الى الصهيونية · دون ان يحدد ماهية هذا المنظار لان من حقنا ان نعلم اذا كان الكاتب قد احسن استخدام هذا المنظار ام اساء · وفي الصفحة ٣٠ يقول : بقيت محصورة في قسم صغير ، رغم ان عددا من الزعماء والمفكرين الصهيونيين خرجوا من بينهم · وهنا نتساءل وهذا التساؤل لضرورات البحث ، ما هو حجم هذا القسم الصغير ، وبأي قياس هو صغير ، فالعشرة بالنسبة للمليون صغيرة اما بالنسبة للعشرين فالامر غير ذلك · ثم ان كلمة عدد قد تدل على كل رقم من الارقام الرياضية المتداولة والتي تخطر في ذهن القارىء فورا ·

واختتم كي لا اطيل هذه الامثلة وهي كثيرة بما ورد في الصفحة ١٣ من استخدام لكلمة «بعض» للحديث عن الفئات اليهودية ·

٥ ـ هناك عملية اغراق بتفاصيل التفاصيل غير الهامة والتي تترك بين السطور الكثير من عناصر الشك مبثوثة ، يبدو انها متعمدة بحيث اضاعت منطق الاحداث في حركيتها وسكونها · لان ما يحفظ التاريخ السياسي هو الفكرة والعناوين الكبرى · اما التفاصيل وبعضها يكون اساسيا ومهما فتسقط · والتفاصيل وحدها كما يقول فلاسفة التاريخ لا تكفي للارتقاء درجة واحدة في الفهم فلا تقود وحدها الا الى الفشل في الخروج ببناء منطقي متماسك لسير الاحداث وخلفياتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ·

٦ ـ يبدو عرض الاستاذ صبري جريس في كثير من الاحايين كأنه جزر منفصلة متباعدة عن بعضها البعض بلا جسور او حتى قناطر توصلها فيما بينها ، والامر فيما نعتقد عائد الى اسلوب عرضه لقصص حياة بعض الشخصيات التي ظن انها اثرت في الصهيونية من وجهة نظره ·

٧ ـ بعد تكرار قراءة بعض فقرات الكتاب يتبين بوضوح بأن هناك بعض الاخطاء الجغرافية ـ السياسية التي استهجن وقوع الباحث فيها وهو المطلع العارف : مثل قوله في الصفحة التاسعة · الحركة الصهيونية ·· من اشد الحركات خطورة ، لا على الفلسطينيين وحدهم ، وانما على العرب ايضا · وهنا لا داعي للقول بأن الفلسطينيين هم جزء من العرب وطالما ان الصهيونية خطر عليهم فهي بالطبيعة خطر على العرب ، وهنا نتساءل لم يحاول الكاتب وضع فاصل مصطنع في شيء واحد ·

والاخطر في سلسلة هذه الاخطاء الجغرافية ـ السياسية ، اعتقد انه الرأي التالي للكاتب والوارد في الصفحة ١٣٣ : في السنة ١٨٩٦ استغل وكلاء روتشيلد التمرد الذي قام به سكان قرية المطلة الدروز ضد السلطات · واعتقد بان الاستاذ جريس يعلم بأن هؤلاء السكان هم عرب فلسطينيون يرفضون الاكتفاء بتصنيفهم دروزا فقط ·

هل نكتفي بهذا القدر من الاشارات الهامة في الشكل العام للبحث ؟ اعتقد ان الاشارات السبعة السابقة تكفي لتكون عينة ذات دلالة عن اخطاء كثيرة في الشكل · لذا نتوقف عندها لننتقل فورا الى ملاحظاتنا عن محتوى الكتاب ·

محتوى الكتاب :

نجد ان الضرورة تستدعي ابداء تحفظنا اولا على ما ورد فيه من معلومات يحاول الكاتب ان يجعل منها تاريخا للصهيونية · ودواعي التحفظ عندنا كثيرة ، نبرز منها التالي فنقول ، ان للظواهر الصغرى عدة وجوه فما بالك بالظواهر الكبرى· والباحث اكتفى بايراد بعض البعض لوجه واحد من وجوه ظاهرة الصهيونية · كيف ؟ لاكون اكثر تحديدا ، اذكر ، بأن صبري جريس قارب الصهيونية من منظور صهيوني فقط اعتمادا على ما كتبه صهاينة معروفون · وفي هذا وجه واحد من وجوه الصهيونية كظاهرة · فلها وجه ثان تورده المصادر التركية وهي كثيرة ، ووجه ثالث تورده المصادر الانجليزية ورابع موجود في المصادر الفرنسية وخامس في الروسية وسادس وسابع وهلمجرا ·

ومن يتصدى للتاريخ عليه ان يحاول ويحاول لاستكمال كل الوجوه المؤيدة والمعارضة · اما باحثنا الاستاذ جريس ، فحتى الوجه الصهيوني لم يستكمله ايضا · فهناك الكثير من المراجع الاصيلة والهامة كتبها اما صهاينة او يهود بلغات اجنبية لم يحاول الاستفادة منها ، على الرغم من وجود ثبت لها في كتاب جانسن وفي المقالة الممتازة للبروفسور ستيفن هلبروك عن الجذور الطبقية في العقيدة الصهيونية والمنشورة في العدد الاول من المجلد الثاني من مجلة دراسات فلسطينية عام ١٩٧٣ ،

بعد هذا التحفظ المبدئي ندخل صلب المناقشة فورا بتحديد ملاحظاتنا كالتالي :·

١) تحفل الدراسة بالكثير من التناقضات الداخلية لا يجد القارىء لها تفسيرا · ومن امثلتي على هذه التناقضات اختار :ـ

أ ـ في الصفحة ١٢ يحدد الاستاذ جريس بأن طرد اليهود من اسبانيا سنة ١٤٩١ يشكل مقدمة نشوء الصهيونية مع انه بعد صفحتين من هذا التحديد اي في الصفحة ١٥ يتضح بأن بريطانيا قد سبقت اسبانيا بكثير في هذا الشأن لانها كانت قد طردت اليهود منها سنة ١٢٩٠ · فاذا كانت المسألة اليهودية هي سبب نشوء الصهيونية كما يدعي الكاتب ، فهذه المسألة كانت في بريطانيا اقدم منها في اسبانيا ·

ب ـ في الصفحة ٢٣ يؤكد الكاتب ان معرفة القراءة والكتابة كانت منتشرة بين اليهود حتى في العصور الوسطى بسبب شعورهم بالحاجة لاكساب اولادهم اصول ديانتهم وبعد ذلك في الصفحة ٢٤ يناقض الكاتب نفسه فيقول ، ان الكتب العبرية لم تحظ بانتشار واسع نظرا لقلة عدد قراء العبرية حينذاك ·

ج ـ يذكر الكاتب في الصفحة ٣٩ ان عدد اليهود العاملين في روسيا وبولونيا سنة ١٨٩٧ بلغ ١ر٥٣٠ر٠٠٠ نسمة من بين عدد اليهود الاجمالي البالغ نحو خمسة ملايين نسمة اي ان قوة العمل اليهودية كانت في تلك الفترة حوالي ثلث عدد اليهود وهذا مناقض لما هو معروف عن الاوضاع الاقتصادية في تلك الفترة ولما هو معروف عن اتجاهات قوة العمل في العالم وعن الانشطة الاقتصادية التي يعمل فيها اليهود عادة · فحتى الان لا تزال قوة العمل في الولايات المتحدة الاميركية لم تصل ٤٠٪ من عدد سكانها وهي من اكبر ان لم تكن اكبر الدول الصناعية في العالم ·

د ـ اما صفحة ٤٣ فما بين فقرة واخرى يتجسد تناقض اخر يتضح من خلال قول الكاتب ان الصهيونية استغلت من أجل تحقيق اهدافها في فلسطين الاوضاع المعيشية السيئة والكوارث التي حلت باليهود · وهذا يعني ان مكونات واهداف الصهيونية كانت محددة سلفا · وفي فقرة ثانية في نفس الصفحة يقول ان الظروف الموضوعية المحيطة باليهود او بأوضاعهم الذاتية هي احد العناصر التي تكونت منها الصهيونية ·

هـ ـ والصفحات ٤٢ ، ٤٦ تحفل هي الاخرى بتناقض اخر · ففي صفحة ٤٢ يقول انه هاجر من روسيا وبولونيا خلال الفترة ١٨٨١ ـ ١٩١٤ نحو ٢٫٦٥ مليون يهودي ، توجه مليونان منهم الى الولايات المتحدة الامريكية و٣٥٠ الفا الى اوروبا الغربية · بينما يتورط الكاتب في الصفحة ٤٦ فيذكر ان الثورة الصناعية والنمو الرأسمالي اقتلعا اليهود من جذورهم في اوروبا الشرقية ولكنهما ساعدا على استيعابهم في اوروبا الغربية · وقد سبق وتبين كما ذكرنا قبل قليل ان اوروبا الغربية لم تستوعب سوى ١٣٪ فقط من هؤلاء اليهود ·

و ـ والصفحات ٣٦ ، ٤٧ تزيد قائمة تناقضات الكاتب · ففي الصفحة الاولى يقول ان نفوذ اولئك الرأسماليين اليهود قد قوي وازداد عددهم ، بحيث وجد سنة ١٨٢٥ ، ١٢ مليونيرا يهوديا في مدينة وارسو وحدها · اما في الصفحة ٤٧ فيقع في المحظور ويقول : اما تلك الكراهية للرأسماليين اليهود ذوي النفوذ الواسع رغم قلة عددهم · وهنا نسأل الكاتب ان يحددرأيه في عدد هؤلاء الرأسماليين اليهود اهم قلة ام كثرة ؟

ز ـ وتأتي روايات الكاتب عن قصة تصهين هرتسل لتصب الزيت فوق نار تناقضاته الداخلية ما بين فقرة واخرى· فمرة كانت صيحات العداء لليهود التي كانت تطلق في اثناء محاكمة درايفوس في فرنسا هي التي جعلت من هرتسل صهيونيا (ص ٤٩) · ومرة (ص ٧٣) كانت تعاليم الحاخام يهودا الكلعي هي التي غرست في قلب هرتسل الفتى بذور الصهيونية اثناء اقامته مع عائلته في هنغاريا · بينما نجد في الصفحة ١٤٥ ان الكاتب يقرر قصة اخرى حين يذكر ان بداية التحول لدى هرتسل حدثت سنة ١٨٨١ او ١٨٨٢ بعد ان قرأ كتاب يوجين ديرينغ اللاسامي · وهنا نسأل اي الحواديث هذه نصدق ؟

ح ـ وفي الصفحة ٦٠ يشير الكاتب الى ان اليهود في فلسطين منذ ١٥١٧ قد تمتعوا بقسط كاف من الحرية الدينية لم يكن من نصيبهم في اي بلد اوروبي · وفي الصفحة ٦٤ يؤكد بان اليهود الذين قدموا الى فلسطين من خلال دوافع دينية كانوا يتمتعون باوضاع سياسية مريحة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وكانوا يتمتعون في الوقت نفسه بامتيازات الحماية وهنا يخطر في البال سؤال يصادم هذه الوقائع الخام · والسؤال هو عن مبرر طلب الحماية ما دام اليهود في فلسطين كانوا يتمتعون بالحرية الدينية وبالاوضاع السياسية المريحة ·

ط ـ وفي مسلسل التناقضات الداخلية نستزيد فنذكر ان الكاتب في صفحة ٦٦ يشير الى المساعدات المالية والتبرعات التي كان مونتفيوري يدفعها لليهود الى جانب اقامته للمدارس والعيادات والورش لخدمتهم · الا انه في نفس الصفحة يعود فيقول ان مجمل نشاطات مونتفيوري لم تسفر عن تحسن يذكر في اوضاع اليهود في فلسطين · وهنا نسأل الكاتب كيف لا

تسفر المساعدات المالية والتبرعات وافتتاح المدارس واقامة العيادات وبناء الورش عن تحسين في اوضاع عشرة الاف يهودي فقط · انه امر غريب بحاجة الى تفسير وتعليل ·

ي ـ اما في الصفحة ٧١ فيدعي الكاتب ان الفكرة الصهيونية لم تكن بمفهومها الداعي الى ارجاع اليهود الى فلسطين واقامة دولة لهم فيها معترفا بها دوليا من خلال نشاط سياسي واستيطاني يقومون به وليدة القرن التاسع عشر بالضبط ··· اذ يرجع تاريخها نحو قرنين الى الوراء · ولكن سرعان ما يتراجع الاستاذ صبري جريس عن دعواه هذه بدعوى مناقضة لها في الصفحة ٧٢ حين يقول : ولهذا فان تاريخ الصهيونية التي انجبت دولة اسرائيل بمفهومها السياسي والاجتماعي وعلى الصعيد النظري على الاقل يبدأ مع نهاية الثلاثينات من القرن التاسع عشر ·

ق ـ وسننهي بهذا التناقض المزروع في صفحتي ١٢٤ ، ١٢٥ · حيث يقول الكاتب في الصفحة ١٢٤ : وقد ادى هذا الى ازدياد تعلق المستوطنين بجهاز موظفي روتشيلد · وفي الصفحة ١٢٥ يقول : لم يكن من المستغرب في مثل هذه الاوضاع ان تنشب الخلافات بين المستوطنين والموظفين المشرفين على مستوطناتهم وتسفر عن صدامات بينهم · وهناك نتساءل عن الكيفية التي يزداد بها تعلق جماعة بجماعة اخرى تتصارع معها صداميا ؟

منهج البحث :

اما عن منهج البحث فبالامكان القول بأن الانتقائية الذاتية التي استخدمها الباحث في عمله لا ترتقي اطلاقا لتشكل منهجا علميا لكتابة التاريخ او حتى طريقة من طرقه · وكما هو معروف تماما لكل باحث · فهناك فرق واضح بين مناهج البحث وطرقه · فالمنهج متصل بالعقل والفكر الانساني · وكل منهج علمي لا بد له من وجود فرض · ومصدر الفرض في بعض الاحيان التساؤل وقد يكون الظن · ويشمل المنهج الفرض والتساؤل والظن والاختبار النظري · ويستخدم المنهج الملاحظة ثم التصنيف والتحليل ثم الاستنتاج العام الذي به نصل الى القانون والتعميم ·

اما طرق البحث العلمي وهي تتعلق بخطوة واحدة من خطوات المنهج العلمي وهي ليست الا مجموعة الادوات التي يستعين بها الباحث· فبدت الصهيونية عند الكاتب بلا منطق يضبط خطاها ويرسم خط سيرها وانتقالها وتأثيرها بشكل يمكننا من ان نقف على مدلولاتها الحقيقية وتشعباتها المختلفة في ظل وضعها الراهن ·

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، فلا بد لكل بحث علمي من ان يقوم على مجموعة من المفاهيم والفروض المتفق على مدلولاتها سلفا قبل استخدامها في عملية الوصف والتحليل او التفسير للظاهرة المنوي دراستها · وفي هذا الكتاب الذي نراجعه نقبنا عن الاتجاه النظري الذي يمكن للباحث من ان يستعين به في بلورة وتحديد مجموعة مفاهيمه التي تسمح له بتملك موضوع دراسته وفي تحديد الموضوعات التي اهتم بتعمقها وكانت موجها له ، فلم نجد سوى خليطا مهجنا من الاتجاهات النظرية المتضاربة متخفية في عباءة فضفاضة من الحياد الذي يحاول ان يدعيه الباحث ·

وهنا نجد ضرورة في القول ، بان مقولات الحياد والموضوعية في البحث العلمي ، هي مقولات قد عفا عليها

الزمن وماتت بموت الفلسفة المثالية منذ امد بعيد · فعملية البحث العلمي ليست عملية ميكانيكية · ولا يمكن للباحث ان يكون آلة او جزءا من آلة يكفي ان تضغط عليها فتدور ·

فالباحث ينفعل بالواقع ويقف منه موقفا معينا · يحب ويكره ، ينتمي لثقافة يتحيز لها ، يقف منها موقفا نقديا او تحليليا ، موقف القبول او موقف الرفض أو المطالب بالتعديل · وسواء اكان الباحث منفعلا بالمشاكل الفردية او بالمشاكل الجماعية فانه لن يستطيع ان يكون باحثا حقيقيا الا اذا ترجم مشاعره الى تصورات او الى خيال · فالخيال بحد ذاته يلهم الباحث ويضع امامه امكانيات واختيارات عديدة ملتزمة بمنطق العلم ·

ملاحظات في النتائج :

وهنا نسمح لانفسنا بان نختلف كثيرا مع الكاتب ، على الرغم من ان الكاتب لم يورد في كتابه اية نتائج محددة الا اننا نستطيع تلمس اثار لنتائج توحي بها وقائعه التي انتقاها ·

فنحن نشك كثيرا في ان يكون اليهود قد واجهوا اضطهادا بسبب ديانتهم ، على الاقل في مرحلة الثورة الصناعية وفي اعقاب محاولة اغتيال قيصر روسيا · فالاضطهاد الذي واجهه اليهود في روسيا كان جزءا من الاضطهاد الذي واجهه الشعب الروسي اثر الردة الرجعية التي شاعت هناك بعد اغتيال القيصر وتعرض لها كل الشعب لا اليهود منهم فقط · اما عن سوء احوال اليهود المعيشية فلم يكن مردها الى اضطهاد ستعمد من حكام روسيا او بولونيا لليهود كيهود وانما نعتقد بان هذا السوء كان من نتائج النمو الرأسمالي والثورة الصناعية هناك والتي بالضرورة تؤثر سلبا على حرفيي الطبقة الوسطى وتشيع البطالة في صفوفهم وقسم كبير من اليهود كما هو معلوم كان يعمل في هذا المجال ·

وما دام الامر كذلك ، فلا يمكن للصهيونية ان تكون الا نتاجا لظاهرة الاستعمار الاوروبي وعلى الاخص الاستعمار البريطاني الذي كانت له مطامع واضحة في المشرق العربي يحاول ان يضعها موضع التنفيذ منذ العصور الوسطى · فافرز ظاهرة الصهيونية بمفهومها الحالي لتكون اداته الفعالة في تجسيد طموحاته الاستعمارية ذات الاهمية الاستراتيجية في الوطن العربي · فالامر ليس كما يحاول صبري جريس ان يصوره تحالفا بين طرفين مستقلين وانما حقيقة الامر هو استخدام طرف لاداة من ادواته ليس الا ·

واخيرا ونحن نختتم هذه المراجعة المختصرة ، نقول ما اكثر ما تخرج المطابع من كتب عن الصهيونية وما اعظم حاجتنا لفهمها · ولكن هذه الحاجة للاسف الشديد تزداد بازدياد عدد الكتب الموجودة حاليا في السوق · ومع ذلك فسيبقى لصبري جريس فضل يقر به من سيتصدى لكتابة تاريخ الصهيونية مستقبلا ·

سمير ايوب

شهريات

المناطق المحتلة

سنركز هذا الشهر حول ثلاثة مواضيع الاجراءات الاستيطانية في المناطق المحتلة، وتصدي السكان العرب لها ، والدعوات لضم الجولان ٠

تعتبر هذه الفترة من الفترات الحرجة التي شهدتها حركة الاستيطان وخاصة في سيناء، فقد اتسم مسار الحركة الاستيطانية بين مد وجزر وسط صخب غلاة المستوطنين والخلافات في الرأي بين المسؤولين عن الاستيطان خاصة بين وزير الدفاع عيزر فايتسمان الذي يرى ضرورة عدم التوسع في الاستيطان في الوقت الحاضر تمشيا مع الموقف الاميركي ومراعاة له ، وبين وزير الزراعة والمسؤول عن اللجنة الوزارية لشؤون الاستيطان ارئيل شارون الذي يعتقد ان الوقت قد حان للبدء بنشاط واستيطان واسع في جميع المناطق المحتلة بما في ذلك سيناء ٠ وبين هذين الموقفين اللذين استقطبا قطاعات واسعة من مجتمع المهاجرين والمستوطنين سارت حركة الاستيطان ، وشقت افاقا جديدة لها تمثلت في خلق وقائع جديدة وظهور مشاريع مستقبلية مدعومة بميزانية جديدة ٠

لقد بلغ حجم الميزانية الجديدة المخصصة للاستيطان في المناطق المحتلة لهذا العام ٤٣٠ مليون ليرة مقابل ٢٦٠ مليون ليرة للعام الماضي ٠ ومن الجدير بالذكر ان قسما من هذه الميزانية سيخصص لاقامة ١١ مستوطنة جديدة في المناطق المحتلة ، ثلاث مستوطنات في الجولان وثلاث في الضفة وست مستوطنات في مشارف رفح ٠

الاستيطان في سيناء :

اتسمت الحركة الاستيطانية بتعرجات في مسارها في الاراضي المصرية المحتلة ويعود ذلك الى المرحلة الجديدة التي دخلتها العلاقات المصرية الاسرائيلية بعد زيارة السادات لاسرائيل ٠

يوجد في سيناء ١٦ مستوطنة تتركز ١٣ منها في منطقة مشارف رفح ٠ وهذه المستوطنات هي (١) يميت (٢) دكلا (٣) حروبيت (٤) نؤوت سيناي (٥) حوليت (٦) سوفا (٧) سدوت (٨) ابشلوم (٩) نير ابراهام (١٠) نتيف هعسراه (١١) اوغداه (١٢) تلمي يوسف (١٣) برئيل (١٤) دي زهاف (١٥) نفيعوت (١٦) اوفيرا (تقع المستوطنات الثلاث الاخيرة في الاراضي المصرية بين شرم الشيخ وايلات) ٠

وهنالك مستوطنة اخرى كانت سلطات الاحتلال قد اعلنت عن ظهورها قبل اشهر تحمل اسم كديش بارنيع في منطقة القسيمة بالقرب من الحدود الدولية ، الا انها عادت مؤخرا وحظرت على القوات الاستيطانية بناء على تعليمات من عيزر فايتسمان دخول المستوطنة !

وسط اجتماعات اللجنتين العسكرية

والسياسية المصرية الاسرائيليـــة اقدمت سلطات الاحتلال على الشروع بأعمال تمهيد للارض في منطقتين من شمال سينـــاء ، ففي المنطقة الواقعة بين العريش وبير لحفان جرت اعمال التمهيد للاراضي لمدة تزيد على اسبوع بواسطة الجرارات التابعة للكيرن كييمت ، حيث مهدت عشرين قطعة مساحة كل منها خمسين دونما · كما وجرت في المنطقة الواقعة بين العريش وبين مستوطنة يميت اعمال مشابهـة بواسطـــة جرارات الكيرن كييمت ·

ومن الجدير بالذكر ان السلطـــات الاسرائيلية رفضت الافصاح عن الهـــدف من وراء اعمال التمهيد تلـــك ، الا ان الصحف الاسرائيلية اماطت اللثام فيمـــا بعد عن مشروع اسرائيلي يستهدف اقامـة عدد كبير من المستوطنات « الصورية » فـي المنطقة الواقعة بين العريش وبير لحفان ، لحمل المصريين على التنازل عن منطقـــة مشارف رفح مقابـــل تنازـــل المفاوض الاسرائيلي عن المستوطنات « الصورية »!

بعد ذلك وفي الثامن من كانون الثاني اتخـذت الحكومة الاسرائيليـــة قراريـــن متناقضين ، الاول ينص على عدم اقامـة مستوطنات جديـــدة في سينـــاء خـلال المفاوضات ، والثاني يدعو الى « تسميك » المستوطنات القائمة في مشارف رفح ، اي دعم الاستيطان بزيادة عدد المباني ومضاعفة عدد المستوطنين ! وتجري الان اعمـال البناء على قدم وساق في البعض من هـذه المستوطنات وخاصة في مستوطنة يميت التي يراد لها ان تصبح مدينة ضخمة ·

وفي السابع من كانون الثاني جـــرى الاحتفال بتدشين مستوطنة ناحال حوليت في مشارف رفح وتحويلها الـــى كيبوتس مدني تابع لحـــركة « ايحود هيكبوتسوت فهكيبوتسيم» التابعة لحزب العمل · وحضر الاحتفال عدد من زعماء حزب العمل مـــن بينهم موشيه حريف سكرتير الـ « ايحود » الذي اكد ان الاستيطان في شمال سيناء يستهدف « تعزيز المصالح القومية » ·

وعلى صعيد المشاريـــع الاستيطانيـة المقبلة في سيناء ، هنالك عدة مشاريـــع كشفت عنها المصادر الاسرائيلية ، مـــن بينها اقامة مستوطنة جديدة « في المستقبل القريب » تحمل اسم «زهرون» تابعة لحركة الموشافيم على شاطىء البحر الاحمـــر بالقرب من مستوطنة نفيعوت·ويقيم اعضاء النواة الاستيطانية الان في نفيعوت تأهبا للتوجه الى مستوطنتهم الجديدة ·

كما واقرت سلطات الاحتلال اقامـــة ستة مشاريع سياحية ، من المقرر ان يجري العمل لتنفيذها « فورا » في منطقـة شرم الشيخ · وهذه المشاريع هي : اقامـــة ثلاثةفنادق ضخمة· واقامة قريةللاستجمام واخرى للغواصين في رأس محمد ، واقامة ناد للغواصين هناك · وتقدر الامـــوال المستثمرة في هذه المشاريع بـ ٣٠٨ مليون ليرة ·

وكشفت الصحف الاسرائيلية عن وجود خطة تستهدف اقامة ٥٠ مستوطنة فـــي مشارف رفح ضمن « المشروع الجنوبي » ونقلت عن مدير قسم الاستيطان شمعون ربيد قوله أن هذه الخطة «لم تأخذ بالحسبان الوضع السياسي والمفاوضات الجارية مـع مصر » ·

وهنالك مشاريـــع تستهدف توسيـــع مستوطنة يميت كبرى مستوطنات مشارف رفح ، سيتم بموجبها اقامة ٥٠٠ وحـــدة سكنية جديدة خلال هذا العام ·

طرد وترحيل سكان مشارف رفح

وسط اعمال « التسميك » والاعمـــال الاستيطانية « الصورية » اقدمت سلطات الاحتلال على اتخاذ خطوات تخللتهـــا

اعمال مشينة ـ ضد من تبقى من السكان الاصليين في منطقة مشارف رفح ، لصالح مجتمع المهاجرين والمستوطنين ، تستهدف ترحيل وطرد ما تبقى من السكان العرب ، بعد ان طردت ورحلت الكثيرين منهم خلال السنوات الماضية وتمثلت تلك الخطوات في مطالبة السكان بحل منازلهم ونقلها الى اماكن بعيدة ، وترحيل البعض منهم بالقوة، بالتضييق على حرية حركتهم واشفعت خطواتها باعمال همجية مثل قطع الاشجار وسد الابار حيث « تقوم الجرافات اثناء اعمال تمهيد اراضي المنطقة وتسويتها بدفن اشجار بساتين البدو وسد ابار المياه بالرمال ، وازالة كل ما يقف في طريقها »· الى جانب ذلك اقدمت على دفن بيت لعائلة تتكون من عشرة افراد، وبعد الهدم «جرى دفن البيت بالرمال » !

أثارت هذه الاعمال « ضمير » السكرتير العام لحزب مبام مئير تلحي حين قدم مذكرة الى وزير الدفاع عيزر فايتسمان يطلب فيها « وقف اعمال ترحيل البدو عن منطقة النخيل حتى اجراء دراسة لهذا الموضوع في لجنة الخارجية والامن التابعة للكنيست » دون ربط اعمال الترحيل بالاستيطان الاسرائيلي ·

الى جانب اعمال الطرد والترحيل ، اخذت الصحف الاسرائيلية تضخم من «خطر» اصحاب الارض الاصليين ، فقد اكثرت من الحديث عن البدو الذين يقومون بزراعة حبوب الحنطة بالقرب من السياج المحيط بالمستوطنات ، ويقتربون من المزارع اليهودية ، مبرزة قولهم ان «هذه الاراضي كانت في السابق ملكا لهم » · او كما يقول الصحفي حجاي ايشد (دافار ٢٧ـ١ ـ٧٨) « تشكل المستوطنات اليهودية نقاط جذب للبدو ، ففيها ماء وعمل وطرق تؤدي الى مراكز البلاد · ويستولي البدو بدون توقف على الاراضي في سياق متواصل من القضم ··· وهذا القضم الذي يقوم به البدو هو مصدر للنزاعات المستعصية منذ فجر التاريخ لهذه المنطقة ، ويتأذى منه الان الاستيطان اليهودي ···»

الاستيطان في الضفة

منذ تسلم الليكود السلطة ، اتخذ النشاط الاستيطاني في الضفة الغربية مسارين متوازيين له ، الاول يعتمد على اقامة مستوطنات داخل معسكرات الجيش والثاني اقامة مستوطنات مدنية خارج المعسكرات ·

ومن الملاحظ ان المستوطنات المقامة داخل المعسكرات تحمل اسماء المعسكرات القائمة بها ، ولا تعرف تفاصيل كثيرة عنها ، وتحرص سلطات الاحتلال على عدم نشر بيانات حولها · وتتوفر معظم المعلومات عن هذا النوع من الاستيطان في التقارير الصحفية التي تتحدث عن المواجهة التي تحدث بين الفينة والاخرى بين السلطات وجوش ايمونيم ·

عند مطلع كانون الاول اقيمت مستوطنتان من هذا النوع ، تابعتان لجوش ايمونيم في معسكرين للجيش الاسرائيلي يقعان بين اللطرون ورام الله ، المعسكر الاول يقع بالقرب من بيت عور الفوقا والثاني هو معسكر الجيب ـ معسكر يخص الجيش الاردني في السابق ـ بالقرب من قرية الجيب العربية ·

وقد اقيمت مستوطنات اخرى من هذا النوع في معسكرات مختلفة في الضفة الغربية ، لم تنشر المصادر الاسرائيلية شيئا عن تاريخ اقامتها · وتقع هذه المستوطنات في معسكر شومرون ، معسكر سانور ، معسكر جبعون ، معسكر بيت ايل، معسكر النبي صالح معسكر بيت حورون ·

وتحدثت المصادر الاسرائيلية عن ظهور مستوطنتين في منطقة بتير ومنطقة الظاهرية ، دون ان تذكر اذا ما كانتا تقعان داخل اطار المعسكرات أم لا ٠

وفيما يتعلق بالاستيطان « العادي »، فقد اقيمت عند منتصف كانون الثاني مستوطنة جديدة تحمل اسم « سلعيت » الى الشرق من الطريق بين قلقيلية وطولكرم ، وتشغلها نواتان من الناحال تابعتان لحركة بيطار ٠ وتبعد مستوطنة سلعيت الواقعة على هضبة صخرية مسافة ٤ر٥ كم شمال شرق مستوطنة « تسورنتان » الواقعة داخل ما يسمى بـ «الخط الاخضر » ٠ ومن المقرر تحويلها في المستقبل الى مستوطنة مدنية زراعية صناعية تضم مئتي منزل ٠

وفي الثالث والعشرين من كانون الثاني جرى الاحتفال بوضع حجر الاساس لمدينة « شيلو » الى الشرق من الطريق بين رام الله ونابلس ، بحضور الحاخام تسفي كوك الاب الروحي لجوش ايمونيم ، وعدد من اعضاء الكنيست وزعماء جوش ايمونيم ٠

ومن الجدير بالذكر ان ضجة ثارت فيما بعد حول مسألة استيطان « شيلو » ، فقد ادعت سلطات الاحتلال لاعتبارات سياسية ، ان الحكومة أقرت استيطان نواة من جوش ايمونيم في شيلو بصفة « عمال اثار » للمساهمة في كشف ما تخبئه المنطقة الاثرية من معالم تاريخية ، بينما ادعى جوش ايمونيم أن النواة الاستيطانية لم تأت الى المنطقة للبحث عن معالم قديمة ، بل لخلق معالم جديدة ويطالب الحكومة بتقديم المعونات للنواة الاستيطانية على هذا الاساس ٠

وفيما يتعلق بالنشاط الاستيطاني الجاري والمستقبلي في الضفة الغربية ، كشف النقاب عند أوائل اذار الماضي عن خطة لاقامة مدينة في منطقة نابلس تحمل اسم حارس ، فقد افادت المصادر الاسرائيلية ان وزارة البناء والاسكان شرعت باعداد اعمال بناء واسعة في مستوطنة حارس المقامة التي «ستصبح في المستقبل مستوطنة مدنية ٠ ويأتي ذلك عقب اتخاذ قرار بهذا الخصوص ، وتم تخصيص ميزانية خاصة تبلغ ٤٠ مليون ليرة » ٠ ومن المقرر اقامة ٩٠٠ وحدة سكنية في المرحلة الاولى ٠

وتجري بالقرب من قرية كفر قدوم العربية ، حيث تقع مستوطنة ايلون موريه المؤقتة ، اعمال لتسوية الاراضي بغرض اقامة ٦٠ مبنى ، لاستيعاب مستوطني ايلون موريه ، وتثبيتهم في المنطقة كمستوطنين دائمين ٠ ومن المقرر الانتهاء من اعمال البناء في شهر نيسان من هذا العام ٠

كما واعلنت سلطات الاحتلال انها قررت اقامة مستوطنة دينية في غور الاردن تحمل اسم « محولاب » بالقرب من مستوطنة محولا الواقعة في المنطقة الشمالية من غور الاردن في الضفة الغربية ٠ وستكون المستوطنة الجديدة تابعة لحركة هبوعيل هتسعير ٠

التصدي للاستيطان في الضفة

عبر السكان في الضفة عن تصديهم ومقاومتهم للاستيطان الاسرائيلي باشكال نضالية مختلفة ، سواء عن طريق الاجتماعات او الاضرابات والتظاهرات ٠ فعند البدء باستيطان شيلو اعلن مخاتير قرية سلواد والقرى الاخرى المجاورة عن احتجاجهم ضد اعتزام الحكم العسكري مصادرة اراض من قراهم لصالح مستوطنة شيلو التي تسببت بحدوث « غليان في القرى العربية » ٠

كما وقام الفلاحون في قرية قبية الواقعة الى الغرب من مدينة رام الله ، بالتعرض

لحركة وسائط النقل الاسرائيلية بوضع حواجز من الحجارة على الطريق المؤدية من والى مستوطنة نفيه تسوف (النبي صالح) الواقعة على بعد ١٨ كم شمالي غربي رام الله ٠

ونشطت العناصر الوطنية المؤيدة لمنظمة التحرير في الضفة الغربية بالدعوة للتظاهر والاضراب في مدن الضفة ضد «المستوطنات في المنطقة ، وضد استمرار الاتصالات بين اسرائيل ومصر » ووزعت مناشير في مدينة نابلس تحمل هذا المعنى ٠

وجرت عند اوائل شهر شباط الماضي تظاهرات في مدينة نابلس استمرت عدة ايام متتالية ، تعرقلت خلالها الحياة التجارية ، هتف المتظاهرون خلالها ضد الاستيطان الاسرائيلي الى جانب هتافاتهم الوطنية ، « واشعلوا النيران في الدواليب في عدد من الامكنة ، كما رفعوا الاعلام الفلسطينية ، وهتفوا ضد الاستيطان الاسرائيلي ، وقامت قوات الامن بتفريق المتظاهرين » ٠

وأشارت المصادر الاسرائيلية الى وقوع جرحى في صفوف المتظاهرين والقاء القبض على ٣٧ شابا عربيا ٠

الاستيطان في الهضبة السورية

تعتبر منطقة الجولان من اكثر المناطق العربية المحتلة عرضة للتهديد فقد اصبحت المستوطنات الاسرائيلية تتفوق من حيث العدد على القرى العربية المأهولة بالسكان في الهضبة ٠ واذا ما سارت أعمال البناء في مدينة كتسرين وفق ما هو مقرر، فلن يكون بعيدا الوقت الذي سيزيد فيه عدد المستوطنين الطارئين على عدد السكان الاصليين ٠

يوجد في هضبة الجولان علاوة على مدينة كتسرين ٢٥ مستوطنة هي (١) افني ايتان ـ موشاف (٢) الروم ـ كيبوتس (٣) اليعاد ـ موشاف (٤) انيعام ـ موشاف(٥) افيق ـ كيبوتس (٦) بني يهودا ـ مركز اقليمي (٧) جيشور ـ كيبوتس (٨) جبعات يوآب ـ موشاف (٩) هشفين ـ مركز اقليمي (١٠) كفار حروب ـ كيبوتس (١١) مفوصمة ـ كيبوتس (١٢) مركاز هجولان ـ كيبوتس (١٣) نؤوت جولان ـ موشاف تعاوني (١٤) نوف ـ موشاف تعاوني (١٥) نفيه اطيف ـ موشاف تعاوني (١٦) كيشت ـ موشاف (١٧) عين زيوان ـ كيبوتس (١٨) رموت ـ موشاف (١٩) رمات بجشيميم ـ كيبوتس (٢٠) سنير ـ كيبوتس (٢١) تنوريا ـ موشاف (٢٢) جملا ـ موشاف (٢٣) هار اودم ـ موشاف (٢٤) جيشور «ب» ـ كيبوتس (٢٥) دلفه (اورطل) ـ كيبوتس ٠

وقد اوردت المصادر الاسرائيلية بعض المعطيات عن الاستيطان فيالهضبة السورية بمناسبة مرور عشر سنوات على استيطان الهضبة جاء فيها انه تم خلال تلك الفترة استثمار حوالي ملياري ليرة في تطوير النقاط الاستيطانية ، وتم استثمار مبلغ ١٩٣ر٥٠٠ر٠٠ في مدينة كتسرين حتى الان ٠ كما وجرى فلاحة ٥٥٠٠ دونم ٠ وتمهيد ١٦٠ الف دونم من مجموع مليون ونصف المليون دونم في الهضبة، لفلاحتها٠ ووصل حجم الانتاج الزراعي خلال العام الزراعي الاخير ٢٤٠ مليون ليرة ، بينما بلغ حجم الانتاج الصناعي ٣٠ مليون ليرة ٠

في الثالث والعشرين من كانون الثاني احتفلت سلطات الاحتلال بتدشين مدينة كتسرين التي يراد لها ان تصبح «عروس» الهضبة ، ورفع عدد مستوطنيها من ٤٠٠ مستوطن في الوقت الحاضر الى ٢٠ الف مستوطن في السنوات القادمة ٠ ومن بين الذينحضروا الاحتفالووزيرالبناءوالاسكان الذي قال في هذه المناسبة ان « سرعة

وتيرة البناء والتطوير في الجولان وكتسرين ستستمر بناء على رغبة رئيس الحكومة واعضائها جميعا · وبمقتضى سياسة الحكومة سنطور كتسرين الى مدينة لتصبح من اكبر مدننا وتكون جزءا من دولة اسرائيل · ان هضبة الجولان هي اليوم . كواقع ، في دولة اسرائيل ، وستعمل حكومة اسرائيل لتحويل هضبة الجولان الى منطقة اسرائيلية بشكل قانوني ··· واننا لن ننزل من الهضبة ابدا » ·

ومن اجل تكريس الاحتلال واضفاء الصفة الشرعية عليه دفعت سلطات الاحتلال بعض عملائها من شريحة «الزعامة التقليدية» في الهضبة للمطالبة بضم الجولان الى اسرائيل بشكل رسمي ونهائي· ففي اواسط كانون الثاني عقد خمسة رؤساء مجالس محلية عربية في الهضبة ، مؤتمرا صحفيا في كريات شموناه ، طالبوا فيه الصحفيين الاسرائيليين بنقل مطلبهم بضم الهضبة السورية الى اسرائيل· ونقلت دافار (٢٠-١-٧٨) عن محسن سالم ابو صالح رئيس المجلس المحلي لقرية مسعدة قوله : « لقد عشنا تحت الحكم الاسرائيلي خلال السنوات العشر الماضية ، وشاهدنا في الحقيقة التقدم الاقتصادي والتكنولوجي. وكيف يمكن نسج علاقات جوار حسنة مع سكان كريات شموناه وكيبوتسات الجليل · اننا نأمل بأن تتوطد العلاقات بيننا وبين السكان اليهود في الجولان ، وتبقى هضبة الجولان جزءا لا يتجزأ من اسرائيل · والخطوة الاولى التي يتوجب القيام بها من اجل ذلك هي تطبيق القانون الاسرائيلي على الجولان » ·

ومن الطبيعي أن تجد هذه الدعوة اذانا صاغية لها في الكنيست ، فقد تلقفتها عضوة الكنيست شوشانا الموزلينو عن التجمع العمالي وقدمت اقتراحا مستعجلا لجدول اعمال الكنيست « تطلب فيه الاستجابة لمطالب الدروز في هضبة الجولان بخصوص تطبيق القانون الاسرائيلي عليهم » وقالت انها « تعتقد بضرورة الاخذ بعين الاعتبار الرغبة التي يبديها سكان هضبة الجولان والدعم الذي تلاقيه هذه عند اليهود سكان الجليل والجولان» ·

عبد الحفيظ محارب

اسرائيليات

تضاربت الاراء لدى المراقبين السياسيين في اسرائيل ، حول ما اذا كان الرئيس السادات قد استطاع تحقيق الاهداف ، التي وضعها نصب عينيه في زيارته لواشنطن · وتتلخص تلك الاهداف ، في تحويل الولايات المتحدة من مجرد وسيط ينقل الرسائل بين الطرفين ، المصري والاسرائيلي ، الى مشارك فعال في المفاوضات « السلمية » الجارية الان في الشرق الاوسط ، وحمل اسرائيل على الاقرار بمبدأ الانسحاب من جميع الاراضي العربية المحتلة بعد عام ١٩٦٧ ، والاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره ، وذلك لدفع عملية

السلام التي بدأها الرئيس المصري في زيارته للقدس المحتلة . وكانت المحادثات المصرية ـ الاسرائيلية قد توقفت ، بسبب تعنت اسرائيل ورفضها للمبادىء التي طرحها السادات كشرط اساسي لتحقيق السلام ، وتوقيع معاهدة سلمية تضمن امن اسرائيل والاعتراف بها .. ولذلك قام السادات بزيارته لواشنطن ، بعد ان « شعر بأن مبادرته قد فشلت ، ووصل به الامر الى حد اليأس » (ر.أ ، ٧٨/٢/١٠) . وبالاضافة الى ذلك هدف السادات، بزيارته تلك ، الى الحصول على اسلحة متطورة من الولايات المتحدة ، بعد ان حرق جسوره مع الاتحاد السوفييتي ، وحرم جيشه من مصدر السلاح الذي يقوم عليه ..

ويرى بعض المراقبين الاسرائيليين ، ممن تابعوا زيارة السادات واتصالاته مع المسؤولين في الادارة الاميركية والكونغرس عن كثب ، انه « لم يحصل على كل ما طلبه من الولايات المتحدة » ولكنه « حظي بنجاح شخصي كبير ، ستظهر نتائجه على الصعيد السياسي والعسكري بالتدريج. وينعكس على جميع مجالات السياسة الاميركية الشرق أوسطية » (يديعوت احرونوت ، ٧٨/٢/١٠) . وقد يصل ذلك الى فقدان اسرائيل « لمكانتها المتميزة في السياسة الاميركية » (المصدر نفسه) على المدى البعيد . ولكن على الرغم من ذلك ، يرى البعض انه باستطاعة اسرائيل ابطال مثل هذه الخطورة « بمجرد زيارة اخرى يقوم بها رئيس الحكومة الاسرائيلية مناحيم بيغن [الى واشنطن] ، ونشاط اللوبي اليهودي في اميركا الى جانب اصدقاء اسرائيل في الكونغرس والرأي العام الاميركي » . (المصدر نفسه)

اما المراقبون الاخرون ، فيعتقدون ان الرئيس السادات كان قد ذهب الى واشنطن « يائسا وخرج منتصرا » (دافار، ٧٨/١٠/٢١) ، وان الاهداف الثلاثة التي وضعها نصب عينيه عشية سفره الى واشنطن قد « انجزت بكاملها تقريبا » (المصدر نفسه) . فقد عبرت الادارة الاميركية هذه المرة ، عن المفهوم الاميركي بالنسبة الى حل النزاع الاسرائيلي العربي « بلهجة حاسمة وغير مهذبة » واتضح انه « مطابق تماما للموقف المصري ، حتى باستعمال المصطلحات التي تستخدمها مصر» (المصدر نفسه) . وبالاضافة الى ذلك ، قادت الادارة الاميركية قبل المحادثات التمهيدية وخلالها حملة اعلامية « غير ودية » لاسرائيل ، في اوساط العناصر ذات التأثير الكبير في البيت الابيض ، ولدى الشعب الاميركي عبر وسائل الاعلام الجماهيرية ، وكل ذلك يدل على ان ادارة كارتر قد « قررت هذه المرة ان تدفع بالامور قدما ، حتى وان اضطرت الى حشر اسرائيل في الزاوية من خلال اللجوء الى وسائل مرفوضة » (المصدر نفسه) ، ولهذا فان المفاوضات المصرية الاسرائيلية ، ستكون في المستقبل « اكثر تعقيدا وتركيبا » ، واي اتفاق سيتم التوصل اليه بين مصر واسرائيل « سيكون في النهاية وفقا لخطوط اتفاق اميركي مفروض ، اقر الرئيس الاميركي ومساعدوه مبادئه بشكل علني » (المصدر نفسه) .

فبالنسبة الى هدف السادات الرئيسي في تحويل الادارة الاميركية ، من مجرد وسيط محايد في المفاوضات الجارية بين مصر واسرائيل الى « شريك رئيسي وفعال، يتخذ مواقف واضحة وحاسمة في صلب المسائل المختلف عليها بين الطرفين » ،فان الرئيس المصري قد « حقق في هذه الزيارة هدفه » (المصدر نفسه) . وان لم يكن السادات قد حصل على مراده في حمل الادارة الاميركية على استعمال ضغط فوري على اسرائيل ، فانه « حصل على شيء لا يقل اهمية عن ذلك ، وهو التنسيق بين مصر والولايات المتحدة بالنسبة للهدف النهائي الذي يسعى الى تحقيقه » (يديعوت

احرونوت ، ٧٨/٢/١٢) · ويتضح ذلك جيدا من المؤتمر الصحفي الذي عقده وزير الخارجية الاميركي سايروس فانس ، والذي تكشفت فيه ، ولاول مرة « النتائج المنطقية للمباديء التي ما انفكت الادارة الاميركية عن الاعلان عنها منذ امد بعيد : كل المستوطنات الاسرائيلية خارج الخطالاخضر [أي حدود ١٩٦٧] هي غير قانونية ، وتشكل عقبة في طريق السلام » ، وانه « كان من الافضل لو لم تقم ·· وسوف يكون من الضروري ازالتها » (دافار ، ٧٨/٢/٢١) · وينطبق ذلك سواء على المستوطنات في سيناء ، او في الضفة الغربية ـ وسواء في بيان البيت الابيض عند انتهاء زيارة السادات ، او في المؤتمر الصحفي الذي عقده فانس ـ حيث اتضح جيدا ان « الانسحاب الاسرائيلي يجب ان يتم على جميع الجبهات ، اي من الضفة الغربية ايضا » (يديعوت احرونوت ٧٨/٢/١٢) ·

ومما يعزز رأي هؤلاء المراقبين ، انه على الرغم من ان الادارة الاميركية ، اتخذت موقفا لم يكن بالجديد تماما في هذا الموضوع خلال المفاوضات الاسرائيلية الجارية مع مصر ، فانه « لم يكن ثمة مثيل لهذا التصريح العلني في مرحلة حاسمة من المفاوضات ، وفي الوقت الذي لا تزال الاطراف فيه تتصارع على مواقف اولية » (دافار ٧٨/٢/٢١) · وخطورة متن هذا التصريح في رأيهم، هو انه يحول المواقف الاولية بالنسبة لمصر ، الى « مواقف نهائية لا مفاوضات معها » (المصدر نفسه) ، وخاصة بالنسبة للضفة الغربية ، حيث تتحدث اسرائيل «عن مصالح حيوية اولية ، ولا بد من تعيين حدود آمنة لا يمكن بدونها ان تكون معاهدة سلام » (المصدر نفسه) · فوفقا لتفسير مناحيم بيغن الجديد للقرار ٢٤٢ ، فان استعداد اسرائيل للانسحاب من جزء كبير من سيناء يفي باغراض القرار ٢٤٢ نصا وروحا ، لان هذا القرار يتحدث عن انسحاب من « مناطق » ، والانسحاب من سيناء هو انسحاب من « مناطق » ، خاصة وان القرار لم يحدد المناطق التي يجب الانسحاب منها ·

وفي المقابل يرى الاميركيون ذلك تفسيرا جديدا للقرار ٢٤٢ ، لان « كل الحكومات الاميركية السابقة افترضت ان ما يعنيه قرار ٢٤٢،هو الانسحاب على كل الجبهات» وان العناصر التي تضمنها هذا القرار هي « السلام والامن والانسحاب ، ولا يمكن حصر المحادثات في عنصرين فقط ، وتجاهل العنصر الثالث » اي الانسحاب ، وهذا هو في الواقع « لب الخلاف بين السادات واسرائيل » (المصدر نفسه) · وقد فصل الرئيس الاميركي في ذلك الخلاف ، بشكل حاسم وعلني في تصريحه الاخير ابان زيارة السادات حين صرح بان « انسحاب القوات الاسرائيلية من الضفة الغربية ، مع تعديلات طفيفة في الحدود الشرقية ، هو الاساس الذي نتبناه » (اي الولايات المتحدة) ، ويعني ذلك ، في رأي المراقبين السياسيين الاسرائيليين ، ان الانسحاب الاسرائيلي « من سيناء والضفة الغربية وهضبة الجولان ، هو عنصر ثابت في السياسة الاميركية » (المصدر نفسه) ، مما يدل على ان الرئيس الاميركي قد قرر « اغلاق الدائرة مع اسرائيل » وهذا سيؤدي الى طرحه سؤالا واحدا ومحددا على رئيس الحكومة الاسرائيلية في زيارته المقبلة للولايات المتحدة ، بناء على دعوة كارتر نفسه ، وهو ما اذا كانت «اسرائيل مستعدة للانسحاب من الضفة الغربية مقابل سلام كامل مع مصر ، ام انها تفضل التمسك ببرنامج الادارة الذاتية في الضفة الغربية ، وبهذا تضع حدا لمبادرة السلام المصرية ؟» (هآرتس ٣ـ٢ـ٧٨ ،ومعاريف، ٢٢ـ٢ـ٧٨) ·

ويرى البعض ان ذلك الموقف الاميركي ، هو الذي دفع بالرئيس كارتر الى ربط طلب اسرائيل تزويدها بالطائرات بصفقة موحدة مع مصر والسعودية ، في اقتراحه الذي قدمه للكونغرس بهذا الشأن . ويعتقد ان ذلك الاقتراح، بالاضافة لكونه تحقيقا لاحد اهداف الرئيس السادات من زيارته لواشنطن ، هو «بداية فقط» تشكل « خطوة اولى في سياسة اميركية متكاملة »(دافار، ٢١ـ٢ـ٧٨) ، استطاع الرئيس السادات بلورتها لدى الادارة الاميركية . فمجرد ادراج اسرائيل في « وضع متساو مع الدول العربية ، وفقدانها لمكانة الاولوية في موضوع التسليح في السياسة الاميركية ، يشكل ، دون ادنى شك ، محاولة ممكنة لاستعمال الضغط على اسرائيل » (دافار ، ٢٠ و ٢١ـ٢ـ٧٨) . وقد يخلق ذلك مشاكل عديدة في العلاقات الاميركية الاسرائيلية، «لا يمكن التكهن بتأثيرها الحقيقي» ، خاصة وانها تشكل في نظر اسرائيل ، خطوة اولى نحو « التزام اميركي بأمن مصر » ، لا محالة آت في اعقاب صفقة الطائرات وذلك الى جانب « الالتزام الاميركي بأمن اسرائيل » (معاريف ، ١٧ـ٢ـ٧٨).

ولكننا اذا ما اجرينا تحليلا دقيقا لبيان البيت الابيض الغامض ، بعد يومين من المحادثات المكثفة والسرية في كامب دفيد ، نرى ان « الرئيس كارتر قد شرح للسادات، كيف ترى الولايات المتحدة مهمتها ومسؤوليتها في عملية السلام ، كصديقة للطرفين ، وصاحبة مصلحة في السلام والاستقرار في المنطقة » (هآرتس ، ٧ـ٢ـ ٧٨) . ويعني ذلك ، ان الولايات المتحدة ، لا ينبغي عليها الاهتمام بالمطالب المصرية ، دون الاخذ بعين الاعتبار ، مصالح ومشاعر اسرائيل ، وانها لا تنوي ان تتخلى عن دور « الوسيط الصديق » فقط ، الذي يريد «خير الطرفين » . ويبدو ايضا ، ان الرئيس الاميركي لم يوافق على توجه السادات المتعجل في المفاوضات ، ولكنه « تفهم رغبة السادات اكثر في التقدم دون تأجيل » وان لم يعتبر نفسه ملزما بالموافقة على هذه الرغبة مطلقا .

وعلى كل حال ، فقد قال بريجنسكي للسادات « كل الاشياء التي كانت من المفروض ان تقال له » (هآرتس ، ١٣ـ٢ـ ٧٨) ، وهي انه يترتب عليه ان «يستأنف المفاوضات ، وان لا يفاجيء الادارة الاميركية بأي خطوة دون تنسيق معها، وان يستعد لمفاوضات طويلة وشاقة ، دون ان يتوقع من الولايات المتحدة ان تفرض على اسرائيل اي حل » (المصدر نفسه) .

اما الرئيس كارتر ، فقد قال لزعماء اللوبي اليهودي ، واصدقاء اسرائيل في الكونغرس الاميركي علنا : « لا اعرف كيف اخرج من هذا الوضع » ، ثم توجه اليهم سائلا : « فهل تعرفون انتم ؟ » (هآرتس ، ١٣ـ٢ـ٧٨) .

توفيق فياض

قضايا عسكرية

اثر اعلان وزير الخارجية الاميركي « سايروس فانس » في ٧٨/٢/١٤ عن قرار الحكومة الاميركية بالموافقة على بيع اسرائيل ٧٥ طائرة من طراز «ف ـ ١٦» و ١٥ طائرة من طراز « ف ـ ١٥» ، وبيع مصر ٥٠ طائرة من طراز « ف ـ ٥ اي » ، وبيع السعودية ٦٠ طائرة « ف ـ ١٥ » ، اثارت اسرائيل و «اللوبي » الصهيوني ، ضجة اعلامية كبرى في الصحافة الاميركية والغربية عامة ، وفي لجان الكونغرس الاميركي ، تهدف الى الابقاء على الجانب الاسرائيلي من الصفقة وتوسيعه اذا امكن، وإلغاء الجانب العربي منها ، خاصة بالنسبة لطائرات « ف ـ ١٥» التي ستباع للسعودية ، وذلك من خلال الادعاء بأن ميزان القوى العربي الاسرائيلي سيختل بقوة لصالح العرب اذا ما نفذت الولايات المتحدة الجانب المصري ـ السعودي من الصفقة . وبدأت هذه الحملة بالنداء الذي وجهه « مناحم بيغن » رئيس الوزراء الاسرائيلي ، في « الكنيست » الى الرئيس الاميركي « كارتر » يوم ٧٨/٢/١٥ ، والذي بدأه بتوجيه الشكر اليه لموافقته على بيع اسرائيل ٩٠ طائرة متطورة ، وانه يأمل في ان تزيد واشنطن عدد هذه الطائرات، ثم طالبه باعادة النظر في قراره تزويد مصر بأسلحة هجومية والسعودية بأكثر الطائرات تطوراً . وفي اليوم ذاته اتصل احد الرسميين الاسرائيليين الموجودين في « واشنطن » بعدد من الصحفيين وتلا عليهم بيانا قال فيه ان بيع السعودية ٦٠ طائرة « ف ـ ١٥» سيؤدي الى مواجهة في الفضاء بين مرتزقة اميركيين وطيارين اسرائيليين جميعهم في طائرات اميركية الصنع ، وذلك على اساس ان طائرة « ف ـ ١٥» متطورة جدا وهي تتجاوز مؤهلات الطيارين السعوديين ..

وفي مقابلة مع التلفزيون الاسرائيلي قال وزير الدفاع الاسرائيلي « وايزمن » يوم ٧٨/٢/١٧ ان الوعد الاميركي ببيع ٥٠ طائرة « ف ـ ٥ اي » الى مصر و ٦٠ طائرة « ف ـ ١٥ » الى السعودية هو « خطوة تكتيكية سيئة من واشنطن ستكون لها مضاعفات على مباحثاتنا مع المصريين » واوضح ان الجيش يدرس مشكلات استراتيجية نتجت عن الوعدببيع الطائرات للعرب . وان احدى المسائل التي ستجري اعادة النظر فيها هي مستقبل المطارات العسكرية في سيناء ، والتي كان « بيغن » قد اعلن استعداده لاخلائها .

اما « ديان » وزير الخارجيةالاسرائيلي، فقد صرح عقب عودته من الولايات المتحدة يوم ٧٨/٢/١٧ ، بأن طائرات « ف ـ ١٥» التي ستباع للسعودية يمكنها تغطية كل سماء اسرائيل من دون ان تحتاج الى التزود بالوقود اثناء الطيران ، ويمكنها الوصول الى ميناء ايلات في عشر دقائق واضاف بأن هذا « سيكون له اثر على الوضع العسكري في اسرائيل وعلى كل ما نعتبره حدودنا التي يمكن الدفاع عنها» ثم الح الى احتمال مطالبة اسرائيل

بالاحتفاظ بمطارات سيناء نتيجة لهـــذه الصفقة ، خاصـــة وان قاعدة التبـــوك السعودية ستكون اقرب الى اسرائيل منها الى العراق ٠

وتجنب الاشارة الى اهمية طائرات « ف ـ ٥ اي » التي ستباع الى مصر ٠

وفي الولايات المتحدة الاميركية ذاتهـا قال السناتـــور الديمقراطي « باتريـــك مونيهـــان » في ٧٨/٢/١٥ انه يعتقد ان الكونغرس لن يوافق على بيع طائـــرات « ف ـ ١٥ » للسعودية ، وان بيع طائرات من طراز « ف ـ ٥ اي » لمصر سيدمـــر ميزان القوى العسكري في الشرق الاوسط!

كمـــا صرح « كرنس لونـــغ » رئيس اللجنة الفرعية الخاصة ببحث العمليـــات في الخارج ، بأنه سيكرس كل جهـــوده لمعارضـــة مقترحات بيع معدات عسكرية لمصر ! ٠

واعرب العديد من اعضاء الكونغـــرس عن معارضتهم لانجاز الصفقة ، مما دفـــع ممثلي الادارة الاميركية ومؤيديها فـــي الصحافة ومراكز البحـــوث السياسيـــة والاستراتيجية الى الرد على منتقـــدي الصفقة ، التي يرونها تخدم المصالح العليا للولايات المتحدة الاميركية في المنطقة ٠

فقد ابلغ « هارولد براون » ، وزيـــر الدفاع الاميركي ، احدى لجان الكونغـــرس يوم ٧٨/٢/٢٣ ، ان البيع المقترح للطائرات المذكورة الى الدول الثلاث يشكل صفقـــة واحدة من وجهة نظر الحكومة الاميركيـــة القاضية بالمحافظة على التوازن العسكري في الشرق الاوسط ، الى جانب المتطلبات السياسية التي يترتب عليهـــا تلبيتها ، وان الحكومة المذكورة هي التي تقرر ما يشكل برنامجا متوازنا لبيع الاسلحة للشـــرق الاوسط ٠

وقال وزير الخارجية الاميركي «فانس» امـــام لجنة تابعة لمجلس النواب يـــوم ٧٨/٢/٢٢ « ان دورنا كوسطاء ، الذي يثق فيه الطرفان ، سيواجه نكسة اذا رفضنـــا تلبية القسم الاكبر من هذ الصفقات ٠٠٠ واذا فصلتهم بين مختلف العناصـــر التي يتألف منها مشروعنا فانكم تلحقون الضرر بتوازن القوى العسكرية في منطقة الشرق الاوسط » ٠٠

كما قال احد كبار المسؤولين في الحكومة الاميركية ، في الفترة ذاتها ، ان اسرائيل لديها بالفعل التفوق الجوي ، وانه اذا كان يخشى من تناقص هذا التفوق ، فان ذلـــك سيكون من نسبة ١٠٪ الى نسبة ٩ : ١ واستطرد موضحا ان الطائرات لن تسلم قبل عام ١٩٨١ او ١٩٨٢ « واذا لم نكن قد توصلنا الى تسوية سلمية حتى ذلـــك التاريخ ، فاننا سنصبح في مازق حقيقي ٠٠ واذا ما نظرنا ، بشكل موضوعي ، الى ما تحتاجـــه اسرائيـــل من الطائـــرات ، فستجـــد انهـــا لا تحتاج الى شيء ٠٠٠ لا شـــيء بالمـــرة » ! وايـــد الباحث بالمعهد الاميركي لابحاث السياسة العامـــة في واشنطن ، « دال ر٠ تاتيّن » ، الرأي المذكور انفا حيث قال : « ان الصفقة لن تخل بميزان القوى العسكري ٠٠ بل انها في الحقيقة ستزيد من تفوق اسرائيـــل النوعي » ! ولكن « اللوبي » الصهيوني في الولايات المتحدة تصدى بقوة لهذه الاراء الاميركية من اجل افشال الجانب السعودي بالذات ، من الصفقة ، اذ قدمت اللجنـــة الاميركية ـ الاسرائيلية للعلاقات العامة، والمسماة « ايباك » ، مذكرة الى النائـــب الاميركي « لي هاملتون » ، رئيس اللجنـــة الفرعية لاوروبا والشرق الاوسط والتابعة للجنـــة العلاقات الدولية بالكونغرس ، اوضحت فيها تفصيلا اسباب معارضتهـــا للصفقة ومخاطر وجود طائرات « فـــ١٥ » لدى السعودية ، وردت وزارة الخارجيـــة الاميركيـــة عليها بمذكرة مضادة اوردت الصحف بعض فقراتها ٠

وفي اوائل اذار (مارس) الحالي استقال « مارك سيغل » ، مساعد الرئيس « كارتر » ، الذي يلعب دور همزة الوصل بين كارتر واليهود الاميركيين ، احتجاجا على صفقة الطائرات المقترحة للسعودية ومصر ، ثم ادلى بحديث لراسل الاذاعة الاسرائيلية في « واشنطن » في ١١-٣-٧٨ ركز فيه هجومه على الجانب السعودي من الصفقة ، من حيث مخاطر استخدام طائرات « ف - ١٥ » ، التي ستباع للسعودية لقاعدة « تبوك » الجوية القريبة نسبيا من « ايلات » فقال « ان لدي معلومات الان عن وجود صواريخ « هوك » في « تبوك » ، وان هذه البلدة هي قاعدة جوية عسكرية.. وان هذا يجعلني افكر بشكل منطقي ، لان وجودها الى الجنوب من ميناء « أيلات » يمكن أن يستخدم كنقطة انطلاق لهجمات على اسرائيل » .

وحتى يمكن لنا تكوين رأي موضوعي عن الصفقة المذكورة ، يخرج بنا من دوامة الحرب الاعلامية الصهيونية ، وكشف حقيقة اهداف السياسة الاميركية من وراء الصفقة ، لا بد لنا من اجراء تحليل موضوعي موجز لاحتمالات تغيير ميزان القوى العربي - الاسرائيلي نتيجة للصفقة المذكور حال تنفيذها ، من خلال ما يمكن ان يضيفه للقوة الجوية لكل من اسرائيل ومصر والسعودية كما ونوعا ، ضمن الاطار العام لقدرات كل منها القتالية والتنظيمية والقيادية ، وعلى ضوء الدراسة المقارنة للميزات النوعية للطائرات المقترح بيعها للدول الثلاث ، المستندة على بيانات المواصفات الفنية للطائرات المذكورة الملحقة بهذه الدراسة ..

زيادة قوة الطيران الاسرائيلي كما ونوعا :

يضم الطيران الاسرائيلي حاليا نحو ٦٨٠ طائرة حربية ، من بينها نحو ٢٥٠ من نوع « فانتوم » ، و ٢٧٥ من نوع « سكاي هوك » و ١٠٠ من نوع « كفير » و ٣٠ من نوع « ميراج ٣ سي » و ٢٥ من نوع « ف - ١٥ » .

ويبلغ اجمالي القوة النارية القصوى لهذه الطائرات في حالة استخدامها في القصف الارضي نحو ٣٢٤٠ طنا من القنابل (وهو مجرد فرض نظري يتم التوصل اليه على اساس جميع الحمولات القصوى من القنابل لجميع الطائرات ، بما فيها المقاتلات المعترضة من طراز كفير ، ودون حمل اي وقود خارجي ، ومن ثم يكون المدى قصيرا) اما في حالة استخدام هذه الطائرات في عمليات الاعتراض والقتال الجوي القريب (باستثناء قاذفات الهجوم الارضي من طراز « سكاي هوك » التي لا تصلح لمثل هذه المهمة اصلا) ،فان اجمالي قوة نيرانها المضادة للطائرات تبلغ نحو ٢٠٥٠ صاروخا جو - جو ، من انواع « شفرير » و « سبارو » وربما « سايدويندر » . وعند تسلم الطيران الاسرائيلي للطائرات الجديدة (٧٥ طائرة « ف ١٦ » و ١٥ طائرة « ف - ١٥ ») ، ستزيد القوة النارية للاعتراض والقتال الجوي نحو ٢٤٤٠ صاروخا جو - جو .

وذلك على اساس عدم حساب طائرات « الكفير » التي ستكون قد انتجت ودخلت الخدمة بالسلاح الجوي الاسرائيلي من الان وحتى العام ١٩٨١ او ١٩٨٢ ، وعلى افتراض عدم نقصان القوة الحالية للطائرات بسبب حوادث الطيران او خسائر اي عمليات قتالية او اخراج اي طائرات قديمة من الخدمة .

وفضلا عن الزيادة التي ستترتب في مجالات اجمالي عدد طائرات السلاح الجوي الاسرائيلي ، واجمالي قدرته النارية في حالتي القصف والقتال الجوي ، فان الـ ٩٠ طائرة الجديدة ستشكل اضافة

نوعية بالغة الاهمية للسلاح الجوي ، على طريق تحديثه بجيل جديد من اكثر الطائرات تطورا في الترسانة الجوية الاميركية ، اذ ان طائرات « ف ـ ١٥ » مصممة اصلا لتواجه « الميغ ـ ٢٥ » ، وطائرات « ف ـ ١٦ » قادرة على مواجهة « الميغ ـ ٢٣ » بكفاءة ، وذات قدرات قصف ارضي جيدة ، وكليهما يشكلان جيل الثمانينات من الطائرات الاميركية وسوف يحلان تدريجيا محل طائرات « الفانتوم » في كل من السلاحين الجويين الاميركي والاسرائيلي ·

ولا شك في ان الولايات المتحدة تهدف من وراء تزويد اسرائيل بهذه الطائرات والـ ٢٥ طائرة « ف ـ ١٥ » التي زودتها بها من قبل ابتداء من ٢٠ـ١٢ـ١٩٧٦ ، وطوال عام ١٩٧٧ وحتى الان ، الى جعل الطيران الاسرائيلي في موقع التقدم في التفوق النوعي ، وفي قوة النيران ،بالنسبة للاسلحة الجوية العربية الرئيسية القريبة منه ، خاصة بعد ان بدأت تحصل على طائرات « ميغ ـ ٢٣ » و « ميغ ـ ٢٧ » و « ميغ ـ ٢١ بيسي» و « السوخوي ـ ٢٠» وبكميات تتزايد حاليا بالنسبة للسلاح الجوي السوري والسلاح الجوي العراقي ·

تجميد تطور الطيران المصري نوعيا :

وبالمقابل فان الصفقة الاميركية تشكل اضافة كمية قليلة الاهمية من حيث اجمالي قوة النيران ، من حيث القصف والاعتراض، وخطوة الى الوراء من حيث نوعية الطائرات المقاتلة ، بالنسبة للطيران المصري ، الذي تتألف قوته الراهنة من نحو ٥٣٤ طائرة حربية ، منها ٢٥٠ « ميغ ـ ٢١ » و ٣٢ « ميغ ـ ٢٣ » و ١٨ « ميغ ـ ٢٧ » و ٥٠ « ميغ ـ ١٧ » و ٥٢ « ميراج ٣ اي » و ٤٨ « سوخوي ـ ٢٠ » و ٦٠ « سوخوي ـ ٧ » و ٢٥ قاذفة « ت يو ـ ١٦ » و ٥ قاذفات « اليوشن ـ ٢٨ » · وتبلغ القوة النارية الاجمالية لهذه الطائرات ، في اقصى حالات تسليحها ، نحو ١٥٧٠ طنا من القنابل ونحو ١٢٩٤ صاروخا جو ـ جو · وعند تسلم مصر للخمسين طائرة « ف ـ ٥ اي» ستزيد القوة النارية للسلاح الجوي المصري الى حوالي ١٦٩٥ طنا من القنابل ، ونحو ١٤٩٤ صاروخا جو ـ جو · وهذا على افتراض استمرار كل قوته الحالية في الخدمة العملية الفعالة حتى العام ١٩٨١ ، وهو افتراض مشكوك كثيرا في امكان تحققه واقعيا ، في ظل تفاقم مشكلة قطع الغيار والصيانة والتسليح بالنسبة للطائرات السوفيتية الصنع ، التي تشكل غالبية قوة الطيران المصري ، نظرا لاستمرار تدهور العلاقات السياسية بين مصر والاتحاد السوفييتي ·

وفي الوقت ذاته فان تسليح الولايات المتحدة لمصر بطائرات « ف ـ ٥ اي » ، تحت اضواء الالة الاعلامية الضخمة التي تضفيها على اهمية هذا التسليح من الناحية السياسية ، وابراز المسألة على انها معركة قاسية تحققها الحكومة الاميركية في وجه الضغوط الصهيونية القوية ، انما يشكل في واقع الامر اضعافا للقوة النوعية للطيران المصري ، او تجميدا لها في افضل الظروف في الوقت الذي يتم فيه تطوير القوة النوعية والكمية للطيران الاسرائيلي على النحو المشار اليه سابقا · ذلك لان طائرات « ف ـ ٥ اي » تعد من طائرات الصف الثالث الاميركية ، على حين ان طائرات « ف ـ ١٥ » و « ف ـ ١٦ » تعد من طائرات الصف الاول ·· وهي تنتج اساسا للتصدير الى الدول الصديقة للولايات المتحدة المعتبرة من حلفاء ، او اصدقاء ، الدرجة الثانية مثل كوريا الجنوبية وتايوان وتايلاند والاردن والسودان · على حين انها كانت تسلح حلفاء الدرجة الاولى بطائرات « الفانتوم »، وهي حاليا تسلحهم بطائرات « ف ـ ١٥ »

و «ف ـ ١٦»، وذلك مثلما تفعل مع اسرائيل ودول اوروبا الغربية وايران وقد قال « ادوارد لوتواك » ، المدير المساعد لمركز ابحاث واشنطن للسياسة الخارجية ، في بحثه المقدم بندوة حرب اكتوبر الاسرائيلية المنعقدة في جامعة تل ابيب عام ١٩٧٥ ، ان الولايات المتحدة كانت وحتى وقت قريب تبيع للقوى العسكرية التي بلغت سن الرشد نوعا واحدا من المقاتلات هو « ف ـ ٤ » ، اي « الفانتوم » على حين كانت تبيع طائرات « ف ـ ٥ » للاطفال ! ونظرة سريعة الى البيانات الفنية المقارنة الملحقة توضح مدى تخلف الطائرة « ف ـ ٥ اي » بالقياس لطائرات « ف ـ ١٥ » و « ف ـ ١٦ » ، فضلا عن « الفانتوم » بطبيعة الحال · وفي الوقت نفسه فن طائرات « ف ـ ٥ آي » ، التي صممت على اساس أن تكون مقاتلة منافسةللميغ ـ ٢١، تعد في الواقع ذات قدرات قتالية اقل من قدرات الجيل الثاني من طائرات الميغ ـ ٢١ المسمى بطراز « م ف » ، التي تشكل غالبية « الميغ ـ ٢١ » المصرية ، والعربية عموما · اذ ان سرعة « الميغ ـ ٢١ م ف» القصوى تبلغ ٢٢٣٠ كلم/ساعة مقابل ١٧٠٠ كلم/ساعة للطائرة « ف ـ ١٥ اي »، كما ان معدل صعود « الميغ ـ ٢١ م ف » ١٧٥ مترا/ثانية مقابل ١٦٠ مترا / ثانية بالنسبة لـ « ف ـ ٥ اي » ، وهي ميزة هامة بالنسبة للقتال الجوي · كما ان مدى « الميغ ٢١ م ف » وهي مسلحة بأربعة صواريخ جو ـ جو يصل الى ٨٠٠ كلم ، مقابل ٦٩٠ كلم لـ « ف ـ ٥ اي » وهي مسلحة فقط بصاروخين جو ـ جو ·· وكذلك فان « الميراج ـ ٣ اي » الموجودة لدى الطيران المصري تفوق الـ «ف ـ ٥اي» من حيث السرعة وبعد المدى (اقصى سرعة لها ٢٢٣٠ كلم ساعة وتستطيع ان تصل بحمولة ٩٠٠ كلغ من القنابل الى هدف يبعد ١٣٠٠ كلم على ارتفاع علي ـ منخفض عالي ، و ٦٥٠ كلم على ارتفاع منخفض ـ منخفض ـ منخفض) ·

وقد علق الرئيس السادات على الصفقة في حديث له بمجلة اكتوبر يوم ٧٨/٢/١٨ فقال « ان هذه الطائرات التي ستتسلح بها مصر لا تقارن بما لدى اسرائيل او بما ستعطيه اميركا لاسرائيل. لان هذه الطائرات هي من الدرجة العاشرة· لكن الذي ازعج اسرائيل هو ان يكون هناك اتصال بين مصر واميركا يصل الى حد تسليح مصر » ·

اما الرئيس « كارتر » فقد صرح في ٧٨/٢/١٨ بأن بيع مصر طائرات « ف ـ ٥ آي » كان بسبب خشية الولايات المتحدة من اجتياح ليبيا ، وربما اثيوبيا ، لمصر من دون مساعدات اسلحة اميركية ! كما تناول الموضوع ذاته في حديث اخر له يوم ٧٨/٣/٩ فقال ان بيع مصر طائرات « ف ـ ٥ اي » هو « اقتراح شرعي لان المصريين يعانون الخطر السوفييتي وقد اتكلوا كليا علينا · وهذا تطور مشجع في الشرق الاوسط ، بل هو من اهم التطورات واعمقها ··· وليس لدي اي شعور بالاعتذار من اقتراحي بيع الاسلحة ، لان هذا البيع يبقي التوازن العسكري في الشرق الاوسط على حاله · واستطيع ان اقول من دون شك ان القدرة المتفوقة لسلاح الطيران الاسرائيلي بالنسبة الى الدول المجاورة لا تزال قائمة » ·

طائرات « ف ـ ١٥ » للسعودية لن تهدد اسرائيل :

وتركز اسرائيل حملتها الرئيسية المضادة للصفقة على اقتراح بيع السعودية ٦٠ طائرة « ف ـ ١٥ » ، على اعتبار ان هذه الطائرات مماثلة لاحدث ما في ترسانتها من الطائرات الاميركية الصنع ، وانها قد تشكل خطرا على ميزان

القوى الجوي العربي ـ الاسرائيلي ، في حال استخدامها بصورة مباشرة او غير مباشرة ضد اسرائيل في اي حرب مقبلة.

وربطت مخاطر استخدام هذه الطائرات باحتمال اتخاذها من قاعدة « تبوك » الجوية مركزا لعملياتها ، نظرا لان هذه القاعدة تبعد نحو ٢١٦ كلم عن الارض المحتلة في فلسطين . ولكن وزير الخارجية الاميركي « فانس » اكد امام لجنة تابعة لمجلس الشيوخ الاميركي يوم ٧٨/٣/٩ أن ايا من هذه الطائرات لن توضع في قاعدة «تبوك»

وان واشنطن ستعرف ما اذا كانت هذه الطائرات ستوضع هناك ، لان هذا الطراز يتطلب منشات ضخمة لصيانته . كماأكدت مذكرة وزارة الخارجية ، التي ردت بها على مذكرة لجنة « ايباك » الصهيونية ، بأن هذه الطائرات لن تسلح بصواريخ جو ـ جو الاكثر تطورا من طراز « سايدوندر» ومن ثم ستكون قدرتها القتالية اضعف من الطائرات الاسرائيلية المماثلة . كما اكدت انها لن تكون مجهزة لحمل اقصى حمولة من القنابل ، ومن ثم لن تهدد اسرائيل بقصف ارضي فعال ، واكدت ايضا ان « القدرة القتالية للطيارين الاسرائيليين وخبراتهم معروفة . ولا يمكن في الوقت الحاضر مقارنة الطيارين السعوديين بهم . ولن تشكل طائرات « ف ـ ١٥ » السعودية اي تهديد لا سابق له للمدن والقواعد الاسرائيلية » .

وهكذا يتضح لنا أن الـ ٦٠ طائرة « ف ـ ١٥ » التي ستباع الى السعودية لن تشكل اي تهديد جدي لاسرائيل ، وانها تقدم للسعودية كمجرد دعم سياسي لها ، فضلا عن اهمية الصفقة بالنسبة للولايات المتحدة من الناحية الاقتصادية ، حيث ان قيمتها مع قطع الغيار والصيانة والتدريب ستصل الى نحو ٢٥٠٠ مليون دولار .

« المواصفات الفنية »

« للطائرة « ف ـ ٥ اي » »

طائرة مقاتلة لتحقيق التفوق الجوي ذات مقعد واحد. تنتجها شركة «نورثروب» الاميركية ، وهي نوع مطور من «ف ـ ٥ أ» من حيث قوة المحرك والمدى ، وقد دخلت الخدمة العملية بالسلاح الجوي الاميركي في شباط (فبراير) ١٩٧٣ . وهي مزودة بمحركين نفاثين قوة دفعهما معا في الحالة العادية ٣١٧٦ كلغ ، وفي حالة استخدام الحراق الخلفي لاحداث تسارع مفاجيء لفترة قصيرة اثناء الاشتباك الجوي تبلغ قوة دفعهما معا ٤٥٣٦ كلغ . ويبلغ وزنها وهي خالية من التسليح ٦٩٨٥ كلغ ، ومن ثم يبلغ معدل قوة الدفع الى الوزن نحو ٠،٦٥ . ويبلغ اقصى وزن لاقلاعها في مهام القصف الارضي ١٠٩٢٤ كلغ من ثم يبلغ معدل قوة الدفع الى الوزن نحو ٠ر٤ . وتبلغ اقصى سرعة لها وهي خالية من التسليح على ارتفاع ١١ الف متر ١٧٠٠ كلم ساعة (١ر٦ ماك) ، واقصى سرعة قتالية لها وهي تحمل صاروخين جو ـ جو نحو ١٦٠٠ كلم (١ر٥ ماك) ، ويبلغ مداها القتالي في الحالة المذكورة انفا ، اعتمادا على وقودها الداخلي ، نحو ٢٨٠ كلم ، اما في حالة تزودها بخزان وقودخارجي فيبلغ مداها نحو ٦٩٠ كلم . أما في حالة قيامها بمهمة قصف نموذجية تحمل فيها ٥٠٠ كلغ قنابل وصاروخين جو ـ جو وخزان وقود خارجي فان مداها يبلغ نحو ٨٧٠ كلم بطيران عالي ـ منخفض عالي، ونحو ٢٢٥ كلم بطيران منخفض ـ منخفض ـ منخفض . ويبلغ معدل ارتفاعها في حالة الاشتباك الجوي ١٦٠ر٥٣ مترا في الثانية ، واقصى ارتفاع عملي تصل اليه ١٦ر٤٦٠ مترا .

وهي مسلحة بمدفعين عيار ٢٠ مم لكل منهما ٢٨٠ طلقة ، وصاروخين جو ـ جو قصيري المدى « أ اي م ـ ٩ سايدوندر » ، وأقصى حمولة لها من الذخائر جو ـ جو والقنابل ٣١٧٥ كلغ ٠

« المواصفات الفنية »

« للطائرة « ف ـ ١٥ » »

طائرة مقاتلة لتحقيق التفوق الجوي ذات مقعد واحد ٠ تنتجها شركة « ماكدونالد دوغلاس » ، دخلت الخدمة العملية بالسلاح الجوي الاميركي في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٤ ووصلت اول طائرة منها الى السلاح الجوي الاسرائيلي في ١٩٧٦/١٢/١٠ ، ضمن اول صفقة منها التي ضمت ٢٥ طائرة ٠ وهي مزودة بمحركين نفاثين قوة دفعهما معا في الحالة العادية ١٣٤٨٨ كلغ ، وفي حالة استخدام الحراق الخلفي ، لاحداث تسارع مفاجيء لفترة قصيرة اثناء الاشتباك الجوي ، تبلغ قوة دفعهما معا ٢٢٦٨٠ كلغ ويبلغ وزنها في حالة استخدامها في مهام المطاردة ، وهي مسلحة بأربع صواريخ جو ـ جو من طراز « سبارو » وبدون وقود خارجي ، ١٨٨٢٥ كلغ ، ومن ثم يبلغ معدل قوة الدفع الى الوزن في هذه الحالة ١ر١ ٠ ويبلغ وزنها في حالة القصف النموذجي، والتسلح بأربعة صواريخ « سبارو »وحملها ٢ خزان وقود خارجي ، ٢٥٤٠٠ كلغ ، ومن ثم يبلغ معدل قوة الدفع الى الوزن في هذه الحالة ٠ر٨٣ ٠

وتبلغ اقصى سرعة لها وهي خالية من التسليح على ارتفاع ١١ الف متر نحو ٢٦٥٠ كلم (٢ر٥ ماك) وعلى ارتفاع سطح البحر ١٤٧٥ كلم تقريبا ، وسرعتها القتالية في مهام المطاردة ٢١٢٥ كلم على ارتفاع ١١ الف متر ، و ١٣٥٠ كلم على ارتفاع سطح البحر ٠ ويبلغ معدل ارتفاعها في حالة الاشتباك الجوي ٢٥٠ مترا في الثانية واقصى ارتفاع عملي تصل اليه ١٩٤٠٠ متر٠ ويبلغ مداها القتالي في اعمال الدورية على ارتفاعات عالية ١٨٠٠ كلم ، وفي حالة مهام المطاردة وهي مسلحة بأربعة صواريخ « سبارو » ومحملة بثلاثة خزانات وقود خارجي يبلغ مداها ١٣٠٠ كلم ، وفي حالة قيامها بمهمة قصف نموذجي (٢٧٢٠ كلغ قنابل و ٤ صواريخ « سبارو » وخزان وقود خارجي و ٥ دقائق قتال جوي) يبلغ مداها نحو ١١٢٥ كلم ٠ وهي مسلحة بمدفع دوراني ذو ٦ سبطانات عيار ٢٠ مم له ٩٥٠ طلقة ، ويمكنها ان تحمل ٤ صواريخ جو ـ جو بعيدة المدى « سبارو » و ٤ صواريخ « سايدوندر » ٠ واقصى حمولة نظرية لها من القنابل (بعد اجراء تعديلات تسمح باستخدام ٥ نقاط تعليق بدلا من ٣ لحمل القنابل) هي ٥٤٥٠ كلغ ٠

« المواصفات الفنية »

« للطائرة « ف ـ ١٦ » »

طائرة مقاتلة للقتال الجوي ذات مقعد واحد ٠ تنتجها شركة « جنرال ديناميكس» الاميركية ، ستدخل الخدمة العملية في السلاح الجوي الاميركي في اب (اغسطس) ١٩٧٨ ٠ وهي مزودة بمحرك نفاث واحد تبلغ قوة دفعه في حالة استخدام الحراق الخلفي ، لاحداث تسارع مفاجيء اثناء الاشتباك الجوي ، ١١٣٤٠ كلغ ٠ ويبلغ وزنها في حالة مهام المطاردة ، وهي مسلحة بصاروخين « سايدوندر » وبدون ان تحمل وقود خارجي ، ١٠٣٤٥ كلغ ، وفي هذ الحالة يبلغ معدل قوة الدفع الى الوزن ١ ٠

ويبلغ وزنها في حالة القصف النموذجي (مسلحة بصاروخين « سايدوندر » وحمولة ٢ طن قنابل وخزان وقود خارجي) نحو ١٥ الف كلغ ، وفي هذه الحالة يبلغ

معدل قوة الدفع الى الوزن ٧ر٠ ٠ وتبلغ اقصى سرعة لها وهي فارغة على ارتفاع ١٢ الف متر ٢١٢٥كلم ساعة (٢ ماك) ، واقصى سرعة قتالية لها على ارتفاع عالي ١٨٠٠ كلم/ساعة ، وعلى ارتفاع سطح البحر « وهي خالية » ١٤٥٠ كلم / ساعة ، وسرعتها القتالية في الحالة المذكورة ١٣٢٥ كلم /ساعة ٠ ويبلغ معدل ارتفاعها في حالة الاشتباك الجوي ٣١٥ مترا في الثانية ، واقصى ارتفاع عملي تصل اليه ١٥٨٥٠ مترا ٠ ويبلغ مداها القتالي في حالة مهام المطاردة (٤ صواريخ و ٣ خزانات وقود خارجي) ٩٥٠ كلم ، وفي حالة قيامها بمهمة قصف ارضي بحمولة ٣٦٣٠ كلغ وخزان وقود خارجي يصبح مداها ٨٨٥ كلم على ارتفاع عالي ـ منخفض ـ عالي ، و ٥٢٥ كلم على ارتفاع منخفض ـ منخفض ـ منخفض وفي حالة حمولة ٤٥٠٠ كلغ قنابل بدون وقود خارجي يصبح مدى عملها على ارتفاع عالي ٥٥٠ كلم ، و ٣٢٥ كلم على ارتفاع منخفض ٠ امافي حالة مهمة قصف نموذجية (نحو ٢ طن قنابل و ٤ صواريخ جو ـ جو و ٢ خزان وقود خارجي و ٧ دقائق قتال جوي) فيصبح مداها على ارتفاع عال ٩٢٥ كلم ٠

وهي مسلحة بمدفع دوراني ذي ٦ سبطانات عيار ٢٠ مم له ٥١٥ طلقة ، ويمكنها ان تسلح بست صواريخ جو ـ جو « سايدوندر » ، وحمولة قصوى من القنابل نحو ٥ اطنان قنابل ٠

محمود عزمي

حوار مع جبرا ابراهيم جبرا

"إذا لم أكن فلسطينياً فأنا لست شيئاً"

كان ذلك في آب ١٩٧٤ · كنا نلتقي ساعات طوال في سوق الغرب حول آلة تسجيل · جبرا يتحدث وانا اسأل واناقش · وحين نأخذ استراحة قصيرة ، كان هذا الرجل لا يرتاح · يخبرني عن وليد مسعود · وليد مسعود كان منذ ذلك الصيف الذي سبق صيف ١٩٧٥ الحار الدموي ، يعيش مع جبرا ، بكل توهجه وتوتره ·

كان من المقرر ان يكون هذا الحوار الاول في سلسلة تؤرخ للصوت الادبي الفلسطيني · لكن الحرب جاءت ، وحالت اسباب اخرى متعددة دون استكمال المشروع · ولم يكن جبرا صامتا · كان يبحث عن وليد مسعود ، وكنا نحن نبحث معه ، وكنا نحن نجد هذا التوتر الفلسطيني في كل نبضة من لهب الدم والموت الذي يلفنا ·

ننشر هنا ، اجزاء من هذا الحوار الطويل · اما الاجزاء الاخرى التي سجلت او لم تسجل على الشريط ، فهي هناك على الشريط الذي تركه وليد مسعود في سيارته ، او على السنة الابطال الاخرين الذين لا يبحثون عنه ، بقدر ما يبحثون عن انفسهم ·

الياس خوري

● اذا طلب اليك ان تعرف جبرا ابراهيم جبرا ، فكيف تعرفه ؟

□ من عدم الانصاف ان يطلب الى الانسان ان يعرف نفسه الى الاخرين ، لانه يجابه احدى امكانيتين ، اما ان يتواضع ويقلل من شأن نفسه ، او يكون ميالا الى تضخيم ذاته . ويتصور ان الكثير من اوهامه هي حقائق ، ويؤكد على كبر الدور الذي لعبه في هذه القضية او تلك · اما ان يستطيع الانسان ان يكون منصفا مع نفسه ومع الاخرين ، فاعتقد انه امر صعب جدا · لذلك اجد هذا السؤال صعبا ·

ومع هذا ، اذا طلب الي ان اعرف نفسي فانني اقول ، متجنبا التواضع الزائف ، او التضخيم فيما لا يستحق التضخيم ، انني انسان قبل كل شيء ، وانني رجل ، الحب

عنده اكثر العواطف فعالية في حياته ، الحب بمعانيه الكثيرة ، وانني سعيت دائما واسعى من اجل ان ارى في حياتنا المعاصرة ما هو اروع ما يمكن ان يرى في اي حياة ، في اي عصر ، في اي بلد · هذه مثاليات عرفتها وانا صغير اكافح من اجل لقمة العيش ـ حالي ، حال الاف الناس الذين عشت معهم · لكن الحب كان دائما فاعلا في نفسي ، وهو الذي دفعني ربما الى ان ارسم واكتب واتكلم واذهب من بلد الى بلد ·

انا لا استطيع ان اغفل عن ان في الحياة بؤسا كثيرا ، وان فيها حقدا كثيرا وآلاما ، ولانني عرفت الكثير من هذه كلها ، احاول ان اتخطاها واتغلب عليها · طبعا هـــذه مثاليات ، ولكنني اعتقد انها في اساس كل ما فعلت ، وستبقى في اساس كل ما افعل · يبقى انني اعرف ان الحياة تصنعنا بشكل معين ، ويجب ان ننصاع لكـل ما تطالبنا بـه الحياة ·

انا منذ صغري انسان متمرد · في فترات كثيرة من حياتي ، لم اكن منسجما مـع محيطي ، حتى وانا صغير في المدرسة كنت منسجما مع اثنين او ثلاثة ولم اكن منسجما مع المجموع · لانني كنت اشعر انه يجب علي ان اتخلى عما اؤمن بانه هو الحقيقة او الفضيلة (الفضيلة بالمعنى اليوناني الفلسفي) ، لكي انسجم مع المجموع · فهذه الناحية من تفكيري ، اي رؤيتي للحياة كما هي ، ومحاولتي تخطيها لما هـو اقرب الى الفضيلة واقرب الى الحب ، اعتقد ان لها اثرا كبيرا في الكثير مما فعلت وكتبت وسعيت ودرست · بعد ان يقال كل هذا انظر الى بعض ما حققت ، فأرى انني لم أفعل شيئا اندم عليه ، خيرا كان ام شرا · انا من الذين يؤمنون بالفعل ما دام الفعل يستلهم فكرة نبيلة ما ، مهما كانت هذه الفكرة ، والانسان في حياته ، يفعل الكثير ويخطيء وينزلق ، ومع هذا فانا لا اندم على شيء خبرته او جربته ، وهذا امر مهم في حياتي لانني اشعر انه جزء مـــن تجربة الانسان التي تصنع الروايات والشعر والصور · ثم انني افكر لنفسي ، واقدم ما افكر للاخرين · واقولها بصراحة ، انني اذا كنت فنانا وهذه كلمة كنت اعتد بها حتـى وانا في السادسة عشرة من عمري مع انني عشت في جو لا يعرف الفن ، فأنا اختلف عن الاخرين ، وهذا من حقي · اي انني لا اهتم كثيرا فيما يعتقد الاخرون انه الصحيح ، اذا لم اقتنع به · وضعت لنفسي منهجا هو حصيلة معقدة لما نشأت عليه وخبرته ودرسته متمعنا فيه ، وانا اتبعه ولا يهمني ما يقول الاخرون فيه ، لكن الذي يهمني أن هـــذا المنهج يقود الى الحب الذي تحدثت عنه · مررت بانواع من التجربة تستطيع ان تمـلأ مئات الصفحات ، لو اتيح لي ان اخوض فيها كتابة لكي افصل هذه الناحية من حياتي · لكن هذه التجارب يتصل بعضها ببعض ضمن هذا الاطار · واعتقد ان جبرا كتب ورسم ودرس وترجم واتصل باناس اراد منهم ان يكونوا مساهمين مثله في بناء حضارة · قد تكون هذه كلمة كبيرة ورنانة ، لكنها بالنسبة الي كلمة أساسية · فانا كنت دائما ، ومـا زلت ، اريد ان اكون جزءا من امة تبني حضارة ، تساهم في بناء خير الانسان ·

● كتاباتك عن عالم الطفولة في قصصك وروايتك ، تسمح لي بأن اطرح سؤالا عن طفولتك في القدس ، انت تتحدث عن القدس كثيرا ، ماهي المؤثرات العائلية ، الاجتماعية والسياسية ، التي اثرت عليك في تلك الفترة ؟

□ طفولتي كانت في القدس وقبلها في بيت لحم ، لانني نشأت في الواقع في بيت لحم ·

وعندما اصبح عمري اثني عشرة سنة انتقلت مع العائلة الى القدس · المسافة بين بيت لحم والقدس هي ثمانية كيلومترات فقط ، لكنني اذكر عندما رحلنا من بيت لحم الى القدس ، احسست انني رحلت من عالم الى عالم · طفولتي في بيت لحم هي الاساس ، عشقي للقدس جاء لاحقا لبيت لحم · اول ما فتحت عيني فتحتهما على طرق ضيقة مرصوفة بالحجارة وفوقها عقود واقواس · فتحت عيني على حواكير فيها انواع الحيوانات والاشجار ، كنا عائلة مؤلفة من انفس كثيرة تعيش في غرفة ضيقة فيها شباك واحد ، وفيما بعد ، تنقلنا من منزل الى آخر ، وبقي بيتنا غرفة واحدة فيها شباك على الاكثر وامام الشباك عتبة ، اصبحت فيما بعد طاولتي ومكتبتي · بيت لحم كانت بالنسبة لي مدينة المسيح ايضا ، فأوجد ذلك صلة حية بيني وبينه · فانانشأت في الحقيقة في مدرسة طائفية ندرس فيها التعاليم الدينية ، ونخدم القداس نهار الاحد ، وفي تلك السن المبكرة اذكر ان صوتي كان يعتبر جميلا كصوت اي طفل ، لذلك كنا انا واطفال آخرون مثلي ، ملزمين بأن نكون اول من يذهب الى الكنيسة صباح الاحد لنؤدي تراتيل القداس · وكان ابي شديد الايمان · وكان على اميته ، يشعر ان ثقافته مستمدة من اللحظات التي يقضيها في الكنيسة · تحدثت عن ابي سابقا ، كيف كان ينهض في الرابعة من صباح يوم الاحد ويذهب الى منزل الكاهن ليوقظه من نومه ، وكنت اذهب معه احيانا الى بيت الكاهن الكهل لكي احمل ثياب الكهنوت عنه الى الكنيسة·· كان المسيح مهما وحقيقيا ورائعا ، كان يخفف عنا كثيرا · لم اشعر قط ان للفقر قدرة او قوة تمنعني من تذوق الحياة والتمتع بها ·

اذكر اننا سكنا منزلا آخر مؤلفا من غرفة واحدة ايضا ، وامامه ارض فسيحة وراءها حواكير ووديان تطل على الافق البعيد ، وكلها تدعوني اليها · كنت اركض في الوديان ، افتش عن الحلزون ، اذهب الى المغاور استكشف اعماقها الرطبة المظلمة · وفي البيت ، لكي اكون وحدي ، كثيرا ما كنت ادرس فوق شجرة توت في الحاكورة · كان لي الكثير من الاصدقاء في مثل سني ، كنا دائما في لعب مشترك وقراءة مستمرة · ومن اوائل الكتابات التي كتبتها تلقائيا آنئذ في بيت لحم ، مسرحية حاولنا تمثيلها نحن الاطفال · كنا دائما نحاول ان نمثل، نجتمع في الحاكورة ونقرر أن «نمثل» ! كان هذا منتأثير وجود مسرحيين في بيت لحم ، الاول تابع لدير الفرنسيسكان والثاني للسالسيان ، وفي هذا الاخير كانت هناك فرقة مسرحية تمثل احيانا بالعربية واحيانا بالايطالية · قبل ان ابلغ التاسعة او العاشرة ، كنت اشاهد المسرحيات بكثرة ، فدخلت فكرة الحوار وفكرة الصراع في اذهاننا ونحن في هذه السن المبكرة ، وربما كان لهذا صلة بعشقي للحوار الذي اكتبه بكثرة في رواياتي · رحلنا الى القدس وكانت تجربة اخرى في حياتنا · كانت القدس مدينة اكبر نسبيا · سكنا في منزل مؤلف من غرفة واحدة ايضا ، لكن منزلنا لم يكن محاطا بالحواكير ، وانما بغرف اخرى تسكنها عائلات فقيرة مثلنا · عشنا في حي يعج بالناس ، لكنني لم اتمرمر من الفقر · كانت الكتب تنقلني الى عالم آخر لاصلة له بالفقر وبهذا الصراع اليومي على الاشياء التافهة · وفي القدس كنت على صلة بعالم العمل ، عالم النجارين والحدادين والحجارين ، نجتمع في الحوش او في منزلنا ، والحديث يدور عن العمل وصعوباته · كانت تجربة الحياة هنا اكثر قساوة من قبل بكثير · ولقد ذكرت اشياء منهذه الحياة في قصتي القصيرة «الغراموفون» وفيروايتي «السفينة» ·· علىمقربة من بيتنا كان هناك سوق الحيوانات يقام يوم الجمعة ويأتي القرويون بحيواناتهم واغنامهم لبيعها ، واجلس في ركن جانبي منه وارسم الحيوانات والناس · اما المكان الذي سكناه ،

فكان يدعى « جورة العناب » وهو جزء من واد خارج اسوار القدس ، من ناحية بـاب الخليل ، يؤدي الى واد اخر عميق يسمى « وادي جهنم » او وادي « حنوم » · وتبين لي فيما بعد انه احد الوديان المتصلة ببعض الاساطير القديمة جدا ، والتي لها صلة بحرق الضحايا والاله تموز · بقيت هذه الاشياء الكثيرة في نفسي ، لتولد الكثير من الافكـار في السنين اللاحقة · فيما بعد اصبحت ظروفنا اشد صعوبة ، لكننا تحملنا واستمررنا ، وكان العون الكبير لي في حياتي هو أخي يوسف · كان اخي قد اصبح نجارا بعـد ان اضطر الى ترك المدرسة لان ابي اصيب بعجز منعه عن العمل · واضطر اخي الذي كـان ممتازا في دراسته ، والاول في صفه ، الى ترك المدرسة ، ليعيلنا جميعا · واضطررت انا بدوري الى العمل في العطل الصيفية · فعملت مرة عند سباك في جورة العناب باجر يومي قدره ٢٥ فلسا ، ثم اشتغلت نجارا في اكثر من عطلة ، لكن هذا لم يقطع علاقاتنـا بالكتب ، وكنا انا واخي يوسف نقرأ بمتعة لا تنتهي · وعندما انتهت دراستي في المدرسة الرشيدية ومن بعدها في الكلية العربية في القدس ، ارسلت في بعثة الى انكلترا · هذه المرحلة ، مرحلة المراهقة قبل السفر الى الخارج ، كانت مرحلة انفتاح على العواطـف الحارة والجارفة والمليئة بالحلم · فرسمت وكتبت وترجمت الكثير وأنا بين سن الرابعة عشرة والتاسعة عشرة ، واحببت اكثر من فتاة حبا عنيفا ، كان يدفعني الى الكتابة والرسم· كتبت قصصا ، ومقالات ، ومسرحية (ضاعت) ورواية (كتبتها في الرابعة عشرة ، فلم ارض عنها فيما بعد ومزقتها) ، وترجمت قصصا لاوسكار وايلد واميل زولا ، وترجمت شعرا لجون كيتس ، وجزءا من مسرحية بايرون الشعرية « سردنا بالس » ، والفصـل الاول من « بروميثيوس طليقا » لشلي ، وفصولا من حياته لاندريه موروا ، وغير ذلـك كثير ـ هذا كله قبل ان ابلغ العشرين · ونشرت بعض ما كتبت وترجمت فـي مجلـة « الآمالي » البيروتية ·

● اثناء دراستك في القدس ثم في انكلترا والولايات المتحدة ، ما هي المؤثرات الفكرية الاساسية التي جذبتك اليها في هذه المرحلة ؟·

□ في القدس كانت الثقافة تأتينا عن طريق الكتب المصرية · الثقافة العربية ، كانت في الحقيقة هي التي يجسدها الكتاب المصريون في مجلاتهم وكتبهم الموضوعة منهـا والمترجمة · اثر في طه حسين تأثيرا كبيرا ابتداء من « الايام » « وعلى هامش السيرة »· كنت احفظ صفحات من « على هامش السيرة » عن ظهر قلب ، كنا نقرأ العقاد والرافعي والمنفلوطي · اذكر اننا مررنا في فترة قرأنا المنفلوطي فيها بكثرة ، على صعوبة لغته ، واعجبتني ترجماته التي تبينت فيما بعد انها لم تكن دقيقة ، لكنها كانت جميلة مثل « بول وفرجيني » واعجبت جدا بترجمة لمسرحية ادمون روستان « سيرانودي برجراك » واعجبت بعنوان « الشاعر » ··· كنا نقرأ مجلة «كل شيء» و « مجلة الاثنين » بعد ذلك جاءت مجلة « الرسالة » ، التي لعبت دورا مهما في حياتي وحياة اقراني · وكنا نقرأ لاحمد امين وبخاصة كتابه « فجر الاسلام » ثم كان هناك اثر مدرسينا الكبير · لقد درسني اللغـة العربية في الصف السادس الابتدائي ابراهيم طوقان ، ومن بعده عبد الكريم الكرمـي (ابوسلمى) ، كما درسني اللغة العربية فيما بعد محمد خورشيد (محمد العدناني) ، وبعده مباشرة درسني الدكتور اسحق موسى الحسيني قرابة اربع سنوات · كان لهؤلاء المدرسين اثر عميق في نفسي ، ومعظمهم شعراء او يعشقون الشعر · واذكر ان الدكتور اسحق موسى الحسيني علمنا طريقة جديدة انذاك في تناول القصيدة هي الطريقة التحليلية، واعتقد ان جذور ميولي النقدية تعود الى اثر الدكتور الحسيني · بدأنا في تلك الفتـرة

ننتبه الى الشعر الانكليزي : درسنا شكسبير في نصوصه الاصلية على اساتذة قديرين كحسن الكرمي وجورج خميس ، وكنت بالغ الحماسة لدراسة الادب الاجنبي ، فاذا اعطونا عدة قصائد من كتاب شعري لندرسها ، كنت أقرأ الكتاب كله ·· وفي تلك الفترة بدأت المجلات الانكليزية وشراء الكتب الانكليزية التي كانت تصدرها دار بنغوين Pengum بطبعات شعبية · كان ثمن الكتاب قرشين ونصفا ، لكن الحصول على القرشين كان امرا عسيرا نتيجة فقرنا البالغ · كنا نعشق الكتب ونعشق الامور الثقافية ربما لانها كانت تغذي توقنا الى المجهول وحلمنا به · هنا ايضا بدأت انتبه الى نظريات وتاريخ الفن ، ووقع في يدي تلك الايام كتاب واحد في الفن هو لسلامة موسى ، فيه رسوم مأخوذة من كل الحضارات ومن كل حركات الرسم ، وعلى رداءة طبعه كنت اعتز به · واحفظ الكثير مما فيه · هذه البدايات هي التي جعلتني ، وانا في سن السابعة عشرة والثامنة عشرة، انتبه مع بعض اصدقائي الى تخلفنا الفكري · فالصراع الذي كنا نخوضه في تلك الايام مع الصهيونية ، أشعرنا بأن لا بد من سلاح فكري في مواجهتها · كنا نقول ايامئذ ان سلاحنا الفكري ، على الرغم من حركتنا الوطنية الدافقة وحماسنا وخروجنا الى المظاهرات كل يوم ، يجب ان يكون امضى وامتن ، وان تفكيرنا يجب ان يكون اعمق واكثر اتساعا · كان علينا ان نقوم بثورة فكرية · في تلك الايام عندما اعتمدنا هذه العبارة ، كنا متأثرين بفكر الثورة الرومانسية بوجه خاص · فلقد وقعت في تلك الايام في في حب عنيف لشيلي Shelley ومعه باقي الشعراء الرومانسيين الكبار · ولشلي كتاب شعري اسمه « الثورة والاسلام » · ولا بد ان اعترف انه لا يدلل على فهم عميق للاسلام، لكن شلي رأى في الاسلام قوة ثورية مغيرة ··· لقد اعطتني الثورة الرومانسية فكرة امكانية قيامنا بثورة مشابهة ·

● كيف شارك ابناء جيلك في النضال الوطني الفلسطيني ، وكيف تنظر انت اليه ، الى هذه المشاركة ؟

□ اتصور انك تقصد جيلي عندما كنت في سن المراهقة اي في الثلاثينات · فنحن منذ ان فتحنا اعيننا ونحن على وعي بنضالنا كفلسطينيين ضد الصهيونية والاستعمار البريطاني · اذكر اني وعيت الموضوع بشكل صارم سنة ١٩٢٩ ، وأنا طفل ، عندما رأيت في الطرقات المظاهرات والهتافات لاول مرة · بعد ذلك بثلاث سنوات ، عندما ذهبنا الى القدس ، اذكر المظاهرات المستمرة والاضرابات الدائمة ، التي كان يقوم بها الاهالي ·· اما نحن الطلاب في المدارس فكنا نخرج دائما الى ساحة المدرسة وننظم صفوفنا ثم نلقي الخطب ونخرج الى الشارع رغما عن اعتراضات المسؤولين ، اذ كانت مدارسنا حكومية ، اي خاضعة للاشراف البريطاني ، ونذهب الى الحرم الشريف وهناك نجتمع ثم نخرج في مظاهرة · وانا لن انسى المظاهرة التي قمنا بها سنة ١٩٣٦ والتي نظمها الطلبة ، واعتقد ان اضراب الـ ٣٦ بدأ باضراب طلبة المدارس الثانوية ، اذكر في ربيع ١٩٣٦ كيف ان حركة الطلاب التي بدأت في يافا انتقلت الى القدس ، واذكر (وقد كنت طالبا في الكلية العربية) كيف خرجنا من الصفوف دفعة واحدة ذات صباح في اوائل شهر نيسان وجلسنا في ساحة الملعب ثم خرجنا في مظاهرة كبيرة عنيفة ، انضم اليها مئات الطلاب من المدارس كلها واطلقت علينا الشرطة النار ··· هذه كانت البداية التي ادت الى الاضراب فيما بعد · كان هناك من الشباب من استجاب الى حركة عز الدين القسام قبل ذلك ، لكنني لم اعرف عنهم اي شيء بالتفصيل · لم اشعر ان الكفاح المسلح دائما على صلة بجمهور المدينة ، اي اننا في المدينة ، قد نقوم بمظاهرة ونهتف ونتعرض للضرب والاذى ،

لكن كنا نشعر ان السلاح نادر ، وهو في ايدي اناس قلائل ، وكان يعطى عادة للقرويين· القلائل فقط من شباب المدينة اتيح لهم أن يتدربوا على حمل السلاح او اطلاق النار (طبعا كانت هناك تنظيمات سياسية لا مجال للدخول فيها هنا ·) وانا كشاب صغير من بيئة فقيرة في المدينة ، لم اكن على صلة بأحد من هؤلاء ، مساهمتي ومساهمة اقراني كانت في هذا الكفاح المستمر بالمظاهرات واحيانا بكتابة المقالات القصيرة · اذكر ان من اولى المقالات التي كتبتها مقالة عنوانها « ثورتنا المباركة » ــ ولا اذكر اين نشرتها ، وكان عمري ١٥ او ١٦ سنة عندما كتبت هذا المقال · الشيء الذي تحقق فيما بعد ، والذي استغرق سنوات طويلة قبل ان يتحقق ، هو الذي كنا نردده دائما : المهم هو الحصول على السلاح والتدرب عليه وحسن استعماله · اما محاولة التغيير بالترجي والعتاب ، كما يقول عبد الرحيم محمود في احدى قصائده ، فمحاولة فاشلة حتما · في ايامنا تلك لم يكن السلاح في ايدي عدد كاف من الناس ، ولم تكن الثورة مسلحة على نطاق واسع · اما المجاهدون القلائل ، هؤلاء الافراد النبلاء الذين حملوا السلاح في اقسى الظروف ، فكانوا يتحركون في الجبال ــ في منطقة جبل النار المحيطة بنابلس ، ومنطقة الخليل ، وهكذا · انا اشعر ان مساهمة جيلنا في العمل النضالي كانت ناقصة ، لا لاننا لم نرد لها ان تكون اكمل من ذلك ، بل لان الوعي السياسي ايامئذ والتفكير بالاساليب النضالية والقتالية كان كلاهما ناقصا بسبب الظروف التاريخية التي كانت الامة تمر بها عند بدء يقظتها · في اواخر الاربعينات، تغير الموقف : تحسنت المقاومة قليلا واصبح تكتيكها اقرب الى القتال الحقيقي · ان الكثير من شبابنا ومثقفينا كانوا يؤكدون ان مقاومتنا حينئذ لم تكن على اي شيء من ذلك التنظيم الحقيقي الذي ما تحقق الا متأخرا ــ في الستينات ·

● فيما تكتبه شعرا ونثرا ، طبعا تكتب كانسان فلسطيني ،فهذا الانتماء هل تشعر به على مستوى الصوت الفلسطيني في الادب العربي ، اي هل تشعر بهذا الانتماء حين تقرأ الادب الفلسطيني المعاصر ، قصائد درويش او روايات كنفاني وغيرهما ، هل تشعر انك تنتمي الى هذا الادب بصلة ما ؟

□ انا من الذين بدأوا الكتابة قبل هؤلاء الشباب ، اي ممن يذكرون قصائد ابراهيم طوقان وعبد الكريم الكرمي في الثلاثينات والاربعينات · وهل انسى عبد الرحيم محمود الذي كان من اصدقائي ــ رغم فارق السن بيننا ــ وكان في نظري حينئذ شاعرا رائعا ؟ · كنا نشعر في كل ما نكتب اننا فلسطينيون حتى اذا لم يكن الموضوع ضد اي شيء ، وانما هو مع فلسطين ، مع التجديد ــ تجديد النفس · واليوم عندما اقرأ هؤلاء الادباء الذين ذكرت اشعر اننا معهم او انهم معنا واشعر طبعا بالانتماء ·عندما قرأت شعر المقاومة الذي يكتبه الشعراء في الارض المحتلة ، احسست انهم بالفعل جابهوا العدو وجها لوجه : اي ان شعرهم هو شعر المقاومة بالذات ، في حين ان الذين كانوا خارج الارض المحتلة ، ولم يجابهوا العدو وجها لوجه ، فقد كانت نغمتهم من نوع اخر ، قد لا تكون نغمة الضرب المباشر ، وانما هي اذا جاز القول ، نغمة الضرب المستمر اللامباشر ، بكل ما فيها من تحريض وتحريك· اما الانتماء ، انتمائي الفلسطيني ، فهو انتماء الفلاح الى ترابه ، انتماء المزارع الى شجرته ، انتماء ساكن الشارع الى شارعه · هكذا احببت القدس ، وهكذا احببت فلسطين كلها ، واحببت ارضي فيها حيث همت ، وعشقت ، وحلمت مع انني لم املك شبرا من الارض ، ولكنني اذكر التراب في القدس والصخور في القدس ، كانني اذكر جواهر الدنيا · فالانتماء هو انتماء العشق والتداخل ، وحين تنتمي الى شيء كذلك، لا يمكن ان تفصم نفسك عنه لانه هو انت · اذا لم اكن فلسطينيا فانا لست شيئا ·

● تقول في مقال عنوانه « الشاعر الفارس عبد الرحيم محمود » : « هذا كان عبد الرحيم محمود الشاعر الفارس الاول في شعرنا الحديث الذي اتبع القول بالفعل ، واقبل على الاستشهاد في سبيل فلسطين ، يرمي العداة بقلب من حديد وقصيد من نار » · يوحي هذا المقال انك تعطي مثال عبد الرحيم محمود بوصفه الشاعر الحقيقي · هل تعتقد حتى الان ، وقد مضى على كتابة هذا المقال تسع سنوات ، ان هذا النموذج هو نموذج الشاعر الامثل ؟

□ هو النموذج الامثل للشاعر المحظوظ الذي يتاح له ان يقاتل ، والذي يصمم على القتال ، ويخلق الفرصة لكي يقاتل · كتبت هذا المقال في اوائل سنة ١٩٦٥ ، لكي يكون حديثا للاذاعة (وهذا يعلل قصره النسبي) · الذي اعجبت به في عبد الرحيم محمود هو انه لم يكن كالكثيرين من الشعراء الاخرين الذين يتحدثون عن النار ، ولكن دائما يتجنبونها ان تتحدث عن النار شيء وان تجابهها شيء اخر · اما ان تتحدث عن النار وتجابهها في آن معا ، فهذا شيء امثل واروع · ولذلك سميته بالشاعر الفارس المتنبي ، وهذه بالغة الاهمية بالنسبة الى بعض من اروع ما في تقاليد الشعر العربي ، من طرفة وامرىء القيس الى المتنبي ·

● اعتقد ان اول عمل متكامل كتبته ،كان رواية « صراخ في ليل طويل » ،ثم مجموعة « عرق » · وتقول في احدى مقالاتك على ما اذكر انك كنت في هذه الفترة تكتب شعرا انكليزيا ، لعدم قدرة الشعر العربي على التجاوب مع طموحاتك او نظريتك · كيف تفهم اليوم هذه الاستحالة ، واستحالة الكتابة بالعربية ، وما هي مداليلها ؟

□ في سؤالك شيء من الالتباس الزمني · كتبت « صراخ » سنة ١٩٤٦ في صيف واحد· اما قصص « عرق » فكتبتها بين ١٩٤٦ و ١٩٥٦ · اما الانكليزية فكتبت بها كثيرا بين ١٩٤١ و ١٩٤٧ · وهنا اكشف لك عن سر : لقد كتبت « صراخ في ليل طويل » اصلا باللغة الانكليزية ، ثم ترجمتها الى العربية بعد ذلك بسنوات (١٩٥٣) ، لشدة احساسي واحساس اصدقائي منذ مطلع الخمسينات بأن لا بد لنا من تثوير الاساليب ــ وان الوقت قد حان لذلك ، اذا اردنا للعالم العربي ان يتغير ــ وعليه بعد ١٩٤٨ ان يتغير · كنا نشعر مثلا ان هذا الشعر الذي يكتب ، الشعر العامودي ، شعر هائل وخصوصا ما قرأنا ودرسنا منه في المدرسة · فالمتنبي وابو تمام لا يمكن ان يجاريهما او يقلدهما احد واي شيء يكتب على غرار شعرهما هو حتما اضعف منه · الحياة تبدلت ، ايقاع الحياة تبدل ، وما نريده من الحياة تبدل · شعر علي محمود طه الغنائي وجدته سخيفا في فترة لا نستطيع فيها الغناء · واذا كان لا بد من الغناء فهو الغناء بأعلى صوت باشياء ارهب واصعب من الجندول والشقراء · دخلت التيه ، وكان تيها في المحيطات الصاخبة · وكان في اكتشافنا للحضارة الغربية نوع من التمزق ، لاننا نريد ان تكون حضاراتنا في هذا المستوى · واكتشافنا لمشاكلنا السياسية كان ايضا شيئا يمزق · لذلك شعرت فجأة ،رغم انني منذ صغري اكتب العربية بحب ، ان هذه اللغة لا تستجيب لحاجتي · لغة احمد حسن الزيات بجماليتها المفرطة وتنميقها السطحي لا تستجيب لحاجتي · وكنت قد اطلعت في هذه الاثناء على الشعر الانكليزي ، والشعر الانكليزي المعاصر بوجه خاص ، لا اليوت وحده ــ بل الكثير من الشباب الذين كتبوا شعرهم في خنادق الحرب وتحت قنابل الموت، فأحسست انهم اقرب الى تجربتي · ·بدأت بكتابة هذا الشعر وانا طالب في انكلترة واستمررت به بعد عودتي الى القدس ، ونشرت الكثير من القصائد في لندن ، وفي مجلة كانت تصدر في القدس اسمها « فورم Forum » والذي لم انشره كثير · وربما كان

تأثري في تلك الاثناء بلوي ماكنيس اكثر من تأثري باليوت ، ولو ان اليوت لم ينج من تأثيره اديب في هذا القرن · لقد بقي هذا الشعور يلازمني الى ان ذهبت الى بغداد · « صراخ في ليل طويل » التي كتبتها بالانكليزية ترجمتها الى العربية بعد ذهابي الى بغداد ·بعد النكبة قلت : هنا يجب ان نحاول محاولة جديدة ·اما ان نبدأ من جديد او ان نسكت ! مكان الكشف الهائل هو ان البداية الجديدة ممكنة · وهنا قلت بضرورة استخدام التراث لغرض عصري · لغة الشعر ولغة القصة التي جاءتنا اغلبها عن طريق الادباء المصريين ، لا بد من تقييمها واعادة تركيبها من جديد · فلنعد الى العرب القدامى ، لنعد الى الكلاسيكيين والرومانسيين ، ولنضرب جذورنا في كل الحضارات الممكنة ، حتى نفهم تجربتنا الحضارية الراهنة على ضوء جديد غدا من الجنون الا نتمسك به بعد النكبة في فلسطين · وهذا كله ممكن رغم ان الطريق طويلة ، الا انها ايضا شاقة ومثيرة ومحفزة · ومن هنا جاءت المحاولات الجريئة في الرسم ، في الشعر في كل فنون القول والتعبير ·

● الا تعتقد ان احد مداليل الكتابة بالانكليزية هو وجود نموذج بالنسبة لكم ، هو نموذج الادب الغربي ؟

□ محتمل جدا · انت لا تستطيع ان تخلق شيئا من العدم ، لا شك ان ثقافتنا جاءت عن طريق فهمنا لتراثنا عن طريق المفاهيم التي تبلورت عن طريق دراسة الفكر الغربي · طبعا كان هذا امرا اضافيا الى الغربة الداخلية وتصميمنا على ايجاد البديل · ويخيل الي ان كل بديل فاعل هو في التحليل الاخير مزيج من الاستعارة والخلق · والعودة دائما الى نقطة الصفر ليست جنونا فحسب بل امر مستحيل ·

● تقول في مقدمة مجموعتك الشعرية الاولى « تموز في المدينة » انك تكره النعوت وتبحث عن الموسيقى الاوركسترية · فهل تعتقد ان شعرك قد استطاع الوصول الى هذه الموسيقى ؟

□ قد يكون ما حققه الانسان قاصرا عن طموحه · لكن هذا ما طمحت اليه ، وهذا ما يبدو في مجموعتي « تموز في المدينة » وفي قصائدي اللاحقة · اما التقييم فيتوقف على الناقد · المهم انني كنت ارى في كثرة النعوت ضعفا · يلجأ الانسان الى النعت عندما لا يستطيع ان يخلق الحالة المنعوتة عن طريق اللفظ ، والنعت لا يضيف بعدا حقيقيا الى التجربة · اي عندما يقول الشاعر « ليل حزين » عليه ان يوحي لنا حزن الليل بكنايات وصور، بحيث يخلق فينا الشعور بأن الليل حزين ، لا بمجرد النص على كلمة « حزين » الملحقة بكلمة ليل مجانيا · هذا الذي اردت فعله وكررت قوله · والذي كنت اردده في اكثر حديثي عن الشعر لزملائي ايضا · اما الموسيقى الاوركسترية ، فهذه ناحية تحدثت عنها كثيرا في ذلك الوقت ، لانني اردت التنبيه الى نواح في الموسيقى ، بالنسبة الى الشعر ، غير النغمة والايقاع · كنت اقصد الى تنوع الاصوات في القصيدة ، لان القصيدة العامودية هي في الاغلب قصيدة ذات صوت واحد ، في حين اني اردت قصيدة من اصوات متعددة وثيمات مركبة · ربما كان تحقيق هذا الشيء امرا صعبا ، لكنه رائع عندما يتجسد · لاحظ اهتمام بعض الشعراء بهذه النواحي في السنوات الاخيرة · قصائدي الطويلة كلها تنطوي على هذه الفكرة ·

● تؤكد في مقالك « الشعر الحر والنقد الخاطىء » الذي هو رد على كتاب نازك الملائكة ، على ثلاث مسائل جوهرية ، الاولى ، ان الشعر الحديث هو انعكاس التمرد العربي في سبيل حياة اغني واعنف ، ثم تربط ولادة هذا الشعر بهزيمة ١٩٤٨ · الثانية

هي التشديد على فردية واصالة الشاعر في « خضم مليء بكل غث » · ثالثا ، تؤكد على ان هذا التجديد قد جاءنا من اوروبا · سؤالي هو كيف تتوحد هذه المسائل في نظرك تركيبيا · حول هذه النقطة هناك العديد من الاراء ، هناك رأي يقول ان الشاعر العربي كان وحده السباق في اكتشاف الفجيعة ، وسلمى الجيوسي مثلا تقول ان الشعر العربي الحديث كان متقدما على الفكر العربي · اريد ان اعرف كيف ترى انت هذه النقاط تتوحد داخل التجربة الشعرية الحديثة ؟

□ توحيد هذه الامور الثلاثة يكاد يكون امرا منطقيا ، فأما الشعر الحديث وكونه انعكاسا للتمرد العربي في سبيل حياة اغنى واعنف فلا يحتاج الى افاضة بعد الذي قلناه · لكن المهم ان تؤكد على ان الشاعر نفسه ، اذ وجد نفسه محاطا بخضم مليء بكل غث ، اذ وجد نفسه محاطا بمجتمع لا يسير بالسرعة نفسها التي يسير فيها الشاعر ، اذ وجد نفسه مجابها بكثير من التوافه التي تفرض نفسها على الفكر باعتبارها فكرا او شعرا او فنا ، هذا الشاعر ، لو لم يكن لديه من الفردية والاصالة ما ينبهه الى تفاهة كل ذلك ، الى ضرورة التمرد عليه ، لما استطاع ان يكون صوتا للتمرد العربي الذي اجتاح الامة العربية كلها بعد هزيمة ١٩٤٨ · اعتقد انك تعلم انني اول من قال بهذا الشيء · اول من جعل هزيمة او نكبة فلسطين ١٩٤٨ الاساس في كل تجديد عرفناه في العالم العربي ، وخصوصا التجديد في اساليب القول والاساليب الفنية كلها · الشاعر او الفنان ، الفرد الواعي لهذه الامور كلها ، كان بالضرورة رائدا · وكان عليه ان يحقق ريادته عبر ايجاد الطريق التي تعكس هذا التمرد · أقول ايضا ان التجديد جاءنا من اوروبا · ليس هناك تحديد مطلق في الفنون · انا ارى ان كل تجديد له صلة بحضارة ما، باحدى فترات التاريخ او احدى الفترات المعاصرة · اذا درست التجديد الذي حدث في اساليب الفن في اوروبا في مطلع هذا القرن ، تجد ان الكثير منه اكتشف اكتشافا عن طريق الفن الزنجي او السومري او العربي · طبعا هناك دائما الصيغة الاضافية التي يأتي بها الفنان الاصيل ، وهذه موهبة لا تستطيع ان تخلقها لانها سر العبقرية وسر النبوغ · ·الان بالنسبة الى الشعراء العرب والمجددين العرب ، كما قلنا في جواب سابق . كان النموذج الغربي واضحا في اذهان الكثيرين منهم ، لا سيما الذين درسوا هذه الاساليب وفحصوها ووجدوا كيف انها اصبحت عدة الغرب في التعبير عن نفسه · هنا كان لا بد للرائد العربي من ان يدرس تجربة اوروبا ، وكان عليه ان يستفيد منها وان ينقل شيئا من هذه الشحنة ، اضافة الى الشحنات المتراكمة في نفسه ، اضافة الى ضرورة التمرد الذي اصبح هو الهواء الذي يتنفس · وكان ان تحقق التجديد في دمج هذه العناصر معا ·

● لقد شاركت في مجلة « شعر » وفي « جماعة بغداد للفن الحديث » ، على رغم الفارق الزمني بين التجربتين · في مجلة « شعر » كان الهاجس الاساسي هو الوصول الى المعاصرة ، الى مستوى الشعر العالمي ، كما كان يتردد دائما ، وفي « جماعة بغداد » نجد نفس الهاجس · في مجلة « شعر » اصرار على الرموز التموزية ، وفي « جماعة بغداد » بحث عن الاصالة في الفن المحلي القديم · كيف تقيم الآن هاتين التجربتين ؟

□ هذه اول مرة اشاهد فيها اقامة الصلة بين مساهمتي في مجلة « شعر » ومساهمتي في « جماعة بغداد » ! اكتشاف هذه الصلة امر طريف جدا ، ويستحق الوقوف عنده · في مجلة « شعر » كان الهاجس الاساسي كما قلت هو الوصول الى المعاصرة ، الى مستوى الشعر العالمي · هذا صحيح ، وهذا ما كان يتردد دائما على السنة الشعراء

والنقاد الذين يكتبون في « شعر » ، وخصوصا اصحاب المجلة · وفي « جماعة بغداد » برز نفس الهاجس ، ولو ان الهاجس الاساسي هنا كان العودة الى المحلية : العودة الى الرموز والاشكال الشعبية نفسها ، والعودة بالفنون العراقية من السطح الشعبي الى الاعماق التاريخية ، وصولا الى سومر وبابل · كان الاصرار على الرموز التموزية في « شعر » مجرد صدفة ، وصدفة عثور الشعراء على الرمز التموزي ، بدت فيما بعد وكأنها الظاهرة الاساسية للمجلة ، لفترة ما · اعتقد ان الهاجس الاول في مجلة «شعر» كان كتابة شعر يوازي قيمة واهمية التجربة العربية في الخمسينات اولا ، ويوازي قيمة واهمية التجربة العالمية في كتابة الشعر ثانيا · في « جماعة بغداد » كان هناك هاجس مماثل ، وهو الربط بين المعاصرة والمحلية ، وقد تحدثنا عن ذلك في الواقع في البيانات التي نشرناها في تلك الفترة ، وفي الخطاب الذي القاه جواد سليم في افتتاح المعرض الاول للجماعة (عام ١٩٥١) جزء اوحيته انا نفسي له ، وهو الجزء الذي يربط بين محاولات الفنانين العراقيين والمحاولات التي تجري في العالم لتصوير ما في العصر من مأساة وتمزق · هذا الشيء نفسه هو ما اردت له ان يتحقق في الشعر الذي اكتبه انا او يكتبه اصدقائي او ينشر في مجلة « شعر » ··· الامور الرئيسية التي ارادها الشعراء كانت العودة الى الصور والاشكال والرموز المحلية ، واتفق انني كنت قد ترجمت كتاب « ادونيس » (الذي هو جزء من « الغصن الذهبي » لجيمس فريزر) ، وهو يدور حول مراسيم الخصب القديمة وعلاقتها بالرمز التموزي ، وتبين ان هذا الرمز هو من اهم الرموز الحضارية التي بقيت عبر الحقب والتي كان لها صلة فيما كنا نحاول ان نفعل ، وهو ان نرى تجربتنا كتجربة فداء · التجربة الفدائية هذه تؤدي الى البعث والميلاد الجديد الذي سبق وتحدثت عنه ·

● الملاحظ في تجربة مجلة « شعر » هو غياب الفكر النظري المتكامل عن هذه التجربة، طبعا كانت هناك اتجاهات فكرية محددة : يمكن العودة مثلا الى كتابات يوسف الخال ، وكتابات ادونيس او كتاباتك انت · لكن بقي الطابع الانتقائي غالبا على تجربة المجلة ، التبرير الذي اعطي لهذه الانتقائية هو ضرورة الانفتاح وبشكل اساسي على تيارات الفن والفكر الغربية ، الا تعتقد معي ان تفسير هذا الغياب ، يمكن ان يفسر بكون مجلة « شعر » هي احدى الجسور التي بناها الفكر العربي مع الفكر الغربي ؟

□ في الواقع عندما تقول بغياب نظري عن المجلة ، فمعناه انك لا تستطيع ان تفسر هذا الغياب بشيء محدد ، كاقامة جسر مع الغرب . لانه عندئذ تبطل النظرية ان تكون غائبة ، اي ان اصحاب المجلة يملكون فكرة اساسية هي اقامة هذا الجسر · ولكني اعتقد ان الانتقائية التي تتحدث عنها ، تعود الى كون أصحاب المجلة ، لم يطالبوا اي شاعر بمنهج معين · كانوا يصرون على الجودة ، والجودة طبعا حسب مقاييس يوسف الخال وادونيس اللذين كانا المشرفين على المجلة بشكل مطلق · اما عن الغياب التنظيري، فانا في الواقع لم تكن لدي نظرية بالمعنى الذي تذكره انت ، وانما كنت اكتب للمجلة من بغداد بما كنت اؤمن به حول الشعر ونظريات الشعر · كانت مجلة « شعر » مرحلة لا بد منها للشعر العربي المعاصر ، وعندما توقفت عن الصدور فانها توقفت في الوقت الذي كان يجب فيه ان تتوقف ، لانها انهت مهمتها ، ولان ماسيلي كان يجب ان يكون ربما متصلا بنظرية ما اكثر تماسكا · هذا الرأي اقوله ارتجالا ، ولعلنا نجد ناقدا او مؤرخا يؤكد على هذا او يفنده · واخيرا فان اصحاب المجلة والشعراء الذين كتبوا فيها كانوا يصرون على حرية الشاعر في ان يقول ما يريده ، لذلك كانت المجلة تنشر

لشعراء من ذوي اتجاهات ليست متباينة فقط بل ومتناقضة · الشرط الاول الذي كـــان يؤمن به هؤلاء الشعراء هو حرية الشاعر ·

● عدا عن كونك رساما وشاعرا وناقدا ، فلقد بدأت تعرف اكثر بوصفك روائيا ، فسؤالي الاول يتعلق بعملية كتابة الرواية نفسها · كيف تكتب الرواية ؟ هل هناك مخطط يوضع سلفا لهذه الكتابة ؟ ما علاقة المقاطع الشعرية الكاملة التي نجدها في رواياتـــك ببداية الرواية وبفهمك لهذه البنية ؟ كيف تصنع شخصياتك وكيف توجهها وكيـف تتعامل معهـــا ؟

□ نادرا ما تتم الرواية نتيجة تخطيط مسبق · اخطط بعض الشيء ، اضع مخططـــا مختصرا اعود اليه مرة بعد اخرى كلما تقدمت في الكتابة ، وأغيره ، اضيف اليه اشياء جديدة · ولكن هنالك مسألة أساسية وهي ان الرواية التي اكتبهـا ليست نتيجة مخـطط اعده ، بل هي نتيجة حالة ذهنية معينة اعيش معها فترة من الزمن ، حالتي الذهنية ، هي التي تؤكد هذه التفاصيل والاشارات المسبقة وتجعلها منسجمة في النهاية ، بحيث لا تفلت هذه التفاصيل وتضيع الشخصيات ويضيع التركيب الروائي الذي احرص عليه ، ولذلـك تجدني عندما اكتب رواية ، واقضي في كتابتها بضع سنوات ، اظل طيلة هذه السنوات في هذه الحالة الذهنية · في هذه الاثناء تأتيني شطحات شعرية ، كما ذكرت ، اكتبهـا واتركها جانبا ، لانني اشعر أن مكانها سيأتي في مكان ما من السياق الروائي · تمثـل هذه المقاطع الشعرية عادة اوجها معينة لاحدى الشخصيات ، وانا يهمني ان تكـــون للشخصية اوجه متعددة · لكن لا بد من القول انني كلما بدأت بكتابة رواية ، اكتبهـــا مدفوعا بنوع من الدافع الشعري ، او الدافع اللاعقلاني ، الذي يجعلني اجلس وابـــدأ بالكتابة كأني اكتب قصيدة ·· كثيرا ما تأتيني نفحة كلامية ، فأسجلها فـي صفحتين او ثلاث ، واعرف حينئذ انني بدأت برواية جديدة ·

● الحالة الذهنية التي تتكلم عنها تؤدي الى تعددية في الشخصيات وتعددية العوالم داخل الرواية ، فكيف تصف الخط الذي تسير فيه هذه الحالة الشعرية ، لان الحالـــة الشعرية قد تتعدد داخل شخصية الشاعر وهنا يمكن ان يكون هذا الشاعر هو صـــدى الوعي الجماعي · انما هنا يقود هذا التعدد الشعري الى تعددية في الشخصيات ؟

□ هذا هو الفرق بين كتابة القصيدة وكتابة الرواية · انا اسمي القصيدة رؤيـــة أحادية ، والرواية رؤية تعددية · فعندما تأتي النفحة الاولى في شبه الهيبوبة التي تحدثت عنها ، تأتي لتوحي بالتعدد الذهني الذي سيسيطر علي لمدة طويلة · هذا الذي حدث فعلا عندما كتبت رواية « صيادون في شارع ضيق » · كتبت على ما اذكر ثلاث صفحات طويلة بخط ناعم باللغة الانكليزية ، كانت هذه الصفحات وصفا شعريا لحالة معينة تبين فيمـا بعد انها حالة البطل في بغداد سنة ١٩٤٨ و ١٩٤٩ لكني لم استعمل هذه الصفحات فـي ما بعد ، بل كانت المنطلق الذي اوحى الي بتعدد الشخصيات وتعدد المواقف ، فاستطعت ان الاحق الشخصيات فيما بعد بعقلانية واضحة جعلتني في غنى عن الدفقة الشعريـــة او الشعورية الاولى ·· عندما اريد ان اكتب رواية لا اوجد بطلا واحدا ، بل اخلـــق ابطالا ، فالبطل الواحد هو موضوعة رومانسية ، ومن صفات الرواية في القرن الماضي· أبطالي مهمون كلهم ، والعلاقات فيما بينهم هي الرواية · فالحالة الذهنية التي وجـدت في نفسي ، بشكل ما أو بقوة ما ، نتيجة انفعالاتي وتجاربي الشخصية واحلامي وكل ما يجعلني احيا واتعذب وافرح وانتشي ، هي التي تولد الحالة الذهنية المعينة في فترة معينة،

فالرؤية التعددية اذن هي الغاية الاساسية من محاولتي ، والتعددية هي التي قد تعطي ، في النهاية ، الامور التي اعالجها حقها · انا لا ارى الامور سوداء او بيضاء : بل اراها بظلال والوان لا تنتهي ··· فالتعدد في الشخصيات هو ايضا تعدد في جوانب الشخصية الواحدة · هناك اذن تعدد مضروب في تعدد ، وحاصل هذا الضرب هو الرواية التي اريد ان اكتبها ·

● اذا اردت ان اتابعك من الداخل ، قبولا بالمنطلقات والوصف الذي قدمته استطيع ان الاحظ ان في رواياتك الثلاث ، ناحيتين ، الاولى هناك شخصية مركزية توحد العمل الروائي ، وهناك من جهة ثانية الحالة الشعرية التي تنعكس في استخدام الضمير المفرد ، اي ان مجموعة الضمائر المفردة التي تتوحد حول شخصيات متعددة هي مجموعة من التجارب الشعرية اذا اردت ، تعود فتتوحد في بنية فيها الكثير من العقلانية التي تربط هذه اللحظات الشعرية · هل تعتقد ان هذا التفسير لبنية عملك الروائي ، يمكن ان يكون تفسيرا داخليا حقيقيا لما تشعر به وانت تكتب ؟

□ نعم ، ممكن · أنت حددت شيئا كنت اشعر به أنا ، دون ان اعبر عنه بهذه الدقة ، فانا اكتب بصيغة المتكلم ، واجعل شخصياتي تتكلم بهذه الصيغة لانني احب ، كمؤلف اولا وكقارىء محتمل ثانيا ، ان اكون داخل الشخصية · فعندما اجعل احدى شخصياتي تتكلم بصيغة المتكلم فانني اشعر ان القارىء والكاتب قد استوعبا سويا في هذا الكلام ، وتصبح عملية نقل التجربة عملية مباشرة ، داخلية ·

● هناك تركيز في رواياتك الثلاث على انهيار طبقة معينة · والملاحظة الاساسية التي ينتهي اليها القارىء هي ان الاشكالية هي اشكالية ثقافية بشكل اساسي · لنأخذ شخصية عدنان طالب في « صيادون » ، وهو شاب اقطاعي يثور على طبقته ، ويقتل عمه (والد سلافه) وهو يساهم في دمار طبقته بوصفه شاعرا متسكعا · وهناك « جميل فران » ، الفلسطيني الذي انهى دراسته في لندن ، والذي يلعب دور مسرع ثقافي لهذا الانهيار · تعود في « السفينة » الى وصف انهيار هذه الطبقة منطلقا من مواقع شخصيات المثقفين ، رغم أن بعضهم ليس مثقفا محترفا ، وحين تركز الرواية على الانهيار الارستقراطي للدكتور فالح تنقل على لسان وديع عساف ما معناه ان هذا انهيار للثقافة، انهيار للذين يقرأون ويكتبون ويفكرون · اريد من تساؤلي ، ان تسمح باضاءة هذا الجانب من رواياتك ·

□ عندما كتبت هذه الروايات لم افكر بالتحديد انني اصور انهيار هذه الطبقة · اردت ان اصور ما يحدث فيمجتمعنا · هذا من جهة ، ومن جهة اخرى اردت ان اصور المستقبلية التي هي جزء مما ادعو اليه دائما · ولكني في الواقع صورت انهيار هذه الطبقة كما شرحت انت · في « صراخ » هناك انهيار مقصود ، هناك سليلة الاسرة العريقة التي تنسف بيتها · في « السفينة » يقول وديع عساف في انتحار الدكتور فالح، ان جزءا من الحياة قد قتل نفسه ، هذا لانني ارى مأساة في كل انهيار · ليست تجربة المجتمع تجربة احادية مسطحة تستطيع ان ترفض جزءا منها دون ان تتأثر الاجزاء الاخرى : فانا ارى المأساة في كل حدث · هناك مأساة في نهاية فالح هي مأساة عربية ، كما ان هناك في الوقت نفسه انهيارا واقعا يجري الان · اذا لم ير الروائي المأساة فيما يحدث اصبح دعائيا، اصبح مجرد بوق لفكرة ما ، وانا ارفض ان اكتب كتابة دعائية· فانا اريد أن ارى المجتمع بقواه المتناقضة ، وارى ايضا المفارقة · السخرية ، الروعة ،

المأساة ، كلها يجب ان ترى · والا فانا افضل الا اكتب ، ولا اظن ان روائيا يستحق هذه التسمية سيكتب اذا لم ير هذه الامور بأسرها · فانت كروائي تضع نفسك فيموضع الرائي الكبير ، وترى ، وتترك الباقي للقارىء · انا ارى الانهيار كشيء محتوم ، وكل ما يعني ذلك من مأساة اصبحت ضرورية لحياة هذا المجتمع · فالبطل في المأساة الاغريقية هو شخص كبير يعاني صدعا اخلاقيا يؤدي به الى الدمار ، الى اختيار الموت· يستطيع ان يختار احد موقفين ، الاول ينجيه ولكنه يسقطه خلقيا ، ويقوده الثاني الى مصرعه ولكنه يبقيه مهما كرمز مأساوي · اذا لم ير الكاتب بطله بهذا الشكل فانه لن يكتب مأساة · قد يكتب كوميديا او تاريخا حديثا ، لكنه لن يكتب مأساة ، قد لا اكون وفيت الموضوع حقه ، لكنني لا اراه بالشكل الذي تراه انت ، هذا الشكل الاولي الواضح، لاني لا ازال ارى القضية بوصفها صراعا فاجعا بين شخصيات ، بين ما تمثله هذه الشخصيات من قوى خلقية او اجتماعية او تاريخية ، اما الناحية الثقافية ، فانا ارى ان للمثقفين في العالم العربي دورا كبيرا مهما حاولت بعض القوى حجبه عنهم · لا يزال المثقفون هم المغيرون وهم الثوريون الحقيقيون سواء حملوا السلاح في سبيل هذا التغيير او لم يحملوه ، الثقافة هي التي تغير في النهاية ، واذا لم تغير تكون قد عجزت عن اداء دورها · وقد تقول ان المثقف لا يفعل · هذا صحيح أيضا الى حد ما ، لان المثقف بقدر تطلعه الى الفعل موزع ايضا ، يفعل الشك في نفسه كثيرا ، لانه يرى اوجها كثيرة للفكرة الواحدة ، وهذا قد يمنع عنه الفعل الايجابي · وهذا ايضا ممثل في رواياتي · لكن الذي لا ريب فيه هو ان للمثقفين دورهم الاكبر في هذا المجتمع على تناقضاتهم ، وعلى الرغم من كل ما حدث او يحدث لهم ·

● انهيار هذه الطبقة المحددة التي تتحدث عنها يقع ضمن آلية تسريع ثقافي ، حيث تلعب الثقافة دورا اساسيا في هذه العملية · لكننا نلاحظ غياب البدائل الموضوعية عن رواياتك · ان انهيار الطبقة الاجتماعية هو وليد ظاهرة تاريخية محددة ، وعادة يحدث هذا الانهيار ضمن بدائل طبقية مطروحة · في روايتيك الاخيرتين ، لا وجود للبدائل · عدنان طالب يقتل الاقطاعي دون ان يكون بديلا له · تتكرر هذه الظاهرة في « السفينة » ، حتى انك كنت مترددا بين ان تغرق السفينة في البحر او تعود بها الى اليابسة ، وتقيم هذه المصالحة الاخيرة ، الشخصية اذا اردنا ؟

□ تعالج « صيادون » فترة محددة هي فترة اوائل الخمسينات ، وهي تكاد تكون الفترة التي كتبتها فيها · ولقد حاولت أن اصور المجتمع فيها كما اراه في تعددية وجهات النظر ، لكي ارى اكبر قدر من القوى التي تسيره · فانا ارى ذلك المجتمع في تلك الفترة وبأعين تلك الفترة ، أضافة الى عيني انا · لقد كتبت رواية وثائقية تتنبأ بما حدث بعد ذلك : انها تتنبأ بثورة ١٩٥٨ ، فوضع كهذا ، لا بد ان ينتهي الى ثورة · اما من سيكون البديل ، وكيف ستكون البدائل ، فيجب ان تكون نبيا معصوما لتتنبأ به · ليس من شأني كروائي ان اطرح البديل·· أنا روائي قبل ان اكون سياسيا · انا روائي ارى الانسان بكل تعقيداته وتناقضاته ، وهو الاهم في نظري · اما « السفينة » فانها كذلك لا تطرح البديل ، فالبديل موجود ، لكن بعض الطبقات لا تستطيع الانسجام مع هذا البديل الذي حدث · اي ان الفترة الزمنية التي تفصل « السفينة » عن « صيادون » هي السنوات العشر التي تحققت فيها بدائل معينة ، لكن هناك انهيارا مستمرا يمثله الدكتور فالح لانه لا يستطيع الانسجام مع هذه البدائل ·

● في تصويرك لانهيار الطبقة الاقطاعية في روايتيك الاخيرتين ، تحصر شخصياتك

بفئة محددة من الناس ، هي مجموعة من المثقفين الذين ينتمون الى الطبقات العليا في المجتمع ، وحتى عندما تصور اليسار فان نماذجه هي نماذج من المثقفين الذين درسوا في الخارج · هل يعود سبب هذا الاختيار ، اي سبب عدم وجود طبقات اخرى ، الى كونك تستقي شخصياتك من خبرتك الخاصة ، أم توجد أسباب اخرى ؟

□ يعود السبب الاول لهذا الاختيار الى ما قلته سابقا ، فانا لا اكتب عن شيء الا اذا خبرته بنفسي · وبحكم عملي او حياتي الثقافية فان اكثر الناس الذين اتصلت بهم كانوا من المثقفين · وكما قلت سابقا ايضا ، فانني ارى ان المثقف هو الذي يلعب دورا كبيرا في التغيير او في التمهيد لهذا التغيير ، انا لا ادعي انني اكتب الرواية المطلقة او النموذجية · فانا اكتب اولا لكي امتع نفسي ، فانا لو لم اكن اتمتع بما اكتب لما كتبت، ثم انني اريد ان اكتب عن تجربتي الشخصية ، كما اريد ان يكون لما اكتب قيمة انسانية · وعندما تتفق هذه الارادات الثلاث ، تكون رواية اكتبها ، فانا لا استطيع تصوير بعض الشخصيات او الفئات التي يتقن غيري من القصاصين تصويرها ·

● تحتل فلسطين جزءا هاما من رواياتك · لكنها تأخذ شكلين : الاول هو الذاكرة ، والثاني بوصفها محرضا ثقافيا على التغيير في المجتمع العربي · ولكن لماذا تبقى فلسطين ذاكرة ومحرضا ثقافيا فقط ؟ لماذا لا تتسع لتستوعب حركة الشعب الفلسطيني اليوم وواقع اللاجئين ؟

□ كما قلت فانا اكتب عن تجربتي الشخصية · وربما كان من سوء حظي انني قضيت معظم حياتي خارج فلسطين ، فكانت تجاربي في الاغلب مع غير الفلسطينيين · اما الناحية الاساسية في كل تفكيري فكانت ان فلسطين هي الاهم ، وهي المغير ، وانها ستبقى دائما لا الضمير المتحرك فقط ، بل القوة التي تحرك الضمائر كلها في الوطن العربي ·· كتبت رواياتي وانا متأثر بتجربتي الشخصية خارج فلسطين ، فكان علي ان ارى القضية من الناحيتين اللتين ذكرتهما انت · الناحية الاولى هي التذكر ، فانا احمل فلسطين في دمي ، اصورها خاصة في قصصي القصيرة كما عرفتها ، وبكل براءتها ، وتبقى القدس مدينة الواقع ومدينة الحلم ، المدينة الفاضلة والمدينة التي يجب ان يكافح من اجلها · ذكرت قبل مدة لاحد اصدقائي ما قاله لي توينبي في الخمسينات عندما التقينا في بغداد · قال : « انتم الفلسطينيون خرجتم من فلسطين كما خرج العلماء الاغريق من القسطنطينية بعد ان احتلها الاتراك سنة ١٤٥٣ · انتم تلعبون نفس الدور الحضاري الهائل في الامة العربية ، هذا هو مصيركم او حتفكم ، لا اعرف » · لقد اصبحت فلسطين بعد النكبة اكثر من موقع جغرافي ، لقد اصبحت فكرة جامعة تجتاح امة بكاملها · وهذا امر اعيشه كل يوم ·

● الاحظ انك تعتمد في رواياتك على نوعين من الايقاع : ايقاع خارجي ، اذا صح التعبير ، يرتكز على ثوابت تستمر داخل العمل الروائي ، اصوات باعة اليانصيب في « صيادون » او ايقاع البحر في « السفينة » ، وهناك ايقاع اخر هو ايقاع العلاقات التي تنسجها الرواية · فكيف توحد هذين العاملين ؟ اي كيف ترى البناء الروائي من خلال هذين العاملين ، وما هو الدور الذي يلعبه كل عامل على حدة ؟

□ الايقاع عامل بالغ الاهمية في كتابة الرواية ، بل هو عامل مهم في كل الفنون ، وتكاد اهميته في الرواية ان تعادل اهميته في الموسيقى ··· يحتاج الايقاع ، حتى يتحقق دون املال ، الى استيفاء بعض الشروط · يجب ان تنوع ايقاعك ضمن اطار معين

بحيث يبقى السرد صاعدا هابطا ، ويحافظ على اهتمامك من ناحيتين ، من الناحية اللغوية نفسها ، ومن الناحية الصورية التي تتابع فيها الاحداث · وانا اتعمد ان يتناوب البطء والسرعة في الايقاع الروائي ، لان ذلك يخلق حركة تحمل القارىء الى الامام وتوحي له بتعاقب الليل والنهار ، وتعاقب الفصول ، وتعاقب العواطف البشرية ، هذه أمور سيكولوجية تستطيع تحقيقها اذا عرفت كيف تلعب لعبة الايقاع بشكل موفق ، يعتمد الايقاع في « السفينة » على ثوابت اعود اليها نفسيا : البحر ، النوارس ، الموانىء ـ هذه الثوابت تعطيني قاعدة استند اليها حين اعود ثانية الى ايقاعي الاخر ـ كما يعتمد على علاقات الشخصيات ببعضها ، العلاقات بين الشخصيات هي علاقة حرة متحركة ، بالنسبة الى الثوابت الموجودة في الرواية ومهمة الروائي هي توحيد الصلة بين الثوابت والعلاقات التي لا يمكن ان تبرز بشكل واف الا اذا استطاع الكاتب استغلال مداخل الوان الخلفية · وفي النهاية فان الروائي لا يقيم الصلة فقط بين الثوابت والعلاقات الحركية وانما يقيم بينها تناغما معينا ، محققا بذلك الايقاع الهارموني الكلي المطلوب ·

● كيف تكتب رواياتك ، هل تكتبها مرة واحدة ام تعيد الكتابة ؟ هل تحذف كثيرا ؟

□ الحقيقة انني احذف احيانا · اكتب اكثر مما يتحمله الموضوع ، اولا استحسن ما كتبت ، فاحذف · وهناك فصول اعيد كتابتها كفصول ، اي اعود الى فصل قديم فأقوم باعادة كتابته فيضطرني هذا الى اعادة كتابة فصل اخر يتصل به واذكر انني اتعبت السيدة التي طبعت لي « السفينة » على الالة الكاتبة ، لكثرة ما كنت اعيد كتابة بعض الفصول ، وهذا ما يفعله كل كاتب جاد لكنني لا ادعي انني اعيد كتابة الرواية كلها من جديد بعد ان اكون قد انتهيت منها · يقول د·هـ· لورنس انه كان يفعل ذلك ، وانه كتب بعض رواياته ثلاث او اربع مرات او اكثر · والمعروف عن تولستوي انه اعاد كتابة « الحرب والسلام » سبع مرات (فيما اذكر) ، وارهق زوجته المسكينة التي كانت كل مرة تعيد نسخها بخط يدها ! هذا عمل لا اعتقد ان له ضرورة ، او اذا كان ضروريا فانه عمل هائل جدا لا استطيع القيام به ·

● الرواية هي فن جديد في الادب العربي ، ومجرد كتابتها هو مساهمة في التجديد العام في اشكال التعبير الادبية العربية ، لكن سؤالي يتركز على التفاوت بين نوعين من التجديد : في التجديد الشعري ، اخذت الحركة الشعرية على نفسها التجديد في اقصى ما وصل اليه الشعر العالمي ، ونستطيع اليوم ان نقرأ قصائد تواكب هذا التجديد · بينما لا تزال الرواية العربية في مجملها كلاسيكية · طبعا ، فهي تتراوح بين اكثر من مدرسة روائية من الرومانسية والانطباعية والواقعية وصولا الى الرواية الجديدة · مساهمتك الروائية انت بالذات ، تتركز حول بناء رواية شخصيات ، رواية واقعية تمزج الشعر بالعامل الاجتماعي · الا تعتقد معي ان هذا النوع من التجديد هو دون التجديد في الشعر ، ولماذا لم يصل التجديد في الرواية او لم يطمح الى ما وصل اليه الشعر ؟

□ يعود السبب في ذلك الى وجود شعرنا القديم الجيد ، وكان على المجددين ان يتطرفوا في طرائق تجديدهم والا بقوا في ظل القديم ، بمعنى انه لو لم يكن عندنا شعر كثير ورائع ، لو لم يكن الشعر ذا تقاليد ثابتة ، لما كان هناك تجديد كالذي رأيناه في الشعر · كان على الشعراء ان يقوموا بثورة في لغتهم وصورهم وتركيبهم للقصيدة ، وبذلك استطاعوا الوصول الى المستوى العالمي في كتابة القصيدة ·

اما في الرواية ، فالرواية العربية تكاد لا توجد · لقد جاءتنا الرواية كفن جديد · اما تقليدنا القصصي فانه يعتمد على « الف ليلة وليلة » ـ هذا الكتاب البالغ الاهمية الذي يجب على كل روائي أن يقرأه · لقد اثر هذا الكتاب في رواية القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ونحن تأثرنا بدورنا بهذه الرواية ·عندما نكتب رواية اليوم فاننا نفاجأ بعدم وجود تقليد روائي في بلادنا ، لذلك كان علينا أن نختصر فترة مئتي سنة من الفن الروائي الاوربي في عشرين او ثلاثين سنة · لذلك عندما اريد كتابة رواية فانا لا استطيع ، او لا يهمني ، ان اكتب رواية على طريقة الرواية الجديدة ، لان اوروبا متخمة بالطرائق القصصية التي تريد ان تتمرد عليها · اما انا فاشعر اننا لم نكتب حتى اليوم الروايات التي تمثل مجتمعنا وصراعاته وتغييراته ، كما حدث في الرواية الاوروبية في القرن التاسع عشر خصوصا ، وفي اوائل هذا القرن ، بحيث ان الاوروبيين استطاعوا الانصراف عن هذا الموضوع الى مواضيع اخرى · لذلك اشعر انني مهما جددت في أسلوبي الروائي ، فلا بد لي من الوقوف في مكان استطيع منه البحث عن هذه المواضيع بالذات ، واذا اخترت لنفسي اسلوبا لا يمكنني من الوصول الى هذه الموضوعات اكون عندها قد اسأت الى نفسي والى الفن الروائي العربي · مثلا ، كنت مواجها في « السفينة » بين ان اكتب على الطريقة العصرية الاوروبية ، طريقة الرواية الجديدة مثلا ، المتطرفة في تجديدها والمتطرفة في تركيزها على الصورة وعلى العلاقات البصرية بين الاشياء ، واكون بذلك قد خذلت موضوعي الاساسي الذي هو عشقي الحقيقي · وبين ان اكتب رواية على طريقة القرن التاسع عشر ، على طريقة بلزاك ، مثلا ، فاكون في الواقع قد تخليت عن الاتجاهات الحديثة التي تدعو انت اليها والتي دعونا نحن اليها بهذا الصخب في الشعر ، كانت المحصلة هي تزاوج الطريقتين على غراري الخاص · فانا اعتقد اني طرقت سبيلا بالنسبة الى الفن الروائي العربي هو سبيل جديد ـ لا اظن ان احدا كتب رواية عربية على طريقتي في « السفينة » او حتى على طريقتي في « صراخ في ليل طويل » · هكذا انتهجت منذ البدء طريقة تبلغ بي غايتي الحقيقية فيما اكتب ، وتميزني في الوقت نفسه عن الاخرين ·

● هناك سؤال يتعلق بمصطلح « الحداثة » · لقد اصبح هذا المصطلح عنوان مرحلة ادبية وشعرية وفنية ، والملاحظ توافق استعمال هذا المصطلح مع طرح موضوعات ايديولوجية عن ضرورة تحديث المجتمع العربي ، وازالة العلاقات « القديمة » العشائرية القبلية الخ ، منه · فبوصفك احد المشاركين في اعطاء مضمون لهذا المصطلح ، كيف تحدده بشكل دقيق ؟

□ لست اظن انني استطيع تحديد هذا بشكل دقيق في اسطر · او حتى في صفحات· يجب ان اقدم لك كل ما كتبت ورسمت واقول لك : لنستخلص مفهوم الحداثة من كل هذا · وانا اذكر انني كتبت في اوائل الاربعينات مقالا عنوانه « استعمال وسوء استعمال كلمة حديث » · لانني احسست منذ ذلك الحين انك كلما سعيت الى التحديث ، وجدت كميات كبيرة من العملة الرديئة تطرح نفسها مع العملة الجيدة في السوق · في الواقع لقد سبقونا في الغرب الى استعمال هذه الكلمة · تقرأ نقد بودلير للرسامين سنة ١٨٥٤ فتجده يتحدث عن الحداثة · كل فترة جاءت بنقاد يتحدثون عن الحداثة · اشتد الصخب حول الحداثة بعد الانطباعية ، لان الانطباعية كانت انعطافا جديدا في الحضارة · في البداية رفض الانطباعيون ، فزاد ذلك من قيمة الكلمة التمردية · ثم تصاعد استعمال هذه الكلمة مع الوحشيين ثم التكعيبيين ، ثم الدادائيين فالسرياليين ·

ثم جئنا نحن ، اي المثقفون العرب · بدأنا ننتبه لفكرة الحداثة في الثلاثينات ، كما وردت في كتابات بعض الكتاب المصريين ، كسلامة موسى الذي كان يتحدث عن معركة التجديد ، والزيات بكل كلاسيكيته تحدث ايضا عن معركة التجديد · لكن التجديد عند هؤلاء لم يكن يحمل فكرة الحداثة التي خطها جيلنا في الاربعينات·والخمسينات والستينات لكي نصبح بالفعل ، لا مجرد جزء من حضارة القرن العشرين ، وانما مساهمين فاعلين في هذه الحضارة · وهنا يأتي المعنى الحقيقي للحداثة في نظري : الحداثة هي أن تجد الطريق لكيما تكون مساهما فاعلا في حضارة هذا القرن · لذلك فانت مطالب بالتمرد ، ومطالب بأن يكون في تمردك ما يستمد بعض حيويته من جذورك وتضيف اليه من اصالتك المتجهة نحو زمانك ، فتصبح جزءا فاعلا في عصرك ، جزءا غير منقطع عن ماضيك ، ولكنه جزء لا يكرر ماضيك ويحفزه التحرر حتى من حاضرك· انا لا اقول بالانقطاع المطلق ، فانا اؤمن ان للتراث قوة هائلة في حياتنا ، ويجب ان تبقى له هذه القوة المغذية للنفس · لكني اقول خذ من التراث ما هو حي واترك ما هو ميت للاكاديميين الذين يقول عنهم رامبو انهم اموات « اكثر من اي متحجر » · ان في التراث قوة نستمدها ولكن يجب ان نضيف اليها قوة جديدة ، بحيث تكون الحداثة انطلاقا سهميا لا دورانا انكفائيا · يتصور بعض الناس انك بالعودة الى التراث تجدده ، هذا غير صحيح · فالعودة الى التراث لا تجدد شيئا ، لكن بالانطلاق منه ، والاضافة اليه ، تجدد قوته ، اذ بالاضافة فقط تهيء المسار المستقبلي للنسغ الحي الكائن فيه ·

● تقول في رسالة الى يوسف الخال نشرت اجزاء منها في مجلة « شعر » عدد ١٨ـ١٩٦١ : « انا في الواقع متصل بالكلاسيكيين على اكثر من مستوى واحد ، وعلى الاخص مستوى الشكل » ، ثم تضيف « نحن المجددين اوثق اتصالا بالتراث التقليدي من كل الاخرين الذين ما زالوا يجترون ما لم ولن يهضموه · » كيف تقيم كلاسيكيتكم الان ؟

□ يتهم المجددون احيانا بانهم رومانسيون ولا شكليون الخ، وتأتي هذه التهم غالبا من اصحاب التقليد الذين يتصورون انفسهم على انهم سدنة التراث · جوابي على سدنة التراث هؤلاء هو اننا اكثر اتصالا بالكلاسيكية منهم · نحن نفهم الشكل لاننا نرى القوة الدينامية التي فيه ، واذا اردت ان تكسر القاعدة فيجب ان تعرف هذه القاعدة اولا · نحن لا تكسر قواعد لا نعرفها ··· فصلتنا بالكلاسيكيين تؤكد على تقديرنا لكل ما هو رائع في الفكر الحضاري · انا لا استطيع ان ارفض النهضة او المتنبي او شعر صدر الاسلام ، لكننا استطعنا ان نجعل من هذه قوة باعثة ، لكي نضيف اليها · انا اعتقد اننا جمعنا بين نوع من الكلاسيكية ونوع من الرمزية ، جمعنا بين الواقعية الطبقية وبين القوة الايحائية التي تجعل لهذه التفاصيل الواقعية قوة اضافية ، فنقول ما قيمته اكثر من مجموع العناصر التي يتألف منها · وهنا تأتي قيمة الدمج بين الوعي الكلاسيكي او الوعي التاريخي ووعينا المعاصر · المجددون هم على الاغلب اناس يملكون وعيا تاريخيا عميقا ، والذي لا يملك هذا الوعي لن يكون مجددا ·

حول أدب الأطفال

لا وجود للطفل العربي · انه لا يوجد كطفل ·

لا وجود له في واقعنا الاجتماعي : يشار اليه فقط في هرم الاعمار او في جدول احصائي · لا وجود له في جغرافيتنا : فان وجدت منتزهات وحدائق عامة وحدائق حيوانات ، فانها مخصصة للكبار او للسياح اكثر مما هي للاطفال ·

لا وجود له في الادب : فلا ادب للطفل ولا ادب عنه · (منذ فترة وجيزة بدأ يبرز ادب للاطفال يحاول الاسراع في سد هذه الثغرة) ·

لا وجود له في المؤسسات الاجتماعية : حتى المدرسة ، تضع لنفسها هدفا واحدا هي ان تجعل من الطفل رجلا صغيرا (امرأة صغيرة) ، وان تتخلص وفي اسرع وقت ممكن من مرحلة الطفولة ·

لا وجود له في العائلة : فهو حتى حين يعترف به كجزء منها ، يوجد ضمنها · أي دون ان يكون له وجود خاص به ، متميز ومستقل ·

فالعائلة بالنسبة للطفل العربي ، هي المحور المركزي الذي يدور حوله ، وينمو ويكبر به · وكل ما هو خارج العائلة ، هو مجرد ملحق (المدرسة مثلا) ·

لا وجود للطفل الفلسطيني :وهو لا وجود مضاعف · فهو لا يوجد كطفل كما لا يوجد كفلسطيني ·

يمكن لعالم الاجتماع ان يبين الاختلافات والفروق داخل هذه اللوحة القاتمة · اختلاف البلدان ، المسافة بين المدينة والريف ، اختلاف وضعية الطفل نسبة الى انتمائه الطبقي ، ولكن هذا ، ليس هدف بحثنا ، ان قابلية التأثير وردات فعل الطفل تختلف بالنسبة لانتمائه الطبقي والاجتماعي العام ، لكنها ، وفي هذه المرحلة ، ليست الا فروقات تفصيلية · ان ما يميز الطفل العربي اجمالا وفي التحليل الاخير هو **لا وجوده** ·

يولد الطفل الفلسطيني في اطار جغرافي واجتماعي مؤقت · الحياة بشروطها الراهنة مؤقتة · غدا نحرر الوطن ونعود الى منازلنا ، ونزرع حقولنا ونقطف ثمار ارضنا ·

يولد والعدو قد سرق بيته وانتماءه ·لذلك يجب ان يكبر كي يناضل الى جانب اخوانه، من اجل استعادة ارضه ، عندها ، تبدأ الحياة من جديد ، مليئة بالفرح والوعد بمستقبل افضل · ينمو الطفل ويراقب ، ويعيش جميع تعقيدات الحياة وتناقضات تربيته · ولكن ، وبما انه لا يزال طفلا ، لا يهتم به الا باعتبار انه سوف يكبر · وهو يدرك ان الحيـــاة اليومية قاسية وصعبة · انه خائب الامل ، لا يفهم ، يشعر بالوحدة وعدم الامان · يخاف ان يكون جبانا ، ان لا يكون بمستوى المنتظر منه · يحتمي بالعائلة ، لكن العائلة التي هي مصدر الامان ، هي هنا في حالة دائمة من اللاامان ، انها في الهجرة أو الفقر ·

يحلم الطفل بمآثر خارقة ، ببطولات منتصرة · انه صلاح الدين مرة والقسام مـــرة اخرى ، ولكنه ، وقبل كل شيء شهيد · هو البطل ــ الميت ــ الحبيب الذي يطمئن للانتقام له ولمواصلة النضال · لن ينساه احد ، الجميع يحبونه ، يتحسرون عليه ، يعجبون به مع قليل من الحسد ··· لكن هذا لا يعني ان له وجودا ·

والطفل العربي ، لا يختلف كثيرا عن الطفل الفلسطيني · فهو ايضا يعيش فـــــي اللاامان ، وان بحدة اخف ولاسباب مختلفة ·

يعود اللاامان هذا اساسا الى اسباب نفسية : انه لا يتمتع بوجود خاص به · لا يحب لما هو بل لما يمثله (ويرحب بالذكر وليس بالانثى) · يشعـــر انه مهمـــل نوعـــا ما ومبعد · لا يتقلد طفولته كطفل ، بل يحسد الكبار الذين يحتكرون السلطة التي يخافها· محاكاة الكبار في اقوالهم وافعالهم يصبح هدفه ، وينجح في ذلك · فالصفة الاولى التي يعترف بها مجتمعنا للطفل هي نضجه المبكر (هكذا يفرح الكبار بطفلة السنوات الثلاث التي تعمل مع والدتها في الامور المنزلية ، أو امام ولد يعرف كيف يتصرف امام الغرباء، يجلس صامتا ، ملتصق الركبتين ، رصين المعالم) · لكن الطفل يتصرف هكذا بشكل لا شعوري ، اما اعتباره ناتجا عن قدرة على الاختيار الناضج ، فهو اعتبار خاطـــيء وسخيف ، بل على العكس ، يساهم هذا التصرف في تجميد تفتح الطفـــل وسحـق شخصيته وروح المبادرة لديه · لكن الطفل يعلم ان هذا التصرف هو الطريق الوحيـد لجذب اهتمام الكبار وعطفهم · وهذا ما يحتاجه بالضبط : اهتمام الاخرين به ومحبتهـم لـــه ·

نخرج من هذه الملاحظات باستنتاج واضح : ان الطفل الفلسطيني والعربي هـــو صورة للمجتمع الذي يعيش فيه·· انه نتاجه المنطقي · فهو امامنا بلا قناع او تمويـه ، عار ودون حماية حقيقية · مثقل بتناقضات الوسط الاجتماعي ــ الثقافي حيث يعيش ·

خضع مجتمعنا العربي فترة طويلة للاستعمار الغربي ، ولا يزال خاضعا للسيطـــرة الامبريالية · وهو في سياقه السائد يتطلع الى حياة افضل مستوحاة من النمـــوذج الغربي ، لكنه يعيش ايضا وسط جمود المحافظة على القيم والمباديء الاخلاقية التقليدية· هذا التناقض السائد ، يمنع الانسان العربي من ان يتماثل ويعرف نفسه في الماضـــي والحاضر بصورة عقلانية ومنطقية ·

وبامكاننا ان نقرأ هذه التناقضات في شفافية سيكولوجية طفل هذا المجتمع ·

في ظل هذا الوضع ، ما هو دور ادب الاطفال ؟

يعتبر البعض ، ان هدف هذا الادب تقديم دروس للاطفال وتقديم نماذج · في مقدمة « حكايات الزمن الماضي ومغزاها » يكتب شارل بيرو : « تحرك هذه الحكايات عند الاطفال ، رغبة في التشبه بالذين يرونهم وقد اصبحوا سعداء · كما تثير الخوف من المصائب التي يقع فيها الاشرار نتيجة اذيتهم · هذه البذار التي نزرعها ، لا ينتج عنها في البداية الا شعور بالغبطة او الحزن ، ولكن لا بد وان تظهر فيما بعد الميول الطيبة · » (١) ويرى برونو بتلهايم ان للاساطير وظيفة علاجية بالنسبة للطفل · فالطفل بحاجة الى تلقي الاقتراحات حول معالجة مشاكله ، والتقدم نحو النضج » (٢) ·

اما في سياق ثوري ، فيختلف ادب الاطفال · الطموح ، هو بناء مجتمع جديد · بناء جيل جديد وثوري · فيكون هدف هذا الادب واضحا في تحديده : تثقيف الاطفال ضمن اتجاه ثوري · وهذا يعني انتاج ادب تعليمي يحمل رسالة ·

ولكنه ، وكأي شكل تربوي موجه للاطفال ، يجب ان يثير اعجابهم ، وبما انه تعليمي، فيجب ان يكون مقنعا · اي يستجيب لحاجاتهم وآمالهم ·

ما هي حاجات الطفل السيكولوجية على ضوء شخصية الطفل الفلسطيني والعربي ، التي حاولنا وصفها ·

ادب الاطفال يمتع الطفل ولكنه ايضا يساهم في تكوين شخصيته وفي اكسابه القيم والمبادىء · يثير فضوله ، يزيد من معرفته ويساعد على تطوير ذكائه وخياله · وعنصر العاطفة المسيطر في شخصية الطفل يقود الى ان الادب الذي يستجيب لهذه الحاجة هو الذي يحظى اكثر من غيره بقدرة الوصول الى مبتغاه ·

ـ يحتاج الطفل الى الاطمئنان والثقة بالنصر ·

ـ يحتاج الطفل الى الاطمئنان الى الحياة : وهنا لا بد من التماثل مع البطل ·فالطفل ذاتي المركز ، يقرأ ويستمع الى القصة بعاطفته · وملاحظته الاولى هي دائما ، « احببت القصة او لم احبها » دون ان يعلم السبب ·

أ ـ دار الفتى العربي

سوف نقرأ الان نصوص كتب دار الفتى العربي ، على ضوء هذه الخطوط العريضة ، الاولية · صدر عن دار الفتى مجموعة من القصص التربوية للاطفال ، خارج المنهاج المدرسي ، ذات هدف محدد · « كتاب يساهم في تثقيف طفلنا وفي تعريفه بالعالم الحضارية المحيطة به ، وغرس القيم الاخلاقية فيه ، وتربيته تربية عربية قومية انسانية ، وتنمية الحس الجمالي والتذوق الفني وروح الابداع والابتكار لديه » (٣) ·

واستعانت الدار بأدباء ورسامين من مختلف الاقطار العربية ، من اجل اصدار احدى اجمل مجموعات كتب الاطفال · فالالوان زاهية وجذابة ، ومعظم النصوص كتبت خصيصا للمجموعة (٤) ·

وادى هذا المجهود الذي يستحق الثناء الى انجاز عمل جديد وجميل ، لا بد من تناوله بروح النقد البناء ·

تتوزع الحكايات التسع والخمسون في ست سلاسل ، تختلف احجامها باختلاف مقولات عمر القراء الموجهة اليهم ، وهي جميعها مزينة بالرسوم والالوان · وقد ترجم بعضها الى الانكليزية والفرنسية والاسبانية ، وصدرت عن الدار نفسها ·

قبل ان نتناول بالتفصيل موضوع بحثنا ـ **سلسلة المستقبل للاطفال** ـ سنعرض للخصائص البارزة في كل سلسلة على حدة ·

١ ـ **سلسلة النجوم الصغيرة** · (للاطفال الذين تتراوح اعمارهم بين ٤ و٧ سنوات) (٥) ·

تضم ثلاث قصص « سياسية » ، تبرز الظلم الاجتماعي والنضال الطبقي وخديعة العدو · هذه القصص من حيث اللغة والمضمون هي في متناول فهم الطفل · تقوده الى طرح الاسئلة وربط الاحداث بالواقع · كما انها لا تنتهي بشكل واضح ، فتترك لخيال الطفل مجالا لبناء هذه النهاية ·

٢ ـ **سلسلة الافق الجديد** · (للاطفال الذين تتراوح اعمارهم بين ٨ و ١٠ سنوات)·

تضم اربع قصص « سياسية ـ قومية » · واحدة تدور حول المساواة الاجتماعية · اما القصص الاخرى فتشيد بروح المبادرة والشجاعة والبطولة ـ الشهادة · تتميز هذه القصص في تحديدها للحيز المكاني ـ الزمني (باستثناء « الاميرة الصغيرة ») ، وفي كونها رمزية جوهريا · واخيرا ، في انها اطول القصص (٣٠ صفحة) · ولكن هذا الطول يقود الى اثقال النص ، فيأتي درس الجغرافيا في « البلح الاحمر » ويطول الوصف في « حارسة النبع » ·

٣ ـ **حكايا عن الوطن** · (للاطفال الذين تتراوح اعمارهم بين ١١ و ١٤ سنة) ·

تضم ست قصص تتناول الواقع الفلسطيني ، عبر مواقف بعض الاشخاص وبطولاتهم في مواجهة العدو الصهيوني · فيشار الى الزمان والمكان واسم البطل · وتدخل في النص بلاغات تبثها الاذاعة او تعليقات من الراوي · هذه القصص هي تحية للبطولة والتضحية في سبيل الثورة ·

لا شك ان هذه القصة ـ الحدث ، تقوم بازالة الاوهام التي تحيط بالبطل · فنراه اثناء العمل ، ونتابع تطوره · انه ليس انسانا بلا عيوب · هكذا يكتشف الطفل ان بامكانه هو ايضا ان يصبح بطلا ·

ومأخذنا على هذه السلسلة هو عدم جاذبيتها للوهلة الاولى · (فالكتاب ليس مجلدا بالورق المقوى ، ولم يزين الا بلونين قاتمين فيبدو كئيبا · كما يدور النص حول حدث حقيقي ، لكنه لا يروي قصة بكل معنى الكلمة · واخيرا ، وبينما نجد ان صفة التضامن هي احدى الافكار ـ الركائز في جميع السلاسل ، فان هذه القصص تؤكد فرادة البطل في مبادرته وتصرفه ، دون التركيز على الفعل نفسه ·

٤ ـ **من حكايا الشعوب** (للاطفال الذين تتراوح اعمارهم بين ١١ و ١٤ سنة)

تتألف من ١٦ قصة طويلة عن بلدان مختلفة · وفي نهاية الكتاب خريطة ومعلومات جغرافية للبلد الذي اخذت منه الحكاية · نلاحظ ، مع الاسف ، ان هناك ست حكايات فقط من اصل المجموع اخذت من اقطار الوطن العربي ·

٥ ـ **سلسلة قوس قزح (٦)** · (للاطفال الذين تتراوح اعمارهم بين ٤ و ٧ سنوات)·

تتألف من ١٢ قصة قصيرة ، فرحة ومزينة بالرسوم ، وتعالج مجموعة مسائل : الحس الوطني ، التضامن ، التفاؤل الثوري الخ ، ونشير هنا الى ثغرة هامة جدا ، الا وهـــي **انعدام حس الفكاهة في النصوص** · فاذا لم نركز اهتمامنا على الرسوم ، سوف نجد ان هذه القصص لا تكاد تجعل الطفل يبتسم · وهذه الملاحظة تنسحب على قصص السلاسل بأسرها · ونأخذ كمثال على ذلك احدى قصص هذه السلسلة ، قصة : **ابطال صغار** (٧) ·

يحتال ثلاثة اطفال ، كل بمفرده ، على العدو · يلتقون ، فيروي كل واحد منهـــم مـــا فعله في هذا اليوم · ثم ينامون ، عندها تعلن الاذاعة عن نجاح الفدائيين في نسف مصنع اسلحة العدو ، ويعود الفضل في نجاح العملية الى الاطفال الذين عطلوا النجدات التـــي ارسلهـــا العدو الى مداخل المدينة ·

من المفترض ان تكون القصة مليئة بروح الفكاهة ، وان تنتهي بانتصار فرح · ولكنها تأتي جافة ورصينة ، ونخرج منها بشعور بالاسف · فاعمال التخريب الثلاثة التي قام بها الاطفـــال مضحكة ومسلية في حد ذاتهـــا :

١ ـ سكب الزيت في منعطف تحت عجلات سيارات العدو ·

ب ـ وضع قطع السكر في مستودعات البنزين الذي تستعمله سيارات العدو ·

ج ـ خداع العدو عبر تغيير اتجاهات اشارات السير ·

لكن هذه الاعمال تروي بالصورة العلمية والرسمية التي للبلاغ العسكري · فيأتـــي وصف العدو ، الذي من المفترض ان يثير الضحك مقتصراً على :

١ ـ كانت النتيجة باهرة للغاية ·

ب ـ كان منظرهم فريـــــدا ·

ج ـ كان منظراً مثيراً حقـــا ·

الاطفال ، في هذه القصة ، هم الذين يقومون بالعمل · لكنهم لا يتحدثون ولا يضحكون لا يشركون القارىء في انطباعاتهم وشعورهم · وتأتي النهاية حزينة : الاذاعة تشيـــد بابطالنا الثلاثة وهم نيام !

والطفل القارىء يأسف لنوم اطفاله ، ويتأسف على نفسه (لانه يتمثل بهم) ويأسف لانهم لم يعرفوا نتيجة عملهم ، فهذا التعويض هو نوع من المكافأة · والطفل بحاجـــة الى التشجيع ·

٦ ـ **سلسلة المستقبل للاطفال** · (للاطفال ابتداء من ١١ سنة) ·

وهي موضوع دراستنا · وهي تضم اكبر عدد من القصص (١٨ قصة) · مربعة الحجم (١٥ سنتم الضلع) وتحتوي على ١٢ صفحة في داخلها ·

II - البنية العامة للنص ·

١ ـ المظهر العـــام للكتاب

ان كتب هذه السلسلة ، على غرار كتب الدار الاخرى ، ليست مجلدة بالمقوى المتين ·

فهي بالتالي قابلة للطي والتلف بسهولة · وتفقد الكثير من قيمتها الجمالية بعـــــد الاستخدام · اما الاولوية فهي للرسم · واذا تطابق النص بالرسم ، يغلب هذا الاخيـــر في استقطاب انتباه الطفل · فالصورة اقوى من الرسوم المجردة · وتقدم الصفحة الاخيرة من **فرجس** خير مثال على هذا ·

٢ ـ اطار الحدث

الحيز المكاني بالغ التنوع ، فالقصة تدور عادة في الخارج ، في المدينة او الصحراء او البحر او الغابة ·· ولكن دون اي تحديد اضافي ، باستثناء قصة **بديع الزمان** التي تحدد مدينة بغداد مكانا للحدث ، فتضفي عليه مسحة من المصداقية ، اما الحيز الزماني فهو شبه معدوم ، اذا استثنينا عبارة « في قديم الزمان » ·

٣ ـ الســـرد

هناك نقص في اعداد السرد تنقصه التفاصيل الصغيرة التي تحدد الشخصية والحدث · العقدة بسيطة ومبسطة ، وهذا ما نراه في قصة **بديع الزمان** حيث يأتي التوالي الدرامي للحدث مضغوطا الى درجة انه يعطي انطباعا بأن هذه القصة ، هي تلخيص لقصة طويلة·

اما قصة **الشجرة** ، فانها تقدم نقيض هذا النموذج ، حيث تغلب الاستفاضة في الوصف على الحدث نفسه ·

يأتي السرد على وتيرة واحدة : ينطلق من حدث معين ، يطوره ، يطرح المشكلة ثـــم يجيب عليها في نهاية القصة ·

يتطور السرد اذا على شكل قطع مكافىء (Parabole) :

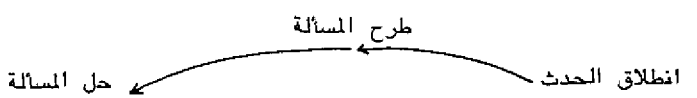

(ولا يهمنا هنا اذا جاء الحل سلبيا او ايجابيا)

شكل القطع المكافىء (Parabole) هذا ، هو في متناول ادراك الطفل · انه شكـــل متكامل يسهل فهم القصة · ومعظم القصص تتبع هذا المنحى البياني ما عـــدا قصتين ، حيث تحل المسألة عن طريق مفترض · **جزيرة الضياع** ، حيث نفترض ان سامر سينجو ، **والطفل والمطر** ، حيث نفترض ان المطر سيهطل فوق حقل احمد ·

فيأتي المنحى البياني على الشكل التالي :

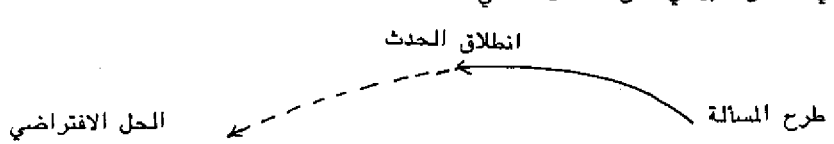

كما يتحول هذا المنحى البياني الى خط مستقيم في ثلاث قصص ، حيث تلغى المشكلة المطروحة · وتنتهي القصة نهاية سلبية ·

الشجرة (قصف) ← موت الشجرة والطفل ·

ندم حصان (يبس العشب وجاع الحصان فخضع للعبودية) ← تدجين الحصان ·

القط الكسلان (بعد حوار القط مع غسان حول ضرورة المدرسة ، فضل النوم) ← القط ينام ويحلم ·

٤ ـ كيف يقدم العالم

العالم الذي تدور فيه هذه القصص هو عالم شاق (**الفيل يجد عملا**) ويهدد ابطالنا (**عودة الطائر**) · ويضغط خطر العالم الخارجي على الابطال · يمكننا تصنيف هـذه الاخطار الخارجية في خمسة انواع رئيسية (٨) :

العدو ، العزلة ، الجهل ، عدم الفعالية والقوى الخارجية · وبما أن كل قصة ، تدور في الغالب حول موضوع واحد ، فاننا هنا ، سوف نقوم بابراز التهديد الرئيسي ·

القصـــة	اخطار العالم الخارجي	تهديد اجتماعي	تهديد طبيعي	خاصية التهديد	القيم التي تولدها
الجراد في المدينة	العدو		×	يلتهم ← يتلف	الحث علىمواجهة عملية
عودة الطائر	العدو	×	—	يلتهم ← يتلف	التضامن ـ الحيلة
ندم حصان	العدو	×	—	يعزل	التضامن (العصبية)
بيت للورقة البيضاء	العدو	×	—	يسرق ← يتلف	عزة النفس
وحيد القرن والعصافير	العدو	×	—	يتلف	التضامن ـ الحيلة
القفص الذهبي (٩)	العدو	×	—	يعزل	التضامن ـ الحيلة
القفص الذهبي	الوحدة	×	—	يعزل	الحيلة
جزيرة الضياع	الوحدة	×	—	يعزل	حب الاخر
نرجس	الوحدة	×	—	يعزل	الشجاعة ـ المبادرة
الريش الجميل	الوحدة	×	—	يعزل	التواضع ـ حب الاخر
بديع الزمان	الجهل	×	—	يعزل	التواضع
السلحفاة الحكيمة	الجهل	×	—	يتلف	التواضع ـ المعرفة
الفيل في الصحراء	الجهل	×	—	يعزل	المعرفة
الفيل يجد عملا	عدم الفعالية	×	—	يعزل	التواضع ـ المعرفة
القط الكسلان	عدم الفعالية	×	—	يعزل	الابداع ـ المبادرة
الشجرة	العدو	×	—	يتلف	الجهد الفردي
الطفل والمطر	قوى الطبيعة	—	—	يتلف	" "
الشراع الابيض	قوى الطبيعة	—	×		" "
الحمامة البيضاء	روح المغامرة	×	×	يلتهم ← يتلف يعزل	التضامنالعائلي ـالمحبة

ماذا نقرأ في هذا الجدول ؟٠

أ ـ تأتي اخطار العالم الخارجي التسع عشرة بالنسب التالية : ٨٤٪ هي اخطـــار اجتماعية ، و ١٦٪ هي اخطار طبيعية ، بينما نرى في الواقع ان قلق الاطفال وخوفهـم واستيهاماتهم تأتي اساسا من العناصر الطبيعية ٠ فالطفل لا يخاف « الاخرين » والمجتمع بالقدر نفسه الذي يخاف الكلام او الليل او الاعماق ٠ يخاف العزلة وضياع الاهل ٠ واذا كان طموح هذه السلسة هو ابداع ادب جديد للاطفال ، حديث ومعاصر ، فاننا نرى ان القصة تفتقد الكثير من عناصر الحياة اليومية والمعاصرة ٠ ففي مجتمعنا « الحديث » ، تأتي تخوفات الطفل من استيهامات جديدة (سمح التلفزيون للعديد منها بالتجسد امـام عينيه مثل : الرجل الخفي ، كينغ كونغ ، الرجل الالكتروني ٠٠٠) ويخاف من الغسالة، من الابنية الضخمة من الرافعات الخ ٠

ب ـ اما اذا تحققت هذه الاخطار ، فانها تقود الى انهيار الوضع القائم (التهـام، سرقة ، قتل ٠٠٠) او الى عزل البطل عن مجتمعه (يضيع في الغابة ، يبقى وحيدا في جزيرة ، ينبذه المجتمع ٠٠) تأخذ العزلة نسبة تقترب من نسبة الانهيار (٥٨٪ ـ ٤٢٪)٠ وكلا المفهومين من مصدر واحد ٠ يتحددان بالنسبة الى المجتمع ٠

ج ـهل يتغلب البطل على الخطر ويلغيه ؟٠ تشير العلامة (+) الى جواب ايجابي ، حيث تأتي نهاية القصة سعيدة ٠ تصرف البطل هو النموذج الذي يقدم درسا ايجابيـــا للقارىء ٠ اما العلامة (ـ) فتشير الى عدم قدرة البطل على التغلب على الخطر ٠ فالبطل والطفل (القارىء) يأخذان عبرة ٠ في الحالة الاولى يأتي تشبه الطفل بالبطل مطمئنا ، اما في الحالة الثانية ٠ فان هذا التشبه يقود الى القلق ٠

ما هو الاسلوب الافضل من اجل بلوغ الهدف التعليمي بفشل تربوي ؟ ان الاجابـــة على هذا السؤال تتطلب دراسة مفصلة ومعمقة لسيكولوجية وشخصية الطفل الـــذي نتوجه اليـــه ٠

غير ان الجدول ، يشير الى عدم وجود اتجاه معين في هذا الصدد ٠ اذ تنقسم الحالات بنسبة ٤٧٪ للحالة الاولى و ٥٣٪ للحالة الثانية ٠

د ـ لكن ، وفي الحالتين ، تبرز القيم التي يواجه الخطر بها ، او تكون مضمنة (١٠)٠ والجدير بالملاحظة هنا ، هو ان ازالة هذه الاخطار تستند دائما الى فضائل اجتماعية او فردية ، باستثناء قصة **الجراد والمدينة** ، حيث كانت مواجهة الخطر ممكنة بواسطة عمل الاهالي ، القيام بنشاط ملموس ٠ فرسالة القصة هي اذا **رسالة اخلاقية** ، التحلـــي بالصفات والقيم ٠

هكذا نرى ان العالم الصعب ، يمكن ان يصبح مطمئنا وممكن الاحتمال بفضل المعرفة والتضامن والتواضع وحب الاخرين ٠

وهي ، تتبنى وتقبل العلاقات والقيم الاجتماعية كما هي في الواقع ٠ فالعالم الذي يقدم الينا هو عالم الكبار ، الكبار الذين **يعرفون** (الطفل والمطر) **ويطمئنون** (الشراع والابيض) **ويعطون الدروس** (الحمامة البيضاء) ٠

هذه القصص لا تدعو الطفل الى تغيير العالم ، الى رؤيته من خلال نظرة جديدة ، الى

النظر في علاقاته من زاوية اخرى · بل على العكس · فالنقطة المركزية ، والتي تنطبق على جميع قصص دار الفتى العربي ، هي في تكييف الطفل مع المجتمع الذي يعيش فيه · وقبوله كما هو في الواقع · اما الذي يجب ان يتغير فهو الطفل نفسه · عليه ان ينضج بسرعة اكبر ، ويصل الى المعرفةويتبنى قيم مجتمعه الاخلاقية ، وعندها سيتوجه التفكير والتصرف كله ضد العدو ·

العدو حاضر بشكل مستمر ، ويجب الحذر منه · ولكن خديعة العدو وخبثه غائبـــان تماما (١١) · باستثناء قصة **الريش الجميل** ، حيث نرى الثعلب وهو بطل ثانوي فـــي القصة يستخدم حيلة تفشل من اجل التهام الطاووس (البطل) · نحن اذا ، امام ابطال محتالين واعداء مغفلين ، ويبرز هذا بوضوح في قصتي **وحيد القرن والعصافير** و **بيت للورقة البيضاء** ·

٥ ـ العلاقات العائلية

تبقى العلاقات العائلية عند الطفل ، وحتى سن متقدم نسبيا ، المحرك الاساسي لعلاقاته الاجتماعية · وهو عبر تطوره نحو النضج ، يواجه ازمته بنوع من المقاومة الظاهرة (عدم الطاعة مثلا) او الضمنية (الشوق الى الاستقلال) · وهذه المقاومة موجودة باشكـــال مختلفة منذ الطفولة وحتى سن الرشد · فمن الخطأ تجاهل هذا التناقض ، والاسوأ هو تجميله في القصص الموجهة للاطفال · وهذا ما يجري في قصة **الطفل والمطر** : يعترف الطفل بمهانة بخطئه امام امه التي كانت قد انذرته · وفي **الشراع الابيض** : يتغلـــب الطفل على مشكلته في ان يعد نفسه بأخذ اهله معه في المرة القادمة (ولماذا لا يأخـــذ صديقا ؟) ·

امام مواقف كهذه ، نرى شعور الطفل ـ القارىء بالذنب · انه يعيش تناقض الحب / الكراهية/الغيرة/الذي لا يستطيع حله · ولا نستطيع نحن ايضا حل هذا التناقض · بـل يكمن الدور التربوي في تبيان المواقف والمشاعر في ديناميتها وتناقضاتها ·

٦ ـ الموضوعـــات

موضوعات هذه السلسلة هي بشكل عام متعددة وجديدة ، ولكنها تنتهي جميعهـــا الى درس في القومية والشجاعة والتواضع والتضامن (سوف نعالج هذه الناحية فيمـــا بعد) · ويمكننا تصنيف الموضوعات بحسب المحرك الذي يقود مسيرة الحدث الدرامـي على الشكل التالي :

أ ـ **الاذى المجاني** : وحيد القرن ، العصافير ، نرجس ، الطفل والمطر ·

ب ـ **الصدفة** : عودة الطائر ، جزيرة الضياع ، الشجرة ·

ج ـ **الخيال** : الشراع الابيض ، بيت للورقة البيضاء ، القط الكسلان ·

د ـ **المشروع المشترك** : السلحفاة الحكيمة ، الجراد في المدينة ·

هـ ـ **الرهان** : الفيل في الصحراء ·

و ـ **البحث** : عن الحمامة (الحمامة البيضاء) عن البيت (القفص الذهبي) عـــن

العمل (الفيل يجد عملا) عن الطعام (الريش الجميل) عن الشهرة (بديع الزمان) عن حياة افضل (ندم حصان) ٠

ونلاحظ هنا ، ان محرك سير الاحداث يختلف من قصة الى اخرى ، على عكس الحكايات الاسطورية ، حيث يتغير الاشخاص وصفاتهم ، دون أن يتغير المحرك ٠ يؤكد بروب في تحليله للاساطير : « ان الذي يتغير هو اسماء الاشخاص وصفاتهم ، اما الثابت فهي افعالهم ووظيفتهم » ٠ (١٢)

٧ ـ التعاقب الدرامي للحدث : الترقب

بين البداية والنهاية يتطور حادث او اكثر في القصة من اجل الوصول الى الحل النهائي ٠ وتأخذ هذه التطورات اجمالا حوالي ثلثي السرد على الاقل ، بينما يأتي الحل في ثلثه الاخير ٠ وهذه القاعدة ثابتة ، حتى حين تطرح المشكلة منذ البداية (كما هو الحال في **الحمامة البيضاء** حيث نصل الى ذروة القصة حين تخفق الام في البحث عن ابنتها وتعود الى عشها) ٠

لكن هذا التصنيف لا ينطبق على القصص التي يشير منحاها البياني الى خط مستقيم٠ (**الشجرة ، ندم حصان ، القط الكسلان**) هنا ينتهي الحدث عند ذروته اوما افترض على انه الذروة ٠ ولو توقفت القصة هنا ، وتركت لخيال الطفل حرية اكتشاف النهاية، لكان الامر مجديا ٠ ولكن النص ، ينتهي دون ان يفتح اي مجال للخيال ٠

والترقب ، هو عنصر هام من اجل اثارة انتباه الطفل وحثه على متابعة القصة ٠ وهو اساسا يسمح له بنوع من الحدس الذهني : يحاول القارىء اكتشاف ما سيجري ٠ معظم قصص السلسلة تستخدم الترقب ٠ ولكن انتباه القارىء ينخفض بوضوح عندما يمكن ادراك نهاية القصة منذ بدايتها (الجراد في المدينة) كما يأتي استخدام عنصر الترقب ضعيفا لحساب العبرة النهائية ٠ ويمكن ان نعيد السبب جزئيا الى قصر النصوص ٠

٨ ـ الحل

في بعض قصص السلسلة تنطبق نظرية شارل بيرو القديمة « تحرك الحكايات عند الاطفال الرغبة في التشابه مع الذين يرونهم وقد اصبحوا سعداء » ٠ تنتهي مثلا قصة **ندم حصان** بهذه العبارة التي يقولها الحصان : « اياك ان تتخلى عن حريتك يوما واحدا » ٠ ولكن ، في المقابل ، فان معظم القصص الاخرى هي اكثر اعدادا وتأتي ثنائية الحل المكافأة /العقاب ٠ النجاح/ الفشل ٠ فتعوض عن تركيبة الابطال الذهنية الاحادية ، مما يضفي عليهم بعدا جديدا يجعلهم اكثر قربا من الاطفال ٠ وهذه هي حالة الفيل ،الذي يعاقب على التوالي بصرفه من العمل ، ثم يكافأ فيما بعد ، فتعبه لم يذهب سدى **الفيل يجد عملا** ٠ وهو ايضا حال صفاء بطلة **القفص الذهبي** التي نجحت في العودة الى بيتها ثم اخفقت في التقاط العصفور ٠

يجب ان تأتي الحلول مطمئنة وعادلة : ستسود العدالة : يعاقب الشرير ويكافأ الصالح٠ الطفل يتوق الى تهدئة روعه ٠ فلماذا نتركه قلقا (**جزيرة الضياع**) ؟ سامر الصغير يثير الشفقة ، وعلته الوحيدة هي الخوف الذي يشل مبادرته في مقابل شجاعة علي ، انه خوف سامر وليس جبنه ٠ اهكذا نعلم الاطفال عدم الخوف ؟

٩ ـ منطـق السرد

(سوف نعالج هذه النقطة على مستوى السياق التربوي فقط) ٠

تتوجه هذه القصص بشكل عام الى عقلانية القارىء ، بينما نرى ان المستوى العاطفي عند الطفل هو المسيطر بصورة ملحوظة ٠ يتطور السرد في خط عقلاني ، الاحداث تتتابع بشكل منطقي ، دون الاستطراد عن الموضوع ، دون التركيز على الاحداث الثانوية ٠ لكن واقع الطفل لا يتطابق مع هذه الترسية ٠ فنحن حين نخبر الطفل قصة ، فاننا نلاحظ ان الاسئلة التي يطرحها ، تدور في معظم الاحيان حول تفاصيل القصة ، ولا تتناول سيرورتها الا نادرا ٠ ربما يفسر هذا ولوع الاطفال بالحكايات الشعبية ٠

هذه النصوص لها هدف تعليمي في المرتبة الاولى ٠ هكذا تبنى في معظمها على الاستنتاج المنطقي ٠ تحمل او من المفترض ان تحمل كل قصة رسالة ٠ وفي بعض القصص يأتي المغزى على لسان الابطال ٠ ففي **الحمامة البيضاء** نرى الام تقول العبرة بنبرة جديرة باستاذ ٠ بينما الحمامة الصغيرة هي التي عاشت التجربة ٠ ويتكرر هذا النمط في **قدم حصان** ٠ يتوافق هذا المنطق وذهنية الكبار ٠

١٠ ـ الشخصيات

هذه السلسلة ، غنية بشكل خاص بالشخصيات المتعددة ٠ اطفال ، كبار ، حيوانات، الطبيعة ٠ كل له دور يلعبه ٠ تاريخيا ، معظم قصص الاطفال كانت تقسم العالم الى قسمين : الخير والشر ٠ ومع الاسف ، فان هذه السلسلة لا تشكل استثناء على القاعدة٠

في هذه القصص كما اشرنا سابقا ، هناك تلطيف لاحادية الشخصيات ، رغم ان ثنائية صالح/شرير لا تقع داخل الشخصية الواحدة ، بل في تعدد الشخصيات ٠ فيظهر الكبير مثلا مرشدا تارة (**الطفل والمطر**) وطورا مدافعا (**الشراع الابيض**) او منقذا (**جزيرة الضياع**) وبكلمة واحدة انه الذي يملك المعرفة ٠ولكنه يبدو في نصوص اخرى عدوانيا (**الفيل يجد عملا**) ، جاهلا (**بديع الزمان**) او عاجزا (**الجراد في المدينة**) ٠

وهذا لا يمنع تبسيط الشخصية في القصة الواحدة الى صفة وحيدة مضخمة وكاريكاتورية ، وحين تبدو اكثر تعقيدا ، فهذا يعود الى خطأ في الموقف ويكون هامشيا في الشخصية ٠ في **القفص الذهبي** يتعاطف القارىء مع صفاء في البداية ، ولكن لا يوافقها على وضع العصفور داخل القفص ٠ هنا يعود اذى صفاء الى جهلها ٠

هنا ، لا بد من الاشارة الى ناحية اساسية في سيكولوجية الطفل ٠ **ان مبدأ اللذة هو** الذي يقود تصرف الطفل وليس مبدأ الواقع ٠ تصرف **القط الكسلان** شبيه بتصرف الطفل في الحياة الواقعية ٠ مما يفسر سهولة تماثل الطفل بالقط الذي يفضل اللهو والنوم على الدراسة ٠

« لا تستند اختيارات الطفل الى مبدأ الخير ضد الشر ٠ ولا الى الشخصية التي تثير تعاطفه ضد تلك التي ينفر منها ٠ ان الاختيار يتحدد اساسا بكون الشخصية الخيرة بسيطة ومباشرة ٠ وكلما كانت بسيطة ومباشرة تماثل الطفل بها بسهولة ٠ وهو

يتماثل بالصالح ليس بسبب فضائله ، بـــل لان وضعية البطل تجد في نفسه صـــدى عميقـــا » · (١٣)

يبين بتلهايم ان للاساطير وظيفة علاجية عند الطفل · ويعتبر التماثل بالبطل نقطة جوهرية · فكيف يقدم البطل في هذه السلسلة ؟

هناك بطل او اكثر داخل عالم البشر او عالم الحيوانات · والذي يلفت انتباهنـــا رغم ارتيابنا المسبق ، هو غياب التمييز ضد النساء · وهي تتميز من هذه الناحية عن ادب الاطفال المعاصر ، ويمكن اعتبارها رائدة في هذا المضمار · تستنتج ا·ج· بيلوتي في دراستها لادب الاطفال في الغرب « ان مؤلفي هذه الكتب ، يكتفون بتقديم نمـــاذج للاطفال هي نفسها ، النماذج التي تقدمها العائلة والوسط الاجتماعي · فوظيفـــة ادب الاطفال اذا ، تقتصر على تأكيد هذه النماذج التي استبطنها الطفل من قبل في حياتـه الاجتماعية » · ثم تضيف : « ان الكبار لم ينجحوا في التخلي عن اسطورة الخاصيـة النسائية » · (١٤)

ان علاقة الخضوع والاخضاع مؤنث ـ مذكر ، موجودة بشكل ثابت فـي الاساطيـر القديمة ، في الكتب المدرسية وفي القصص الحديثة المخصصة للاطفـــال · وتصـــل الكاتبة الى هذا الاستنتاج بعد بحث تناول الادب الغربي : الاوروبي والاميركي ·

لذا ، فقد تحققت قفزة هامة في ادب الاطفال ، حيث لا وجود لفرق واضح بين وظيفة الرجل ووظيفة المرأة في القصص التي نتناولها ، رغم ان الابطال الذكور هم اكثـــر عددا · وبين الابطال السلبيين نجد ذكورا ايضا ، بينما كان هذا الدور معطى للنساء في ادب الاطفال المعاصر ، ويمكن اعتبارها رائدة في هذا المضمار · تستنتج ا·ج· بيلوتي في اساطيرنا الشعبية · هكذا ، يمكننا ان نستبدل المؤنث بالمذكر والعكس ايضا دون ان نحتاج الى احداث تغييرات رئيسية في القصة · لا مانـــع في ان تكون نـرجس او صفاء صبيين ، بينما ستكون هناك صعوبة كبيرة في استبدال سندريلا بولد ·

يمثل العصفور مكان الصدارة في عالم الحيوان : حمامة ، طاووســـ او مجـــرد عصفور · فقط نشير هنا الى الغياب شبه الكامل للحيوانات الاليفة : العنزة ، البغل الخ ، وللحيوانات الغريبة : حيوان برأسين ، كائن نصفه انسان ونصفه حيوان ·

وعندما يتواجد الحيوانات والاطفال في قصة واحدة ، يتصرف الحيوان بوصفـــه بديلا لطفل اخر · القط الكسلان يمكن ان يكون ولدا ، دون ان يفترض ذلك احـــداث اي تغيير في الحوار ·كذلكفي القصص التي يكون ابطالها حيوانات فقط ، فيتصـــرف الحيوان بطريقة مشابهة للطفل · ويكون عالم الحيوان هو عالـــم الاطفـــال نفسه · القوانين والمراتب الاجتماعية والمبادىء هي نفسهـــا قوانين وعـــادات البشر (١٥) · وتتردد الصفات المكررة : الحمار ، غبي (**بيت للورقة البيضاء**) التعلب : محتـــال (**الريش الجميل**) · لا يوجد اي ابتكار في هذا المضمار ·

العلاقة بين الطفل ـ القارىء والبطل تبنى على مراحل · ردة الفعل تكون عاطفيـــة في القراءة الاولى ، ولن يتمكن من الانتقال الى المستوى العقلي الا بعد قراءة القصـــة او الاستماع اليها مرة ثانية او اكثر · وعبر تماثله مع البطل ، يتسنى للطفل رؤيـــة العالم من زاوية اكثر فرحا وتفاؤلا · لذلك من الافضل ان لا نضع الطفل ومنذ البداية امام بطل لا يمكن التمثل به (**الطفل والمطر**) او ان نترك البطل يموت في نهاية القصة . او ان نجعل منه ضحية مأساوية · الموت يرمز الى الفشل في معظم الاحيان · الشريـر

يموت في النهاية ، الا في حالة الموت الشهادة · البطل بالمعنى العام لا يموت · فلماذا نقتل البطل ونحاول تخفيف آلام القارىء ؟ (**الشجرة**)

واذا اردنا للرسالة ان تصل ، فان على القصة ان تستجيب لحاجة ما عند الطفل · فالطفل كما رأينا ، يشعر باللاامان ، ويريد التخلص من طفولته · لذلك علينا مساعدته على التفتح · يؤكد بتلهايم بان استيهامات الاطفال عامة · فهو (الطفل) في جميع مراحل تطوره ، يخاف ان يهمل ويترك جائعا · لذا يحتاج الى ما يخفف من قلقه · يحتاج الى تشجيع وطمأنينة ·

١١ ـ المغزى

هدف جميع النصوص هو الوصول الى مغزى · كيف نساعد الطفل في اعطائه معنى لحياته ؟ كل ادب يريد ان يكون ثوريا ، يعمل في سبيل ان يكتشف الطفل قيما ثورية ، من اجل بناء مستقبل افضل · فلا ينتهي الطفل ـ القارىء من القصة وفي ذهنه بطلا مثاليا يريد التشبه به ، بل يخرج منها وفي حوزته خلفية من القيم الاجتماعية · هذا اذا وصلت الرسالة الى هدفها ·

المغزى هو محور النص : تنتهي القصة عندما تؤخذ العبرة منها ، دون الالتفات الى التتالي المنطقي في الواقع ·

الفيل لا يجد عملا : استبدل الطرح الاول بطرح اخر مختلف : كيف يمكن ان يكون الفيل مفيدا ؟ تنتهي القصة عند حل المشكلة الجديدة دون العودة الى منطلق الحدث · يمكن تفسير هذا الاستبدال عبر مسألة تحويل الفشل الى نجاح · لكن تطور العقدة ركز انتباه الطفل ومنذ البداية على مشكلة لم تحل ·

والتضامن : هو مسألة مركزية في الكثير من النصوص · نلاحظ فقط ، انها غالبا ما تكون تضامن النوع · العصافير تتضامن لمواجهة العدو (**عودة الطائر ، وحيد القرن**) ·

العبرة النهائية هي التي تحث الطفل على التفكير · لكن النصوص بالغة القصر الى درجة انها لا تسمح للقارىء بالتفكير خلال السرد · فرغم كثافة النصوص من حيث المعنى ، فان قصرها يقف حائلا امام توسع القصة بشكل يسمح للطفل بالتساؤل وربط الوقائع ومساعدة الابطال على البحث عن حلول لمشاكلهم · فالذي يجري هنا بالغ التبسيط · السؤال يطرح ثم يقدم الجواب للقارىء · في **الشجرة** مثلا ، هناك جواب على سؤال لم يطرح ، في **السلحفاة الحكيمة** هناك جواب على مستويات عدة · لكن القصة مختصرة جدا ، حتى ان الطفل لا يتمكن من اكتشاف المغزى الا بعد تدخل نشط من قبل الكبار ، فيما كان ممكنا ان يقوم باكتشافها هو او ضمن مجموعة من الاطفال ·

١٢ ـ الخيال

« يقوم فعل الخيال ، بوصفه اسقاطا ، باستعادة الماضي في جميع الحالات ، ليس من اجل الحفاظ عليه ، بل من اجل تحويله · تشكل هذه الاستعادة منفذا نحو المستقبل · هكذا دائما ، في الخيال ، كما في الحكايات التي يستمع اليها الطفل ،

يكون الطفل متلهفا لمعرفة الذي سيحصل (...) هنا ، يمكن ابتكار اصالة زمانيـــة للخيال » · (١٦)

والخيالي هو عنصر متحرك وديناميكي · وتحويل الماضي ، هو فعل تجريد يخلـــق الصور · هكذا يتحول الخيال الى قوة ابداعية · ويبدو ان الوعي الخيالي عند الانسان سابق لوعيه اللغوي ·

ما هو موقع الخيالي في هذه السلسلة ؟

لا بد من قراءة ثانية وثالثة كي نتحسس مدى شلل الخيال فيها · فنحن امام نصوص بالغة الاخلاص للظروف · فعناصر السرد والعلاقات الداخلية والمراجع ، مستمدة جميعها من الواقع أو على الاقل من الواقع الاجتماعي · نحن بعيدون كل البعد عن الاسطـــورة، عن الغرابة · كما ان قصر النص لا يسمح بوجود وصف غني يمكنه ان يخلق جـــوا ملائما للخيال · قصة **بيت للورقة البيضاء** مبنية اساسا على الخيالي : اقلام ملونـــة تتكلم وتتحرك من اجل بناء منزل للحيوانات والورقة البيضاء · فاذا بحمار يأتي مـــن الخارج ، فيتحد الجميع حيوانات واقلاما من اجل طرده من البيت · الخيـــال هنا ، يقتصر على الكاتب الذي يتخيل كل شيء بدلا من الطفل ، ولم تعد القراءة ممكنة الا في اتجاه واحد · القارىء مجرد شاهد خارجي ، لا يستطيع التدخل · ربمـــا فقط ، يمكنـــه اضافة قلم جديد او حيوان اخر الى المجموعة ·

« ان علم تربية الخيالي ، تبدأ في اللحظة التي نتمكن فيها من الاستيلاء على مواطن خيال الاخرين ·والحال ، ان خيال الطفل هو بعيد جدا عن فهم الكبار له » · (١٧)

ان التسلسل الدرامي للحدث ، يكبل عنصر الترقب ويحد من الخيالي · ففي هـــذه القصة ، حيث يلعب الخيال دورا رئيسيا ، نجد ان دوره كقوة محركة يبقى دون السرد ، ويصبح سكونيا ، فيفقد بذلك قيمته الجوهرية ·

يتكرر الامر نفسه مع الطفل نزار في **الشراع الابيض** ، اذ يأتي الحلم استطـــرادا من اجل خدمة المغزى النهائي ، وليس في خدمة الخيال او الابداع ·

وتبرز الشخصية بكثرة في قصة **نرجس** · حيث يعيش الطفل تجربته مع الطبيعة ، عبر علاقته معها كطبيعة وليس كرمز · ولا يظهر البعد الرمزي الا فيما بعد · وهـــذا هو مغزى القصة ·

اما في **جزيرة الضياع** ، فاننا نشعر بغياب شخصنة الطبيعة بشكل كامـل · طفـلان وحيدان في جزيرة خالية ، لا شيء يتدخل من اجل مساعدتهما ، الطبيعة هنا هي مجرد ملحق عملي · نستفيد من الشجرة من اجل بناء طوافة ، نستفيد من الفاكهة من اجـل ان نأكل ···

عناصر الخيال غائبة من الحدث في القصة ، لكنها موجودة في الافعال وخاصة فـي الصفات · لذلك سندرس الالوان كما وردت كصفات في عناوين القصص ونصوصها · وبامكاننا ايضا ان ندرس الحركات والاصوات او حتى الصفات الاخرى ، مثل صغير/ كبير الخ ، ولكننا سنكتفي بدراسة الالوان نظرا لقوتهـا التعبيرية والتجريديـــة · اي

لدورها في تحريك الخيال عند الطفل ، وخاصة لان الالوان هي الاكثر ارتباطا بعالمه الانفعالي ·

ويصنف الجدول التالي الالوان كماوردت في عناوين القصص ونصوصها ·

مدلول اللون

الالوان الواردة	في العناوين		عدد القصص	صفة تقليدية	دلالة رمزية او	
معنى مجازي	خرافي	داخل	السرد الواقعي		خرافي	داخل السرد الوهمي
اخضر	—	٨	١٢	٩	—	١ ٢
ابيض	٣	٧	٢٢	١٩	٢	١ —
اسود	—	٥	٨	٧	١	— —
احمر	—	٣	٤	٢	٢	— —
ازرق	—	٢	٢	٢	—	— —
اصفر	—	١	١	١	—	— —
ذهبي	١	١	١	—	١	— —
ملون	—	١	١	١	—	— —
غيره	—	١	٢	—	—	٢ —
المجموع	٤		٥٣	٤١	٦	٤ ٢
				٪٧٧	٪١١	٪٨ ٪٤

عدد النصوص حيث لا يؤتى على ذكر اي لون · · · · · ٦ قصص — (٪٣٣)

عدد النصوص حيث يذكر لون واحد · · · · · · · · · · ٤ قصص — (٪٢٢)

عدد النصوص حيث يذكر لونان · · · · · · · · · · · ٥ قصص — (٪٢٨)

عدد النصوص حيث يذكر اكثر من لونين · · · · · · ٣ قصص — (٪١٧)

الجدول واضح ولا ضرورة لتفسيره · نشير الى ان الالوان السبعة الواردة ، لا وجود لفروقات في وصفها مثل (قاتم — فاتح) ، ولا مقارنات قابلة لتحريك مخيلة القارىء · واذا وردت المقارنات جاءت على الشكل التالي : « الدنيا صارت حمراء مثل الدم » · فقط **نرجس** تشكل استثناء في هذا المجال · تقول الفراشة : « جناحاي تشبهان قوس قزح ولونهما من لون الشمس والحقول » · والى هاتين الحالتين يشار في الجدول في زاوية « غيره » ·

وكي لا نقع في التباس ، نشير الى ان توزيع العدد (٥٣) الذي يمثل عدد المرات التي ترد فيها صفة اللون ، غير متساو · فنشير مثلا الى ان صفة « ابيض » في استخدامها التقليدي تتكرر ١٤ مرة في **بيت للورقة البيضاء** !

دلالة اللون

اذا قرأنا الجدول افقيا ، فسنجد ان اللون الاخضر يرد تسع مرات بصفته التقليدية ، وذلك : في وصف الاشجار (**القفص الذهبي**) والحقول (**الحمامة البيضاء**) والقلم والباب والنوافذ والاعشاب والاشجار (**بيت للورقة البيضاء**) والعشب ايضا

(**الفيل في الصحراء**) واوراق الشجر والاشجار (**الطفل والمطر**) والعشب اخيرا (**الجراد في المدينة**) ٠

وعندما يخرج اللون الاخضر عن صفته التقليدية ويأتي خرافيا في واقع السرد ، فانه لا يرد كذلك الا مرة واحدة في قصة **نرجس** « الفتاة ذات الشعر الاخضر » ٠ كما يرد مرتين بمعناه اللاتقليدي في قصة واحدة **الشجرة** ، حيث يحلم احمد « صبية صغيرة بضفائر خضراء » ويفكر وهو جالس تحت الشجرة ان « السماء خضراء » ، ولكنه سرعان ما يرى حقيقة لون السماء الازرق ٠

اذا قرأنا بالتفصيل الدلالة الرمزية ، فنقرأ الجدول عموديا لنرى :

اللون الابيض في لحية الرجل العجوز (**بديع الزمان**) والذي يرمز الى الحكمة ، ورداء **نرجس** الذي يرمز الى طهارة الطفولة ٠ ويأتي اللون الاسود في **نرجس** ايضا ليرمز الى الشر « تحول غضب نرجس الى غيمة سوداء » ٠ والسماء حمراء كما في وصف القصف (**الشجرة**) لكن النص يوضح « سال الدم » ثم « الدنيا مثل الدم » ٠ وفي **ندم حصان** يظهر التاجر منتقما « محمر الوجه » ، يرتبط اللون الاحمر هنا بالانفعال ٠ واخيرا يأتي اللون الذهبي (**القفص الذهبي**) بمعناه المجازي ممثلا حياة البحبوحة التي تقدمها صفاء للعصفور ٠

النصوص ملونة في كتابتها ٠ لكنها مخيبة للامل من منظور بحثنا ، اي من ناحية مساهمتها في اطلاق خيال الطفل كعمل خلاق وديناميكي ٠

اللون عنصر مجرد في اللغة ، ولكنه يرد الى عنصر ملموس جدا في واقعنا ٠ وهو العنصر المجرد الاكثر دلالة في ذهن الطفل ٠ وهو يحمل دلالة مزدوجة عندما يلتقطه الطفل : فهناك الدلالة الثقافية التي للون من ناحية (قيم رمزية سائدة : الابيض رمز السلام والطهارة ٠٠٠) والتفسير الانفعالي الشخصي من ناحية اخرى ، المرتبط بتجربته الخاصة في الحياة ٠

هكذا نرى ، ان استخدام اللون ، كان يمكن ان يلعب دورا هاما في ايصال الرسالة الى القارىء ، وتطوير خياله ٠ ولكن وباستثناء **نرجس** بقي هامشيا جدا ٠

٣ ـ اشكال التعبير : الاسلوب

لن نتوقف هنا عند الناحية « الادبية » ٠ نبحث فقط من منظور تربوي ، ونحاول ابراز العناصر الاساسية التي تضفي على النص قوة الاقناع في ايصال الرسالة ٠

١ ـ السرد

أ ـ في جميع هذه النصوص ، تسرد القصة من قبل « قاص » مجهول ، باستثناء **بديع الزمان** حيث يقوم مهرج بهذا الدور ٠ اذا لا استغلال لوجود قاص اضافي من اجل ادخال قصة في قصة او في سبيل استخدام التراث ٠ وحتى **بديع الزمان** فانها لا تخرج عن هذه الفرضية ، فيأتي المهرج بلا فائدة ودون أي معنى ٠

ب ـ نلاحظ ان الحوار يحتل حيزا هاما من النص (ترتكز اكثر من نصف القصص

على هذا الاسلوب) · والاسلوب المباشر : الحوار ، النداء ، يسهل عملية ايصال النص الى الطفل · ذلك لان الحوار ذاتي ويرتبط بالتالي بانفعالية القارىء ·

ج ـ يجب ان يكون تواتر الحدث في متناول الطفل · والنصوص المدروسة تدور حول موضوع واحد ، حيث يمكن ان يتم الاستيعاب التدريجي للامور دون صعوبة · لكننا نشير فقط الى ان **اللحظات الفارغة** (فارغة بالنسبة لتتالي الحدث الدرامي) والتي تضعف انتباه القارىء الكبير ، تأخذ معنى مختلفا بالنسبة للطفل ، اذ تتيح له فرصة لاستعادة انفاسه ، فيستوعب ببطء وحسب وتيرته الخاصة ويتابع القصة بنفس جديد · ولكن هذه الملاحظة لا يمكن تجسيدها عمليا في قصص مختصرة كهذه ·

د ـ تواتر الجملة سهل · فهي قصيرة اجمالا وواضحة دون تكثيف للمعاني والعبارات · ولكن في ادب الاطفال ، لا بد من امر ضروري وهام : **التكرار** ، فالتكرار في بناء الجملة يضفي تواترا على مجمل القصة ، ويسجل لحظات التوقف لحدث يتكرر · **الفيل يجد عملا ، نرجس ، الريش الجميل** الخ · ، وهذا يسهل بالتالي عملية اعادة الانتاج الزمني او الشفوي للقصة · ونجد في **الفيل يجد عملا** الى جانب تكرار الحدث تكرارا في البناء اللغوي · فاعادة استخدام التعابير نفسها ، تساهم في اطلاق الخيال الى جانب دورها في الحفظ · « كانت الكعكة كبيرة جدا جدا » ، تجسد الكبر بالنسبة للطفل اكثر من لو جاءت « كانت الكعكة كبيرة جدا » ·

تكرار الصفات او العبارات شبه غائب في هذه النصوص ، رغم ان الطفل يستخدم عادة هذا الاسلوب بنفسه من اجل ترسيخ صورة ملموسة في ذهنه ·

« ان اختيار الالفاظ امر دقيق وبالغ الاهمية · فالكلمات تدرك **صورا** قبل ان تدرك كمعان (١٨) » ·

هـ ـ العبارات (الكلمات ، الصفات ، الافعال) المستخدمة في هذه النصوص ، تنتمي جميعها الى القائمة التقليدية المألوفة · ونشير الى الغياب الكامل للكلمات الجديدة او المستنبطة ، او المستخدمة من اجل ايقاعها المؤثر او من اجل قدرتها على احداث تداعيات للافكار · والامر نفسه فيما يختص بالصفات ، كبير/صغير · قريب/بعيد · قليل/كثير · هي الاكثر استخداما · حتى صفات الابطال تبقى وفية للقائمة التقليدية · الثعلب محتال والقط كسلان والحمار حمار ·

اما بالنسبة للافعال ، فانها نادرا ما تستخدم في صيغة المجهول ، منعا للالتباس والصعوبة المجانية · لكن استخدام الرموز والتشابيه والاستعارات معدوم تماما ، اذا استثنينا **نرجس** حيث يلعب الخيال كما سبق وقلنا الدور الاكبر ·

و ـ واخيرا نلاحظ غياب **السجع** ، المستخدم عادة في الحكايات الشفوية (والذي يمثل جانبا اساسيا من الحكاية الشعبية العربية (١٩)) ، غياب الشعر ، غياب اللازمة · كلها عناصر كان بامكانها تسهيل عملية التلاوة الشفوية للقصة ·

٢ ـ اللغة

استخدمت اللغة العربية الفصيحة في سرد هذه القصص · ومن المعروف ان هذه اللغة ، مرتبطة في ذهن الطفل بالدراسة والمدرسة والتعليم ، بينما اللغة التي يستخدمها يوميا مرتبطة باللهو والتسلية · تطرح هذه الازدواجية مشكلة هامة جدا ، ان لم

تكن اكثر مشاكل التعليم اهمية · وحتى الان ، لم يدرس هذا الموضوع بشكل فعلي . ولا تزال المشكلة مطروحة ·

في ادب الاطفال ، وفي النصوص التي نقوم بدراستها على وجه التحديد ، تظهر محاولات متواضعة · اللغة مبسطة قدر الامكان في العبارات المستخدمة وبناء الجملة والكلمات الصعبة نادرة « انصتت الغيمة » (**نرجس**) والجمل الطويلة ، مقسمة بالفواصل والنقاط التي تسهل قراءتها · ونادرا ما تلجأ هذه النصوص الى اللغة المحكية · نقرأ في **الشجرة** « يروح ابوه الى الشغل » او « الاغصان تشيل احمد » · هذا الاستخدام للغة المحكية كان بامكانها ان تكون مفيدة لو كانت الكلمة صعبة باللغة الفصيحة · فلا معنى لاستبدال **يذهب** بـ **يروح** · اختيار العبارات يجب ان يدرس بدقة ، من اجل ان يكون مفيدا ·

الاختلاف بين اللغة المكتوبة واللغة المحكية ، يحيل النص الى حد موضوعي · ويؤكد في كل لحظة المسافة بين القارىء والقراءة · والقارىء يبذل جهدا من اجل التقاط معنى النص واستيعابه من اجل اعادة صياغته بلغة مختلفة (٢٠) · وهنا ، ربما ظهرت فروقات كبيرة في اللهجة التي يسرد بها الطفل الوقائع · فاللهجة محملة بالانفعال تقود الى استخدام خاص للمفردات ·

ان عدم مطابقة اللغة المكتوبة باللغة المحكية ، تقود الى مشكلة ايصال حقيقة ، ويجب ان تؤخذ بجدية ، وتعطى الصدارة في معالجة الادب الموجه للاطفال ·

خاتمة

بعد نهاية عرضنا التحليلي هذا ، ما هي المسائل التي يمكن استنتاجها ؟

ليس هناك من ضرورة لتكرار الاستنتاجات الجزئية التي وردت في سياق هذا البحث ، ولكن يمكننا ان نضيف ، ان قصص هذه السلسلة يمكن اعتبارها نموذجية، بالنسبة لجميع القصص التي صدرت عن **دار الفتى العربي** · واذا قرأنا ثانية كتيبات دار الفتى جميعها ، نخرج بالاستنتاجات الاجمالية التالية :

أ – يجب الانطلاق من مسألة **تحديد القارىء** · لمن يتوجه دار الفتى العربي · هل الهدف الاساسي اعلامي تجاه الرأي العام العالمي ! (ورد في منشور وزعه الدار حول الجائزة الاولى التي فاز بها في معرض الكتاب العربي ١٩٧٥ ، ان الكتاب الفائز **البيت** ، وزع بلغات مختلفة للوفود المشتركة في دورة الامم المتحدة في تشرين الثاني ١٩٧٤ ، اثناء مناقشة قضية فلسطين) · هل يتوجه لاطفال المخيمات ؟ هل الهدف هو ان يباع في المكتبات ويكون في متناول الجميع ؟ (هنا ، لا بد من الاشارة الى ان الاسعار مرتفعة وخارج متناول سكان الاحياء الشعبية) هل يتوجه للمدارس ؟

الثغرة الرئيسية ، هي غياب سياسة تربوية محددة · « اذا اردنا ان تكون الحكايات والقصص مفيدة ، فيجب ان تشكل تجسيدا لقلق الطفل ، فيتسنى له بذلك ، ان يتغلب عليه بصورة افضل (٢١) » · وكما نعلم ، فلم تجر اية دراسة اولية جدية قبل البدء بانتاج الكتب · « ان معرفة كيف ولماذا تعمل اوالية التماثل والاسقاط ، تتيح المجال امام عمل مكون غير مباشر على شخصية الطفل · ويسمح لعلم التربية بالتمكن

من تقدير الذي يمكن للتربية ان تجنيه من الجيد في كل انسان ، او من الاقل جودة ، او حتى من السيء (٢٢) ، ٠

ب ـ ليس هناك بحث حول مشكلة اللغة الملائمة ٠ الفصحى او المحكية ٠٠٠ والتردد في هذا المجال يزيد الطفل ضياعا (٢٣) :

ج ـ الطفل ، يحب ان يرى ويقرأ ويسمع ما سبق له ان قرأه او سمعه ٠ لا يهمنا السبب هنا ، ربما لشعور بالاطمئنان او من اجل استعادة الذاكرة ٠٠ لذلك لا بد من مراعاة هذا الجانب في قراءات الاطفال باعتباره عنصرا هاما في التقاط النص ٠

ولكننا نلاحظ في جميع كتب دار الفتى ، غياب الموروث الثقافي الشفوي ، الذي يتعرف عليه الطفل في عائلته ـ علي بابا ، السندباد ٠٠٠

د ـ هل نستطيع ان نخلص ، الى ان النصوص في هذه الكتيبات ، كغيرها في الميدان نفسه ، تلتقي حول هدف تكييف الطفل مع المجتمع الذي يعيش في وسطه ؟ بينما سيكون هدف اي مشروع ثوري لكتب الاطفال هو المساهمة في تغيير العالم ٠

فاذا نظرنا الى ادب الاطفال بصورة عامة في بلادنا ، نكتشف ان انعدام المؤسسات الثورية ، التي لا غنى عنها في اية محاولة لبناء تربية ثورية ، يقودنا حتما الى القواعد التقليدية ٠

هـ ـ ومن ناحية اخرى ، يجب الالتفات بجدية الى التراث الثقافي الشعبي الشفوي ٠ قصص الاطفال تنقل عادة اليهم بشكل شفوي ، والاسرة (وليس المدرسة) هي التي تلعب دور الحكواتي ٠ فالعلاقات البطريركية في مجتمعنا ، تجعل من العلاقة كتاب ـ قارىء علاقة صعبة وتحتاج الى وسيط ٠ وهذا الوسيط هو المؤسسة الاجتماعية ٠ اي الاسرة في الدرجة الاولى ، ثم المدرسة والحي ٠٠

العلاقة اذن هي : كتاب ← مؤسسة اجتماعية ← قارىء ، في المستوى الاول ، ثم تأتي امكانية المستوى الثاني : كتاب ← قارىء ٠ لذا علينا ان ندرك اهمية الوسيط ، المؤسسة الاجتماعية ، في ادب للاطفال يريد ان يكون تربويا ومسليا (اي خارج الادب المدرسي) ٠

فأهمية الادب الشفوي في هذا الاطار ، تدفعنا الى اعادة النظر في حكايات اجدادنا ، فهذه الحكايات ، رغم انها تروى للاطفال ، وكثير من ابطالها هم من الاطفال ، ليست بالضرورة حكايات للاطفال ، هنا تبرز ضرورة اعادة كتابتها (٢٤) ، مع مراعاة حاجات الطفل وحاجات المرحلة ٠

و ـ ان تربية الاطفال هي امتياز طبقي ٠ ففي المجتمعات التابعة ، حيث يشكل الطفل عبئا على ذويه وليس على الدولة ، وفي الطبقات الكادحة ، لا يستطيع الطفل ان يعيش طفولته ٠ انه يعيش بين الكبار ، داخل عالمهم منذ سنواته الاولى ٠

وتربية الاطفال على المستوى الوطني (ادب ، سينما ، مسرح ، فن ٠٠٠) تفترض ايضا وجود عالم خاص بالطفل ٠ وهذا يرتبط ايضا برفاهية المجتمع ككل ٠

ز ـ في المجتمعات التابعة ، وخاصة في الاوساط الشعبية ، هناك انعدام كامل لعالم الطفل ٠ فاذا اردنا ان ننتج ادبا للاطفال في مجتمعنا التابع ، حيث الاكثرية هي من الفلاحين والكادحين وسكان مدن الصفيح ، علينا ان نختار بين احد اتجاهين :

١ ـ **انتاج ادب لاطفال الاغنياء** · وهنا لا حاجة للابتكار ولا ضرورة له · فترجمة الادب الاجنبي المختص في هذا الحقل ترجمة شبه حرفية ، تكفي لهذه الفئات الاجتماعية الطفيلية والمرتبطة بالغرب الرأسمالي ارتباطا وثيقا ، ليس فقط على الصعيد الاقتصادي، بل وايضا على الصعيد الثقافي ·

٢ ـ **انتاج ادب ثوري حقيقي** يساهم في العملية الثورية · ولا يكون ادبا مسليا فقط ، ولكنه يشكل ادبا مختلفا للاطفال ·

ان كتب دار الفتى العربي لا تزال مجرد مشروع ينمو ويتطور ·
فاين يقع اختيار دار الفتى العربي ؟

هوامش

1 - Andre Jolles : Formes Simples - Collection Poétique - Seuil P. 188

2 - Bruno Bettelheim : Psychanalyse des Contes de Fees - Collection Reponses - laffont - P. 19 .

٣ ـ من منشور وزعه دار الفتى العربي ، في المعرض الذي اقيم للرسوم التي تزين الكتب في ٢٣ـ١ـ٧٥ ·

٤ ـ لن نتناول هنا المظهر الخارجي (الحجم والرسوم) فهو يتطلب دراسة خاصة به·

٥ ـ لا يمكن ان يقرأ الطفل قصة قبل سن الثامنة على الاقل · لذا لن نأخذ بعين الاعتبار في بحثنا السن المقترح لمختلف النصوص · لكننا نشير هنا الى التقسيم كما ورد في الكراريس التي اصدرتها الدار ·

٦ ـ نال كتاب **البيت** الصادر ضمن هذه السلسلة الجائزة الاولى في معرض الكتاب العربي ١٩٧٥ ·

٧ ـ هذه القصة ليست نموذجية · ولكنها تتضمن دون شك ، واكثر من اية قصة اخرى ، عناصر فكاهية لم تستغل · ونحن نختارها لتبيان انه رغم وجود هذه العناصر ، فقد انعدم حس الفكاهة بشكل تام ·

٨ ـ باستثناء قصة **الحمامة البيضاء** التي لا تدخل في اي من المقولات الخمس المقترحة ، لان الحظر هنا يعود الى روح المغامرة ·

٩ ـ **قصة القفص الذهبي** « مزدوجة » ، الخطر الرئيسي : العدو (القفص ، السجن) والخطر الثانوي : الوحدة (صفاء تضيع في الغابة) ·

١٠ ـ في الحالات الثلاث حيث الخطر الخارجي هو (القصف ـ القحط ـ العاصفة) لا يحاول السرد حل المسألة · لذا يبقى المكان المخصص افارغا ·

١١ ـ بينما نراها في سلسلة اخرى (قوس قزح) تبرز بوصفها صفات العدو الرئيسية ·

12 -
Vladimir Propp : Morphologie du Conte. Collection Poetique-seuil P. 29
13 -
Bruno Bettelheim : Psychanalyse des Contes de fees P. 21
14 -
Belotti : Du coté des petites filles-ed. des femmes. P. 141 et 143

١٥ ـ نشير هنا الى قصة **العصفور الصغير** لمكسيم غوركي المترجمة عن الروسية ، دار التقدم · حيث يجري حوار بين قط وعصفور يمثلان قطا وعصفورا · يقول العصفور: « مسكين هذا الانسان ، يمشي من دون جناحين » او يعلق : « ولماذا تهتز الاشجار ؟ فلنتوقف عن الاهتزاز وعندئذ لن تهب الريح ·· » ·

16 - Philippe Malrieux - la Constuction de limaginaire - in Georges Jean - pour une Pedagogie de l'Imaginaire Casterman - Orientations- P. 70 et 71.

١٧ ـ المرجع السابق · ص ١٥٦ ـ ١٥٧ ·

١٨ ـ جورج جان ـ مرجع مذكور سابقا ·

١٩ ـ استخدام السجع في قصة **الديك الهادر** · حكاية من فلسطين ـ سلسلة حكايات الشعوب ، دار الفتى العربي ·

٢٠ ـ اذا اردنا تعميق البحث من اجل لغة في متناول الطفل العربي ، لا بد من دراسة تتناول هذه النصوص كما يسردها الاطفال شفويا ·

21 - pour une autre Pedagogie de la Lecture-groupe français d'éducation nouvelle - orientations Casterman P. 38.
22 -
Marguerite Verot : Tendances Actuelles de la littérature pour la Jeunesse Magnard P. 20 .

٢٣ ـ في قصة **الحمامة البيضاء** تبحث الام القلقة عن ابنتها المفقودة · والطفل لم ينته بعد من اكتشاف الكلمات ومعناها · يتحسسها صورا · و « الحمامة » بالنسبة له هي بوعي او بغير وعي العضو الجنسي الذكر · حمامة ضائعة ، تمثل بالنسبة للطفل القارىء الخوف من الخصاء وبالنسبة للطفلة الرغبة في الذكر · اختيار الوضعية ، هنا ، هو اختيار مجاني ومقلق بالنسبة للاطفال من الجنسين ·

٢٤ ـ ان قصة « الصغيرة ذات القبعة الحمراء » (Le Petit Chaperon Rouge) الشهيرة تنتهي بانتصار الذئب في رواية بيرو التي كتبت عام ١٦٩٧ · وجاء الاخوان غريم بعد اكثر من قرن (١٨١٢) وجعلوا منها الاسطورة الاكثر شعبية ، حيث تنتهي بانقاذ البطلة الصغيرة ·

كتب

الياس خوري ، **الجبل الصغير** (دار الاداب ، بيروت : كانون الاول ١٩٧٧)

يقدم الياس خوري في مجموعته القصصية الجديدة « الجبل الصغير » شهادة عن الحرب ، صورة الحرب من جميع المناحي والوجوه ، فينتج عوالما متميزة : عالم الحرب ، وعالم الانسان وعالم اللغة ، تترابط وتتداخل هذه العوالم في نسق فتعطي عملا ادبيا متميزا ·

يعمل الكاتب في موضوعه « الحرب » بأدوات الكتابة فيعيد انتاج صورة الحرب مكثفة ويقدم صورة مكتوبة للحرب · يدخل « جوهر » الحرب في الكتابة · نعيش في « الجبل الصغير » عالم الصحو والقذيفة والسديم والمتاهات الكبيرة والصغيرة ، ونقف امام فضاء من الوهم والحقيقة او وهم الحقيقة وحقيقة الوهم حيث تتراكم الاشياء وتتكسر وتبحث عن اسماء جديدة : عالم سديمي تستعيده ذاكرة عصابية فيختلط الحلم بالنصل والخبز بالقذيفة والموت بالبحر ·

يستبطن الياس خوري تجربة الحرب والعالم لغة فنعيش معه الواقع في اللغة واللغة في الواقع ، لغتان تتطابقان في اثر فني ، وتتداخلان في وحدة ·

يرسم « الجبل الصغير » الحرب ولغتها فيعيش القارىء الحرب في مادتها المباشرة وفي اثرها اللغوي : لغة متميزة انتجتها الحرب ·

يقوم « الجبل الصغير » على لغة تحاول استيعاب واقع ، فهو شكل لغوي او شكل معطى في اللغة · لغة كاتب كـ « ذات » تفك رموز العالم وتحاول ترميزه ، لها منطقها وصورها ونسقها اي لغة وظيفية تقترب من الاشياء وتحركها في عالم الواقعي والخيالي ، الوهمي والحقيقي ·

رحلة الحرب والكتابة : يكتب الياس عن الحرب ، يبتكر لها ادوات توائمها · يمارس الحرب كتابة فيرسمها بالصورة والكلمة والرمز : الحرب تجربة ذات رموز وطقوس تتجلى في الاحلام الكسيرة والموت والجدران والكنائس والساحات والشوارع والملصقات وضوء الشموع وطعم الملح · الحرب موضوع ممارسة وتأمل ومعايشة واستبطان · رعب بالف رأس · الحرب موضوع كتابة ·

الحرب تجربة والكتابة تجربة والكتابة عن حرب معاشةتجربة فريدة اذا احتضنت الموضوع وخلقت لغته · **يقوم « الجبل الصغير » على ديالكتيك تجربة الحرب وتجربة الكتابة · تجربتان تتوحدان في عمل فني حقيقي ·**

تقدم الحرب لغتها ورموزها اليومية ويبحث الكاتب عن لغته ورموزه · تحاول تجربة الكتابة ان تحتضن تجربة الحرب

فتنتج لغة كتابة جديدة · **الياس خوري ينتج لغة جديدة** · فهو لا يعالج الحرب بلغة جاهزة او بنسق لغوي تقليدي بل يدخل حقل التجربة الجديدة ، يدخل عالم الحرب كاتبا ويستنبط لغته الخاصة فيكسر التقليدي ويرمي بكثير من المعايير جانبا · يحاول العثور على قوانينه وأسلوبه · ينتج لغة زمان الحرب : للاشياء طعم الحرب وللحرب طعم الكلمات ·

يرسم الياس في جبل « ٨ » لوحات ايحائية متناهية ، يكتب بالرسم ويصور بالكلمات ويخلق العلاقات بالصور · فتصهل خيول مقطوعة الرأس وتدق الساعات الحجرية وتضحك الطيور ويرتد البحر جريحا · اي تتكسر الدلالات ويبقى فضاء ملون ذو اثر · **لا يقدم الكاتب فكرا او افكارا ، يقدم صورا** ، ويترك المعنى لنا نلمسه عن الصورة · المعنى في الايحاء ، في الاثر ، حاضر ـ غائب · **ان مفتاح الفكرة في « الجبل » هو الصورة الكثيفة المرسومة بالكلمات في حقل علاقات لغوية متوازنة** ·

يقدم « الجبل الصغير » **لغة وظيفية** وكتابة واعية · واعية في هلوساتها وحلمها وهذيانها · ويقدم صورة عالم تقوض فيه كل شيء ويبقي الموت سيدا :

ـ اصوات القذائف ترتطم بالاجساد / بين اليد التي تطلق والقدم التي تقفز ، هناك جسد ينحني ، يقفز ، يزحف ، وحين يصل لا يمسك بغير البحر / تبحث عن الحرب بين الصيحات والبرد / الحرب تفتح لدموعهم ابوابها / كان مطر القذائف يختلط بمطر السماء والرياح تحمل البندقية كما نحملها نحن / لا شيء سوى القصف · يتوقف المطر وتبدأ الحجارة بالتفتت ·

ـ الموت علامة ، فراشات واحصنة · الموت نحن / يقترب الموت بصلعته ويده / الموت شيء اخر / الموت عصفور / ما علاقة الموت بالعيون الفسيحة ؟ / الحرب ضمير مستتر تقديره نحن / ـ الموت حالة هادئة / الموت شجرة ليمون ·

لغة تلازم حالة · تنمو بنمو الحدث ونمو عملية الكتابة فتتكاثر اللغة وتكسر قيودها · لغة تلد لغة وحادث يولد لغة · اللغة وضع اجتماعي ·

الواقع واللغة : « الجبل الصغير » نص لا يرصد الواقع او يواجهه بل هو جزء منه · نص لا يتكلم عن الحرب بل هو الحرب لغة · ليس « الجبل الصغير » مجموعة قصص عن الحرب بل مجموعة قصص في الحرب · ويتحدد هذا العمل الفني بالعلاقات الفعلية ، المعاشة ، التي تتضمن اللغة والمعايير الجمالية ومجموع الواقع الاجتماعي ·

ان لغة « الجبل الصغير » هي نتيجة لتغيرات الواقع التي تنتج لغة جديدة توائم هذا التغيير · لذلك فان الياس خوري **يقطع مع الاشكال الادبية المسيطرة ويشب عن « قانون » الوصف / التأويل ويصل الى الرسم / الايحاء** · اي يصل الى كتابة « ٨ » ·

الحرب موضوع · لا تصبح عملا فنيا الا بوسائل فنية · فهناك الحرب وهناك الموقف الفني منها اي **اللعبة الفنية للموضوع** · فالموضوع جملة علاقات والبناء الفني له يمنحه علاقات متميزة « تختلف » وتتمايز عن علاقاته الاولى · وتتم هذه الاحالة بواسطة أدوات انتاج فنية ·

يستعيد « الجبل الصغير » الحرب

بواسطة الاسلوب ، الحلم ، الرمز ،الذاكرة العفوية ، الذاكرة القصدية ، تكسير العلاقات وتركيبها ، تكسير الصور وتركيبها · بين علاقات البنيان الداخلي لـ « هذا » العمل الفني وعلاقات البنيان الموضوعي للعالم الحقيقي جسور متميزة :

خصوبة الواقع / خصوبة الصورة الفنية · الواقع / الحلم · كثافة الواقع / كثافة اللغة · تعقد الواقع / رمز اللغة / لغة الرمز ·

يقترب الياس في جبلـ « ٤ » من تجربة الخيال وحقل التجربة المتخيلة يستعيد العالم عبر ذاكرتين : ذاكرة عفوية وذاكرة قصدية · الذاكرة الاولى ذاكرة بلا قانون تتحرك في حقل بلا ضفاف ، تكسر الازمنة وتحطم المسافات والامكنة ، تمزج الازمنة وتلاقي الامكنة · قانونها عفويتها ورغباتها المكبوتة · ذاكرة حرة منطقها هو اللامنطق او منطقها الخاص، تستعيد عالم الطفولة وعالم الموت والطقوس والهذيان · اي ينطلق الخيال كرغبة عمياء تبحث عن ذاتها ، تتعيث، فتجول في مدن خالية وازمنة بعيدة وازمنة قادمة · انها لغة الحلم واللذة والحصار :

ـ « كانت النخلة التي أمام بيتنا تنحني من ثقل جذعها الى اليسار · او كنا نخاف ان تلامس الارض او ترتطم بها فاقترحنا ربطها بحبل من حرير وشدها الى نافذة بيتنا · لكن المنزل كان يتهاوى بحجره الرملي السميك ، وسقفه الخشبي· فخفنا ان تسقط النخلة بالبيت حين تسقط· تركناها تنحني يوما بعد يوم · وفي كل يوم امسكها من جذعها المتشقق وارسم عليها صورتي » ص ١٠ ·

بينالحلم والكتابة لذة ، رغبة مكبوتة ، حالة نفسية تبحث عن ذاتها وعن التحقق · **تنفتح اللذة في السطور وتنبض في عروق اللغة** · يبحث الحلم عن ذاته · يخطىء الحلم حدوده ، يتراجع، يتقدم ، يتكثف ، يقارب حدود ذاته او حدود الرمز · يقوم بين الحلم والرمز هامش صغير قاس : عدم التحقق · تتجمع الاشياء والذكرى والعوالم الحبيسة والطليقة وتندثر في السطور · يأخذ **الحلم حدوده المادية او ماديته في عملية الكتابة واقمطة اللغة** · فنرى رمز اللغة او لغة الرمز :

ـ هذا هو البحر · ما هو الفرق بين الناس والبحر ؟ ما هو الفرق بين البحر والاسماك ؟

ـ أتدلى داخل الكلمات ·

ـ لا تأخذ الوان لونها الا لحظة الغرق ·

ـ منذ ثلاثمائة عام كان الفتى النحيل ورقة مرمية على الشاطىء التقطها عابر سبيل ووضعها في جيبه ·

عندما لا ينسجم منطق الذاكرة مع منطق العالم تهرب الذاكرة الى عوالمها : ذاكرة الحلم · لكن ذاكرة الحلم تتعايش مع ذاكرة الواقع او ان الذاكرة العفوية تتعايش مع الذاكرة القصدية · واذا كانت الذاكرة الاولى تحلق في سماء زرقاء بلا قيد فان الذاكرة الثانية ترتبط بالواقع ، تحاوره ، وتحاول فهمه وتغييره ، تعيش عالم الحرب من الداخل والخارج ، تدرك دلالة العلاقات · تتدخل الذاكرة القصدية لتربط العلاقات وتصل الى اتساق المعنى · تقوم باضاءة الصور وربطها · ان ترابط الذاكرتين يمنح العلاقات معناها او يدفعها باتجاه قيام المعنى ·

لكل ذاكرة اسلوب ولغة · لذلك فان

نسيج العمل الادبي في « الجبل الصغير » يقوم على تزاوج ذاكرتين وتزاوج اسلوبين · عالمان في عالم ، لغتان في بنية · هناك الاسلوب الوصفي المباشر الذي يلتقط اجزاء الحياة اليومية المتناثرة في منطق الزمان الفيزيائي وفضاء المكان الهندسي ، وهناك ايضا اسلوب الزمان النفسي وتداعي الامكنة · لكن تعايش الذاكرتين / الاسلوبين لا يفجر بنية العمل الفني بل يمنحه خصبا وتنوعا وديناميه · علاقات في بنية ولكل علاقة دلالة · فالحلم وظيفي والقصدي وظيفي في « كلية » تقترب من الواقع وتحاول التعبير عن كل علاقاته وتناقضاته ·

يحاول الكاتب تملك العالم المعاش وعالم الانسان بالكتابة ، يعيش ديالكتيك العالم وديالكتيك اللغة فيصل الى « لغات » في لغة :

أ ـ اللغة الرمزية ! لغة الخيال عندما لا يمسك بالواقع ·

ب ـ لغة سردية : تطابق بين عادي اللغة ورتابة الحياة اليومية ·

جـ ـ لغة جمالية : او بشكل ادق لغة « استاطيقية » تتسير على الواقع ، تروضه ، تدخله في فضائها · تجعل هذه اللغة العالم اكثر شفافية واكثر كثافة :

ـ تتساقط النخلة ···· تتمزق كالشرايين الصغيرة امام القذائف ·

ـ تاكلني المعادن السوداء : يقولون حاجز · وانا ارى وجهي يتساقط في الطريق ·

ـ الكهولة تتسرب من بين اصابعه كالماء ·

ـ كان دافئا كالكستناء وطريا كشعر امي · طفل تداعب وجهه الريح ولا يبكي·

ـ ينزف البحر في عينيه ملحا ولا يبكي ·

ـ النصر ثوب مثقوب ·

ـ المرأة تشبه حبلا سميكا ·

ـ الحروف السوداء تسيل على وجهي وثيابي ·

د ـ لغة جديدة : تفرش « الجبل الصغير » بأسره · ترتبط « بموضوع » معاش ، تتحدد من الشرط التاريخي الذي انتجها · بل يمكن ان اقول لغة ضرورية أفرزها شرط تاريخي · فهي لغة حدث ، تصدر عنه وتعود اليه لتعيد صياغته ·

يقتفي الياس « اسراب » الكلمات ، يتصيدها ، ثم يلهو بها او يخضعها لـ « لعبته الفنية » · يمارس ديالكتيك الصورة الفنية لكنه لا ينطلق من وحدة المعنى او عقلانية الصورة بل يلتقط الكلمة، يعيد بناءها ويحاول ان يعطيها معنى أو شبه معنى · ان اختيار الكلمات وبناء الصورة عند الياس يشبه القاء حجر في بركة راكدة · يصل الحجر فينتج موجة اولى وثانية وثالثة ···· الحجر هنا هو الكلمة والصور الجمالية هي سلسلة الموجات المنطلقة من المركز · وكثيرا ما تختلط المراكز وتتقابل الامواج :

ـ « الارض مثل الصابون · انتبه · انتبهت · لكن الارض كانت مثل صابونة كبيرة ، السيارة تنزلق ببطء · السيارة تشبه الصابونة · صغيرة مثل صابونة الحمام ولها رائحة » ·

ـ « مئة شمعة ترتجف وسط كنيسة مهدمة · نحن في سفينة حقيقية · كانت السفينة تتلألأ وسط البحر · وفي داخلها

بحارة غرباء يبحثون عن ثيابهم الجديدة · نحن في وسط البحر · المطر الخفيف يصل الى قرميد الكنيسة ثم ينحدر على جانبيه ، وحولنا الموج والكهنة ورصاص القراصنة » ·

المركز هنا هو إلكلمة « الصابونة » او « السفينة » · كلمة وذاكرة ، تتابع الذاكرة احتمالات الكلمة او ترى الكلمة في علاقاتها الممكنة ·

لامركزية الحدث ـ الكاتب علاقة :

يرسم « الجبل الصغير » فضاء متميزا لا يقوم على « حكاية » او « حدث » مركزي بل على سلسلة من الحكايات وأشباه الحكايات · الحدث المركزي هو الحرب ، لكن الياس لا ينطلق من مركز او من نقطة بداية بل يرسم مجموعة من الجزئيات المختاطة تشكل كلها كلا او مركزا يعيش الحدث المركزي كحدث في حدث ، حكاية في حكاية · نسير في شرايين لا متناهية ولا نصل الى القلب ، فالقلب في الشرايين الصغيرة · نعيش متاهة الحدث في شبكة حوادث ، كل طريق يفضي الى اخر ، وكل حكاية تولد اخرى · **المركز دائما في مكان اخر** بل يمكن ان اقول ان **المركز هو في الجانب او الهامش** · المركز غائب ـ حاضر · بمعنى اخر ،المركز لا وجود له والعمل الفني جملة علاقات في بنيان ، وقيام هذا البنيان وتوازنه يقوم على توازن العلاقات وموضعها · يقدم « الجبل الصغير » « حكاية » بلا بداية ولا نهاية ، البداية في مكان اخر والنهاية كذلك ·

ان الاثر الفني الذي ينتجه عمل الياس يصدر عن كلية العلاقات ، عن جملة الاحداث الصغيرة التي تعطي في النهاية اثرا وتنسج عالما وتترك صدى وتخلق جرسا · واذا كان الكاتب التقليدي ينتج « شجرية » الحدث عن حدث مركزي فان الياس خوري ينتج شجرية المركزي من علاقات الاطراف · ان المركزي هو جملة المراكز · فالمركزي المجرد لا يمكن تحديده ·

يعود لا « تحديد » المركز الى تكنيك الكاتب الذي يعتمد على مفهوم محدد للعالم وللكتابة « العالم جملة علاقات والكتابة لغة وشكل » · لذلك تنطلق الكتابة واعية ـ نصف واعية ـ لا واعية· الكتابة ذاكرة مطلقة السراح ، تتخارج، تمور ، توحي · ترسم الحدث ـ علاقة ثم تنتقل فتحقق لنفسها في حوادث ـ علاقات ·

يحدد هذا المفهوم موقع الكاتب من النص ويعين حضوره · فالكاتب علاقات لامتناظرة تتحدث تارة بصيغة « الانا » وتستحيل تارة اخرى الى الـ « هو » · تكتب بصيغة المتكلم وصيغة الغائب · تتشابك في عملية الكتابة علاقات الذات ـ الانا فيتداخل الانا والانت والانا والهو · فالمتميز والمحدد هو البنيان اما العلاقات الجزئية فهي بلا هوية · للنص منطقه الخاص الذي يحدد حركته ونموه ، وما يشد النص ويصوره هو حركه اللغه وديناميه الصورة ، لذلك فان الكاتب كذات حاضر ـ غائب · يصحو تارة ويغيب تارة اخرى · عندما تصحو اللغة ويمور النص تتراجع « الذات » وعندما يستيقظ حضور الكاتب يعاود النص اندفاعه من جديد · **الكاتب حامل عملية الكتابة وعلاقة في حقل الكتابة ايضا** ·

التناقض في النص والتناقض في الواقع :

لا ينطلق الياس من ثوابت ايديولوجية

او لغوية او اسلوبية ، « ينجرف في تيار الكتابة » محاولا احتضان الواقع · يحاول الوصول الى كل الزوايا والمساحات · يبعد « احتيال العقل » و « قيد الايديولوجيا » ويحل مكانهما « عفوية » الكتابة · ينقل مستوى الواقع الى مستوى اللغة · ولما كان الواقع جملة علاقات متناقضة لاخطية فيها فان هذا التناقض لا يلبث ان ينتقل الى النص الادبي الذي يحاول رسم هذا الواقع · **تناقض يعيد انتاجه كتناقض اخر** · لذلك فاننا نجد في « الجبل الصغير » اكثر من « فكر » واكثر من « ايديولوجيا » · نجد اكثر من اسلوب واكثر من لغة · بمعنى اخر · ان كثافة الواقع وسديم المعاش وضبابية اللحظة التاريخية تعكس نفسها في الشكل الفني الذي يرسمها · لا « معقولية » الحرب تظهر في « لامعقولية » العلاقة الفنية · الشرط تاريخي يحدد الشكل الفني الذي يشير اليه ·

يأخذ التناقض هنا شكلين : التناقض في الفكر والتناقض في الشكل الذي يحمله · فعلى مستوى الفكر تمر امامنا مركبات عدة :

الثورة / الموت · الفرح / السوداوية · التفاؤل / التشاؤم ، صحوة العقل / تحطم العقل · النشوة / الانكسار ····

اما على مستوى الشكل فنرى : الواقعي / الخيالي · الحقيقي / الوهمي · اليومي / الرمزي ····

مركبات الواقع تنتقل الى مركبات النص · نص غني يحاول استنفاد واقع لامتناه في غناه · عقل وسديم يتابعان رحلة التعايش والمجابهة ·

ان وجود التناقض في النص يعبر عن **كتابة ديالكتيكية** تنطلق من الحي الذي هو ذاته وغيره في الوقت ذاته ، هوية ونقيض · عالم في حركة ·

الايديولوجيا وعملية الكتابة :

يحاول الياس خوري الوصول الى كتابة جديدة · و « الجبل الصغير » حقل هذه الكتابة · وعلى الرغم من جمالية اللغة واصالة المحاولة فان تجربة الياس تطرح بعض الاسئلة ·

ينطلق الياس من عفوية الكتابة او استقلال عملية الكتابة وحضور اللغة · تقول اللغة ما تريد ويرسم نسقها اشكاله· يصبح « الكاتب » علاقة · يسير النص محمولا على دفع اللغة وتلقائية الكلمة · للكتابة منطقها · لكننا نعرف ان للكاتب ايديولوجيته وللنص ايديولوجيته ايضا · ان **ايديولوجيا الكاتب لا تطابق بالضرورة ايديولوجيا النص ، وان منطق الكاتب لا يساوي دائما منطق عملية الكتابة** ·

يعمل مؤلف « الجبل الصغير » في اللغة صاحيا ، « يتدخل احيانا » يشذب ما كتب فيقترب من ضفاف كتابة جدلية ـ مادية · يدخل ضوابطه ووعيه في عملية الكتابة ، يهندس ، فينتج صوتا متوازنا ديمقراطيا (الجبل الصغير ـ الكنيسة ـ الدرج) · لكن كاتبنا ينساق احيانا كثيرة وراء لعبة اللغة ، ينحرف في البحث عن الصورة ، يضيع في الكلمات ، تصبح الكلمة مطلقة السراح · اي ينتج النص ايديولوجيا متميزة لا تطابق بالضرورة ايديولوجيا الكاتب · يصل الياس احيانا الى **العدمية والضياع** · بمعنى اخر : الكلمات مادة خام « محايدة » من حيث هي كلمات ، لكنها عندما تترابط وتتمازج في نسق لغوي تنتج ايديولوجيا معينة

مشروطة بالنسق الذي وصفت فيه ٠

ان الضياع في لعبة اللغة ينتج ما يلي :

أ ـ انتاج جمالية مجانية وبلا دلالة ولغة مترفة تؤدي الى تفتت وحدة النص ومعناه : الشكلية ٠

ب ـ انتاج ايديولوجية نصية تناقض ايديولوجيا « الكاتب » او ايديولوجيا القضية التي يقف في « متراسها » ٠ وتنتج لعبة اللغة احيانا في « الجبل الصغير » ايديولوجيتها ٠ ايديولوجيا عدمية ، سوداوية ، مثالية ٠

ج ـ ان رسم العالم بالكلمات يسطح احيانا المضمون ويغيبه ويضيعه في متاهات بلا معنى ٠

د ـ يعبر الضياع في الكلمات احيانا عن عجز عن تملك الواقع وفهم علاقاته وانتاجه فنيا ٠

لنرجع الى النص ونبحث عن متاهة اللغة والذاكرة المطلقة السراح :

ـ اما أنا فلم اكن ارى لا الحضارة القديمة ولا الحضارة الحديثة ٠ كنت أرى الاشكال وهي تنحني ـ ص ١٥٨ ـ ١٥٩ ٠

ـ ولم نكن قد اكتشفنا بعد ان الجامعة هي مجرد حذاء ٠ وان هذه الاحلام التي نتبناها سوف تحيلنا الى احذية اذا لم تتحطم الجامعة ٠ ص ٠ ١٥١ ٠

ـ الحضارات تتراكم ، مثل التراب امام مصب الانهار ـ ص ١٥٩ ـ ٠

ـ الاشياء مفتوحة ومتداخلة ، وتستطيع ان تدمر بعضها في أية لحظة ٠ ص ـ ١٥٨ ٠

ـ لا توجد حرب خاصة بالفقراء ٠ يجب ان تدمر البنايات البنايات والاكواخ البنايات ، والمدن المدن ٠ ومن الدمار ، تخرج حرب الفقراء الخاصة ٠ ص ٠ ٩٧ ٠

تنتج هذه الكلمات ـ المواقف عن الركض وراء الشكل فيضيع مفهوم الكاتب للعالم ويحل مكانه مفهوم جديد خلقته علاقات النص ٠ لا اقول ان ذلك يندرج على كل المجموعة ٠ انه يبدو فقط بشكل جزئي في قصتي « الاحتمال الاخير » و « ساحة الملك » ٠

تعطي ايديولوجيا اللغة اثرا ثنائي البعد يضعف من قيمة النص ٠ اثرا سياسيا واثر فنيا ٠ الاثر الاول يشجع صوت الكاتب الديمقراطي ، اما الاثر الثاني فيلمس القيمة الفنية للنص ٠ لا يهمني هنا محاكمة الاثر الاول فالنص يحتفظ بقيمته الفنية اذا استطاع ان يخلق جوا عدميا بشكل فني ، اقول ذلك انطلاقا من نظرية الانعكاس ، لكن المشكلة هنا ان لعبة الكتابة تمس القيمة الفنية ايضا٠ يفقد العمل كثافته ويتفكك ٠

من أين يأتي هذا ؟ يصدر بلا شك عن موقف يعتبر الادب شكلا والبنيان الفني علاقات والكاتب علاقة ٠ لكن البنيان يتضمن اكثر من الشكل ، والفنان علاقة اجتماعية **واعية** قادرة على ضبط العلاقات والتحكم فيها **نسبيا** ٠

ويبقى « جبل » الياس خوري **عملا ابداعيا** ٠ وصفة الابداع هنا ليست مجانية بل حكم قيمة موضوعي ٠

ان « **الجبل الصغير** » **حدث أدبي وحدث اجتماعي** ، وعمل يكسر معايير جمالية وفنية سائدة في مجتمع كسرت الحرب علاقاته ٠ ويؤسس لغة جديدة وكتابة جديدة ٠٠٠ ينطلق صوت الياس في عمله مبدعا فنيا وديمقراطيا سياسيا ٠ كاتب يكتب عن الثورة ، فيمارس تثوير المجتمع وتثوير اللغة ٠

فيصل دراج

د· ابراهيم البحراوي ، **الادب الصهيوني بين حربين (١٩٦٧ ـ ١٩٧٣)**
المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت : ١٩٧٧)

بين حزيران ١٩٦٧ وتشرين الاول ١٩٧٣، كانت اسرائيل تعيش عصر انتصارها الكبير· كانت العسكرية الاسرائيلية شرطي المنطقة الذي يستطيع مد ذراعه الى اي مكان فيها لقمع اية « محاولة شغب » · وكانت السياسة الاسرائيلية تخطط لترجمة الاحلام الامبراطورية الى حقائق الامر الواقع ، بل وتشرع في التنفيذ عبر علاقة امبريالية بالمناطق المحتلة · وكانت الرأسمالية الصهيونية تغوص في المشاريع الكبيرة مستفيدة من الامكانات الضخمة التي يتيحها الواقع الجديد ·

هل أدخل كل ذلك الطمأنينة والفرح الى قلب « الشعب اليهودي » في اسرائيل ؟ مختارات البحراوي من الشعر والقصة الاسرائيليين في فترة ما بين الحربين، تجيب سلبا عن هذا السؤال · ومن خلالها ، بامكان الدارس ان يتوقف امام سؤال اخر: الى اي مدى حقق اليهود القادمون من مختلف الارض الى فلسطين المحتلة ، وجودهم « كشعب اسرائيلي » مكتمل التكوين ، على هذه الارض ؟

ان التفاؤل والفرح والثقة بالمستقبل ، يشع من عمق الجروح التي تحفرها حروب التحرير في حياة الشعوب ، ويضيء طريق المناضلين المقاتلين من اجل الحرية وحق تقرير المصير ، هو السمة التي تطبع ثقافة الشعوب المكافحة ، والميزة التي تكسبها بعدا وطنيا وقوميا وانسانيا ،يؤكد استحقاقها للحياة والنصر· وابرز النماذج القريبة ادبيات الثورة الفيتنامية والمقاومة الفلسطينية· فعلى الرغم من المآسي والالام التي تعكسها هذه الادبيات ، تخفق في اعماقها ثقة اكيدة بالمستقبل والنصر · ومن قلب الالام والنكبات يزغرد فرح حقيقي واصيل ، ليعبر عن حب الحياة ، والابتهاج بها ، والاصرار على استحقاقها ·

التفاؤل والفرح والثقة بالمستقبل ، هي العناصر الغائبة تماما عن النماذج الاسرائيلية التي بين ايدينا ، على الرغم من انها كتبت في فترة الانتصار والتوسع والازدهار · وهذا الغياب هو الذي يحملنا على التساؤل : هل تمكن اليهود الذين وفدوا الى فلسطين المحتلة من تكوين « الشعب الاسرائيلي » المستحق للوطن ولحق تقرير المصير ؟ ام ان المشروع الاستيطاني الصهيوني ، يظل رغم كل الانتصارات ، ومهما طال الزمن ، مشروعا استيطانيا له سمات المشروع الاستيطاني وعناصره ، لا اكثر ولا اقل ؟··

الحروب، والموت ، والدمار، واللاجدوى، والظلام ، والخوف من المستقبل ، هو ما يطبع هذه النماذج ، التي يمكننا قراءة بعض فقرات منها ·

ففي قصيدة « الحرب المقبلة » ليعقوب باسار (١٩٦٨) تبدو الحرب كأنها قدر أسرائيل المحتم ، فلا تنتهي من واحدة منها الا وتشرع في الاعداد لاخرى :

الحرب المقبلة ··· تنتشئها ··· فربيها